

عصر

ابن زيدون

د. جمعة شبيخة

الكويت

2004

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعته الباحث
بمؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
عدنان بلبل الجابر

الصف والإخراج والتنفيذ
محمد العلي
أحمد متولي أحمد جاسم
قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمك: 3 - 11 - 72 - 99906 ISBN :

رقم الإيداع : 2004 / 00285 Depository Number :

حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

تصدير...

لم يخطر في بالنا ونحن في مقاعد الدرس أن الأندلس الغناء في عصر ابن زيدون كانت بركاناً يغلي وإعصاراً جموحاً أدى آخر الأمر إلى نهاية الوجود العربي من شبه الجزيرة الإيبيرية، وعندما قرأنا ابن زيدون في بواكير حياتنا لم يدر في أخلادنا أنه ينتمي لعصر انطوى على كثير من المرارة وخيبات الأمل جراء إطلاق دوامة الدم من عقالها، بسبب صراع بين قادة حمقى أسميناهم (أمراء الطوائف) على ما أسموه مناطق النفوذ أولئك الذين لم يحملوا بين جوانبهم أي شعور بمسؤولية أخلاقية حيال ما ارتكبوه بحق أنفسهم وأمتهم، لأن هذا التقاتل كان بمثابة ضربات متلاحقة شرسة أنهكت الوجود الحضاري للعرب المسلمين في الأندلس ليبدأ بعدها مسلسل الانهيارات ومن ثم النزوح النهائي من الأندلس.

لقد جاء هذا الكتاب (عصر ابن زيدون) للدكتور جمعة شيخة ليبسط أمام القارئ صورة ذلك العصر بكل تفصيلاته ومن خلال نظرة بانورامية شاملة تجعل منك كقارئ شاهداً على تلك الأحداث ومعايشاً لوقائعها ومنفعلاً بها، وما يجعلك أيضاً حذراً من مساقط خطواتك وأنت تكاد تعيش العصر نفسه هذه الأيام...

لكن، وفي الوقت الذي كانت فيه سكاكين الفتنة تعمل في الرقاب، كانت الأقلام تفعل فعلها الحضاري في ميادين الطرس والتأليف والإبداع وعلى كل المستويات في الفكر، والعلم، وفنون الأدب.

إنه وجه آخر من وجوه الحرية في تلك المرحلة سمح للنتاج الحضاري العربي
الإنساني أن يبقى متدفقاً صاعداً حتى الوصول إلى الذروة! وليؤسس قاعدة أدبية
وعلمية ارتكزت إليها أوروبا في استنساخ حضارة جديدة بديلة.

ولعل قيمة هذا الكتاب إنما تبدو في جعل الشعر العربي الأندلسي في تلك
المرحلة شاهداً خطيراً وقف عند كل مفصل تاريخي من مفاصل تلك المرحلة مشخّصاً
للحدث بالتوثيق والحكاية مما يغني الناقد والمؤرخ عن كثير من المصادر التاريخية
والأدبية التي ت جهدنا ونحن نبحت عنها لتأكيد مثل هذه الأحداث.

وإنني إذ أشكر الأخ المؤلف على هذا الجهد القيم، لأتمنى أن يجد القارئ في
كتابه الكثير من الإجابات عن التساؤلات الملحة عن ابن زيدون وعن هذه الفترة الخطيرة
من تاريخ الأندلس سائلاً المولى عز وجل أن يجنب أمتنا المزالق وأن يسدد خطواتها
نحو ما يجعلها أكثر فهماً وإدراكاً واتعاضاً، حتى لا يتكرر الدرس نفسه، وتتجرع نفس
مرارة الكأس.. داعينه سبحانه أن تكون جميع إنجازاتنا في موازين أعمالنا، إنه على
كل شيء قدير.

عبدالعزیز سعود البابطين

الكويت في جمادى الأولى ١٤٢٥هـ

الموافق يوليو ٢٠٠٤م

تمهيد

ابن زيدون : رابع أربعة من الشعراء في الأدب العربي اقترن اسمه بامرأة : قيس وليلى، كثير وعزة، جميل وبثينة، ابن زيدون وولادة.

وهو ثالث ثلاثة من عمالقة الفكر والتاريخ والأدب بقرطبة خلال القرن ١١/٥: ابن حزم الظاهري، وابن حيان القرطبي وابن زيدون الأندلسي.

وهو ثاني اثنين من كبار السياسة والإبداع والمغامرة في عصر الطوائف : الوزير الشاعر ابن عمّار، والوزير الشاعر والكاتب ابن زيدون.

وهو وحيد عصره بجمعه بين فنّي الشعر - حتى لقّب بحتري الغرب- والنثر بما خلفه من رسائل تنبئ عن مقدرة عجيبة وموهبة فذة، فتربّع على عرش الشعر ملكاً متوجّاً وجلس على أريكة النثر أميراً مبدعاً.

ولئن لقّب ابن زيدون بذي الوزارتين، فهذا الجمع -في نظرنا- هو جمع بين خاصيتي الشعر والنثر وليس جمعاً -كما يردّد- بين القلم والسيوف.

ولهذا السبب وضعت حوله مئات الدراسات والبحوث وعشرات الكتب والمجلّدات. ولئن أردنا أن نحصي ما كتب عنه منها، لكان علينا أن نضع مؤلفاً في الموضوع. ولنا على ذلك خير مثال أطروحة محمّد مصطفى في ما كتب عن المعريّ.

والمتجرّئ على الكتابة في موضوع له صلة بابن زيدون من قريب أو من بعيد لا يعدو أن يكون أحد رجلين:

١ - إمّا أن يجمع شتات ما قيل فيه مرتّباً ومنظّماً، شارحاً وموضّحاً، وهذا أمر ليس بالهين، ودونه خبط القتاد من جهد ومن طول زمن.

٢ - وإمّا أن يقوم بتلخيص ما دبّج حوله، وذلك بإبراز ما بدا له أعمق أثراً وأكثر جدّة وأجدى نفعا، وهذا الأمر ليس باليسير ودونه قدح الزّناد من صبر وسلامة بدن.

وفي كلتا الحالتين سوف لن ينجو الباحث من تكرار ما قاله الآخرون ويكون هذا التكرار - بالنسبة إلى من قرأ بعض هذه الدّراسات أو أغلبها - تكراراً ممجوحاً ولم لا مملاً منبذاً ؟

لذا ارتأينا أنّ القادم على دراسة عصر ابن زيدون ثانية -وحتّى يتجنّب قدر المستطاع أن يكون ببغاء بالنسبة إلى من سبقه من الباحثين الأجلّاء - عليه أن يدخل في دراسته مصدراً غير مألوف في التّاريخ، لم يعتمدوه من قبل أو اعتمدوه جزئياً، لعلّ هذا المصدر ينشر في دراسته رائحة متميّزة ويضفي عليها طعماً منفرداً. وبهذه الرّائحة وهذا الطعم قد يخلق في نفس القارئ رغبة وبعقله متعة وفكره إثراء.

ولسنا نعني بهذا أنّنا سنفتح إفريقيّة ثانية -كما يقول المثل- في مجال الدّراسات الزّيدونيّة، فهذا غرور لسنا من أصحابه وإنّما سنحاول :

١ - أن نجعل من الشّعْر الذي قيل في عصر ابن زيدون، وما جاء في ديوان الشاعر نفسه أداة لإضافة هذه الرّائحة المنعشة والطعم اللّذيذ لدراستنا حول عصر ابن زيدون.

٢ - أن نفصل بين الدّاتي والموضوعي في عصر ابن زيدون، لكن دون أن ننسى أنّ للدّاتي تأثيراً في الموضوعي، وأنّ للموضوعي تأثيراً في الدّاتي. ولئن اقتضت الدّراسة -من حيث المنهج- فصلاً، فإنّها تستلزم من حيث الموضوع وصلاً.

والله نرجو أن نوفّق لإرضاء أكبر عدد من القراء، لأنّ الأنوف أنواع والأذواق صنوف والمآرب شتّى ورضا الناس غاية لا تدرك. وبالله التوفيق.

المقدمة

كلّما ذكرت الأندلس بليالي أنسها وبؤسها بفتنها وحروبها بشعرائها وعلمائها، ذكر ابن زيدون.

وكلّما ذكر الحبّ وخلجاته والعشق وتباريحه والمحبوب وقسوته، ذكر ابن زيدون.

وكلّما ذكرت المرأة وفتنتها والطبيعة وروعها والمتعة وصنوفها، ذكر ابن زيدون.

وكلّما ذكر الألم ينبوعاً، والمرارة مصدراً والغربة حنيئاً، ذكر ابن زيدون.

وكلّما ذكرت العاطفة متّقدة والقلب جريحاً والجوانح مشتتة، ذكر ابن زيدون.

وكلّما ذكرت السياسة مزلق والحبّ تنفاساً والدّسائس مذهباً، ذكر ابن زيدون.

هذه الصّور المتنوّعة لابن زيدون تبدو لنا كأنّها فلم وثائقي لنجم عالميّ في الفنّ تتّبعه "كَمَرًا" مخرج ماهر مقتدر يعينه بعض مساعديه ممّن لا يقلّون عنه مهارة واقتداراً.

لقد بدا لنا هذا النّجم في خضمّ مجتمع يعيش أيّامه بأفراحها وأتراحها، فنراه في البلاط وزيراً وفي مجالس الأدب شاعراً، وفي الحبّ منافساً، وفي السّجن قابلاً وفي الغربة بعيداً وفي السّياسة محنّكاً.

هذا المخرج الخطير ومساعدوه الكبار لم تكن "الكمرات" أدواتهم بل كان القلم وسيلتهم. وبه تركوا لنا ينبوعاً ثراً لمعرفة شخصيّة ابن زيدون وعصره.

المخرج هو بلديّ ابن زيدون المؤرّخ الذي لا يشقّ له غبار ابن حيّان القرطبي بمقتبسه^(١) ومساعدته الأول بلديّ أيضاً هو الفقيه الظّاهري ابن حزم بطوق حمامته^(٢) أمّا المساعد الثاني فهو ابن بسّام في ذخيرته^(٣) وأمّا الثالث فهو الفتح بقلائده^(٤).

ويتوالى المساعدون في إخراج صورة ابن زيدون كابن عذارى في بيانه والمراكشي في معجبه وابن سعيد في مُغربه، وابن الأبار في حلّته وابن الخطيب بأعمال أعلامه، ومسك الختام المقرّي بنفحه^(٥).

وعلى هؤلاء وغيرهم اعتمد الدّارسون الأجلّاء من عرب وعجم فكانوا خير من تتبّع فدقّق، وجمع فركّب، وحلّل فوضّح، ولنا في عنان وعباس، ومؤنس ومكيّ وبنشريفّة، وفي دوزي وبروفنصال، وبيريس وقومس وغيرهم كثيرون، خير مثال على الدّراسات العلميّة المعمّقة في تاريخ الأندلس وأدبها وحضارتها على مرّ العصور^(٦).

(١) هو المصدر الأساسي من النّاحية التاريخيّة والاجتماعية لعصر الطوائف والفتنة الكبرى. فهو شاهد عيان وملاحظ دقيق، فنّان (بأسلوبه). (عبد الله عنان : دول الطوائف، ط٢، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٦-١٥).

(٢) وبرسائله وخاصةً نقط العروس.

(٣) هو المصدر الأساسي لعصر الطوائف من النّاحية الأدبيّة بما أورده من تراجم للأدباء والشعراء وما اختاره من منظومهم ومنثورهم.

(٤) هذا المصدر يتكامل مع المصدر السّابق بما فيه من تراجم لفحول الشعراء وكبار الكتّاب.

(٥) انظر تفصيلاً لهذه المصادر في العدد الخاص من دراسات أندلسية عدد ٣٢ لسنة ٢٠٠٤ حول ببليوغرافيا ابن زيدون.

(٦) إنّ اقتصرنا على ذكر هذه الأسماء لا يعني أبداً استنقاصاً لجهود غيرهم من المستشرقين والدّارسين العرب. وقد ذكرنا كلّهم بالتّفصيل في العدد ٣٢ من دراسات أندلسيّة الخاصّ بببليوغرافيا ابن زيدون.

I - البعد الموضوعي

قال ابن رشيّق :

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أُنْدَلُسٍ
أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ
الْقَابِ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا
كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الْأَسَدِ

الإطار العام لعصر ابن زيدون

فذلكة تاريخية شرقاً وغرباً

عاش ابن زيدون تسعاً وستين سنة هجرية منها ست سنوات في القرن ٤ هـ والبقية في القرن ٥ هـ، وسبعاً وستين سنة ميلادية كلها في القرن ١١ م، وهكذا يكون قد عاصر :

في الشرق الأقصى دولة آل سبكتكين مع سلطانها الكبير محمود بن سبكتكين (حكم ما بين ٣٣٨/٩٩٨ - ٤٢١/١٠٣٠) ناشر الإسلام في الهند، وقد امتدت سلطته على أفغانستان وتركستان وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وشمالى الهند، وقد استقطب بلاط محمود مجموعة من العلماء والأدباء وحملة الأقلام، وكان لا يسمع بعالم أو شاعر إلا واستقدمه. وقد عاش في بلاطه أشهر عالم عرفته الحضارة العربية الإسلامية في القرن ١١ هـ وهو البيروني.

وفي الشرق الأدنى عاصر ابن زيدون من خلفاء بني العباس في بغداد رقم ٢٥ الخليفة القادر بأمر الله (حكم ٣٨١/٩٩١ - ٤٢٢/١٠٣١)، ورقم ٢٦ القائم بن القادر (حكم ٤٢٢/١٠٣٥ - ٤٦٣/١٠٧٤).

كان الحاكم الفعلي في بغداد في ظلّ الخلافة العباسية الضعيفة في القرن ١١ هـ فارسياً شيعياً من آل بويه. فأصبح تركيا سنياً من آل سلجوق : أمّا الدولة البويهية، فقد تأسست سنة ٣٢٠/٩٣٢ وحكمت في العراق وفارس وخراسان، دخلوا بغداد سنة ٣٣٤/٩٤٥. عاش في ظلهم ابن العميد والصاحب بن عباد. أمّا الدولة السلجوقية فقد قامت سنة ٤٢٨/١٠٣٦، ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧/١٠٥٥ وانتهى حكمهم سنة ٥٥٤/١١٥٩، أشهر ملوكهم ألب أرسلان عضد الدولة (حكم ٤٥٦/١٠٦٣ - ٤٦٦/١٠٧٣)، غزا الروم وانتصر عليهم، وملكشاه بن ألب أرسلان، وقد أصبحت بغداد في عهد هذا السلطان ووزيره نظام الملك مركزاً علمياً وفكرياً متميزاً.

في مصر عاصر ابن زيدون من الخلفاء الفاطميين ثلاثة : الحاكم بأمر الله (حكم ٣٨٦/٩٩٦-٤١١/١٠٢٠)، والطاهر (حكم ٤١١/١٠٢٠ - ٤٢٧/١٠٣٥) والمستنصر (حكم ٤٢٧/١٠٣٥-٤٨٧/١٠٩٤) وقد امتدت سلطة الفاطميين ما بين القرن ٤/١٠ و ٥/١١، على الشام والحرمين ومصر وإفريقية والمغرب وصقلية.

وفي المغربين الأدنى والأوسط عاصر ابن زيدون الدولة الصنهاجية بالقيروان بعد أن انتقلت الخلافة العبيدية إلى مصر مع الخليفة المعز وأصبحت تعرف بالخلافة الفاطمية سنة ٣٦٢/٩٧٢ وتولّى حكم المغربين الأمير الصنهاجي بلكين بن زيري (حكم ٣٦٢/٩٧٢ - ٣٧٣/٩٨٣) باسم الخلافة الفاطمية بمصر، لكن في عهد الأمير الثالث^(١) وهو باديس بن يلكين (حكم ٣٨٦/٩٩٦-٤٠٦/١٠١٥) انفصل المغرب الأوسط، وتأسست به دولة بني حماد (فرع من بني زيري) في القلعة ودامت من ٣٩٨/١٠٠٧-٤٤٧/١١٥٢.

وبلغ المغرب الأدنى (إفريقية) في عهد الدولة الصنهاجية في النصف الأول من القرن ٥/١١ الأوج حضارة وعمرانا وخاصة مدينة القيروان عاصمة المعز بن باديس الصنهاجي (حكم ٤٠٦/١٠١٥-٤٥٣/١٠٦١).

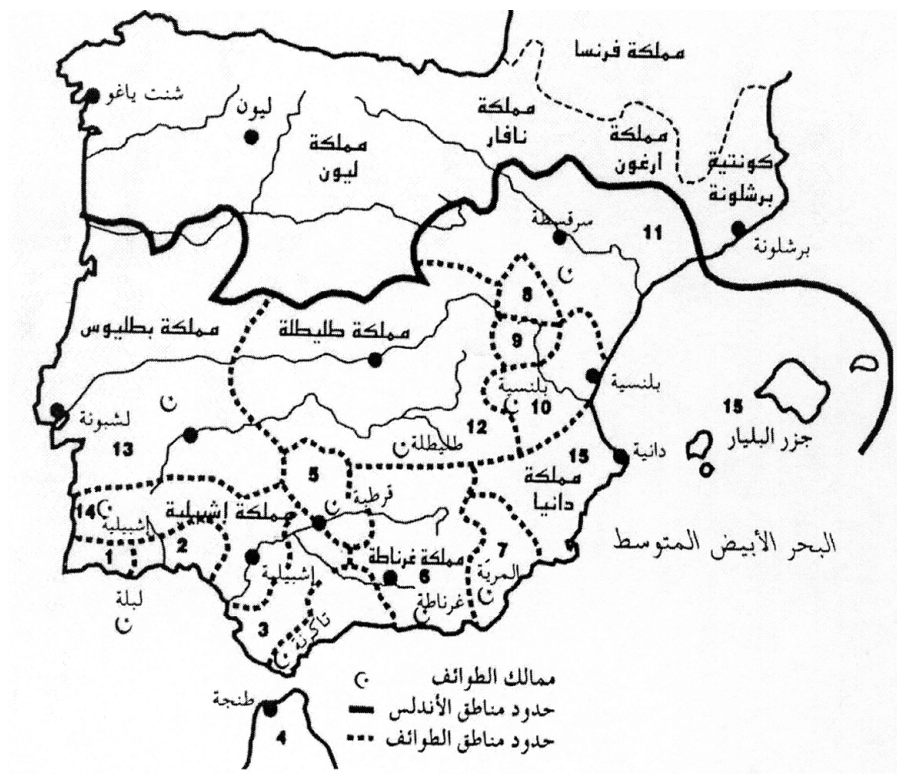
وتفككت وحدة إفريقية في منتصف هذا القرن نتيجة الغزوة الهلالية وسقوط مدينة القيروان وخرابها. وأصبحت إفريقية في النصف الثاني من القرن ٥/١١ تعيش وضعاً شبيهاً بوضع الأندلس في عهد أمراء الطوائف، ولم يبق للدولة الصنهاجية في النصف الثاني إلا مدينة المهديّة وضواحيها. وفي عهد المعز بن باديس الصنهاجي في النصف الأول من القرن ٥/١١ عاش ثلوث الشعر والأدب والنقد : ابن رشيق وابن شرف والحصري.

وعاصر ابن زيدون في المغرب الأقصى قيام الدولة المرابطية الصنهاجية (٤٤٨/١٠٥٦-٥٤٠/١١٤٥) ونشرها الإسلام في غرب إفريقيا وبروز زعيمها يوسف بن تاشفين، لكن الشاعر لم يعيش ليرى جيوش هذا القائد وهي تعبر المجاز لإنقاذ الأندلس في معركة الزلاقة سنة ٤٧٨/١٠٨٥ ضد ألفونسو السادس.

(١) الأمير الثاني الصنهاجي مصر المنصور بن ملكين (حكم ٣٧٣/٩٨٣-٣٨٦/٩٩٦).

في شبه الجزيرة الايبيرية

عاش ابن زيدون كلَّ حياته في شبه الجزيرة الإيبيريَّة. ولم يُعرف عنه أنَّه غادرها إلى أيِّ بلد آخر. وكانت شبه الجزيرة هذه في القرن ١١/٥ مقسَّمة بين دول إسلامية في الوسط والجنوب ودول نصرانية في الشمال:



أ - الدول الإسلامية :

عاش ابن زيدون وهو طفل نهاية الحجابة العامرية سنة ٣٩٩/١٠٠٨ بقرطبة. والحجابة العامرية دولة أسسها المنصور بن أبي عامر في صلب الخلافة الأموية بقرطبة خلال النصف الثاني من القرن ٤/١٠ . وتداول على هذا المنصب ثلاثة حجاب.

الحجابة العامرية

١ - مؤسسها المنصور بن أبي عامر



وعاش ابن زيدون في صباه ثم في عنفوان شبابه مراحل الفتنة الكبرى وسقوط الخلافة الأموية بقرطبة (انظر محطة الفتنة).

ومن المعلوم أنّ الأمويين حكموا الأندلس بصفقتهم أمراء وتداولوا على هذا المنصب ثمانية وهم :

١ - عبد الرحمان الأول بن هشام بن عبد الملك بن مروان

١٣٨/٧٥٦ - ١٧٢/٧٨٨

مؤسس الإمارة الأموية بالأندلس.

٢ - هشام الأول بن عبد الرحمان الأول

١٧٢/٧٨٨ - ١٨٠/٧٩٦ .

٣ - الحكم الأول بن هشام الأول

١٨٠/٧٩٦ - ٢٠٦/٨٢٢ .

٤ - عبد الرحمان الثاني بن الحكم الأول

٢٠٦/٨٢٢ - ٢٣٨/٨٥٢ .

٥ - محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني

(٢٣٨/٨٥٢ - ٢٧٣/٨٦٦)

٧ - عبد الله بن محمد الأول

٢٧٥/٨٨٧ - ٣٠٠/٩١٢

محمد بن عبد الله

٨ - عبد الرحمن الثالث بن محمد

٣٠٠/٩١٢ - ٣١٧/٩٢٩

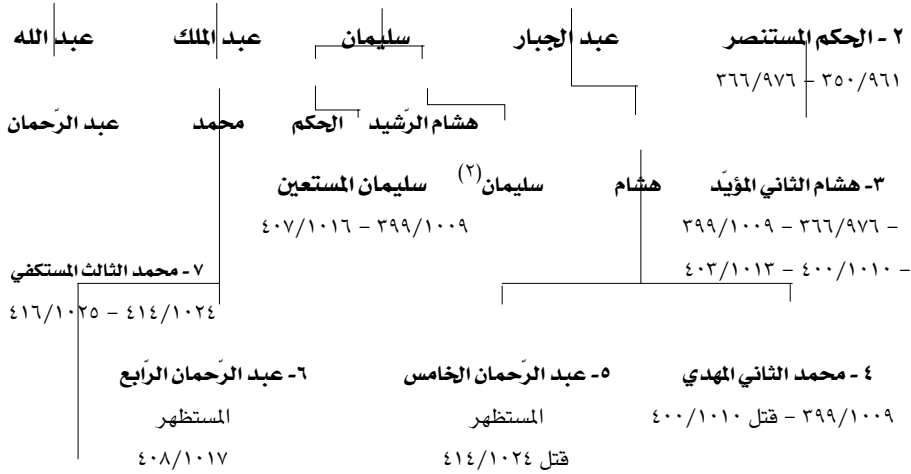
٦ - المنذر الأول بن محمد الأول

٢٧٥/٨٨٨ - ٢٧٣/٨٨٦

وحكم الأمويون الأندلس بصفقتهم خلفاء وكانوا ثمانية أيضاً وهم :

١ - عبد الرحمن الناصر^(١)

٣١٧/٩٢٩ - ٣٥٠/٩٦١



٨ - هشام الثالث المعتد^(٣)

(١) حكم باعتباره أميراً من ٣٠٠/٩١٢ - ٣١٧/٩٢٩، ولمّا أعلن الخلافة بقرطبة سنة ٣١٧/٩٢٩ تلقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله.

(٢) عيّنه المهدي ولياً لعهدده ثمّ قتله مع أبيه هشام في شوال ٣٩٩ / جوان ١٠٠٩ عندما ثارا عليه مع بعض الفتیان العامريين.

(٣) بُويع بحسن البنت ٤١٨/١٠٢٨ ووصل قرطبة ٤٢٠/١٠٣٠ وعزل ٤٢٢/١٠٣١. وبعرّله انتهت الخلافة الأموية بقرطبة.

٤٢٢/١٠٣١-٤١٨/١٠٢٨

وكان ابن زيدون شاهد عيان في بداية شبابه على بداية الخلافة الحمّوديّة بقرطبة وعلى نهايتها والحمّوديون من الشّعبة البربر تمكّنوا عندما اختلط الحابل بالنّابل في قرطبة من الاستيلاء على السلطة من بني أميّة لمدّة حوالي عشر سنوات من ٤٠٧/١٠١٦ إلى ٤١٧/١٠٢٦ .

الحمّوديون بقرطبة^(١)

حمود

القاسم بن حمود^(٢)

أ- ٤٠٨/١٠١٨ - ٤١٢/١٠٢١

ب- ٤١٣/١٠٢٣ - ٤١٤/١٠٢٤

علي بن حمود

٤٠٨/١٠١٨ - قتل ٤٠٧/١٠١٦

يحيى بن علي بن حمود المعتلي^(٣)

أ- ٤١٢/١٠٢١ - ٤١٣/١٠٢٣

ب- ٤١٦/١٠٢٥

وهكذا تكون الأندلس منذ بداية القرن ١١ هـ قد دخلت في دوامة من الصّراع عرفت لدى المؤرّخين بالفتنة الكبرى أو الفتنة البربريّة وقامت منذ اندلاعها، وعلى أشلاء الخلافة الأمويّة المنهارة أكثر من عشرين دولة عرفت باسم ملوك الطّوائف. وكان أمراؤها ما بين وزير سابق أو قائد محنّك أو قاض وجيه أو صاحب حسب وثناء. "ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسيّة نسب، ولا في شروط الإمامة

(١) حكم الحمّوديون زيادة على خلافتهم في قرطبة المثلث الجنوبي الإسباني مع تغري سبته ومليلة زهاء نصف قرن.

(٢) فرّ في سنة ٤١٣/١٠٢٣ إلى مالقة ثمّ دخل قرطبة سنة ٤١٦/١٠٢٥ وترك فيها حامية ورجع إلى مالقة، لكن أهل قرطبة أجبروا هذه الحامية على الخروج من مدينتهم سنة ٤١٧/١٠٢٦. قتل إثر معركة مع جند بني عباد سنة ٤٢٧/١٠٣٥.

(٣) فرّ سنة ٤١٢/١٠٢١ إلى إشبيلية ودخلها. وفرّ إليها سنة ٤١٤/١٠٢٤ ولكنّه منع من دخولها، قتل خنقا في سجنه سنة ٤٣١/١٠٤٠ بأمر من ابن أخيه يحيى.

مكتسب، اقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبار وجبوا العملات والأمصار، وجندوا الجنود وقدموا القضية وانتحلوا الألقاب وكتبت عنهم الكتاب الأعلام وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم الدواوين وشهدت بوجوب حقهم الشهود ووقفت بأبوابهم العلماء وتوسلت إليهم الفضلاء وهم ما بين محبوب وبربري مجلوب ومجنّد غير محبوب وغفل ليس في السّراة بمحسوب^(١).

وأصبحت المدن الأندلسيّة الكبرى أو الحصون المنيعة عواصم لتلك الدّول. وهذه

قائمة في دول الطوائف حسب التسلسل الزمني لسقوطها.				
الإمارة	قاعدتها	قيامها	سقوطها	من أسقطها
١ - بنو هارون	شنتمرية الغرب	١٠٢٦/٤١٧	١٠٥١/٤٤٣	المعتضد
٢ - بنو بكري	ولبة وشلطيش	١٠١٢/٤٠٣	١٠٥١/٤٤٣	المعتضد
٣ - بنو يحيى	لبلّة والجزيرة الخضراء	١٠٢٣/٤١٤	١٠٥٣/٤٤٥	المعتضد
٤ - بنو حمود	لبلّة والجزيرة الخضراء	١٠٢٣/٤١٤	١٠٥٥/٤٤٦	المعتضد
٥ - بنو حمود	مالقة	بداية ق ١١/٥	١٠٥٧/٤٤٩	باديس صاحب غرناطة
٦ - بنو مزين	باجة وشلّب	بداية ق ١١/٥	١٠٦٣/٤٤٥	المعتضد
٧ - بنو يفرن	رندة	١٠١٥/٤٠٦	١٠٦٥/٤٥٧	المعتضد
٨ - بنو دمر	مورور	١٠١٣/٤٠٣	١٠٦٦/٤٥٨	المعتضد
٩ - بنو برزال	قر مرنة	١٠١٣/٤٠٤	١٠٦٧/٤٥٩	المعتضد
١٠ - بنو خزرون	أركش	١٠١١/٤٠٢	١٠٦٩/٤٦١	المعتضد

(١) أعمال الأعلام، ص ١٤٤.

١١ - بنو جهور	قرطبة	١٠٣١/٤٢٢	١٠٧٠/٤٦٣	المعتضد
١٢ - بنو ذي النون	طليطلة	١٠٠٩/٤٠٠	١٠٨٥/٤٧٨	الفونسو السادس
١٣ - دانية والجزائر الشرقية ^(١)	دانية	١٠٠٩/٤٠٠	١٠٩١/٤٨٣	المرابطون
١٤ - بنو عباد	إشبيلية	١٠٢٣/٤١٤	١٠٩١/٤٨٤	المرابطون
١٥ - بنو صمادح	المرية ^(٢)	١٠١١/٤٣٣	١٠٩١/٤٨٤	المرابطون
١٦ - مرسية	مرسية ^(٣)	١٠١٢/٤٠٣	١٠٩١/٤٨٤	المرابطون
١٧ - بنو الأفطس	بطلوس	١٠٢٢/٤١٣	١٠٩٤/٤٨٨	المرابطون
١٨ - بلنسية	بلنسية	١٠٠٩/٤٠٠	١١٠٢/٤٩٥	المرابطون
١٩ - ألبونت	ألبونت	١٠٠٩/٤٠٠	١١٠٢/٤٩٥	المرابطون
٢٠ - بنو رزين	شنتمرية الشرق	١٠٠٩/٤٠٣	١١٠٤/٤٩٧	المرابطون
٢١ - بنو هود	سرقسطة	١٠١٧/٤٠٨	١٠١٠/٥٠٣	المرابطون

وهكذا انقسمت الجزيرة بين العناصر المكوّنة للمجتمع الأندلسي. فقد استولى البربر على الجنوب والجنوب الشرقي، والعرب على الوسط والجنوب الغربي والصقالبة على الشرق، واقتسم العنصران العربي والبربري بقيّة المناطق الأخرى.

ولئن عاصر ابن زيدون هذه الدّول المتعدّدة، فقد عاش في قرطبة الثلاثين الأوّلين من حياته ٣٩٤/١٠٠٣ - ٤٤١/١٠٤٩ وعاش الثلث الأخير في إشبيلية ٤٤١/١٠٤٩ - ٤٦٣/١٠٧٠ .

(١) حكمهما مجاهد العامري وابنه إقبال الدّولة عليّ من ٤٠٠/١٠٠٩ إلى ٤٦٨/١٠٧٦ ثمّ استولى عليها بنو هود أصحاب سرقسطة إلى أن سقطت بيد المرابطين.

(٢) حكم المرية قبل بني صمادح الفتيان العامريّون ثمّ عبد العزيز المنصور العامري الثاني من ٤٠٥/١٠١٤ - ٤٣٣/١٠٤١ .

(٣) حكم مرسية الفتيان العامريّون من ٤٠٤/١٠١٢ إلى ٤٢٩/١٠٣٨ ثمّ بنو طاهر من ٤٢٩/١٠٣٨ إلى ٤٧١/١٠٧٨ ثمّ الشاعر ابن عمّار ٤٧١/١٠٧٨ إلى ٤٧٣/١٠٨١ ثمّ ابن رشيق ٤٧٣/١٠٨١ إلى ٤٨٤/١٠٩١ .

وفي قرطبة عاش في كنف دولة بني جهور بعد سقوط الخلافة الأموية نهائياً بها.
وفي هذه الدولة كانت المحطتان الكبيرتان في حياته، محطة المحبة، ومحطة النكبة.

دولة بني جهور^(١)

بقرطبة

١ - أبو حزم جهور بن محمد بن جهور^(٢)

٤٢٢/١٠٣١ - ٤٣٥/١٠٤٤

٢ - أبو الوليد محمد بن جهور

٤٣٥/١٠٤٤ - ٤٥٧/١٠٦٤

٣ - عبد الملك بن محمد بن جهور

٤٥٧/١٠٦٤ - ٤٦٣/١٠٧٠^(٣)

تميّزت دولة بني جهور بثلاث خصال :

- ١ - وفّرت الأمن لأهل قرطبة، فانتعش اقتصاد المدينة وعمّ الرخاء أغلب طبقات المجتمع^(٤).
- ٢ - وفّرت الملجأ لبعض أمراء الطوائف ممن استولى المعتضد أو ابن الأفطس على أراضيهم^(٥).
- ٣ - سعت في الصلح بين أمراء الطوائف للحدّ من النزيف الداخلي أمام الخطر النّصراني الخارجي^(٦).

(١) بيت من أعرق بيوتات الموالي الأندلسية وصلوا إلى الخطط الرفيعة في عهد الحجابة العامرية والخلافة الأموية. ويرجع أصلهم إلى الفرس واشتهر بلاط بني جهور بقرطبة بعلم التاريخ. فقد عاش بين ظهرانيها مؤرّخ الأندلس بدون منازع ابن حيان (دول الطوائف، ص ٢١).

(٢) تجنّب أبو حزم من الدّخول في أحداث الفتنة الكبرى فنال ثقة الجميع بقرطبة.

(٣) في هذه السنة استولى المعتمد بن عباد على قرطبة ونفّى بنو جهور إلى جزيرة شلطيّش.

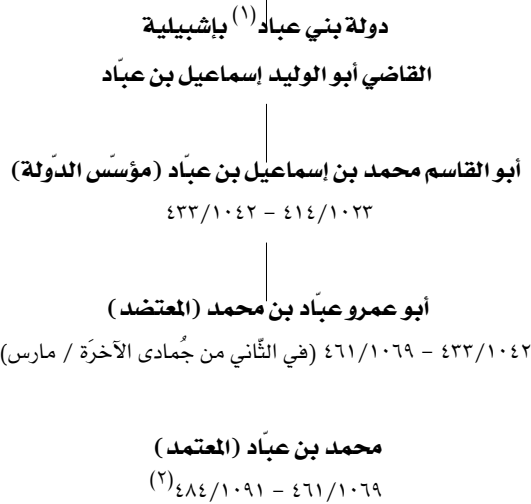
(٤) حفظ أبو حزم بن جهور الأموال العامة، وشجّع التجارة وقضى على كلّ مظاهر البذخ والإسراف (عنان : دول الطوائف، ص ٢٣).

(٥) التجأ عبد الله بن سابور صاحب أشبونة بعد أن انتزعها منه صاحب بطليوس، وكذلك عبد العزيز البكري صاحب ولبة وجزيرة شلطيّش بعد أن أطاح به صاحب إشبيلية وكذلك حكام لبلبة بعد أن انتزعها منهم المعتضد.

(ابن عذاري : البيان المغرب ٢/٢١٣، ٢٧٣، ٣٤٠).

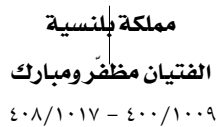
(٦) تدخل أبو الوليد بن جهور بين المعتضد والمظفر في صراعهما على لبلبة. وتمّ الصلح بينهما ٤٤٣/١٠٥١ .

وفي بلاط إشبيلية عاش ابن زيدون حوالي عقدين من الزمن مع المعتضد بن عبّاد،
وحوالي سنتين مع ابنه المعتمد بن عبّاد.



وعرف ابن زيدون ولدة قصيرة ثلاثة بلاطات من بلاطات دول الطوائف :
البلاط الأول في الشرق وهو بلاط بلنسية وقد وصلها ابن زيدون في عهد عبد العزيز
(المنصور II) بن عبد الرحمن شنجول بن محمد (المنصور I) بن أبي عامر.

وزار من مدن إمارة بلنسية مدينة طرطوشة^(٣).



(١) أسرة عربية أصيلة ينتمون إلى لخم. وفي رواية أخرى هم من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء، واشتهر
بلاطهم بالشعر. وكان المعتمد لا يستوزر وزيراً إلا إذا كان أديباً شاعراً (دول الطوائف، ص ٣٣).

(٢) في هذه السنة سقطت إشبيلية بيد المرابطين وحمل المعتمد منفياً إلى أغمان.

(٣) طرطوشة : Tortosa شرقي بلنسية تقع على نهر إيبرو (إبرة) على مقربة من مصبه في البحر الأبيض
المتوسط، سقطت في يد الإسبان سنة ٤٤٣/١١٤٨ هـ (معجم البلدان : المختار من التراث العربي، اختيار وتقديم
عبد الإله نبهان : البلدان الأندلسية، دمشق، ١٩٨٣، ص ٢٧٠).

لبيب العامري

٤٠٨/١٠١٧ - ٤١١/١٠٢١

المنتصور II عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر

٤١١/١٠٢١ - ٤٥٢/١٠٦١

أبو عبد الله عبد الملك بن عبد العزيز

٤٥٢/١٠٦١ - ٤٥٧/١٠٦٥

المأمون بن ذي النون

٤٥٧/١٠٦٥ - ٤٨٥/١٠٩٢

القاضي بن الجحاف

٤٨٥/١٠٩٢ - ٤٨٧/١٠٩٤

السيد الكنبيطور

٤٨٧/١٠٩٤ - ٤٩٥/١١٠٢

البلاط الثاني في الغرب وهو بلاط بني الأفطس^(١) في بطليوس وزارها في عهد المظفر بن الأفطس الملك العالم (٤٣٧/١٠٤٥ - ٤٦١/١٠١٨). وقد خاطبه ابن زيدون نثراً وشعراً.

دولة بني الأفطس ببطليوس

١ - أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة (المنصور I)

٤١٣/١٠٢٢ - ٤٣٧/١٠٤٥

٢ - محمد بن عبد الله المظفر

٤٣٧/١٠٤٥ - ٤٦١/١٠١٨

(١) بنو الأفطس أو بنو مسلمة ينتمون إلى قبيلة مكناسة المغربية، ونسبهم الشواء إلى تجيب مما أثار عجب كبير المؤرخين ابن حيان، واشتهر بلاطهم بالأدب وتاريخه، وكان المظفر نفسه عالماً وأديباً.

٣ - يحيى بن محمد (المنصور II)

٤٦١/١٠٦٨ - ٤٦٤/١٠٧٢

٤ - عمر بن محمد (المتوكل)

٤٦٤/١٠٧٢ - ٤٨٨/١٠٩٤

البلاط الثالث في الجنوب : وهو بلاط الحموديين بمالقة وزاره ابن زيدون في عهد العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود (ت ٤٤٦/١٠٥٤). وكانت الإطالة في هذا البلاط سبباً في غضب أبي الوليد بن جهور عليه وعزله من السفارة بينه وبين ملوك الطوائف، وهذه شجرة حكام الحموديين بمالقة.



٧ - (السامي) إدريس بن يحيى بن إدريس

ابن علي ابن حمود ٤٣٤/١٠٤٢ قتل في سببة

٩ - المستعلي محمد بن إدريس بن يحيى

- افْتُكَّ منه مالقة باديس صاحب غرناطة
سنة ٤٤٩/١٠٥٧ (٢) فخرج إلى مليلة
وحكمها إلى سنة ٤٥٦/١٠٦٩

ب - الدّول النّصرانية :

نجد في أواخر القرن ٤/١٠ عند ولادة ابن زيدون أربع دول نصرانية. ولم يكن لهذه الدّول طيلة القرن ٤/١٠ من القوّة والانسجام ما يجعلها تقف في وجه الخليفة النّاصر

(١) قتل أثناء معركة ضدّ القاضي محمد بن إسماعيل بن عبّاد.

(٢) انتهى أمر الحموديين في مالقة.

الأموي ثم الحجاب المنصور العامري، فقد كان التفوق السياسي والعسكري لصالح دولة الإسلام الموحدة. فكانت الدول النصرانية -أغلبها أحياناً وبعضها تارة أخرى- تدفع الجزية لقرطبة وكان أمراؤها وملوكها يزورون بلاطها تودداً وطلباً للصالح، وهذه الدول هي: مملكة نبرة ومملكة ليون ومملكة قشتالة وكونتة برشلونة.

أما مملكة نبرة (نابار) فكانت تضم الوطن الأصلي لنابار وولايات كتبريا وسوبرابي، ورباجورسا. وعاصمتها بنبلونة، وقد تعرضت هذه العاصمة للتخريب مرتين: المرة الأولى على يد عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٢/٩٢٤ والمرة الثانية على يد المنصور بن أبي عامر ٣٧٧/٩٨٧. وقد حكم هذه المملكة في أواخر ٤/١٠ وبداية القرن ٥/١١ ملكان هما غرسية سانشيز الثالث رقم ٥ (ت ٣٩١/١٠٠٠) وسانشو الثالث الملقب بالكبير (ت ٤٢٧/١٠٣٥).

أما مملكة ليون، فكان ملكها عند ولادة ابن زيدون ألفونسو الخامس بن برمودو الثاني^(١) وقد قام هذا الملك بمهاجمة أراضي المسلمين في الغرب وافتتح بعضها وحاصر مدينة بارو من مدن مملكة بطليوس فأصيب خلال ذلك بسهم مسموم قذفه به أحد الرماة المسلمين فتوفي متأثراً بجراحه (سنة ٤١٨/١٠٢٧) فخلفه ابنه برمودو الثالث الذي لم يستطع أن يقف في وجه سانشو الكبير فضمت ليون إلى نبرة.

أما مملكة قشتالة فكان على رأسها عند ميلاد ابن زيدون سانشو غرسية (حكم ٣٨٥/٩٩٥ - ٤١٢/١٠٢١) ابن غرسية فرناندز (ت ٣٨٥/٩٩٥) بن فرنان كونثالت مؤسس المملكة (ت ٣٦٠/٩٧٠).

وسانشو غرسية هو الذي استنجد به سليمان المستعين وحلفاؤه البربر ضد الحزب الأندلسي في الفتنة الكبرى. وقد خلفه بعد وفاته ابنه غرسية الذي تم اغتياله ٤١٩/١٠٢٨ دون عقب. فضمها ملك نبرة إلى مملكته باعتباره كان متزوجاً من البيرة أخت غرسية القليل وعين ابنه فرناندو ملكاً عليها. وهكذا اتحدت الممالك النصرانية الثلاث على يد سانشو الكبير إمبراطور إسبانيا.

ومع هذه الممالك الثلاث، هناك إمارة صغيرة هي كونتة برشلونة^(٢) في شمال شرق إسبانيا، وكان يحكمها في نهاية القرن الرابع للهجرة وبداية القرن الحادي عشر للميلاد آل

(١) كان برمودو الثاني يدفع الجزية للمنصور بن أبي عامر، وقد توفي هذا الملك ٣٩٠/٩٩٩.

(٢) غزاها المنصور بن أبي عامر وخرّبها لكن لم يحتفظ بها لبعدها سنة ٣٧٥/٩٨٥.

بوريل ومنهم رامون بوريل الذي استنجد به الفتى واضح ومحمد بن هشام (المهدي) في الفتنة الكبرى، كما استنجدوا بزميله كونت أرقلة سنة ٤٠٠/١٠١٠ مقابل دفع أموال لهما.

وخلال القرن ١١/٥ حكم هذه الإمارة آل برنجير ومنهم رامون برنجير (حكم ٤٢٧/١٠٣٥ - ٤٦٩/١٠٧٦) الذي توسّعت الإمارة في عهده. فضمّت أرقلة Urgel وشرطانية Cerdana مع ولاية قرقشونة الفرنجية. وبهذا الاتّساع عادت الصّلة بين الثغر القوطي وجنوب فرنسا أي بين جانبي البيريني الشمالي والجنوبي. وأصبح ممراً للفرسان الفرنج المغامرين تحدوهم روح صليبية لا تخلو من قسوة وشدة ضدّ المسلمين وأراضيهم.

وتولّى حكم هذه الإمارة بعد رامون برنجير ابنه الأوّل رامون (قتل ٤٧٥/١٠٨٢)، ثمّ ابنه الثاني برنجير (ت ٤٨٥/١٠٩٢) وهو الذي استعان به المستعين ابن هود للاستيلاء على بلنسية لكن "السيد" أفضّل مشروعهما. وتولّى الحكم بعده ابن أخيه رامون برنجير الثالث.

ولئن تمكّن سانشو الكبير من توحيد إسبانيا النصرانية في بداية القرن ١١/٥، فقد قام بتقسيمها قبل وفاته سنة ٤٢٧/١٠٣٥ بين أبنائه الأربعة، فاندلعت حروب أهلية بينهم كانت عاملاً أساسياً في خفوت حركة الاستبداد ضدّ ملوك الطوائف في الأندلس^(١).

فقد أعطى مملكة نبرة (نابار)، وتمتدّ من غرب البيريني إلى منابع نهر الإيبرو، إلى ابنه الأكبر غرسية وخصّ فرناندو بقشتالة وليون وجليقية، أمّا مملكة أراغون، وهي رقعة ضيقة تمتدّ بحذاء نبرة من باب شيزروا جنوباً، فكانت من نصيب ابنه غير الشرعي راميرو، وعيّن على منطقة سوبرابي وبراجرسا ابنه كونزالو.

وسرعان ما اتّحدت أراغون وسوبرابي بعد مقتل كونزالو سنة ٤٣٠/١٠٣٨ وبدأت أطماع راميرو، بعد هذه الوحدة، في نبرة مملكة أخيه غرسية، فعقد حلفاً مع جاره المسلم المقتدر بن هود أمير سرقسطة أمده هذا الأخير بفرقة من جنده. لكنّ المواجهة انتهت بهزيمة المتحالفين وانتصار غرسية ملك نبرة سنة ٤٣٤/١٠٤٢.

واتّجهت أطماع راميرو إلى أراضي مملكة. سرقسطة فهاجمها، فاستنجد المقتدر بن هود بفرناندو ملك قشتالة، وانتهت المواجهة بمقتل راميرو ٤٥٦/١٠٦٣، فتولّى حكم أراجون ابنه سانشو راميرز بن راميرو بن سانشو الكبير. وواصل تحقيق أطماع والده في

(١) Modesto Lafuente : Historia General de España, Madrid 1861, vol. II, p 433.

أراضي سرقسطة. واستطاع الاستيلاء على مونتشون سنة ٤٨٢/١٠٨٩. ثم حاصر (وشقة) ومات تحت أسوارها سنة ٤٨٩/١٠٩٦. فحقّق ابنه بيدرو الأول أمنية أبيه وسقطت (وشقة) في يديه سنة ٤٨٩/١٠٩٦ رغم استعانة المستعين بن هود بألفونسو السادس ملك قشتالة. وقد استعان بيدرو الأول بالسيد وانتصر على المرابطين في موقعه مندير. وسيخلفه في مملكة أراجون ابنه ألفونسو المحارب الذي سيتزوَّج أوركا ابنة ألفونسو السادس ويوحّد إسبانيا النصرانية فتأخذ حركة الاسترداد أبعاداً جديدة.

كما بدأت أطماع غرسيّة ملك نبرة (نابار) في مملكة أخيه فرناندو المتّسعة (قشتالة وليون وجليقية) واستعان هو الآخر بفرقة من جيش المقتدر وانتهت المعركة بمقتل غرسيّة سنة ٤٤٦/١٠٥٤، وقام فرناندو بتعيين ابن أخيه سانشو لحكم نبرة (نابار) تحت طاعته.

وسانشو بن غرسيّة هذا هو الذي كان يدفع له الجزية صاحب سرقسطة سنة ٤٦٢/١٠٦٩ وجدّد الحلف معه سنة ٤٦٦/١٠٧٣، وقد استطاع ألفونسو السادس ملك قشتالة وسانشو راميز ملك أراغون في حملة موحّدة من اقتسام أراضي هذه المملكة فأخذ ألفونسو السادس القسم المحاذي منها لنهر إيبرو، وأخذ سانشو راميز الجزء الواقع في منطقة البيريني وفيه العاصمة بنبلونة.

وبدأ فرناندو (المعروف بفرزلند في الرواية العربية) يتأهّب في مرحلة أولى من حياته لغزو أراضي المسلمين، فخرج سنة ٤٤٩/١٠٥٧ متّجهاً إلى الشمال الغربي من أراضي مملكة بني الأفطس. فاستولى عنوة على مدينة بازو vizu^(١) ثمّ مليقة (لاميجو)، ولم يحرك صاحبها ابن الأفطس ساكنا لعجزه عن الدّفاع عنها، ثمّ بعث فرناندو بحملة ضدّ مدينة شنترين الواقعة في شمال أشبونة على نهر التّاجة. فاضطرّ ابن الأفطس لدفع جزية قدرها خمسة آلاف دينار.

ثمّ قام فرناندو ملك قشتالة في مرحلة ثانية من حياته بمهاجمة مملكة طليطلة سنة ٤٥٤/١٠٦٢ وعاثّ فساداً في أراضيها. فاضطرّ حاكمها وهو المأمون بن ذي النّون للخروج إلى معسكر فرناندو، وقدم له هدايا فاخرة، واعترف بطاعته ودفع الجزية له.

(١) قبض فرناندو بعد اقتحامه المدينة على الرّامي العربي الذي أصاب ألفونسو الخامس يسهم مسموم منذ ثلاثين سنة. وأمر بسمل عينيه وقطع يديه ورجليه وعُذّب إلى أن مات (عنان : دول الطوائف، ص ٣٨٣).

وفي مرحلة ثالثة أغار فرناندو سنة ٤٥٥/١٠٦٣ على أراضي مملكة إشبيلية. فخرّبها. فخرج إليه المعتضد إسوة بأمير بطليوس وأمير طليطلة. فقدم له الهدايا وقبل بدفع الجزية له. وطلب منه فرناندو تسليمه رفات القديسة خوستا المدفونة في إشبيلية. فاستجاب لطلبه. ولكن الوفد النصراني لم يعثر على رفاتها، فحمل عوضه رفات القديس سان إزيدرو فدفن في ليون سنة ٤٥٥/١٠٦٣ .

ثم عاد فرناندو (فرناند في الرواية العربية). وهاجم أراضي ابن الأفطس وفتح عنوة مدينة قلْمُرية بعد أن اتفق مع رائدة قائد الحامية الإسلامية على مغادرتها سراً وتركها لمصيرها .

وأتجه فرناندو إلى غزو بلنسية فاخترق في طريقه إليها أراضي مملكة سرقسطة الجنوبية. وخرّبها لامتناع المقتدر بن هود عن دفع الجزية له. ونظراً إلى مناعة المدينة اكتفى فرناندو عن طريق الحيلة بإيقاع هزيمة نكراء بأهل بلنسية في معركة بطرنة في ضواحي المدينة. وإثر هذه الانتصارات توفي فرناندو سنة ٤٥٨/١٠٦٥ .

وهكذا اتسعت مملكة قشتالة اتساعاً كبيراً. وامتدت حدودها إلى الجنوب والشرق والغرب على حساب أراضي دول الطوائف بالأندلس.

ووقع فرناندو في نفس الخطأ الذي وقع فيه والده سانشو الكبير، فقد قسم مملكته الشاسعة على أبنائه. وستعود إسبانيا النصرانية إلى التشتت ولكن لمدة زمنية قصيرة.

لقد عين فرناندو ابنه الأكبر سانشو لحكم قشتالة. وأخذ الجزية من مملكة سرقسطة. وخصّ ابنه ألفونسو السادس بحكم ليون واشترويش وأخذ الجزية من مملكة طليطلة، أمّا جليقية والبرتغال فكانت من نصيب ابنه غرسية مع أخذ الجزية من مملكتي بطليوس وإشبيلية.

بدأ سانشو بن فرناندو ملك قشتالة بمحاولة الاستيلاء على مملكة نبرة (نابار). فتحالف سانشو بن غرسية بن سانشو الكبير مع ابن عمه سانشو راميرز بن راميرو بن سانشو الكبير. فهزم سانشو ملك قشتالة سنة ٤٦٠/١٠٦٧ .

وقام سانشو ملك قشتالة في سنة ٤٦١/١٠٦٨ بمهاجمة أراضي ليون. وهزم ملكها ألفونسو السادس فارتدّ مسرعاً إلى ليون. ثم هاجمه مرة ثانية، وتمّ له النصر في آخر الأمر على أخيه بنصيحة من الفارس رودريغو دياث (سيعرف فيما بعد بالسيد LE CID).

واستطاع ألفونسو أن يفرّ من أسره إلى بلاط المأمون بن ذي النّون ملك طليطلة سنة ٤٦٥/١٠٧٢ . فاستقبله المأمون "بمنتهى الترحاب والإكرام وعامله كأخيه حسبما تقول الرواية النصرانية وأنزله داراً بجوار قصره. وأعدّ له كلّ ما يلزم لراحته وخصّص له داراً أخرى خارج المدينة ذات رياض وحدائق للتنزّه فيها"^(١) واغتتم ألفونسو هذه الفرصة وضبط خطة للاستيلاء على مدينة طليطلة في الوقت المناسب.

واستطاع سانشو ملك قشتالة (وأصبح يعرف بالقوي EL FUERTE) في مرحلة ثانية سنة ٤٦٤/١٠٧١ من الاستيلاء على مملكة جليقية من يد أخيه غرسيه بن فردناند. فالتجأ إلى بلاط إشبيلية، ولمّا حاول العودة إلى مملكته قبض عليه ألفونسو السادس وسجنه في حصن بقي فيه إلى وفاته سنة ٤٨٣/١٠٩٠ .

ولمّا حاول سانشو ملك قشتالة الاستيلاء على أملاك أختيه في مدينتي سمورة وتورو، تمكّنت أخته أورাকা من تدبير مؤامرة انتهت باغتياله سنة ٤٦٥/١٠٧٢ .

وجاءت الرّسل مسرعة إلى طليطلة لإعلام ألفونسو بمقتل أخيه سانشو ليتولّى مكانه حكم قشتالة. فودّعه المأمون بن ذي النّون بمنتهى الإكرام إلى حدود بلاده بعد أن قضى تسعة أشهر من سنة ٤٦٥/١٠٧٢ في بلاطه، ورغم العهد الذي قطعه ألفونسو للمأمون بعدم المسّ بمملكته فإنّه منذ وفاته لم يعد له من شاغل إلاّ الاستيلاء على طليطلة بعد أن أصبح ملكاً على قشتالة وليون وجليقية وبسقوط هذه المدينة أي طليطلة سيأخذ الصّراع بين الصليب والهلال منعرجاً آخر مع المرابطين.

كان الصّراع بين المسلمين والمسيحيين في شبه الجزيرة الإيبيرية شبه متواصل خلال القرن ٥/١١، لكن هذا لم يمنع الطرفين من العيش فترات سلم وهدوء. وقد أصبح هذا الصّراع عنيفاً دموياً عندما تتدخل عناصر أجنبية من خارج شبه الجزيرة. وكانت إمارة برشلونة بانفتاحها على جانبي البيريني ممراً للفرسان الأوروبيين المتسمين بروج

(١) عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ٣٩٠ .

(٢) كان هؤلاء الفرسان يأتون خاصة من فرنجة. وقد عاصر ابن زيدون من ملوكها روبرار الأوّل التقّي (حكم ٢٨٦/٩٩٦ - ٤٢٣/١٠٣١) وابنه هنري الأوّل (٤٢٣/١٠٣١ - ٤٥٢/١٠٦٠) وفيليب الأوّل (٤٥٢/١٠٦٠ - ٥٠٢/١١٠٨).

(٣) ولد ابن زيدون في السّنة التي توفّي فيها البابا سلفستر الثاني ٣٩٤/١٠٠٣ . وكان هذا البابا قد تعلّم قبل أن يجلس على الكرسي الرّسولي في الأندلس، وهو أوّل من أدخل الأرقام العربية إلى أوروبا (انظر مقال عدنان الرّملي حول هذا البابا بالفرنسية في دراسات أندلسية عدد ٢٧/٢٠٠٢، ص ٥-٢٤). وعاصر ابن زيدون سبعة عشر باباً أوّلهم جون السّابع عشر (ت ٣٩٤/١٠٠٣)، وآخرهم ألكسندر الثاني (ت ٤٦٦/١٠٧٣).

(٤) انظر سقوط بريشتير وسقوط قلّمرية في محطّة الحرب.

صليبيّة^(٢)، وكان التحريض القادم من روما على لسان البابوات^(٣) ومن بعض رجال الدين يحول هذه الروح الدينيّة إلى رغبة في الانتقام لا رحمة فيها ولا شفقة^(٤).

طبقات المجتمع في دول الطوائف والممالك النصارانية

أ- المجتمع الأندلسي :

إذا نظرنا إليه من حيث الجنس ينقسم إلى عرب وبربر وقوط^(١) وصقالبة^(٢). ومن حيث الدين هم : مسلمون أصليون من عرب وبربر، ومسلمون جدد أطلق عليهم اسم المولّدين^(٣) وجلّهم من سكّان شبه الجزيرة الإيبيريّة الأصليين، ومستعربون وهم النصارى واليهود ممّن تعرّبوا وحافظوا على دينهم الأصلي

(١) هم السكّان الأصليون لشبه الجزيرة الإيبيريّة.

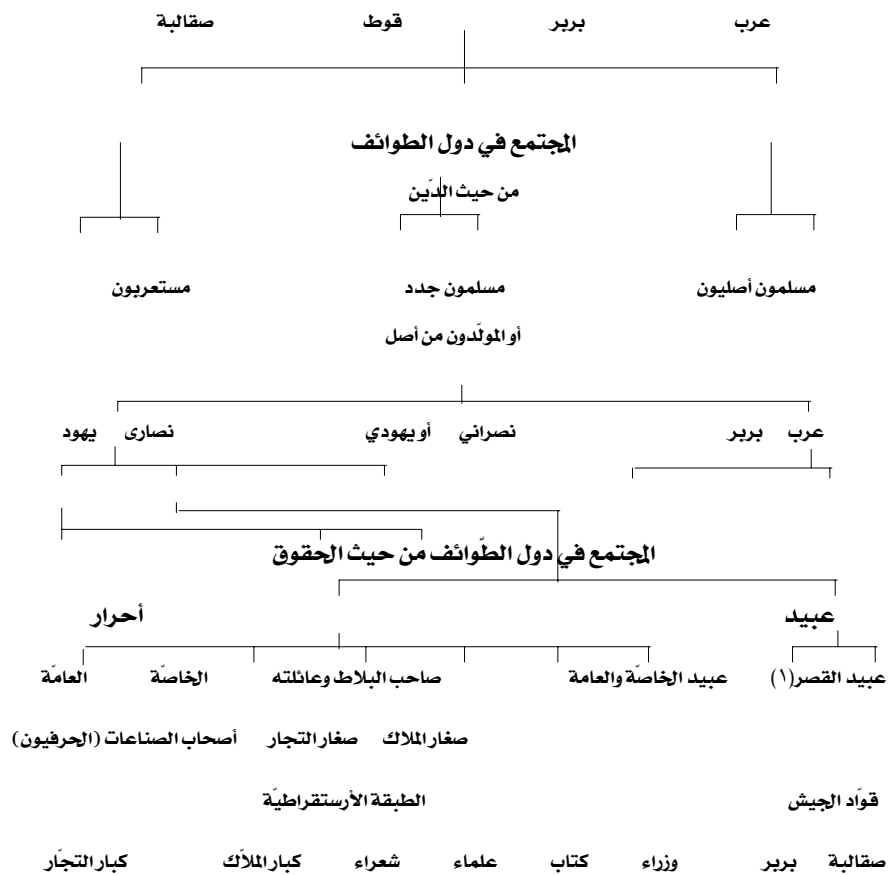
(٢) هي عناصر أوروبية بصفة عامّة وعناصر من أوروبا الشرقيّة بصفة خاصّة. Slaves.

(٣) من مشاهير المولّدين محمد بن مرتين قائد المعتمد في حملته على قرطبة وإسقاط دولة بني جهور.

ويتكلم أغلبهم زيادة على اللغة العربية اللغة الرومانثية. ومن حيث الحقوق هم عبيد وأحرار، والعبيد هم أسرى الحرب أو الرقيق المشتري من زنوج إفريقية أو من عناصر أوروبية، خاصة الصقلية منها.

المجتمع في دول الطوائف

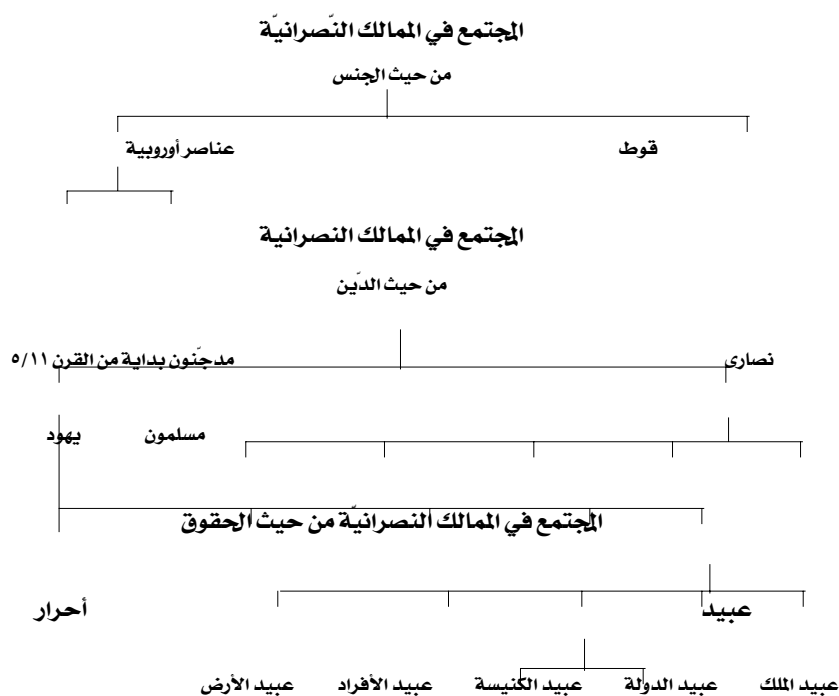
من حيث الجنس



(١) قد يصل بعضهم بعد تحريرهم إلى أعلى مناصب الدولة في القصر وفي قيادة الجيش فينتقلون بذلك إلى طبقة الخاصة، والصقالبة منهم خير مثال على ذلك.

ب - المجتمع النصراني :

من حيث الجنس أغلبهم من القوط سكان شبه الجزيرة الإيبيرية الأصليين مع مَنْ يَفِدُ على شمالها مِنْ عناصر أوروبيةٍ اخترقوا جبال البيرينييه للمساهمة في حركة الاسترداد واستقر بعضهم في إحدى الممالك النصرانية. ومن حيث الدين نجد المسيحيين (أكثرية) واليهود والمسلمين (أقلية)، وأطلق على القسمين الأخيرين اسم المدجنين^(١). ومن حيث الحقوق لا نجد اختلافاً كبيراً بين المجتمعين الإسلامي والنصراني. فهناك عبيد وأحرار، لكن هناك اختلاف بينهما في الفروع فقط : فالمجتمع الأندلسي فيه قسمان من العبيد، وفي المجتمع النصراني العبيد فيه أنواع، أمّا الأحرار فيكاد يكون المجتمعان متشابهين في هذا العنصر. ويمكن الاختلاف في التسميات باستثناء طبقة رجال الدين، فهي غير موجودة في المجتمع الإسلامي.



(١) هم الأندلسيون -من مسلمين (أكثرية) ويهود (أقلية)- الذين فضلوا البقاء تحت الحكم المسيحي بعد سقوط أراضيهم بيد حركة الاسترداد. كان عددهم محدوداً في القرن ١٠/٤، لكن هذا العدد بدأ يتضاعف منذ القرن ١١/٥ (Mudéjars).

الأشراف رجال الدين الفرسان والمحاربون^(٢) صغار الملاك صغار التجار وأصحاب الصناعات
الملك خاصة الملك كبار الملاك أشراف باللقاب أشراف بالوظائف
بالميراث بالهدية

(١) نذكر على سبيل المثال لا الحصر المرحلي الشاعر في بلاط إشبيلية والوزير الشاعر أبا عامر بن غند شلب GUNDISALVO في بلاط سرقسطة، والكونت ششندو عاش في بلاط إشبيلية ثم التحق بالنصارى في الشمال فعين حاكماً على قلمرية بعد سقوطها ثم حاكماً على طليطلة.

المستعربون

هم أهل الذمّة من يهود ونصارى حافظوا على دينهم وعاشوا في ظلّ الدولة الإسلامية بالأندلس. وأُطلق عليهم اسم المستعربين لأنّهم كانوا يتكلّمون العربيّة، زيادة على تشبّهم بالعرب في أغلب مظاهر حياتهم اليوميّة، كما أُطلق عليهم اسم المعاهدين لأنّهم يعيشون ضمن المجتمع الأندلسي حسب التشريع الإسلامي الخاصّ بهم.

وقد وجدت هذه الفئة مع الدولة الإسلامية منذ الفتح العربي لشبه الجزيرة الإيبيرية كلّ ما من شأنه أن يشجّعهم على الاستقرار في أهمّ مدن الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليلة وبلنسية وسرقسطة. فقد كانوا يزاولون شعائرهم بكلّ حرّية ويتولّى تسيير حياتهم اليوميّة رجال منهم يختارونهم بموافقة السّلطة الرّسميّة في البلاد. وكانوا يتكلّمون زيادة على اللّغة العربيّة اللّغة الرّومانيّة وهي لغة كان بعض كبار رجال البلاط من صقالبة وعرب وبربر يتكلّمونها. ومنهم من وصل إلى أعلى المناصب في قرطبة وفي غيرها من دول الطوائف، كما نبغ منهم كبار الكتّاب وفحول الشّعراء ومهرة الأطباء^(١).

ولما سقطت دولة الخلافة بقرطبة انحاز أغلبهم إلى الحزب العامري الأندلسي ضدّ الحزب البربري. لذا نراهم عندما سيطر البربر على قرطبة أثناء الفتنة الكبرى يغادرونها مع الفتيان العامريّين إلى شرق الأندلس.

ويمكن أن نعتبر أنّ شرق الأندلس مع الفتيان العامريّين أوّلاً ثمّ مع مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة في دانية والجزائر الشرقيّة أفضل مكان آمن اختاره هؤلاء المعاهدون. كما عوملوا بمنتهى التسامح في دولة سرقسطة. وكان جيش بني هود يضمّ بصفة دائمة تقريباً فيلقاً من النّصارى. وكان الفارس القشتالي "السيد" المشهور قائداً في هذا الجيش

(١) ثار أهل سرقسطة على النصارى سنة ٤٥٨/١٠٦٥ بعد سقوط بريشتير كما ثار أهل غرناطة على اليهود سنة ٤٥٩/١٠٦٦، وقد تكون هذه الثورة بتحريض من النّصارى، والدليل على ذلك أنّ عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة عوّض اليهود في المناصب الكبرى بأكابر نصارى قشتالة.

لعدة سنوات.

أمّا في قرطبة، وبعد أن استقرّت الأمور بها على يد حكيم الجماعة أبي الحزم ابن جهور، فقد ندب الوزير الشاعر ابن زيدون للنظر في شؤون المستعربين، واتّخذ ابن جهور - كغيره من ملوك الطوائف - من حمايتهم وتأمينهم أحد ركائز سياسته تجاه المجتمع القرطبي بجميع فئاته وأصنافه.

ولا شكّ أنّ أمراء الطوائف في القرن ٥/١١، وقد ضعف أمرهم أمام ملوك النصارى، كانوا يتعمّدون معاملة المعاهدين معاملة حسنة حسب التشريع الإسلامي الخاص بأهل الذمة، تجنّباً لدسائسهم في الدّاخل واتّقاء لغزو نصارى الشّمال من الخارج بذريعة حماية هؤلاء المعاهدين بأرض الإسلام.

ولم يمنع حسن معاملة حكام الأندلس لهذه الفئة من المجتمع الأندلسي من أخذ الحذر والاحتياط من دسائسهم ومكائدهم، خاصّة بعد أن اضطربت أحوال الأندلس بسبب السياسة الانتحارية للملوك الطوائف.

وقد لعب هؤلاء المعاهدون دوراً بارزاً في حركة الاسترداد الإسبانيّة فكانوا أحد المعاول التي ساعدت على ذلك صرح الدولة الإسلاميّة بالأندلس في بداية القرن ٥/١١ . وتواصل خطرهم في عهد ملوك الطوائف، وكانوا سبباً في سقوط عدّة مدن بعد أن أصبح طمع النّصارى في أراضي المسلمين واضحاً جليّاً : لقد ساعدوا على سقوط قلمريّة وبريشتر، وبلنسيّة. وكان من الطبيعي أن يثور المسلمون عليهم في بعض المدن الأخرى أخذاً بثأر إخوانهم ممّن قتلوا وأسرّوا وهجّروا^(١). وكان من الطبيعي أن يتفطّن المرابطون في نهاية القرن ٥/١١ إلى خطر المعاهدين فكان موقفهم أكثر حزمًا وشدة منهم درءاً لخطرهم ودفاعاً عن حوزة الإسلام بالأندلس المهدّدة.

(١) أعمال الأعلام، ص ٣٦ .

محطة الفتنة الكبرى

١٠٣٠ / ٤٢٢ - ١٠٠٩ / ٣٩٩

قال ابن حيان : «الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمّة، المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤتلة، المغربية الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية». المقتبس، ص ٢٨ (تمهيد).

بدأت وسنّ ابن زيدون خمس سنوات وانتهت وسنّه ٢٨ سنة أي بدأت وهو في سنّ الطّفولة والبراءة وانتهت وهو في سنّ الشّبّاب والطّمّوح. ومن حيث الرّزمن بدأت من نهاية القرن ٤/١٠ إلى حوالي نهاية الرّبع الأوّل من القرن ٥/١١، فامتدّت هكذا طيلة ٢٣ سنة، انفصمت فيها عرى البلاد وتقسّمت شيعاً وأحزاباً : بدأت من حيث الأحداث بسقوط الدّولة العامريّة وهي في أوج عزّتها وقوّتها. وانتهت بزوال الخلافة الأمويّة رسمياً بقرطبة. فما هي أسباب هذه الفتنة ؟

أ - أسبابها :

ذكر ابن الخطيب سببين لاندلاع الفتن بصفة عامّة بالأندلس : السبب الأوّل جغرافي والسبب الثّاني اجتماعي وله جانبان : الجانب الأوّل نفسي يتعلّق بعامّة أهل الأندلس من عرب وبربر، والجانب الثّاني أخلاقي ويتعلّق بضعف الرّوح الوطنيّة وقصر النّظر عند الخاصّة قال ابن الخطيب : "والسبب في كثرة التّوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأوّل منعة البلاد وحصانة المعازل وبأس أهلها بمقاربتهم عدوّ الدّين. فهو شوكة وحدّ بخلاف سواهم، والثّاني علوّ الهمم وشمّوخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطّاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض. والثّالث الاستناد عند الضّيقة والاضطرار إلى الجبل الأشمّ والمعقل الأعظم من ملك النّصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض^(١) وقال جامعاً بين السببين السّابقين : "وذهب أهل

(١) ابن حيان : المقتبس، ص ١١٨ (من التّمهيد).

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) عمل الأمويّون منذ عبد الرّحمان الدّاخل على التخلّص من العصبية العربيّة وذلك بتحطيم أهمّ زعاماتها وكبار رجالاتها (المؤلف).

الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازاتها بالمحلّ القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب^(٢).

السبب الثالث : سياسي وهو الخطأ الذي وقع فيه الحكم المستنصر بإسناد ولاية العهد إلى ابنه هشام المؤيد وهو مازال في سنّ الطفولة. قال ابن حيّان "إلا أنه (أي الحكم المستنصر) -تغمّد الله خطاياهم- مع ما وصف من رجاحته كان ممّن استهواه الولد وأفرط فيه وخالف الحزم في توريثه (أي ابنه هشام) بعده في سنّ الصبّ دون مشيخة الإخوة، وفتيان العشيرة، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة، فرط هوى ووهلة، انتقدوا الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته، وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله، فأتاها هو مختاراً، ولا مردّ لأمر الله"^(١).

السبب الرابع عسكري : وهو استجلاب مكثّف للبربر من شمال إفريقيا على يد المنصور بن أبي عامر "فكان ذلك سبباً لتقدّمهم طوائف الجند الأندلسي وهدمهم للملك العادي (أي القديم المؤثّل) وألقاهم للفتنة البربرية الحالقة... وانتهى الأمر بهم (أي جند البربر) إلى ما هم الآن بصدد من إبطال الخلافة وتفريق الجماعة والتّمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على الهلكة"^(٢).

هذه الأسباب تنطبق على الفتن بالأندلس بصفة عامّة وعلى الفتنة الكبرى بصفة خاصّة. وبعضها قديم يتعلّق بصلب المجتمع الأندلسي منذ أن وطئت أقدام أول فاتح مسلم شبه الجزيرة الإيبيرية^(٣). وهناك عوامل آنية كانت السبب المباشر لاندلاع الفتنة. فهي بالنسبة إلى الأسباب الأولى كعود الكبريت الذي أشعل وسط مواد قابلة للالتهاب والانفجار، وتراكمت شيئاً فشيئاً فحدثت الكارثة التي لم يتصوّر أغلب الناس مدى خطورتها أول الأمر.

(١) البيان المغرب ٣/١٣ .

(٢) الصّقالة تطلق في الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلية (السلافية) الحقيقية، ثمّ غدت تطلق بمضي الزّمن على جميع الأجانب الذين يعملون في البطانة وفي القصر. (عبد الله عنان : عصر الخلافة، ص ٩٠٩).

(٣) خسر النّاصر موقعة الخندق مع نصارى الشّمال سنة ٩٣٨ ٣٢٧/ بسبب خيانة العناصر العربية في جيشه.

(٤) إبراهيم بن إدريس العلوي الحسيني عاصر المنصور بن أبي عامر، وعاش أيام الفتنة. وكان يحقد على المنصور لغدره بحسن بن قنون كبير عائلة الإدارة الحسينيين (ابن الأبار : الحلة ٢٢٦/١).

(٥) المصدر السابق ٢٢٧/١ .

لقد استطاع المنصور بن أبي عامر، بعد أن تخلّص من أعدائه السياسيين الواحد بعد الآخر، وسيطر سيطرة مطلقة على دواليب الحكم داخل الدولة أن يوجد نوعاً جديداً من نظام الحكم : للخليفة الأموي فيه المظهر التشريفي. وللحاجب السلطة الفعلية. فأقام بذلك دولة داخل دولة. وفرض هذا النظام، سلك المنصور قاعدة "الغاية تبرّر الوسيلة". وسيطر بمهارة ومقدرة على كلّ مراكز النّفوذ، ونكّل بكلّ من تحدّثه نفسه بالطعن - في ما استحدثه - قولاً وفعلاً. فعاش المجتمع الأندلسي في كابوس مزدوج من الرّهبة والكبت في ظلّ نظام عسكري فردي.

وقد خلق هذا السلوك نفوراً من المنصور خاصّة ومن العامريين عامّة أكّد عليه ابن حيّان بقوله : "وكان أهل قرطبة من قلّة الرّضا عن أملاكهم العامريين بحال من الجور عظيمة إلى أن وثبوا عليهم فأهلكوا الدولة وبها حان حينهم والله يحكم لا معقّب لحكمه"^(١).

وكان هذا المجتمع متركّباً من ثلاث كتل عرقية : العرب والبربر والصقالبة^(٢) أمّا الكتلة العربية - بما اتّسمت به من طموح سياسي ومشاكسة للسلطة المركزية - فقد بدأت تفقد كثيراً من امتيازاتها، وتخسر مكانتها المرموقة في أعلى السلم الطبقي للمجتمع الأندلسي منذ عهد النّاصر^(٣) وتركت مكانها نسبياً للكتلة الصقلبية من الفتان. لكن في عهد المنصور بن أبي عامر، احتلّ البربر شيئاً فشيئاً مركز الصّدارة لاعتماده عليهم اعتماداً كلياً في الجيش، فكوّن بذلك منهم قوّة مكنته من تدعيم نفوذه في الدّاخل، وفرض حرباً تكاد تكون متواصلة ضدّ النصارى في الخارج.

ولم يمرّ هذا التّناوب على الصّدارة بين الكتل الثلاث دون أن يترك في النفوس أحقاداً. ولم يقع التّغيير في نظام الحكم مع المنصور دون أن تتحرّك ضغائن. لقد رأى بعضهم في ابن أبي عامر غاصباً للسلطة من الخليفة الشرعي وما جرّأته وطموحه في ما قام به من حجر ضدّ هشام المؤيّد إلّا مرحلة أولى لافتكاك الحكم من عائلة بني أميّة نهائياً

(١) نيكل (مختارات من الشّعر الأندلسي) : ٤٥ .

(٢) قتله المنصور يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة ٩/٣٨٠ ديسمبر ٩٩٠ (عبد الله عنان : دولة الأندلس : عصر الخلافة : ٢ - ٦١).

(٣) هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرّحمان النّاصر قتله المنصور ١٠٠٦/٣٩٧ (المرجع السّابق : ٦ - ١٢٥).

ووضعه في بني عامر. وفعلاً كانت مثل هذه الأفكار المزعجة تخامر أذهان عدد لا بأس به من بني أمية وأتباعهم. فتقلقهم وتقض مضجعهم. وقد عبّر إبراهيم بن إدريس^(٤) عن هذا القلق وهذه الحيرة بقوله^(٥):

[الكامل]

فِي مَا أَرَى عَجَبٌ لِمَنْ يَتَعَجَّبُ
جَلَتْ مُصِيبَتُنَا وَضَاقَ الْمَذْهَبُ
إِنِّي لَأُكْذِبُ مُقْلَتِي فِي مَا أَرَى
حَتَّى أَقُولَ غَلَطْتُ فِي مَا أَحْسِبُ

ولا يحاول الشاعر أن يخفي حقه على المنصور، فتراه يظهره في صورة مزرية خلقها وخلقاً، وفي ذلك ما فيه من تنديد به وتحريض عليه^(١):

أَيَكُونُ حَيًّا مِنْ أُمِيَّةٍ وَاحِدٍ
وَيَسُوسُ ضَخَمَ الْمُلِكِ هَذَا الْأَحْدَبُ ؟
تَمْشِي عَسَاكِرُهُمْ حَوَالِي هَوْدَجٍ
أَعْوَادُهُ فِيهِنَّ قِرْدٌ أَشْهَبُ
أَبْنِي أُمِيَّةٍ أَيْنَ أَقْمَارُ الدُّجَى
مِنْكُمْ، وَمَا لَوْجُوهَا تَتَغَيَّبُ؟

(١) محمد بن هشام بن عبد الجبار : هو مشعل نار الفتنة الكبرى بقرطبة في ١٧ جمادى ٢/٣٩٩، فيفري ١٠٠٩ مدة ولايته إلى أن قتل في ٨ ذي الحجة ٢٣/٤٠٠ جويلية ١٠١٠ : ١٧ شهرا من جملتها ستة أشهر كان فيها سليمان - منافسه - بقرطبة وكان هو بالتغر (الزركلي : الأعلام : ٣٥٦/٧).

(٢) أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد بقسطة دراج (انظر هذه المادة في الحميري : الروض : ١٦٠) سنة ٩٥٨/٣٤٧ وتوفي ١٠٣٠/٤٢١ وكان قد تجاوز (٥٠) من عمره عندما نشبت الفتنة واضطر لسوء الحال وكثرة العيال إلى مدح جل من تولى السلطة تكسبا سواء في قرطبة أو سرقسطة (إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة : ٢٣٧ وما بعدها).

(٣) ديوان ابن دراج : ٤٤-٥٠.

(٤) أي الخلافة.

(٥) عبد الرحمن شنجول : تولى الحجابة بعد أخيه عبد الملك، قتل بعد أن ثار عليه محمد المهدي سنة ١٠١٠/٤٠٠ (الزركلي : الأعلام : ٤/١٠٠).

غَابَتْ أَسْوَدُ مِنْكُمْ عَنْ غَايِبَهَا
فَلِذَاكَ حَازَ الْمَلِكُ هَذَا التَّغْلِبُ

ولا شكَّ أنَّ ما يختلج في نفس هذا الشَّاعر، هو ما كان يختلج في نفوس كثير من معارضي سياسة المنصور، فهو لا يعبر عن موقف شخصي، وإنما يعبر عن موقف طبقة لا يستهان بها من المجتمع الأندلسي. وهذا ما حدا بالمنصور إلى الفتك بكلِّ معارضيه، حتَّى ولو كانوا من أقرب النَّاس إليه كابنه عبد الله^(١)، أو من أعيان بني أمية كهشام بن عبد الجبار^(٢).

وما هشام هذا إلاَّ والد محمد المهدي^(١) الذي ستنهار دعائم الدَّولة العامرية على يديه، ولهذا يرى ابن دراج^(٢)، أنَّ ثورة المهدي - وهي الشرارة الأولى التي انطلقت في هذه الفتنة - هي أخذ بثأر لشهيد سفك دمه ظلما، وتجسيما لرغبة جماعية أبهجت النفوس وأثلجت الصدور. قال يمدح المهدي :

[الكامل]^(٣)

وَسَعَى فَأَدْرَكَ بَعْدَ ثَارِكٍ^(٤) ثَارَهُ
مِنْ كُلِّ مُمْتَنِعٍ مِنَ الْإِدْرَاكِ
وَأَبَاحَ كُلَّ حِمَى لِكُلِّ مُضَلِّلٍ
غَاوٍ أَبَاحَ حِمَى الْهُدَى وَحِمَاكَ
فَشَفَى نَفُوسَ الْمُسْلِمِينَ وَنَفْسَهُ
لَمَّا سَقَى الدُّنْيَا دِمَاءَ عِدَاكَ
بِشْهِيدِ آلِ اللَّهِ وَالْمَلِكِ الَّذِي
لَا كَفَاءَ مِنْ دَمِهِ الْكَرِيمِ الزَّاكِي

هذه بعض الأسباب النفسية التي يشير إليها الشَّعر ولها علاقة بالناحيتين السياسية

(١) لم نجد له ترجمة.

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ٩٤ / .

(٣) صاعد البغدادي : ولد بالموصل ونشأ ببغداد وانتقل إلى الأندلس حوالي ١/٣٨٠-٩٩٠ فأكرمه المنصور بن أبي عامر. خرج بعد نشوب الفتنة إلى صقلية وتوفي بها. ١٠٢٦/٤١٧ (الزركلي : الأعلام : ٢٧١/٣).

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ٩٤ .

والاجتماعية. وهي أسباب كانت تتفاعل وتزداد حدة يوماً بعد يوم في أتون حكم العامريين الفردي، على أن المنصور وابنه المظفر استطاعا أن يذراً على جمر الأحقاد في نفوس المعارضين رماداً من الترهيب والترغيب، فجعلوا القدر مستقرة إلى حين، على أثارها الثلاث. ولكن ما إن توفي عبد الملك المظفر وحل محله في الحجابة أخوه عبد الرحمان الملقب بشنجل Sanchuelo^(٥) حتى انقلبت القدر رأساً على عقب. ذلك أن شنجل تناول وتجراً على ما لم يتجرأ عليه أبوه وأخوه من قبل، فآثار بذلك شكوك الأمويين ومخاوفهم. فقد أرغم هشام المؤيد على أن يسند إليه ولاية العهد بعده. فكان ذلك إيذاناً بحلول الطامة الكبرى والفجيعة العظمى.

والشعر الذي بقي في خصوص تعيين شنجل لولاية العهد يبدو أنه شعر رسمي أو انتهازى. ذلك أن المجتمع الأندلسي - رغم أنه سئم تلك الثنائية في السلطة العليا - كان يرى في انتقالها من عائلة إلى أخرى مساً بتقاليد عريقة ما كان لها أن تُمس لها في النفس من هيبة وقديسية، هما السبب الرئيسي فيما تنعم به الأندلس من استقرار نسبي.

على أن هذا الشعر وإن كان على تلك الصفة. فهو لا يخلو من تصوير لجانب من الحقيقة. فتعيين ولي العهد لم يكن حسب رغبة شعبية. وإنما هو تعيين شاءته القدرة الإلهية، ونفذه الخليفة باعتباره ظلاً له على الأرض. قال أبو منصور زيادة الله الضبي:^(١)
[البسيط]^(٢)

تَخَيَّرَ اللَّهُ وَالسُّلْطَانُ لِلْأَمَمِ
وَلِيَّ عَهْدٍ بَرَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرَمِ

ومع تصوير هذه الحقيقة، يحاول الشعراء تبرير هذا الحدث وإضفاء الصبغة الشرعية عليه، فخصال الممدوح ومؤهلاته كافية لأخذ مثل هذا القرار الخطير. قال صاعد البغدادي:^(٣)
[الطويل]^(٤)

أَمَّا وَالَّذِي أَعْطَى الْخِلَافَةَ رَبَّهَا

(١) المصدر السابق، ٩٦. (٢) كاتب الرسائل: مولى بني مروان (المصدر السابق ٩٥).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ٩٦/٩. (٤) هو لقب عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر.
(٥) أبو هريرة: هو عبد الرحمان بن صخر: (٢١/٦٠٢ - ٥٩/٦٧٩). صحابي محدث (الزركلي: الأعلام: ١٤٩-١٥٠/١).

أَعْرَ مُعِمًّا فِي التَّبَايَعِ مُخَوَلَا
لَقَدْ حَازَهَا مُرْخٌ عَلَيْهَا جَنَاحُهُ
عُقَابٌ إِذَا مَا أَعْلَقَ الصَّيْدَ جَلَجَلَا

والدِّينَ أَوَّلَ مُسْتَفِيدٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ وَهَذِهِ الْمُؤَهَّلَاتِ. قَالَ أَبُو مَنْصُورِ الضَّبِّي:
[الكامل] (١)

بِوَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ سَمَا التُّقَى
وَأَبْيَضَ وَجْهُ الدِّينِ حَتَّى أَشْرَقَا

ووليَّ العهد المعين سينكل بالمشركين، وسيكون بمفرده - والعزيمة تحدوه - كالفيلق
الجرار أمام العدو. قال كاتب الرسائل (٢):

[الكامل] (٣)

الآنَ عَادَ الدَّهْرُ حَقًّا مُشْرِقَا
وَتَمَكَّنَتْ أَرْجَاؤُهُ وَاسْتَوْسَقَا
بِوَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ غَدَا
فِي الْمُشْرِكِينَ إِذَا تَقَحَّمَ فَيَلَقَا

ويبرر هذا الشاعر تقديم غير القرشي على القرشي للخلافة بالنظر إلى الواقع،
وبالرجوع إلى ما أوتر عن السلف الصالح من أقوال. وهذا الخليفة نفسه فتش عن كفاء
في بني مروان لولاية العهد فلم يجد :
أُمْسَى يُفْتَشُّ قَوْمُهُ وَعَشِيرُهُ

(١) ابن ذكوان: هو أبو العباس أحمد بن عبد الله قاضي قضاة الأندلس. كان مبدلاً محترماً في دولة بني عامر. ولما
قامت الفتنة نفي وأهله إلى المرية فوهران، ثم أعيدها فاعتزل الناس إلى أن توفي ١٠٢٢/٤١٣. (الزركلي : الأعلام
: ١٤٩-٥٠/١).

(٢) ابن برد : أبو حفص أحمد : وزير وكاتب وشاعر كان مقدماً في عهد الدولة العامرية. توفي بعد ١٠٢٧/٤١٨ .
(الزركلي : ٩٩/١).

(٣) كان ذلك في ١٥ ربيع ١ ، ٣٩٩/١٨ ، نوفمبر ١٠٠٨ . (انظر نص المرسوم في كتاب عبد الله عنان : دولة الإسلام
بالأندلس : عصر الخلافة، ٥٧٢).

(٤) لم نعثر له على ترجمة.

(٥) ابن الأبار : الحلة ٢٧٢/١.

(٦) تزوج المنصور بن أبي عامر من بنت شانجة الثاني Sancho Garcés II بن غرسية الأول بن شانجة ملك نبرة
Navarre فأنجبت له عبد الرحمن حوالي ٩٨٤/٣٧٤ وكانت أمه تناديه تحبباً سانشويلو Sanchuelo فأصبح
هذا اللقب في العربية شنجول (المصدر السابق).

شُحًا عَلَيَّهَا وَالْحَمِيمِ الْأَصَقَا
 وَرَجَا بِأَنْ يُلْفِي إِذَا مَا فَتَّشُوا
 فِي عِبْدِ شَمْسٍ لِلْخِلَافَةِ مَعْلَقَا
 فَرَأَهُمْ مُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْعَلَا
 لَا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يَسُوسُوا جَرْدَقَا
 فَرَمَى إِلَى الْمَأْمُونِ^(٤) أَمْرَ جَمِيعِهِمْ
 إِذْ لَمْ يَزَلْ حَذْبًا عَلَيَّهَا مُشْفِقَا
 قَالُوا إِذَا ضَعُفَتْ قُرَيْشٌ أُخِّرَتْ
 وَأَبُو هُرَيْرَةَ^(٥) قَالَ ذَاكَ مُصَدَّقَا
 وَآتَى عَنِ الْفَارُوقِ أَكْرَمَ أُسْوَةٍ
 خَبَرُ غَدَا لِلْخَافِقِينَ مُطَبَّقَا
 لَوْ أَنَّ فِيكُمْ سَالِمًا قَدَّمْتُهُ
 لِيَلِيَ الْأُمُورَ مُغَرَّبًا وَمُشْرِقَا

لكن هل أن القاضي أبا العباس بن ذكوان^(١) والكاتب أبا حفص بن برد^(٢) - وهما
 من أعيان الدولة وأهل الحل والعقد بها- قد اقتنعا بهذه الحجج فقاما بتدبيح مرسوم ولاية
 العهد على لسان الخليفة هشام المؤيد المغلوب على أمره؟

إنَّ الشَّعْرَ يَحْمَلُ هَاتَيْنِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ تَبْعَةً مَا نَتَجَّ عَنْ عَمَلِهِمَا مِنْ انْخِرَامٍ وَتَصَدَّعٍ.
 فقد ناقضا الدين، وعاندا الحقَّ بتحرير ذلك المرسوم^(٣) الَّذِي كَانَ يَخُولُ لِدَعْيَى ذِي أُمُومَةٍ

(١) أبو إسحاق الإلبيري : إبراهيم بن مسعود بن سعيد التَّجِيبِي : فقيه وقاض. كان السَّبَبُ المباشر في نكبة اليهود
 بغرناطة بقصيد قالها في التَّحْرِيزِ عليهم ت ١٣٤/١. /1067/459. 134EI (2) كتب المقال غرسية غوث.

(٢) ديوان أبي إسحاق ٧٥/٦

(٣) مدينة إلبيرة وقد خربت أثناء الفتنة الكبرى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م.

(٤) إشارة للآية ١٦ من سورة الحديد ٥٧ (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ).

(٥) لم نتمكن من معرفته.

(٦) ابن عذاري : البيان : ١١٠/٣ .

(٧) قد نرى في هذا التعليل دليلاً على عدم وعي بحقيقة المشكلة. وهو بذلك يصور لنا جانباً من تفكير المجتمع

أعجميّة الاستيلاء على منصب الخلافة. قال ابن أبي يزيد المصري: (٤)

[مخلّع البسيط] (٥)

إِنَّ ابْنَ ذَكَرٍ وَأَبْنَ بُرْدٍ
قَدْ نَاقَضَا الدِّينَ بَعْدَ عَمْدٍ
وَعَانَدَا الْحَقَّ إِذْ أَقَامَا
حَفِيدَ شَنْجَهٍ (٦) وَلِيَّ عَهْدٍ

هذه الأسباب التي أدت إلى الفتنة الكبرى الأولى بالأندلس، ووجدناها في الشعر، قد نجد بعضها في كتب المؤرخين. فهي حينئذ مشتركة، وينفرد الشعر بذكر أسباب لا يمكن للمؤرخ - وحق له ذلك - أن يعتمد عليها نظرا إلى انعدام ما يبررها لكن الشاعر يجهر بها، لأنها قد تخالج النفوس وربما تراود العقول. فهذا أبو إسحاق الإلبيري (١) - وهو رجل يمثل فئة من المجتمع الأندلسي تتمسك بالدين قولاً وعملاً - يرى أن السبب الرئيسي لهذه النكبة هو الذنوب. فقد أخذ الله الأندلسيين بذنوبهم. قال أبو إسحاق:

[الطويل] (٢)

وساءلت عنهم رسمها (٣) فأجابني
(أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ ذَاهِبٌ)
يُخَاطِبُنَا : أَنْ قَدْ أُخِذْتُ بِذَنْبِكُمْ
وَمَا أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنِ الذَّنْبِ تَائِبٌ
وَأَنْ قَدْ قَسَتْ أَكْبَادُكُمْ وَقُلُوبُكُمْ
وَمَا مِنْكُمْ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ (٤)

ويرى أحد شعراء (٥) قرطبة أن ما أصاب هذه المدينة في الفتنة، هو نظرة من عين حسود حاقد، رأى كمالها وبهاؤها، فكانت نظرتة تلك كالزلال الذي دكها ودمرها. وكأن الدهر أعار قرطبة كل محاسنها وجمالها ثم استرجع ما أعاره كلاً، فطمس معالمها ومحا آثارها:

(١) لم نتمكن من معرفته.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق ١١ - ١١٠

(٤) الآيات ٢ و ٣ و ٤ من سورة الحشر ٥٩ كلها وصف لنقمة الله وعذابه على من زاغوا عن الحق.

(٥) الآية ٢٠ من سورة الكهف ١٨ هي (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا).

[السريع]^(٦)

إِبْكِ عَلَى قُرْطَبَةَ الزَّيْنِ
فَقَدْ دَهَنَتْهَا نَظْرَةُ الْعَيْنِ
أَنْظَرَهَا الدَّهْرُ بِأَسْلَافِهِ
ثُمَّ تَقَاضَى جُمْلَةُ الدِّينِ^(٧)

ولا نعدم بعض الأمثلة الأخرى في الشعر، لا تعزو ما حلّ بالمجتمع الأندلسي أثناء الفتنة إلى عوامل غيبية مجردة كما رأينا، وإنما تحمل مسؤولية ذلك المجتمع نفسه. فسوء التدبير الناتج عن تغلب النفس الأمارة بالسوء، وتكبير العقل أدباً إلى أن تاه هذا المجتمع في سبيل الغي، وانطفأت حوله كل مصابيح الهداية والرشاد. قال الشاعر:^(١)

[البسيط]^(٢)

أَضَعْتُمُ الْحَزْمَ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِكُمْ
سَتَعْلَمُونَ مَعَا عَقَبَى الْبَوَارِ غَدَا
فَلَوْ رَأَيْتُمْ بَعَيْنَ الْفِكْرِ حَالَكُمْ
بَكَيْتُمْ بِدَمٍ أَنْ دُمْتُمْ بَدَدَا
لَكِنْ سُبُلَ الْعَمَى أَعَمَّتْ بِصَائِرِكُمْ
فَأَلْبَسْتُكُمْ ثِيَاباً لِلْبَلَى جُدَدَا

لقد ترك هذا المجتمع لأهوائه الحبل على الغارب، وفعل بنفسه ما لا يفعل العدو به. ومع أن التنزيل حذر عندما وصف أقواماً زاغوا عن الحق، فحلّ بهم ما حلّ من الويل، فإنّ

(١) قال ابن الخطيب في أرجوزته مشيراً إلى هذا الحدث، ص ٣٩:

ثُمَّ مَحَا الْخِلَافَةَ الْخِلَافُ
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ ائْتِلَافُ
فَغَلَبَ الْأَمْرَ الْمَسْمُومَ الْمَهْدِي
وَأَصْبَحَ الدِّينُ بِهِ فِي جَهْدِ

(٢) قال إبراهيم بن القاسم (من أعجب ما رأيت من عبر الدنيا أنه تمّ من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ، إلى نصف نهار يوم الأربعاء تتمة الشهر، وفي مثل ساعته : فتح مدينة قرطبة، وهدم مدينة الزهراء وخلع خليفة قديم ونصب خليفة جديد وزوال آل عامر وكرور دولة بني أمية وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدولة والتجربة ونكوب وزراء جلة ونصب أضدادهم...) (ابن عذاري : البيان : ٧٤/٣).

(٣) «وتهافت الناس على ابن عبد الجبار تهافت الفراش على النار فلم يتوقّف عن بيعته أحد ولا استنكف عن قبض عطائه... ولم يتخلّف عن أخذ ماله واستحلال نهبه والدخول في فتنته فقيه ولا عالم ولا عادل ولا إمام ولا حاج ولا تاجر إلّا قام في نصرته بما قوي عليه من لسانه ويده» (المصدر السابق ٦٢/٣).

ذلك لم يكن له عبرة. فما عليه إلا أن يتحمل ما ينجر عن قبح أعماله وشنيع أفعاله من وخيم العواقب^(٣):

يَا أُمَّة هَتَكْتَ مَسْتُورَ سَوْءَتِهَا
مَا كُلُّ مَنْ ذَلَّ أُعْطِيَ بِالصَّغَارِ يَدًا
فِي سُورَةِ الْحَشْرِ^(٤) آيَاتُ مَفْصَلَةٍ
فِي شَأْنِكُمْ أُنْزِلَتْ لَمْ تَعْدُكُمْ أَحَدًا
نَعَمْ وَفِي الْكَهْفِ فِي الْعَشْرِينَ خَاتَمَةً^(٥)
تَقْضِي عَلَيْكُمْ بَأْنَ لَا تُفْلِحُوا أَبَدًا
فَاسْتَشْعِرُوا سُوءَ عُقْبَاكُمْ فَقَدْ شَمِلَتْ
جَمِيعَكُمْ مِحْنَةٌ لَا تَنْقُضِي أَبَدًا

ب - مراحلها:

وهكذا تضافرت كل هذه العوامل ما خفي منها وما ظهر، وما كان تعبيراً عن حقد شخصي أو تعبيراً عن رغبة جماعية، لتلقي بعاصمة الخلافة الأموية في أتون الفتنة العارمة.

وقد أتاح عبد الرحمن شنجول -عندما خرج من قرطبة في جمادى الأولى ٣٩٩ جانفي ١٠٠٩ على رأس جيشه لغزو النصارى في الشمال، على غرار سنة والده وأخيه - الفرصة لمناوئيه من الأمويين والعناصر الحاقدة على سياسته والمبغضة لسلوكه للقيام

(١) في هذه المرحلة مازال الجميع -رغم اختلاف وجهات نظرهم إلى حدّ التقاتل- يؤمنون ببقاء الخلافة في بني أمية.
(٢) سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر يلقب بالمستعين (٣٥٤ - ٩٦٥) (٤٠٧ - ١٠١٦) : هو ثاني من تولى الخلافة من الأمويين بعد قيام الفتنة. كان يتزعم الحزب البربري. دارت بينه وبين المهدي حروب شديدة انتهت بانتصاره. قتله علي بن حمود وهو أحد قواده من البربر (الزركلي : الأعلام ١٨٤/٣).

(٣) هشام هذا هو عم سليمان المستعين. قتل مع ابنه سليمان إثر الثورة الفاشلة التي قام بها ضد المهدي (١٠٠٩/٣٩٩) (عبد الله عنان : دولة الإسلام بالأندلس : عصر الخلافة : ١٤٩).

(٤) أرملاط يطلق عليها اليوم اسم GUADIMELLATO.

(٥) قلعة رباح : من أعمال جيان بين قرطبة وطليلة (انظر وصف الحميري لها في الروض ١٦٣).

(٦) أبو طالب عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ مؤرخ من أهل قرطبة مرواني النسب ت ١١٢٢/٥١٦ (الزركلي : الأعلام ٤٨/٤).

(٧) الضمير يعود على المهدي.

بثورة ضده تزعمها أحد أحفاد الناصر، وهو محمد بن عبد الجبار الملقب فيما بعد بالمهدي^(١) وجرّت الأحداث بسرعة^(٢) : ذلك أنّ الثورة وجدت تجاوباً عاماً^(٣) فشاركت فيها عناصر شتّى من المجتمع القرطبي، يجمعها الملل من القهر العامري من جهة، وما بنيت عليه النفسية الأندلسية من حب التغيير من جهة أخرى. ولم يكن لزعيم هذه الانتفاضة من المؤهلات ما يخول له المسك بزمام الأمور. فقد كان أقرب إلى رجل مغامر تحدوه نوازع ذاتية ومآرب شخصية منه إلى زعيم محنك، له برنامج محكم وخطة مدروسة. وما موقفه من العناصر البربرية التي تخلّت عن شنجول ورجعت إلى قرطبة حين علمت بثورته، إلاّ دليل على قصر النظر وقلة الخبرة، وعدم التمييز. فكان سلوكه مع هؤلاء البربر - الذين يجب أن يقرأ لهم ألف حساب في ذلك الظرف - أولى بوارد الاصطدام الدموي بين العنصرين الرئيسيين في المجتمع القرطبي، وهما أهل الأندلس من العرب وغيرهم من العناصر التي تعرّبت، وأهل العدو من قبائل البربر المختلفة. وسيمرّ هذا الاصطدام بثلاث مراحل رئيسية بالنظر إلى الزعامة التي كانت تقود القوى المتقاتلة :

- الفترة الأموية الأولى: وكان الصراع فيها بين زعيمين من عائلة بني أمية^(٤): هما : محمد المهدي وسليمان المستعين^(٥)، تزعم الأول الطائفة الأندلسية، وتزعم الثاني العناصر البربرية. وقد انطلقت الشرارة الأولى عندما قام المهدي بسجن وليّ عهده سليمان بن هشام بن سليمان بن الناصر فحقد عليه هشام^(٦) - والده - وثار عليه يسانده في ذلك البربر الناقمون عليه لموقفه المعادي لهم، وبعض الفتيان العامريين الحاقدين عليه لما قام به

(١) قال ابن الخطيب في رقم الحل، ص ٤٠ :

وقدموا عليهم سليمان من بعد ما أعطوه صفو الإيمان

(٢) ديوان ابن درّاج : ٥٢.

(٣) سانشو غرسية ويسميه ابن عذاري في البيان المغرب ١١٠/٣ : ابن مامة ت ٥ رمضان ٤٠٨/٥ فيفري ١٠١٧ (L. Provençal : Hist. de l'Espagne Musul. Tome II, p. 308 et 317).

(٤) قال ابن الخطيب في رقم الحل، ص ٤٠ :

واستجدوا من الفرنج جمعا أبلوه منهم طاعة وسمعا

(٥) واضح : هو قائد جيش محمد المهدي، دبر مؤامرة ضد المهدي انتهت باغتياله في ٨ ذي الحجة سنة ٢٣/٤٠٠ جويلية ١٠١٠ ثم حاول الفرار لما رأى استحالة الدفاع عن قرطبة عند محاصرة البربر لها فوقف بعض أكابر الجند على مشروعه فقتل. (ابن عذاري : البيان : ١٠٣-٤/٣).

(٦) الحميري : الروض ٦٢.

من نفي لزعمائهم وتشريد لهم. وتمخضت هذه الانتفاضة عن انتصار المهدي ومقتل ولي العهد وأبيه آخر شوال ٣٩٩ جوان ١٠٠٩، وانسحب حلفاؤهما من البربر إلى أرملاط^(٤) ضاحية قرطبة، ومنها اتجهوا إلى قلعة رباح^(٥). وهكذا انتصر المهدي على البربر في هذا الاصطدام الأول بهم. وهو انتصار زاد الأمور إشكالا، والوضع تأزما بين العنصرين الأندلسي والبربري، مما ينبئ بأفدح المصائب وأوخم العواقب. قال أبو طالب عبد الجبار^(٦) في أرجوزته ملخصا هذا الحدث :

فَجَاءَهُ^(٧) الْبَرْبَرُ فِي حَقْلِ الْجَنُودِ
مَعَ ابْنِ عَمِّهِ الْمُسَمَّى بِالرَّشِيدِ^(٨)
فَظَفِرَ الْمَهْدِيُّ بِابْنِ عَمِّهِ
وَكَانَ ذَاكَ زَائِدًا فِي غَمِّهِ

لكن البربر سرعان ما تداركوا أمرهم بعد هذه الهزيمة الأولى بمبايعة أحد الأمويين ممن شارك في هذه الانتفاضة الأولى ضد المهدي وفر معهم. وهو سليمان بن الحكم -ابن أخي هشام المهزوم- الذي سيلقب فيما بعد بالمستعين.

ولا شك أن البربر مروا بفترة عصيبة عندما أُجبروا على الخروج من قرطبة بعد مقتل زعيمهم، لكنهم - حسب ابن دراج - وجدوا عزاءهم في أميرهم الجديد فبايعوه^(٩) فكانت هذه البيعة إنقاذا للبربر وقد بلغت النفوس التراقي:

[الكامل]^(١٠)

فَتَنَسَّمُوا نَفْسَ الْحَيَاةِ لِنَفْسٍ
قَدْ حَانَ مِنْ حَوْضِ الْحِمَامِ وَرُودُهَا
وَتَبَيَّنَ الْغَيِّ الْمُبِيرَ غَوِيُّهَا
وَارْتَأَحَ لِلرُّشْدِ الْمُبِينِ رَشِيدُهَا

(١) ديوان ابن دراج ٥٤ .

(٢) صنهاجة وزناتة : هما الفرعان الرئيسيان للقبائل البربرية بالمغرب (١) ١٥٨/٤ EI مقال صنهاجة لج - مرسى وص ١٢٩٣ مقال زناتة لنفس الكاتب).

(٣) ديوان ابن دراج ٥٢-٣ .

**وَتَبَادَرُوا يُمْنَى يَدَيْكَ بِبَيْعَةٍ
يَبْلَى الزَّمَانُ وَيَسْتَجِدَّ جَدِيدُهَا**

وقام البربر والمستعين في هذه المرحلة الأولى من صراعهم بطلب مساعدة أمير قشتالة : سانشو غرسية^(٣) على أن يسلموا إليه مقابل ذلك مجموعة من الحصون الواقعة على الحدود^(٤)، وأثناء ذلك حاول واضح^(٥) - وهو ممن بقي على عهد المهدي من الفتيان العامريين- أن يقطع عليهم الطريق فاشتبكوا قرب نهر صغير من فروع نهر تاجه يدعى شرنبة^(٦)، فهزم واضح رغم الإمدادات التي وصلته من المهدي. وكان هذا أول انتصار للبربر على الطائفة الأندلسية. وإلى هذه المعركة يشير ابن الدراج في قصيد مدح به المستعين:

[الكامل]^(١)

**وَاسْتَوْدَعُوا جَنْبِي شَرْنَبَةَ وَقَعَةٍ
هَدَّ الْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ وَئِيدُهَا
دَلَفُوا إِلَى شَهْبَاءَ حَانَ حَصَادُهَا
بِظَبِّي رُؤُوسُ الدَّارِعِينَ حَصِيدُهَا**

ويشيد الشاعر بخصال بربر صنهاجة وزناطة^(٢) - وكانوا العمود الفقري لجيش سليمان المستعين - فهم يتحلّون مع الأمانة والوفاء لخليفتهم بالشجاعة والبأس ضد أعدائه - يقول الشاعر:

[الكامل]^(٣)

**فِي قُبَّةِ الْمَلِكِ الَّذِي صَنَهَا جَعَةٌ
وَزَنَاتُهُ أَطْنَابُهَا وَعَمُودُهَا
وَسَرَاتُهَا وَدَعَاتُهَا وَرُعَاتُهَا**

- (١) ديوان ابن دراج ٥٤.
- (٢) لما نجحت ثورة المهدي في بداية الفتنة قبض على الخليفة هشام المؤيد، وسجنه، ثم أعلن وفاته ودفن -إمعانا في المغالطة- رجلاً نصرانياً أو يهودياً يشبهه في ٢٧ شعبان ٣٩٩/٢٥ ماي ١٠٠٩. ثم اضطر عند محاصرة البربر قرطبة إلى إخراجه وعزل نفسه بإسناد الأمر إليه ثانية (عبد الله عنان : دولة الإسلام بالأندلس : عصر الخلافة ٥٩٣).
- (٣) قال ابن الخطيب في رقم الحل، ص ٤٠ :
واستسلم المهدي بعد وانخلع ولم يزل مستتراً حتى طلع
- (٤) رامون بوريل الثالث : R. Borrel III ت ٦ شوال ٤٠٨/٢٥ فيفري ١٠١٨
- (L. Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane Tome II / page 329).
- (٥) عقبة البقر : حصن من حصون ضواحي قرطبة (المرجع السابق، ص ٣١٣، تعليق عدد ٣).
- (٦) ابن الخطيب : رقم الحل ص ٤٠.

وَبُنَاتُهَا وَحَمَاتُهَا وَأَسُودُهَا
هُمْ نَوَّرُوا لَكَ لَيْلَ كُلِّ مَضِلَّةٍ
سُمْرًا وَبَيْضًا مَا تَجِفُّ غُمُودُهَا
صَدَقَتْكَ أَيَّامَ النِّزَالِ سَيُوفُهَا
ضَرْبًا وَفِي يَوْمِ النَّفَارِ عُهُودُهَا

وهكذا استرجع البربر ثقتهم بأنفسهم، فقد أصبح لهم خليفة ينضون تحت لوائه، وبات لهم حلفاء بعد وصول الإمدادات النصرانية بقيادة سانشو غرسية لمساعدتهم. وزحف سليمان المستعين بجيشه وحلفائه على قرطبة. وعسكر في سفح جبل يعرف بجبل قنتج، أو قنتيش^(٤). ودارت بين القرطبيين والبربر معركة انتهت بهزيمة جيش المهدي في ١٣ ربيع الأول سنة ٤٠٠ نوفمبر ١٠٠٩ .

وأشار ابن درّاج في قصيدته السابقة إلى كثرة القتلى في صفوف الأندلسيين فالجبل الذي وقعت فيه المعركة لم يعد جبلا ذلك أنه أصبح -من كثرة ما تراكم فوقه من جثث القتلى كالتلال- منخفضاً من الأرض:

[الكامل]^(١)

وَشِعَابُ قَنْتِيشٍ وَقَدْ حُشِرَتْ لَهُمْ
أُمٌّ بَغَاةٌ لَا يُكْتِ عَدِيدُهَا
فَكَأَنَّمَا مَرَضَتْ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ
غَلًّا فَجَاؤُوا بِالرِّمَاحِ تَعُودُهَا
تَرَكُوا بِهَا ظَهَرَ الصَّعِيدِ وَقَدْ غَدَا
بَطْنًا وَأَجْسَادُ الْغَوَاةِ صَعِيدُهَا

وأجبرت هذه الهزيمة المهدي على المراوغة. فأخرج هشاماً المؤيد^(٢) من سجنه،

(١) الكونت أرمنغو Ermengaud d'Urgel صاحب أورقلة وهو أخو رامون بوريل (المرجع السابق، ص ٣٢٩).

(٢) ديوان ابن دراج / ٥٥.

(٣) وادي آر : غير بعيد من رندة (L. Provençal : Hist. de l'Esp. Musul. Tome II-314).

(٤) مريلة : بالأندلس بقرب مرسى سهيل ومرسى مالقة (الحميري : الروض : ١٨٠).

(٥) قال ابن الخطيب في رقم الحل، ص ٤٠ : وأتبع القوم ليردي من بقي فجادلته ببقاء الرمي
فهزموا من بعد صبر جمعه ورزقوا النصر عليه دفعه

محاولاً بذلك أن يوهم البربر، أن قيام سليمان المستعين لم يعد له مبرر ما دام الخليفة الشرعي على قيد الحياة. ولكن الحيلة لم تنطل على الأعداء فاضطروا إلى الفرار إلى طليطلة ملتحقاً بالفتى واضح الذي كان قد سبقه إليها مباشرة إثر هزيمة قنتيش^(٣).

واتبع المهزومون نفس الطريقة التي اتبعها المنتصرون، فقد قام الفتى واضح -لتدعيم موقف سيده- بطلب مساعدة أمير برشلونة الكونت رامون بوريل^(٤) على أن يسلمه إليه - مقابل إعانتته- مدينة سالم.

وقام المهدي -إثر وصول هذه النجدة من النصارى- بمواجهة البربر من جديد والتقى الجمعان في معركة رابعة بعقبة البقر^(٥) على بعد ٢٠ كلم شمالي قرطبة وذلك في منتصف شوال ٤٠٠/١٠١٠ وكانت الدائرة في هذه المرة على البربر. قال ابن الخطيب (رجز)^(٦) :

وَبَعْدَ ذَا أَوْقَعَ فِيهِمْ وَقَعَهُ
فَجَدَلْتُ أَبْطَالَهُمْ فِي عَقْبِهِ

واضطروا ابن دراج عند مدحه لسليمان المستعين أن يتجنب ذكر الموقعة. ولكن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى القوات النصرانية التي شاركت في هذه المعركة إلى جانب المهدي، ولم تخرج سالمة رغم الانتصار الذي حققته مع حليفاتها. فقد سقط أحد كبار قوادها قتيلاً على أرض المعركة، وهو الكونت أرمنجو^(١). وتناسى الشاعر أن ما فعله المهدي من الاستعانة بالنصارى هو نفس ما فعله المستعين قبله في معركة قنتيش. قال الشاعر مشيراً إلى مقتل الكونت أرمنجو قائد خيل النصارى رغم ما كانوا عليه من عدة وعتاد:

[الكامل]^(٢)

وَكَتَائِبُ الْإِفْرَنْجِ إِذْ كَادَتْكَ فِي
أَشْيَاعِهَا وَاللَّهُ عَنْكَ يَكِيدُهَا
بِسَوَابِحٍ فِي لُجِّ بَحْرِ سَوَابِغٍ
فَاضَتْ عَلَى الْأَرْضِ الْفَضَاءِ مُدَوِّدُهَا
وَلَقَدْ أَضَافُوا نِسْرَهَا وَغُرَابَهَا
وَقَرَاهُمَا طَاغُوتُهَا وَعَمِيدُهَا

(١) ديوان ابن دراج، ص ٥٥.

شِلُّوْ لَأَرْمَنْقُورْهَا حُشِرَتْ بِهِ لِلرَّحْفِ نَمَّ إِلَى الْجَحِيمِ حُشُودُهَا

وتشجّع المهدي إثر هذا الانتصار فاقتفى أثر البربر الذين اتّجهوا صوب (وادي آر)^(٣) على مقربة من مريّة^(٤). وهناك دارت بين الطرفين المتنازعين معركة حاسمة في ٦ ذي القعدة سنة ٤٠٠هـ / ٢١ جوان سنة ١٠١٠، هزم فيها المهدي وغرق كثير من حلفائه النصاري في النهر^(٥). فتأثر البربر لأنفسهم من هزيمة عقبة البقر السابقة. ووجد ابن دراج المجال فسيحاً أمام ممدوحه المستعین لينوّه بهذا الانتصار، ويتشفّى من كتائب النصاري التي شاركت إلى جانب المهدي، وكانت مشاركتها عليها وبالا. والشاعر باعتماده التركيز - في وصفه - على كتائب النصاري دون إشارة إلى حلفائهم من مسلمي الأندلس، يضيف على المعركة طابعاً دينياً يكاد يخرجها عن نطاق الفتن الدأخلية إلى مستوى الحروب بين الصليب والهلال، فالرماح التي تُقصف والسيوف التي تشرع، تذكي في نفوس المسلمين لهيب الإيمان المقام على وحدانية الخالق. بينما تتراءى للنصاري من خلال النقع، وكأنّها صلبان رفعت أمامهم، فوجب السجود لها طاعة وخضوعاً. وهو بذلك يرمي إلى انكسارهم وانخذالهم: [الكامل]^(١)

وَدَنَتْ لَهَا فِي (أَرْ) تَحْتَ صَوَارِمٍ
وَرِيَتْ بِعِزِّ الْمُسْلِمِينَ زُنُودُهَا
مِنْ بَعْدِ مَا قَصَفُوا الرَّمَا حَ وَأَصْلَتْوْا
بِإِضَا يُشِيعُ حَدَّهَا تَوَجِيدُهَا
فَكَأَنَّمَا رُفِعَتْ لَهَا صُلْبَانُهَا
فِي ظِلِّ هَبْوَتهَا فَحَانَ سَجُودُهَا

وتراجع المهدي بفلوله المهزومة إلى قرطبة، وقد اشتدّ خوفه وجزعه من مهاجمة البربر

(١) ديوان ابن دراج، ص ٥٥.

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ١١٧.

(٣) حباسة بن ماكسن الصنهاجي : هو أخو حبوس بن ماكسن الذي سيكون أول أمير في دولة الصنهاجيين بغرناطة.

(٤) ديوان ابن دراج، ص ٤٩.

(٥) يقصد البربر وفي البيت الموالي توضيح لذلك.

لعاصمة الخلافة الأموية، فقام بحفر خندق حول قرطبة، وبنى سوراً وراءه لمزيد الاحتياط. لكن ذلك لم يجد نفعاً، فقد انتشر البربر في بسائط قرطبة وضيقوا بذلك الخناق على من كان بها، وضجر من تبقى مع المهدي من الفتيان العامريين، وعلى رأسهم الفتى واضح، فدبروا مؤامرة تخلصوا فيها من هذا المغامر، وأجلسوا هشاماً مرةً ثالثة على سدة الخلافة في ٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ ٢٣ جويلية ١٠١٠، وأسرعوا - باسم المؤيد - بإرسال رأس المهدي إلى المستعين وحلفائه البربر. ودعوهم إلى الطاعة ونبذ الخلاف. وليزيد هشام في طمأننتهم عين المستعين ولياً للعهد. لكن الحزب البربري رفض هذه الدعوة، وقام بمراسلة سانشو غرسية أمير قشتالة - حليفهم بالأمس القريب - ليعينهم على دخول قرطبة. فأعرض هذا الأمير النصراني عنهم، فاعتمدوا على أنفسهم، وهاجموا قرطبة من غربيها، وقتلوا معظم حاميتها من الجنود والمتطوعة. وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٤٠١ نوفمبر سنة ١٠١٠ م. وضربوا حصاراً مشدداً على قرطبة، وقد أشار ابن دراج إلى ذلك بقوله:

[الكامل]^(١)

وَبِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ أَقْدَمْتَنَهَا
شَعْنَاءَ بُشْرٍ بِالْفُتُوحِ شَهِيدَهَا
ضَرَبُوا عَلَى الْأَخْدُودِ هَامَ حُمَاتِهَا
حَتَّى عَبَرَتْ وَجِسْرُهَا خُدُودَهَا

وأثناء هذا الحصار، وصل سفراء سانشو غرسية إلى قرطبة يطالبون بما وعدوا به من حصون وثغور مقابل خدماتهم التي قدمت للحزب البربري، وما سيقدمونه له في هذا الظرف الحرج (فأحكمت الشروط على تسليم أزيد من مائتي حصن)^(٢) فانهار بذلك - وبكل سهولة - الخط الدفاعي الأول لأرض الإسلام في الأندلس. ولا ريب أن اشتداد ضغط البربر في حصار قرطبة وخوف القرطبيين من انحياز سانشو غرسية إلى البربر - وقد طلبوا منه ذلك - هو الذي عجل بهذا الاستسلام المخزي.

وكان مقتل حباسة بن ماكسن الصنهاجي^(٣) - أحد أبطال البربر المشهورين - في

(١) ديوان ابن دراج، ص ٤٩. (٢) الضمير يعود على المدحوق وهو سليمان المستعين.

آخر ذي الحجة ٤٠٢ / ٣ أوت ١٠١١ عاملاً قوياً في إثارة حفيظة البربر. فعقدوا العزم على اقتحام كلِّ العراقيل والدخول عنوة إلى قرطبة للتشقي من أهلها. فالتحم الفريقان يوم ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ / ١٠ ماي سنة ١٠١٣ في معركة سمّاها ابن درّاج (يوم اقتحام الحفر) في قوله يمدح المستعين وحلفاءه البربر:

[الطويل]^(٤)

وَيَوْمَ اقْتِحَامِ الْحَفْرِ أَيَقْنَتَ أَنَّهُمْ
يُرِيدُونَ^(٥) فِيهِ أَنْ تِعِزُّ وَلَوْ هَانُوا
بِكُلِّ زَنَاتِي كَأَنَّ حُسَامَهُ
وَهَامَةً مَنْ لَأَقَاهُ نَارٌ وَقُرْبَانُ
وَأَبْيَضَ صِبْنُهَا جِ كَأَنَّ سِنَانَهُ
شِهَابٌ إِذَا أَهْوَى لِقِرْنٍ وَشَيْطَانُ

ويقصد الشاعر بالحفر، الخندق الذي أقامه القرطبيون مع المهدي لحماية المدينة من البربر، ولكن بدون جدوى. فقد تمكّن هؤلاء من اقتحامه، وأصبح الخندق الذي حفر لحمايتهم قبراً للآلاف منهم.

إنّ مشاركة بعض العناصر النصرانية في هذه الحروب، أضفت على هذا الصراع طابعاً خاصاً عند ابن درّاج. فالقضيّة أصبحت في شعره صراعاً بين أعداء في الدين لا تقاتلاً بين إخوة يجمعهم دين واحد. ولهذا فإنّ انتصار المستعين هو انتصار ديني، هو انتصار الإسلام على المسيحيّة:

[الطويل]^(١)

وَلَوْلَا^(٢) وَالْبَيْضُ الَّتِي نَهَدُوا بِهَا
لَمَّا قَامَ لِلإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ سُلْطَانُ
وَلَا سَتَبَدَّلْتُ قَرْعَ النُّوَاقِيسِ بِالضُّحَى
مَنَارٌ وَقَامَتْ فِي الْمَحَارِبِ صُلْبَانُ

(١) الذخيرة السنية، ص ١٥.

(٢) ديوان ابن درّاج، ص ٥٠.

والمهدي هو (قعيد الشَّرك) إشارة من الشَّاعر إلى أنَّ النَّصارى هم الذين مكَّنوه من الرجوع إلى قرطبة منتصرًا بعد أن خرج منها متستترًا. ولكنَّ ذلك لم يدم له فقد حان حينه، وتلَّ عرشه، وتلاَّأت أنوار الإيمان من جديد بعد أن عمَّ ظلام الشَّرك وساد:

[الطويل]^(٣)

هَنِيئًا لِهَذَا الدَّهْرِ رَوْحٌ وَرَيَّحَانُ
وَلِلدِّينِ وَالِدُنْيَا أَمَانٌ وَإِيمَانُ
بِأَنَّ قَعِيدَ الشَّرْكِ قَدْ ثَلَّ عَرْشُهُ
وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانُ
بِهِ رُدُّ فِي جَوْ الْخِلَافَةِ نُورُهَا
وَقَدْ أَظْلَمَتْ مِنْهَا قُصُورٌ وَأَوْطَانُ
وَأَنْقَذَ دِينَ اللَّهَ مِنْ قَبْضَةِ الْعِدَا
وَقَدْ قَادَهُ لِلشَّرْكِ ذُلٌّ وَإِذْعَانُ

وبدخول البربر إلى قرطبة انفجرت الأحقاد، ولم يعد لكابح العقل على النفوس من سبيل. ولم يكن لهذا الخليفة الجديد من السُّلطة ما يمكنه من أن يوقف هذا التيار الجارف، فتشقى البربر من أهل قرطبة، وأذاقوهم أصنافاً من العذاب والهوان. ومع ذلك، وفي هذا الجوَّ المليء حقدا وعداوة، ارتفعت بعض الأصوات مذكرة - وإن كان ذلك مخالفاً للحقيقة التاريخية - بما للعرب والبربر من صلات، فقال أحدهم - قصد الحدَّ من جموح الغرائز - يستألف قبائل زناتة من البربر، ويذكر قرب نسبهم من العرب، واتَّصال رحمهم بهم:

[الطويل]^(١)

أَلَا أَيُّهَا السَّاعِي لِفُرْقَةٍ بَيْنِنَا
أَلَا قَفَّ هَذَاكَ اللَّهَ سُبُلَ الْأَطَايِبِ
فَأُقْسِمُ أَنَّا وَالْبَرَابِرَ إِخْوَةٌ
نَمَانَا وَهُمْ جَدُّ كَرِيمِ الْمَنَاهِبِ
أَبُونَا أَبُوهُمْ قَيْسُ عِيلَانَ فِي الذُّرَى

(١) ابن الأبار : الحلة ١٢/٢. (٢) عبد الله عنان : دولة الإسلام بالأندلس : عصر الخلافة : ١٥٧.

(٣) المقرئ : النّفق ١/٣٠-٤٢٩.

لَهُمْ حَرَمَةٌ تَشْفِي غَلِيلَ الْمُحَارِبِ
فَنَحْنُ وَهُمْ رُكْنٌ مَنِيعٌ وَإِخْوَةٌ
عَلَى رَعْمٍ أَعْدَاءُ لِنَّامِ الْمَنَاقِبِ

وليس بمستبعد أن يكون مثل هذا الصَّوت أحد العوامل التي دفعت سليمان ليعلن الأمان لمن كتب له النِّجاة من أهل قرطبة. فكان عمله هذا -حسب ابن درَّاج- بمثابة النُّشر لموتى هلكوا وهم أحياء:

[الطويل]^(٢)

وَقُلْتُ لَعَا لِّلْعَاثِرِينَ كَأَنَّهُ
تُشَوَّرُ لِقَوْمٍ حَانَ مِنْهُمْ وَقَدْ حَانُوا
وَأُنْسَ شَمْلٌ بِالتَّفْرِقِ مُوحِشٌ
وَحَنٌّ خَلِيطٌ بِالصَّبَابَةِ حَنَّانٌ

ورجع الشاعر إلى التَّاريخ ليضرب الأمثلة عن الصَّفح والعفو. وهو بذلك يحاول أن يدعم هذا الاتجاه الجديد في موقف المستعنين من أهل قرطبة وبياركة. ولم يجد هذا التصرُّف من المستعنين نفعا، فقد كرهه أهل قرطبة ومقتوه. وكان هو يشعر بنقمتهم عليه، فكان كثيرا ما يتمثَّل بقول الشاعر:

[الطويل]^(١)

إِذَا مَا رَأَوْنِي طَالِعًا مِنْ ثَنِيَّةٍ
يَقُولُونَ: مَنْ هَذَا؟ وَقَدْ عَرَفُونِي
يَقُولُونَ لِي: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا
وَلَوْ ظَفَرُوا بِي سَاعَةً قَتَلُونِي

(١) ابن بسام : الذَّخيرة ١/١/٣٦ .

(٢) علي بن حمود يلقَّب بالناصر (٣٥٤/٩٦٥-٤٠٨/١٠١٨) أوَّل خلفاء الحمُوديين بقرطبة بعد قتله لسليمان المستعنين. قتل هو الآخر على يد بعض الفتيان الصقالبة. (الزركلي : الأعلام ٥/٩٤).

(٣) عبد الله عنان : دولة الإسلام بالأندلس : عصر الخلافة : ١٦٢ .

(٤) خيران الصقلبي من موالى آل بني عامر، وثب على مدينة المرية أثناء الفتنة واستقلَّ بها، ت ٤١٩/١٠٢٨ (الزركلي : الأعلام ٢/٣٧٤).

ولم يكن موقفه مع حلفائه البربر بأفضل من موقفه مع أعدائه. فقد كان يشعر أنه مغلوب على أمره، مجبر على مسايرة هذه الطائفة التي بالغت في التشفي والانتقام. فحاول أن يبعدها عن قرطبة، ويرضيها في آن واحد. فقسّم ما كان تحت نفوذه من ولايات الأندلس على أهم قبائلها^(٢). وسلك المستعين هذا المنهج والحقّد على حلفائه يمالاً جنبيه، ونفسه تتقد غيظاً على ما ظهر منهم من غطرسة وعنجهية. ومما نسب إليه من شعر يكشف هذا الجانب من نفسيته قوله:

[الطويل]^(٣)

فَوَاعَجَبًا مِنْ عَبْشَمِيٍّ مُمْلَكٍ
بِرْغَمِ الْعَوَالِي وَالْمَعَالِي تَبَرِّرًا
فَلَوْ أَنَّ أَمْرِي بِالْخِيَارِ نَبَذْتُهُمْ
وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْفِ حُكْمًا مُحَرَّرًا
فَإِمَّا حَيَاةً تُسْتَلَذُّ بِقُدْرِهِمْ
وَإِمَّا حِمَامًا لَا نَرَى فِيهِ مَا نَرَى^(٤)

وهكذا كان المستعين، عقب تولّيه الأمر بقرطبة بين حلفائه وأعدائه، كقطعة المعدن بين المطرقة والسندان، يناله الأذى من الطرفين. وتدعم هذا النّفور بين الخليفة ورعيته باستئصال الأزمة الاقتصادية في عهده، فقد كانت أيّامه كما قال ابن حيّان (شدادا نكدات، صعباً مشؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحات المنتهى والخاتمة)^(١).

ولا ريب أن مثل هذه الأوضاع المتدهورة، لا تولّد بين ظهرائها إلاّ المغامرين من أصحاب الطموح. فقد ادّعى أحد زعماء البربر ممّن كانوا في صفّ سليمان وهو علي بن

(١) المرتضى الأموي : لما استولى علي بن حمود على الخلافة بقرطبة، فرّ المرتضى إلى شرقي الأندلس. فاقبل عليه بعض المخالفين لابن حمود، وبايعوه، وساروا معه لحرب البربر في غرناطة : ولكنّه هزم بسبب خيانة حلفائه، وقتل (الزركلي : الأعلام : ١-٢ : ١٠١).

(٢) ديوان ابن دراج، ٧٢.

(٣) إنّ هذا النوع من المدح نادر في الشعر الأندلسي، إن لم نقل أنّه معدوم تماماً ولئن جاز التصريح به في هذه الفترة المضطربة، فيصعب على شاعر مهما كانت ظروفه التقوّ به في العهود الموالية.

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة، ط ١٩٥٢/٢.

حمّود^(٢) حاكم سبّته، أنّ هشاما المؤيّد راسله، واستنجد به لينقذه من نير سليمان وحلفائه، وقلّده ولاية عهده. وبقيا على بن حمّود على سليمان المستعين تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الفتنة الكبرى الأولى.

– المرحلة الثانية : الفترة الحمودية : تمكّن العلويّون من بني حمّود في هذه الفترة المضطربة من الاستحواذ على الخلافة بقرطبة، بعد أن التقى جيش علي بن حمّود، ومعه حلفاؤه من البربر والصّقالبة بجيش المستعين على بعد عشرة فراسخ من قرطبة، فهزّم المستعين وأسر ثمّ قتل مع أبيه وأخيه. ودخل علي بن حمّود قرطبة ظافرا في ٢٨ محرّم سنة ٤٠٧/٧ جويلية ١٠١٦^(٣).

وكم كانت خيبة الفتان العامريّين -وعلى رأسهم خيران^(٤) - كبيرة عندما لم يجدوا سيّدهم هشاما. وتفطّنوا - ولكن بعد فوات الأوان - أنّ عليّ بن حمّود لم يكن سوى مغامر أراد ونجح في اغتصاب السّلطة، ففروا إلى شرقيّ الأندلس. وهناك نصبوا لأنفسهم مرشّحا جديداً للخلافة من الأمويّين هو المرتضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرّحمان النّاصر^(١). وساندهم في الدّعوة له المنذر بن يحيى صاحب سرقسطة وحلفاؤه النّصارى. وفيهم قال ابن درّاج ينوّه بمقدرتهم العسكريّة:

[الطويل]^(٥)

وَلَا غَابَ مَنْ وَافَاكَ مِنْ أَرْضِ رُومَةٍ
بِغَابٍ مِنَ الْخَطِيّ تَرَزَّرَ أُسْدُهُ
كَتَائِبُ لَوْ يُرْمَى بِهَا الدَّهْرُ قَبْلَنَا

(١) ابن بسام : الدّخيرة ١/١/٤٥٥ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن سليمان : طبيب وشاعر أندلسي كان ضريراً ت ٥٣٧/١٠٤٥ (الزركلي : الأعلام ٧/٢٠).

(٣) هو ثاني الخلفاء الحموديين بقرطبة. مات خنقاً في سجن يحيى بن علي بن حمود ٤٣١/١٠٤٠ (الزركلي : الأعلام ٦/٩).

وكان ابن دراج قد مدح هذا الخليفة الحمودي، وناداه بـابن نبينا. ورأى فيه خير منقذ للأمة من هذه الفتنة

(ديوان ابن دراج، ص ٦٢).

(٤) ابن بسام : الدّخيرة ١/١/٤٥٦ .

(٥) المصدر السابق : ٣-٤٥٢ .

لَرْزَلِ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْهَا وَسَدَّهُ
كَأَنَّ فُضَاءَ الْأَرْضِ أَلْبِسَ مِنْهُمْ
لَبُوسًا مِنَ الْمَآذِي قُدَّرَ سَرْدُهُ^(٣)

وكان لهذه الحركة صداها في قرطبة لبغض أهلها التقلّدي للبربر. وتوجّس علي ابن حمّود خيفة منهم، فغيّر سياسة اللّين التي كان يتّبعا معهم، وأساء معاملتهم، وأمعن في الإساءة، ولم يوضع حدّ لسلوكه هذا إلّا بعد أن فتك به بعض الصقالبة من موالى بني أميّة وهو يستحمّ.

أمّا بالنّسبة إلى الجيش الأندلسي المتركّب من عدّة قوى متحالفة حول شخصيّة المرتضى، فقد بدأ بمنازلة غرناطة المساندة للخلافة الحمّوديّة. ومع أنّ القوتين كانتا غير متكافئتين، فقد تمّ الانتصار للبربر وهم الفئة الأقلّ عددا وعدّة (وحلّ بهذه الواقعة على جماعة الأندلس مصيبة أسست ما قبلها، ولم يجتمع لهم جمع بعدها وفروا بإدبار وبأؤوا بالصّغار)^(٤).

ويبدو أنّ هذه الهزيمة السّاحقة التي لحقت أهل الأندلس لم يكن سببها فقط بطولة البربر، واستماتتهم في الدّفاع عن غرناطة، وإنّما يرجع ذلك أيضا إلى خيانة الفتيان العامريّين للخليفة المرتضى، فقد تخلّوا عنه أثناء المعركة. (ولمّا خاف أن يقبض عليه ولّى، فوضع عليه خيران عيوناً لئلاّ يخفى أثره. فلحقوه وقتلوه وجأؤوا برأسه إلى خيران ومنذر، وقد لحقا بالمرية. فتحدّث النّاس أنّهما اصطحبا على رأسه سرورا بمهلكه)^(٥).

(١) النحول : الثّار. (٢) عند المقرّي : النّفح ١/٤٦٨ : تنسب الأبيات لابن ماء السماء.

(٣) أي المنذر بن يحيى صاحب سرقسطة.

(٤) قبّة : Cabra تقع في الجنوب الشرقي لقرطبة. سقطت في يد النصارى ٦٤١/١٢٤٤. وتمكّن بنو الأحمر من تخريبها ٧٣٣/١٢٣٣. (٢) Ei/٤/٣٧٠. كتب المقال (ر-أريي). (R. Arié)

(٥) وفيه يقول ابن درّاج منوهاً ببطولة الفتيان العامريين، بقيادة هذا الفتى ويصوّر انكسار البربر،

[الطويل] :

لجرّ الوغى قلب على الدين حران
قبورا هواء الجوّ منهنّ ملان

ويعدو بها ذيب وذبيخ وسرحان (ديوان ابن دراج ٧٧).

(٦) لقّب بالمعتلي (٣٨٥/٩٩٥-٤٢٧/١٠٣٥) : ثالث الخلفاء الحمّوديين. ثار على عمّه القاسم بن حمّود، قتل أثناء معركة مع جند القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد (الزركلي : الأعلام : ٩/١٩٦).

وقد أشار ابن الحنّاط^(٢) إلى فرار كلّ من منذر وخيران من ميدان المعركة. واستعمل كلمة (غدر) للدلالة على مؤامرة مبيتة ضدّ المرتضى. وكان الشاعر قد ألقى هذه القصيدة أمام القاسم بن حمّود^(٣) الذي حلّ محلّ أخيه علي، بعد مقتله في قرطبة، لما أرسل إليه زاوي بن زيري نصيبه من الغنيمة. (وفي جملتها سراق المرتضى، فضربه القاسم على نهر قرطبة وغشيه من النظارة جملة من عليّة الناس وقلوبهم تتقطّع حسرة منه):^(٤)

[الطويل]^(٥)

وَفَرَّقَ جَمْعَ الْكُفْرِ وَاجْتَمَعَ الْوَرَى
 عَلَى ابْنِ حَبِيبِ اللَّهِ بَعْدَ خَلِيلِهِ
 وَقَامَ لَوَاءُ الْجَمْعِ فَوْقَ مَمْنَعٍ
 مِنَ النَّصْرِ جَبْرِيلُ أَمَامَ رَعِيلِهِ
 وَلَمَّا دَعَا الشَّيْطَانُ فِي الْخَيْلِ حَرْبَهُ
 وَأَقْبَلَ حِزْبُ اللَّهِ فَوْقَ خِيُولِهِ
 كَتَائِبُ مِنْ صَنْهَاجَةٍ وَزَنَاقَةٍ
 تَضَاقِقُ فِي عَرْضِ الْفَضَاءِ وَطُولِهِ
 نَقَدَمَ خَيْرَانَ إِلَيْهَا بِزَعْمِهِ
 لِيُدْرِكَ مَا قَدْ فَاتَهُ مِنْ دُحُولِهِ^(١)
 فَلَمَّا التَّقَى الْجَمْعَانِ عَاوَدَ رَأْيُهُ
 فَخَلَّى لِبَعْضِ الْهَوْلِ جُلَّ فَضُولِهِ
 وَوَلَّى وَأَبْقَى مُنْذِرًا^(٢) مِنْ وَرَائِهِ
 يُقِيمُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ عُذْرَ نُكُولِهِ^(٣)

وابن الحنّاط كابن درّاج يتراءى له الاقتتال بين هاتين الفئتين من المسلمين - تيقنا منه أو تملّقا للممدوح - معركة بين الإيمان والكفر، بين حزب الشيطان وحزب الله.

(١) ابن عذاري : البيان : ٣/١٢٠ .

(٢) لكن هذه الطاعة لم تمنع صاحب سرقسطة من الانضمام إلى خيران في الدعوة للمرتضى الأموي كما رأينا سابقاً.

(٣) ديوان ابن دراج، ص ١٠٩ .

(٤) ابن عذاري : البيان : ٣/١٣٢ .

(٥) المصدر السابق ٣/١٣٤ .

ويبدو أنَّ هذا الانتصار الذي حقَّقه البربر على أهل الأندلس كان - بالنسبة إليهم - بمثابة الأخذ بثأرهم من معركة قبرة^(٤) التي أوقع بهم فيها خيران العامري.

ولئن أهمل المؤرخون ذكر يوم قبرة^(٥)، فقد أوردوا بالتفصيل هزيمة الأندلسيين مع المرتضى في يوم غرناطة. لكنَّ هذا الانتصار الذي أحرز عليه البربر لم يكن له أثر في استتباب الأمن واستقرار الحكم بقرطبة، ذلك أنَّ إخفاق الأندلسيين في المعركة السابقة، وانكماشهم عن الرُّكح السياسي مع زعمائهم المروانيين، فسح المجال لصراع داخلي بين أفراد الأسرة الحمودية.

وبدأ الصراع بقيام يحيى بن علي بن حمود^(٦) على عمِّه القاسم. وكان يرى أنَّه أحقُّ منه بالخلافة بعد مقتل أبيه. ولقد ساعد يحيى في قيامه نُفرة البربر من سياسة عمِّه القاسم القائمة على المساواة بين جميع الأطراف. وهي سياسة لم تكن لتروق هؤلاء باعتبارها تحدُّ من الامتيازات التي يروون أنَّهم أهل لها. وبدؤوا يتسلطون على القاسم ابن حمود (حتَّى احتقروه فكتب منذر بن يحيى في السرِّ بيئته شأنه. ويستنهضه لتقويمهم، فلم يكن فيه فضل لذلك)^(٧). وكان منذر هذا حاكم الثغر الأعلى يدين بالطاعة للقاسم بن حمود^(٨) وإلى هذه الطاعة الاسمية يشير ابن دراج بقوله:

[البسيط]^(٩)

للقاسمِ القائمِ الهادي الذي هُديتْ
إليه طاعتُنا سرًّا وإعلَانًا
فأَصْبَحَ المُنْذِرُ المُنْصُورُ وَالْيَمِينُ
وَالْقَاسِمُ الْمَلِكُ الْمَأْمُونُ مَوْلَانَا

(١) ابن شهيد (٢٨٢/٩٩٢-٤٢٦/١٠٣٥) مولده ووفاته بقرطبة كان شاعرا وأديبا تولى الوزارة زمن الفتنة (الزركلي : الأعلام : ١/١٥٧).

(٢) ديوان ابن شهيد. تحقيق ش. بلا. ص ١٠٣-١٠٤.

(٣) عجز البيت من حديث ابن ذي يزن (المصدر السابق ١٠٥).

(٤) الفُلُك : من البحر موجه المستدير المضطرب.

(٥) اليقق : شديد البياض : معنى ذلك أنَّ هذا الزنجي لم يمسَّ جلده الثلج ومع ذلك صيرَه سيف الممدوح لكثرة ما أحدثه في جسمه من جروح شديد البياض.

ولما اشتدَّ ضغط ابن أخيه عليه، ولم يجد أذنا صاغية من حلفائه، فر من قرطبة إلى اشبيلية. واستقر بها في ٢٢ ربيع الثاني ٤١٢/٥ أوت ١٠٢١ وهو يدعى له بالخلافة. ودخل يحيى في مستهل جمادى الأولى ٤١٢/١٣ أوت ١٠٢١ قرطبة. وبويع بالخلافة، ولقب بالمستعلي، وتسمى بامرأة المؤمنين. (فكان -كما قال ابن حزم- خليفتان تصالحا، وهو أمر لم يسمع بأذل منه، ولا أدل على إدبار الأمور)^(٤).

ولم يدم الأمر طويلاً ليحيى المستعلي. فقد ثار عليه البربر لأسباب متعددة نَقَموها عليه، ففر بنفسه من قرطبة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة ٤١٣/٦ فيفري ١٠٢٣، فحل محله عمه بعد ستة أيام من فراره. فكانت بيعة القاسم الثانية.

ويبدو أن نار الحقد والضغينة بين أهل قرطبة والبربر لم تخب بعد، فوقع الاصطدام بين الطائفتين. وحوصر القاسم في قصره (فخرج بمن معه من البربر منهزماً إلى إشبيلية)^(٥) وكان ذلك يوم الثلاثاء لتسع بقين من جمادى الآخرة ٤١٤/١٠٢٤.

وحاول القاسم الدخول إلى اشبيلية، لكن في هذه المرة منعه أهلها من الدخول ويبدو أن القاسم لم يجد مقاومة من أهل إشبيلية فقط، وإنما دارت بين جنده من الزنج وجيوش ابن أخيه يحيى معركة خارج أسوار المدينة، انتهت بهزيمة جند القاسم. فقام ابن شهيد^(١) يهنئ يحيى - وكانت له علاقة ودية بهذا الخليفة الحمودي - بقصيد مطلعها:

[البسيط]^(٢)

غناكَ سَعْدُكَ فِي ظِلِّ الظُّبَى وَسَقَى

"فَاشْرَبْ هَنِيئاً عَلَيْكَ التَّاجُ مَرْتَفِقاً"^(٣)

وجرت المعركة على ضفتي نهر (الوادي الكبير) فأصبح - وقد اختلطت مياهه بدماء

(١) الثغرة : نقرة النحر بين الترقوتين. (٢) فلق ج فلقه : القطعة. (٣) فرَّ ابن شهيد من قرطبة بعد مقتل المستظهر خوفاً من الخليفة الجديد المستكفي. وقصد يحيى بن علي الحمودي بمالقة. لذا يرجح أن القصيدة قيلت ٤١٤/١٠٢٤ وتكون الأحداث التي تصفها وقعت بعد هذا التاريخ. (٤) ابن الشرب : لم تتمكّن من معرفته. (٥) ديوان ابن شهيد ١-٢. (٦) تصفق : تمزج. (٧) الرعن ج أرعن : الجبل. (٨) الأرعن : الجيش الجرار.

قتلى الزنج - سماء صافية، جلّ لها الشفق عند الغروب، وغدت رؤوس هؤلاء الزنج لسوادها فوق أعالي الرماح كالغربان فوق تلال الرمل، تنعق مؤذنة بالويل والثبور. ومن نجا منهم لم يستطع ان يقاوم ماء النهر، فسقط غريقاً فيه، وقد خارت قواه، وانهارت عزيمته، يقول ابن شهيد:

أَجْرَيْتَ لِلزُّنْجِ فَوْقَ النَّهْرِ نَهْرَ دَمٍ
حَتَّى اسْتَحَالَ سَمَاءً جُلَّتْ شَفَقًا
وَسَاعَدَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى بِقَتْلِهِمْ
حَتَّى غَدَا الْفُكُ^(٤) بِالنَّاجِي بِهِ غَرَقًا
مَنْ كُلِّ أَسْوَدَ لَمْ يَدْلِفْ عَلَى ثَلَجٍ
بِأَنَّ جَدُّكَ يَجْلُو صَفْحَهُ يَقْقَا^(٥)
كَأَنَّ هَامَتَهُ وَالرَّمْحُ يَحْمِلُهُ
غُرَابٌ بَيْنَ عَلَى بَانَ النَّقَا نَعَقًا
إِذَا وَنَى، ثَغَرَ الْخَطِيئُ ثَغْرَتَهُ^(١)
أَوْ عَاذَ بِالنَّهْرِ مَسْلُوبَ الْقُوَى غَرَقًا
وَأَيُّ نَهْرٍ يُرْجَى الْعَبْرَ عَابِرُهُ
وَسُقْنُهُ طَافِيَاتٌ غَوْدِرَتْ فِلَقًا^(٢)

وكان يحيى المعتلي، أثناء صراعه مع عمه القاسم، يقاوم ثورة أخرى لم يهتم

(١) أبو أيوب سليمان بن المرتضى عبد الرحمان بن محمد : يبدو أنه توفي قبل أن يتولّى عمه هشام الثالث الخلافة سنة ٤١٨/١٠٢٨ (مقدمة ابن شهيد تحق. يعقوب زكي ٣٩).

(٢) محمد بن العراقي : قتله ابن عمه المستكفي بالله عند توليه الخلافة في ٣ ذي القعدة ٤١٤/١٧ جانفي ١٠٢٤ (عبد الله عنان : دولة الإسلام بالأندلس : عصر الخلافة ٦١٣).

(٣) عبد الرحمان بن هشام (٣٩٢/١٠٠٢-٤١٤/١٠٢٤) أخو المهدي لقب بالمستظهر حكم ٤٧ يوما من سنة ٤١٤/١٠٢٤ (الزركلي : الأعلام ٤/١١٦).

(٤) ابن ذكوان : لا يمكن أن يكون ابن ذكوان في هذه القصيدة هو أبو العباس أحمد كما ذكر شارل بلا (ديوان ابن شهيد، ص ١٢٠) لأنه توفي ٤١٣/١٠٢١ والأحداث وقعت ٤١٤/١٠٢٢. ولهذا من المحتمل أن يكون المشار إليه هنا ابنه القاضي أبا بكر محمدا (٣٩٥/١٠٠٤-٤٣٥/١٠٤٣). انظر شجرة نسب بني ذكوان.

(٥) أبو عمران : صديق سليمان (ديوان ابن شهيد، تحقيق يعقوب زكي ٣٩).

(٦) ديوان ابن شهيد تحقيق : ش. بلا ١١٩-٢٠.

المؤرخون بها، فأهملوا صاحبها وأشار إليها ابن شهيد في قصيدة^(٣) مدح بها يحيى بمالقة. وذكر اسم التائر وهو ابن الشرب^(٤) يقول في مطلعها:

[الطويل]^(٥)

فَرِيقُ الْعِدَى مِنْ حَدِّ عَزْمِكَ يَفْرَقُ
وَبِالْدَهْرِ مِمَّا خَافَ بِطَشِكَ أَوْلَقُ
عَجِبْتُ لِمَنْ يَعْتَدُّ دُونَكَ جُنَّةً
وَسَهْمُكَ سَعْدٌ وَالْقَضَاءُ مَفُوقُ

ثم يسخر الشاعر من هذا التائر، ويتخذ من لقبه مدعاة لنبزه. فهو لأول مرة يشرب خمرة، ولكنها خمرة من نوع خاص، خمرة من الذل والمهانة، مزجت بالخور والعجز. لقد ظنَّ أنَّ الجبال التي لجأ إليها ستنجيه من الممدوح، فسار إليه بجيش جرار يحمل معه هولاً كهول الطبيعة في غضبها وثورتها :

وَمَا شَرِبَ ابْنُ الشَّرْبِ قَبْلَكَ خَمْرَةً
مَنْ الذَّلُّ بِالْعَجْزِ الصَّرِيحِ تُصَفَّقُ^(٦)
تَوْهَمَ فِيهِ الرَّعْنُ^(٧) حَصْنًا فَرَزَّتُهُ
بِأَرْعَنَ^(٨) فِيهِ مُرْعِدُ الْمَوْتِ مُبْرِقُ
وَحَوْلُكَ أَسْيَافٌ مِنَ السَّعْدِ تُنْتَضَى
وَفَوْقَكَ أَعْلَامٌ مِنَ النَّصْرِ تَخْفِقُ

- الفترة الأموية الثانية : فكر أهل قرطبة -بعد أن تمكّنوا من التخلص من الحمّوديين ومن معهم من البربر- في إعادة الأمر إلى بني أمية. وكان المترشّحون لمنصب

(١) أبو عبد الله الفرضي : شخصية أهملها المؤرخون فلا نعرف عنها سوى أنّه كان مع جعفر بن فتح، وأبي القاسم الإفليلي من ألد أعداء ابن شهيد. ويذكر ابن عذاري في البيان المغرب ٣/١٣٢ أنّه كان وزيراً ليحيى بن علي بن حمود.

(٢) ديوان ابن شهيد - بلا ١٧٩ .

(٣) الضمير يعود على أبي عبد الله الفرضي.

(٤) رجل : طائفة.

(٥) أرجلت : أهملت.

(٦) أباه : أي المرتضى.

الخلافة ثلاثة من نسل عبد الرحمان الناصر : أبو أيوب سليمان بن المرتضى^(١) ومحمد بن العراقي^(٢) وعبد الرحمان بن هشام بن عبد الجبار^(٣) وكان للأول منهم أوفر الحظوظ للفوز بمنصب الخلافة، حتّى أنّ البيعة كتبت باسمه. وأعد بعض الشعراء قصائد لتنهئته، وكان ابن شهيد من بينهم. ولقد وصلتنا قطعة في ديوانه لا تخلو من قيمة. ورد فيها ذكر ثلاثة أسماء سيلعبون الدور الأول على الركح السياسي لم تمت بيعة الممدوح وهم : سليمان بن المرتضى الخليفة المنتظر وابن ذكوان القاضي^(٤) وأبو عمران الوزير^(٥) وهذا الجو-لو كان الأمر مستتباً بقرطبة-، يذكّرنا بجو الحملات الانتخابية في بعض البلدان المتقدمة اليوم. يقول ابن شهيد: ^(٦)

[الطويل]

فَلَمَّا بَدَأَ سُلَيْمَانُ عِنْدَهَا
وَصَاحَ ابْنُ ذَكْوَانَ فَنَارَ رَجَالُ
هَدَى مِنْ ضَلَالِ الْحَاثِرِينَ مُحَمَّدُ
وَأَذَّنَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ بِلَالُ
وَقَامَ أَبُو عِمْرَانَ يَرَأْبُ صَدْعَهَا
بِسَعْيٍ تَجَلَّى عَنْ هُدَاهُ ضَالُّ
وَزَيْرٌ مَتَى يَسْتَوِزُّ الْمَلِكُ رَأْيَهُ
أَمِرْتُ لَهُ فِي النَّائِبَاتِ حِبَالُ

ولكن الأمور لم تجر حسب الخطة التي وضعها أنصار سليمان. فقد استطاع عبد الرحمان بن هشام أن يدخل المسجد فجأة في جمع من أنصاره المسلحين. وأن يضع الجميع أمام الأمر المقضي. فتمت له البيعة، وأزاح بذلك سليمان. وكان لأحد الوزراء -وهو

(١) ديوان ابن شهيد ١٢٠ .

(٢) الضمير يعود على الوزير أبي عمران صديق سليمان.

(٣) الإشارة في هذا البيت إلى اشتغال أبي عبد الله الفرضي بالكيمياء.

(٤) هذا البيت يتفق مع ما جاء عند ابن عذاري في البيان ٣/١٣٢ تعليقا على تولي أبي عبد الله الفرضي الوزارة ليحيى بن علي بن حمود من أنّه (كان أخضر شيء على دولته).

(٥) يبدو أنّ سعي هذا الوزير لم يأت بنتيجة، لأنّ ابن شهيد سيصبح أحد وزراء هذا الخليفة.

(٦) ابن بسام : الذخيرة ٢٢٤/١/١.

أبو عبد الله الفرضي^(١) - الدور الفعال في انقلاب الأمور في آخر لحظة ضد هذا المترشح. وهكذا يفشل سليمان كما فشل أبوه سابقا في سعيهما للوصول إلى منصب الخلافة. ويذهبان ضحية دسائس أعدائهما وانخذا ل أنصارهما. وبالنسبة إلى ابن شهيد يذكره فشل الابن بفشل الأب فيجمع في قطعة هجا بها أبا عبد الله الفرضي بين الحدثين المؤلين قائلا (مخلع البسيط)^(٢) :

نَالَتْ سُلَيْمَانُ مِنْهُ^(٣) رَجُلٌ^(٤)
مَنْ قَبْلُ مَا أَرْجَلْتُ^(٥) أَبَاهُ^(٦)
فَاسْتَدْرَجَا كَاشِفِي دُجَاهُ
يَا وَيْلَةَ الْمَرْءِ مَا دَهَاهُ!
يَا سَخَطَ رَبِّ الْعُلَا عَلَيْهِ
إِذْ أَدَّتِ الْمَرْتَضَى يَدَاهُ

وكان ابن شهيد يتوقع شرًا من هذا الوزير، ولهذا حرّض سليمان - في القصيدة التي كان قد أعدّها لينشدها أمامه لو تولّى الخلافة - على أن يفتك به، خاصة وهو من السوقة المشعوذين المشتغلين بالكيمياء للبحث عن حجر الفلاسفة. يقول فيه ابن شهيد مقارنا بينه وبين الوزير أبي عمران:

[الطويل]^(٧)

وليس^(٨) كمنحوس من القوم منحسٌ
تَعَاظَمَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ يُنَالُ
أَعَانَتْهُ أَمْوَالُ تَخَوَّنَ عَيْنَهَا^(٩)
وَأَعْلَنَتْهُ غُثْرُ سَوْقَةٍ وَسِقَالُ
لَهُ كَعْبٌ نَحْسٍ لَمْ يُصَاحَبْ بِهِ امْرَأً
عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا رَدَّ وَهُوَ خَيَالُ
فَفِي كُلِّ عَصْرِ مِنْ عُصُورِ حَيَاتِهِ

(١) محمد بن عبد الرحمن المستكفي ٣٦٦/٩٧٦-٤١٦/١٠٢٥ حكم ١٧ شهراً (الزركلي : الأعلام ٧/٦٣).

(٢) ابن حزم : نطق العروس، تحقيق شوقي ضيف، في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥١، ص ٥٨ .

(٣) الحميدي : الجذوة عدد ٩٨٣ .

تُشَلُّ عُرُوشٌ أَوْ تُدَكُّ جِبَالٌ^(٤)
هُوَ الدَّاءُ فَاسْتَأْصَلَهُ تَلَبَّسَ جَمَالَهَا
وَدَاءٌ كُعُوبِ الْمُنْحَسِرِينَ عُضَالٌ

وسقط في يد ابن شهيد، بعد أن تغير مجرى الأحداث ببيعة عبد الرحمان بن هشام. فأخفى شعره خوفاً على نفسه، لكن هجاءه وصل - بطريقة أو بأخرى - إلى علم ابن الفرضي، فسعى للكيد له لدى الخليفة الجديد^(٥) فصنع على لسانه شعرا في هجائه وهجاء وزرائه. جاء فيه قوله (بسيط)^(٦):

يَا كَسْرَةً دَهَمْتُنَا لَيْسَ تَنْجَبِرُ
وَسُبَّةً لَحَقْتُنَا مَالَهَا عَذْرُ

ويبدو أن هذا الكسر الذي أصاب المجتمع الأندلسي، وهذا العار الذي لحقه لم يكن بمجىء هذا الخليفة. فقد كان له من الخصال ما يمكنه من تغيير الواقع المرير الذي أصبحت عليه الحياة بقرطبة. لكن التعفن بلغ أقصاه، ولم يعد هناك إمكانية للإصلاح. ولهذا نرى -بعد ٤٧ يوما من تولي عبد الرحمان الخلافة- أن من نصبوه يقومون بخلعه وقتله والعبث بحريمه. فتولى الأمر بعده ابن عمه المستكفي محمد بن عبد الرحمان بن عبد الله بن الناصر^(١) في ٣ ذي القعدة ٤١٤/١٧ جانفي ١٠٢٤ .

وكان هذا الخليفة، في عجزه وسوء سلوكه، محنة أخرى تنضاف إلى المجتمع الأندلسي في ذلك الظرف الحرج. ولعل ذلك كان من بين الأسباب التي شجعت أحد المغامرين بمجريط على القيام عليه.

وبطل هذه الثورة رجل غامض اختلف حول حقيقته. فقد ظن بعضهم أنه فعلا عبيد

(١) زهير العامري : وليّ المرية بعد وفاة خيران ٤١٩/١٠٢٨، قتل سنة ٤٢٩/١٠٣٨ أثناء حروبه مع باديس صاحب غرناطة (الزركلي : الأعلام ٣/٨٦).

(٢) لقّب هذا الخليفة بالمعتد. وكان بويغ وهو بحسن البنت في ٢٥ ربيع الآخر ٤١٨/٥ ماي ١٠٢٨ ثم قدم إلى قرطبة في شهر ذي الحجة ٤٢٠/ديسمبر-جانفي ١٠٣٠ .

(٣) ديوان ابن شهيد تحقيق بلا. ص ١٧٩ .

الله بن المهدي، أول القائمين في الفتنة الكبرى. وظن بعضهم أنه أحد دعاة الفاطميين بالأندلس. والحقيقة أن هذا الثائر - كما أوضح ابن حزم في كتابه نقط العروس^(٢) - لم يكن أحد دعاة الفاطميين، وليس هو عبيد الله بن المهدي، وإنما كان غلام العطار المعروف بالفصيح، وادّعى أنه عبيد الله بن المهدي.

وقد كان هذا الغلام - الذي سعى إلى حتفه بظلفه - مع جرأته وجسارته شاعرا وقد قال بمناسبة ثورته مؤكّد العزم على استرجاع ملك أبيه - حسب ادّعائه - والأخذ بثأره:

[البسيط]^(٣)

يَا قَصْرَ قَرْطُوبَةٍ هَيَّجَتْ لِي شَجَنًا
لَمَّا تَأَبَّدَتْ بَعْدَ الْكُنُسِ الرَّثْمِ
مَعَاهِدُ عَمَّرَتْ فِيهَا خِلَافَتُنَا
أَكْفُنَا فَوْقَهَا بِالْجُودِ كَالْدِيمِ
أَيَّامَ لِمَلِكِ الْمَهْدِيِّ دَوْلَتُهُ
فِيهَا، فَقَدْ أَصْبَحَتْ فِي الدَّهْرِ كَالْحُلْمِ
فَإِنْ أَعِشْ فَسَابِكِيهِ بِذِي شَطَبٍ
وَمَازِنْ كَشْهَابِ النَّارِ مُضْطَرِمِ

ورأى يحيى بن علي حمود الوقت مناسباً - في عهد هذا الخليفة- لاسترجاع نفوذه على قرطبة فهاجمها. ولما لاحظ أهل قرطبة عجز خليفاتهم عن الدفاع عن مدينتهم خلعوه. ففرّ متنكراً في زي امرأة في ٢٥ ربيع الأول ٤١٦/٢٧ ماي ١٠٢٥ .

ودخل يحيى قرطبة في ١٥ رمضان ٤١٦/٩ نوفمبر ١٠٢٥، ولكنه في هذه المرة لم يرد أن يجعلها مقراً لإقامته. فقد اختبر المجتمع القرطبي المتقلب، فترك حامية بربرية بها

(١) حكم بن سعيد القزاز قتل ٤٢٢/١٠٣١ كان السبب المباشر لزوال الدولة الأموية (الزركلي : الأعلام ٢/٢٩٤).

(٢) ديوان ابن شهيد تحقيق بلا. ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ديوان ابن شهيد تحقيق بلا. ص ١٥ .

(٥) ديوان ابن شهيد، تحقيق يعقوب زكي، ص ٨١ .

ورجع إلى مالقة.

ورأى خيران وزهير^(١) الفتيان العامريان في رجوع يحيى الحمودي إلى قرطبة تهديداً لمصالحهما. فعملاً على إشعال نار الثورة ضد الحامية البربرية، وليس ذلك بعمل صعب لتمكن الحقد في نفوس أهل قرطبة على البربر. وسرعان ما هاجم القرطبيون الحامية البربرية، وفتكوا بها في ٢٠ ربيع الاول ٤١٧/١١ ماي ١٠٢٦ ووقع إرجاع الأمر إلى بني أمية مرةً ثالثة، بمبايعة هشام بن محمد بن عبد الله ابن الناصر^(٢)، وكان هذا الخليفة ينتمي إلى فرع منهم، قاسى الويل والثبور في هذا الصراع العنيف من أجل السلطة. وإلى هذه الشخصية، قبل أن تتولى الأمر، يشير ابن شهيد في إحدى مقطوعاته ويستعرض الشاعر الأحداث التي وقعت لأخيه عبد الرحمان المرتضى ولابن أخيه سليمان ابن المرتضى، ويبتهل إلى الله أن يكأه بعنايته حتى لا يكون مصيره كمصير أخيه. يقول ابن هيد وكأنه يتكهن بمآل الأمر إلى هشام هذا :

[مطلع البسيط]^(٣)

لَمْ يُبْقِ مِنْ زُمْرَةِ الْمَعَالِي
إِلَّا هِشَامَ الْعَلَا أَخَاهُ^(٤)
يَا رَبَّ فَاحْرُسْهُ لِي بِعَيْنٍ
تَمْنَعُهُ الدَّهْرَ مِنْ أَذَاهُ

ولئن تمكن هشام المعتد من الوصول إلى سدة الخلافة، فإنه لم يكن له من حصافة الرأي ما يجعله يحتفظ بها لنفسه ولبنيه من بعده. فقد التفت حوله بطانة سوء على رأسها حكم بن سعيد^(١) (النَّذْلُ المترقّي ذروة الوزارة من الحياكة)^(٢) حسب وصف صاحب الذخيرة له. وكان هذا الوصف يعكس نظرة المجتمع إليه، فقد أدان أصله الوضع -حسب المعيار الاجتماعي الطبقي آنذاك- وسلوكه المشين القائم على الدس والغدر. ويبدو أن هذا الكره، بين الوزير والرعية، كان متبادلاً مما حمل الوزير وأتباعه على تحريض الخليفة المنساق لأهوائهم، على تصفية المعارضين له والمنافسين، وذلك بمصادرة أملاك بعضهم

(١) أمية بن عبد الرحمان العراقي قتل ٤٢٥/١٠٣٤ بعد محاولة فاشلة لتولي الخلافة (الزركلي : الأعلام ١/٣٦٣).

(٢) أبو الحزم جهوز صاحب قرطبة بعد زوال الخلافة الأموية بالأندلس (٩٧٤/٣٦٤-٤٣٠/١٠٤٣) (الكتاب السابق : ٢/١٣٩).

وقتل بعضهم الآخر. وكان ابن شهيد قد اعتلق يومئذ بدولة هشام المعتد واختصّ بوزيره، وانخرط في سلك من يؤيد المعتد على تلك الهنات والموبقات^(٣). فكان من جملة من بارك مقتل الوزير عبد الرحمان بن محمد بن الخياط^(٤) سنة ٤٢١/١٠٣٠. وهو لا يخفي تشفييه من أعدائه بنفس سادية غريبة فيقول:

[الكامل]^(٥)

أَحْلَلْتَنِي بِمَحَلَّةِ الْجَوَازِ
وَرَوَيْتُ عَنْكَ مِنْ دَمِ الْأَعْدَاءِ
وَطَعِمْتُ لَحْمَ الْمَارِقِينَ فَأَخْصَبْتُ
حَالِي وَبَلَّغَنِي الزَّمَانُ شِفَائِي
وَحَمَلْتَنِي كَالصُّفْرِ فَوْقَ مَعَاشِرِ
تَحْتِي كَأَنَّهُمْ بَنَاتُ الْمَاءِ

ثم يلتفت إلى الوزير القاتل، فلا يمنعه موته من ذكره بكل سوء. ويلج على تصفية الحساب مع من بقي من أصحابه :

لَا يَرْحَمُ الرَّحْمَانُ مُصْرَعَ مَارِقٍ
عَبِثْتُ بِطَاعَتِهِ يَدُ الْأَهْوَاءِ
أَلْحَقْ بِهِ إِخْوَانَهُ فَحَيَاتُهُمْ
نَكْدٌ وَقَدْ أَوْدَى أَخُو السُّفْهَاءِ

وهذه الطريقة في التصفية الجسدية للمعارضين السياسيين لم تكن غريبة في ذلك الوقت، حتى إن ابن شهيد لا يرى ما يشينه، وهو يدعو إليها جهاراً. ولكن هذه الطريقة، وإن خلّصت إلى حين صاحب السلطة من معارضيهِ، فهي ستعجلُ بأفول نجمه لأنها ضغط وكلّ ضغط إلى انفجار يؤول. فقد ثارت العامة على الخليفة ووزيره بسبب هذه الجرائم المرتكبة، وتزعم الانتفاضة أحد بني مروان وهو أمية بن عبد الرحمان العراقي^(١) قاتل المستكفي في ذي القعدة ٤٢٢ نوفمبر ولكن هذا الثائر لم يتمكن من جني ثمار عمله. فقد

(١) ديوان ابن زيدون تقديم نديم مرعشلي ١٠٥ .

تأكد للجميع أن الأمويين لم يعد لهم في أنفسهم مقدرة، ولا في نفوس غيرهم احترام، حتى يقوموا بما تستلزمه الخلافة من أعباء. ولهذا وقع القرار النهائي بنفي كل الأمويين من المدينة التي طالما كانت مقراً لملكهم ومنطلقاً لأمجادهم، وإسناد الأمر إلى جماعة من ذوي الرأي، على رأسهم شيخ الجماعة أبو الحزم بن جهور^(٢) وفي ذلك يقول أبو طالب عبد الجبار في أرجوزته^(٣) :

لَمَّا رَأَى أَعْلَامُ مِصْرَ قُرْطُوبَةَ
أَنَّ الْأُمُورَ عِنْدَهُمْ مُضْطَرِبَةٌ
وَعَدِمَتْ شَاكِلَةَ لِطُاعَةٍ
اسْتَعْمَلَتْ آرَاءَهَا الْجَمَاعَةُ
فَقَدَّمُوا الشَّيْخَ مِنْ آلِ جَهْوَرٍ
الْمُكْتَنَى بِالْحَزْمِ وَالتَّدْبِيرِ

وإلى هذه الشخصية يعزي ابن زيدون الفضل في انجلاء كابوس الفتنة عن مدينة قرطبة قال:

[الطويل]^(١)

أَلَيْسَ أَبُو الْحَزْمِ الَّذِي غَبَّ سَعْيُهُ
تَبَصَّرَ غَاوِينًا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ
أَغْرُ تَمَهَّدْنَا بِهِ الْخَفْضَ بَعْدَمَا
أَقْضَى عَلَيْنَا مَضْجَعٌ وَنَبَا مَهْدُ
لَشَمَّرَ حَتَّى انْجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ
تَأَلَّقَ مِنْهَا الْبَرْقُ وَاصْطَخَبَ الرُّعْدُ

(١) ابن بسّام : الذخيرة ٤٣٦/١ - ٦٠٠/٢/١

(٢) ابن حزم : طوق الحمامة، ص ٩٤ .

(٣) المقتبس : ص ١١٧ (تمهيد).

وبهذا القرار الجماعي، سقطت الخلافة الأموية رسمياً ونهائياً من الأندلس.

ج- نتائجها :

إنّ النتائج التي تمخّضت عنها هذه الفتنة العارمة فاقت كل تقدير من حيث حدّتها وخطورتها. فقد كانت - كالسلاح الفتاك - مسّت الجواهر والعرض والمادّة والروح. واكتوى بلهيبها من كان في أعلى السّلم الاجتماعي ومن كان في أدناه، فشمل بذلك التصدّع كل مظاهر الحياة :

- التصدّع العمراني : إنّ أهم مظهر لهذا التصدّع هو التصدّع العمراني. فالحروب المتواصلة بضراوة وفي وقت قليل من الزمن، كانت كفيلة بالقضاء على أهمّ المعالم العمرانية. وبما أنّ هذه الحروب دارت جلّها في قرطبة وأحوازها، فقد أصيبت هذه المدينة في صميمها، فشمل الخراب قصورها ودورها، أرباضها وضواحيها.

وصف ابن حيان كيف أن أحدهم كان يتولى الإشراف على هدم قصور الأمويين فقال «وبيده بادت قصور بني أمية الرفيعة، ودرست آثارهم البديعة. وحطمت أعلامهم المنيعة، قدمه ابن السقاء مدير قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة فاغتنى عليها أعظم أفة يبيع أشياء جليّة القدر رفيعة القيمة في طريق الأمانة... فعاث فيها عياث النار بيبس العرفج وياع آلاتها من رفيع المرمز ومثمن العمدة ونضار الخشب وخالص النحاس وصافي الحديد والرصاص بيع الأدبار»^(١).

وقال ابن حزم: «لقد أخبرني بعض الوارد من قرطبة وقد استخبرته عنها، أنّه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها وقد امحت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيّرها البلى وصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس وخرائب متقطعة بعد الحسن، وشعاباً مفزعة بعد الأمن، ومأوى للذئاب، ومعارف للغيلان وملاعب للجبان، ومكان للوحوش»^(٢).

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص ١٠٧ . (٢) ديوان ابن شهيد / بلا. ص ٦٤.

(٣) ديوان ابن درّاج، ص ٦٦ . (٤) ابن بسام : الذخيرة ٣/١/٩ .

(٥) الفتح : القلائد ١١ .

ووقف الكتاب والشعراء أثناء الفتنة أو بعدها يصفون ما بقي من أطلال ورسوم،
ويكون الزاهرة والزهاء. قال ابن حيان "وطمست أعلام قصر الزهاء... فطوى بخرابها
بساط الدنيا وتغير حسننها، إذ كانت جنة الأرض فغدا عليها قبل تمام المائة من كان
أضعف قوة من فارة المسك، وأوهن بنية من باعوضة النمرود، والله يسلط جنوده على من
يشاء، له العزة والجبروت"^(٣).

وقال ابن عذاري : «لما فرغ للقائم محمد بن هشام من تحويل كل ما كان بالزاهرة
أمر بهدمها وحط أسوارها وقلع أبوابها وتشيعت قصورها وطمس آثارها والاستعجال في
ذلك...»^(٤).

وحاول الكتاب والشعراء أيضا أن يستخلصوا العبرة مما حلّ بتلك الربوع من دمار
قضى في وقت قليل على روائع نوى لها أصحابها الخلود بتشبيدها.

لقد أصبحت قرطبة في نظر ابن حزم بعد رحيل ساكنيها خلاء موحشاً وقفراً يباباً.
وتبدو من هول الخراب الذي أصابها كأنها لم تكن بالأمس مكاناً معموراً وبلداً مأهولاً:
[الطويل]^(١):

سَلَامٌ عَلَى دَارِ رَحَلْنَا وَغُودِرَتْ
خَلَاءَ مِنَ الْأَهْلِينَ مُوحِشَةً قَفْرًا
تَرَاهَا كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ بَلَقْعًا
وَلَا عَمَرَتْ مِنْ أَهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرًا

ويشعر ابن شهيد - عندما يقف أمام هذه الاطلال الموحشة - بحيرة تنتابه. لقد
خلت هذه الأطلال من سكانها، فمن سيخبره عما أصابها من حوادث الدهر ومصائب الزمن؟:
[الكامل]^(٢):

مَا فِي الطُّلُولِ مِنَ الْأَحِبَّةِ مُخْبِرٌ
فَمَنْ الَّذِي عَنْ حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ؟

(١) ديوان الإليري، ص ٧٤.

(٢) وقال ابن دراج في ديوانه، ص ٢٧٧ (الوافر) : وَكَمْ دَهْرٌ أَضَاءَ بِهَا الْمَسَاءُ فَأَظْلَمَ بَعْدَنَا الْإِصْبَاحُ فِيهَا

(٣) ديوان ابن شهيد - بلا، ص ٦-٦٥.

وَرِيَّاحُ زَهْرَتِهَا تَلُوحُ عَلَيْهِمْ
 بِرَوَائِحٍ يَفْتَرُ مِنْهَا الْعَنْبَرُ
 وَالِدَارُ قَدْ ضَرَبَ الْكَمَالَ رِوَاقَهُ
 فِيهَا وَبَاعَ النُّقْصَ فِيهَا يَقْصُرُ
 وَالْقَوْمُ قَدْ أَمِنُوا تَغْيِيرَ حُسْنِهَا
 فَتَعَمَّمُوا بِجَمَالِهَا وَتَأَزَّرُوا
 يَا طَيِّبَهُمْ بِقُصُورِهَا وَخُدُورِهَا
 وَبُدُورِهَا بِقُصُورِهَا تَتَخَدَّرُ
 وَالْقَصْرُ قَصْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ وَأَفْرُ
 مِنْ كُلِّ أَمْرٍ وَالْخَلِيقَةُ أَوْقُرُ
 وَالزَّاهِرِيَّةُ بِالْمَرَكَبِ تُزْهِرُ
 وَالْعَامِرِيَّةُ بِالْكَوَكِبِ تُعْمَرُ
 وَالْجَامِعُ الْأَعْلَى يَغْصُ بِكُلِّ مَنْ
 يَتْلُو وَيَسْمَعُ مَا يَشَاءُ وَيَنْظُرُ
 وَمَسَالِكُ الْأَسْوَاقِ تَشْهَدُ أَنَّهَا
 لَا يَسْتَقِلُّ بِسَالِكِيهَا الْمَحْشَرُ

فهذه قرطبة التي (طالما أشرقَت بالخلائف وابتهجت وفاحت من شذاهم وأرجت، أيام
 نزلوا خلالها وتفيؤوا ظلالها وعمروا حدائقها وجنانها. ونهبوا الآمال من سنانها وراعوا
 اللبث في أجامها وأخلجوا الغيوث عند انسجامها، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتبار
 ولم يبق من آثارها إلا نوى وأحجار، وهوت قبابها وهرم شبابها وقد يلين الحديد ويبلى
 على طيِّه الجديد)^(١).

لقد بلغت قرطبة في نظر أحد شعرائها^(٢) الغاية في الحسن^(٣) والجمال، ثم تدرجت
 فجأة إلى عكس ذلك. كان العيش في رحابها عذبا، فنغص، وكانت البهجة تعمر القلوب،

(١) الفتح : القلائد ١١ .

(٢) لم نتكّن من معرفته.

(٣) وصلت شهرة قرطبة (إلى قاصية الشمال حتى أنّ الراهبة السكسونية هروسويتا التي اشتهرت بنظمها في
 أواخر القرن ٤ هـ/ ١٠م أشادت في قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنّها زينة الدنيا (عبدالله عنان:
 دولة الإسلام في الأندلس : عصر الخلافة، ص ٨-٤٠٧).

فزالت. ولم يكن هذا الانتقال تدريجيا، كانت في القمة سعادة وبهاء، فهوت إلى الحضيض
بؤساً وشقاء:

[السريع]^(١)

كَانَتْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْ حُسْنِهَا
وَعَيْشِهَا الْمُسْتَعَذَّبِ اللَّيْنِ
فَأَنعَكَسَ الْأَمْرُ قَمًا إِنْ تَرَى
بِهَا سُرُورًا بَيْنَ إِنْسَيْنِ

ولا يتمالك الشاعر - بحسه المرفه - أمام بعض الأطلال التي كانت بهجة للنفس
فأصبحت كمدا في القلب وقذى في العين، أن يذرف الدمع سخناً غزيراً.

قال السَّمِيسِر: ^(٢)

[السريع]^(٣)

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا
مُعْتَبِرًا أُنْدُبُ أَشْتَاتًا
فَقُلْتُ: يَا زَهْرَا أَلَا قَارِجِي
قَالَتْ: وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا؟
فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي وَأُبْكِي بِهَا
هَيْهَاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هَيْهَاتَا
كَأَنَّمَا أَثَارُ مَنْ قَدْ مَضَى
نَوَادِبُ يَنْدُبُنَ أَمْوَآتَا

وهكذا يبكي الشاعر على تلك الآثار وتندب الآثار على من كان بها وذهب، فيستمر
البكاء بلا انقطاع، قال ابن حزم:

[الطويل]^(٤)

سَأُنْدُبُ ذَاكَ الْعَهْدَ مَا قَامَتِ الْخَضْرَا
عَلَى النَّاسِ سَقْفًا، وَاسْتَقَلَّتْ بِنَا الْغَبْرَا

(١) ابن عذاري : البيان ٣/١١٠ .

(٢) السَّمِيسِر : خلف بن فرج الإلبيري أبو القاسم، ت نحو ١٠٨٧/٤٨٠ شاعر هجاء أدرك الدولة العամرية
وانقراضها (الزركلي : الأعلام ٢/٣٥٩).

(٣) المقرئ : النّفع ١/٨-٥٢٧ . (٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ١٠٨ .

ويرى أبو إسحاق الإلبيري في البكاء على أطلال مدينته واجباً مفروضاً. وهي أحق
من غيرها بالنديب لما لها من خصائص تميزها عن بقية البلاد:

[الطويل]^(١)

يُضَيِّعُ مَفْرُوضٌ وَيُعْفَلُ وَاجِبٌ
وَإِنِّي عَلَى أَهْلِ الزَّمَانِ لَعَاتِبٌ
أَتُنْدِبُ أَطْلَالَ الْبِلَادِ وَلَا يَرَى
لِلْبِيرَةِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ نَادِبٌ؟
عَلَى أَنَّهَا شَمْسُ الْبِلَادِ وَأَنْسُهَا
وَكُلُّ سِوَاهَا وَحُشَّةٌ وَغِيَاهِبٌ

ولا يكتفي الشاعر ببكائه، فيطلب من غيره أن يشاركه ما يشعر من فداحة الخسارة
وعظم المصائب. قال بعض شعراء قرطبة:

[السريع]^(٢)

ابْكِ عَلَى قُرْطُوبَةَ الزَّيْنِ
فَقَدْ دَهْنَتْهَا نَظْرَةُ الْعَيْنِ
أَنْظَرَهَا الدَّهْرُ بِأَسْلَافِهِ
ثُمَّ تَقَاضَى جُمْلَةُ الدِّينِ

ولا يبكي على مصاب قرطبة الإنسان فقط، بل الطبيعة تشاركه في ذلك. فهي هي
طيوورها تقيم مأتماً، وتندب هذه الديار البلاقع حسب أبيات قرأها محيي الدين بن عربي^(٣)
على بعض جدران الزهراء بعد خرابها:

[الطويل]^(٤)

دِيَارُ بِأَكْنَفِ الْمَلَاعِبِ تَلْمَعُ
وَمَا إِنَّ بِهَا مِنْ سَاكِنٍ وَهِيَ بَلْقَعُ
يَنْوَحُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَيَصْمُتُ أَحْيَانًا وَحِينَئِذَا يُرْجَعُ

(١) ديوان الإلبيري، ص ٧٣ .

(٢) ابن عذاري : البيان ٣/١١٠ .

(٣) محيي الدين بن عربي : هو محمد بن علي المتصوِّف الأندلسي المشهور (١١٦٥/٥٦٠-١٢٤٠/٦٣٨) (الزركلي :
الأعلام ٧/١٧٠).

(٤) المقرئ : النَّفْح ١/٥٢٣ .

فَخَاطَبْتُ مِنْهَا طَائِرًا مُتَغَرِّدًا
لَهُ شَجَنٌ فِي الْقَلْبِ وَهُوَ مُرَوِّعٌ
فَقُلْتُ : عَلَى مَاذَا تَنْوُحُ وَتَشْتَكِي؟
فَقَالَ : عَلَى دَهْرٍ مَضَى لَيْسَ يَرْجِعُ

وقد يتحوّل البكاء إلى عويل تملؤه الزفرات والآهات. قال الإلبيري:

[الطويل]^(١)

فَاهَا أُلُوفًا تَفْتَضِي عَدَدَ الْحَصَى
عَلَى عَهْدِهَا مَا عَاهَدَتْهَا السَّحَابُ

ويكثر ابن شهيد من النداء تحسراً حتى لتشعر بنياط قلبه تتمزق:

[الكامل]^(٢)

يَا طَيْبَهُمْ بِقُصُورِهَا وَخُدُورِهَا
وَبُدُورِهَا بِقُصُورِهَا تَتَخَدَّرُ !
يَا جَنَّةً عَصَفَتْ بِهَا وَبِأَهْلِهَا
رِيحُ النُّوَى فَتَدَمَّرَتْ وَتَدَمَّرُوا !
يَا مَنْزِلًا نَزَلَتْ بِهِ وَبِأَهْلِهِ
طَيْرُ النُّوَى فَتَغَيَّرُوا وَتَنَكَّرُوا

ويتجلى العويل خاصة في تكرار نفس الكلمات أو العبارات وإسنادها إلى ياء المتكلم:

[الكامل]^(٣) :

أَسْفِي عَلَى دَارٍ عَهَدْتُ رُبُوعَهَا
وَضَبَاؤُهَا بِفِنَائِهَا تَتَبَخَّرُ
أَيَّامَ كَانَتْ عَيْنُ كُلِّ كَرَامَةٍ
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ إِلَيْهَا تَنْظُرُ
أَيَّامَ كَانَ الْأَمْرُ فِيهَا وَاحِدًا
لِأَمِيرِهَا وَأَمِيرٍ مَنْ يَتَأَمَّرُ

(١) ديوان الإلبيري ٧٤ . (٢) ديوان ابن شهيد / بلاء، ص ٦-٦٥ .

(٣) ديوان ابن شهيد / بلاء ٧-٦٦ .

أَيَّامَ كَانَتْ كُلُّ سَلَامَةٍ
تَسْمُو إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ وَتَبْدُرُ
حُزْنِي عَلَى سَرَوَاتِهَا وَرَوَاتِهَا
وَتَقَاتِهَا وَحِمَاتِهَا يَتَكَرَّرُ
نَفْسِي عَلَى الْأَثَرِهَا وَصَفَائِهَا
وَبَهَائِهَا وَسَنَائِهَا تَتَحَسَّرُ
كَبِدِي عَلَى عُلَمَائِهَا حُلَمَائِهَا
أُدْبَائِهَا ظُرَفَائِهَا تَتَفَطَّرُ

وفي حالات من الأسى القاتل يرى الشاعر نفسه أمام هذه الأطلال، وكأنه أمام قبر
ضمّ رفات فقيد عزيز، ولهذا يدعو له - على عادة العرب - بالغيث.

قال ابن حزم:

[الطويل]^(٢)

وَيَا خَيْرَ دَارٍ قَدْ تُرِكْتَ حَمِيدَةً
سَقَتْكَ الْغَوَادِي مَا أَجَلُّ وَمَا أَسْرَى

ولا يكتفي ابن شهيد بماء السماء فيدعو أن تسقيها أنهار الأرض بل وأنهار الجنة:

[الكامل]^(٣)

جَادَ الْفُرَاتُ بِسَاحَتَيْكَ وَدَجَلَةُ
وَالنَّيْلُ جَادَ بِهَا وَجَادَ الْكَوْثَرُ^(٣)
وَسُقِيتَ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ غَمَامَةً
تَحْيَا بِهَا مِنْكَ الرِّيَاضُ وَتُزْهِرُ

- التصديق البشري : إنَّ الخراب العمراني الذي حلَّ بالبلاد الأندلسية كان له أثره
السلبي في العنصر البشري الموجود بها. ويرى ابن درّاج أن قراناً عُقد في تلك الربوع
بين البغي والحرب فأنّج اللقاح وليدا هو (الخطب)، أُختير له مرضعة حلوب لا يجفّ

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ١٠٨ . (٢) ديوان ابن شهيد / بلا. ص ٦٦ .

(٣) الضمير يعود على (يا منزل) في البيت ٢١ ويقصد به الشاعر الوطن.

لبنها (الفتنة) فكانت تدرّ على هذا الوليد بدون انقطاع فيعمّ البلاء وتستمرّ
الحنّة. قال:

[الطويل]^(١)

أَغَالِي بِأَثْمَانِ التُّوَى بَائِعِ الرَّدَى
وَأُضْعِفُ صَرْفِي نَاجِزَ الدَّمِ بِالدَّمْعِ
لِخُطْبِ أَبَوِهِ الْبَغْيِ وَالْحَرْبِ أُمُّهُ
وَدَرْتُ عَلَيْهِ فِتْنَةً حَافِلُ الضَّرْعِ

ونزل هذا الخطب فهتك الحرمات وفرّق الجماعات، وأزهق الأرواح، وذهب بكل
طريف وتليد. وأرجع أهل الأندلس بين عشية وضحاها إلى أحلك فترات العهد الجاهليّ،
فتنوسيت قرون من الأخوة الإسلامية المقامة على التسامح والتآخي والتآلف لتحلّ محلّها
روح جاهلية مقامة على التعصّب المقيت^(٢)، والانتقام المهول^(٣)، والتشفيّ البغيض^(٤)،
وأصبحت النفوس ظمأى للدماء، فالأزلام كانت جزوراً تُنحر زمن الجاهلية، وهي في هذه
الفتنة أرواح بشرية تزهق. والقرايين كانت حيواناً يقدم، وهي الآن نفوس إنسانية تسيل
ودماء زكية تراق.

[الكامل]^(٥).

فِي جَاهِلِيَّةٍ فِتْنَةٍ عُيِدَتْ بِهَا
دُونُ إِلَهِ مَضَلُّهُ الْأَرْبَابِ
تُسْتَقْسَمُ الْأَزْلَامُ فِي مَهْجَاتِنَا
وَتَسِيلُ أَنْفُسُنَا عَلَى الْأَنْصَابِ

(١) ديوان ابن دراج ٢١٤ .

(٢) من ذلك أنّه لما غلب المستعين بالبرابرة على هشام... استخفى ابن وافد فوقع الطلب الحثيث عليه لما أسلفه من عداوة
البربر فظفروا به... فعنفوه به وجزّروه وتلوه على وجهه إلى باب القصر راجلاً حافياً، مكشوف الرأس بادي الصلعة ما
عليه إلا قميصه وفي رقبته عمامة يقتادونه بها مخترقين به الشوارع إلى باب القصر). (ابن سعيد : المغرب ١/١٥٦).

(٣) أورد صاحب البيان أنّ بعض الأدباء كان واقفاً عند باب الحديد بقرطبة (إذ أتى بشنجل معروضاً على بغل... عاري
الجتّة مصفراً اليدين والرجلين بالحناء نقياً من الشعر مبطوحاً على وجهه بادياً شواره ورأيت -والله- سفلة من أهل
البادية تبصق في دبره، وأنّ العامة تتصاحك من فعلهم. ولا أحد ينكر ما يرتكب منه (ابن عذاري : البيان ٣/٧٤).

(٤) لما قتل أهل قرطبة حباسة بن ماكسن فارس صنهاجة (احتزوا رأسه وعجلوا به إلى قصر السلطان، وأسلموا
جسده للعامة، فركبوه بكلّ عظيمة... وقطعوا بعض أعضائه) (ابن الخطيب : الإحاطة، ط٤٩٤/١/١).

(٥) ديوان ابن دراج ١٥٢ .

وهكذا أصبح أهل الأندلس فجأة مقسمين بين قتل سفك دمه، ونازح بُدّد شمله، ومقيم شرد لَبّه.

أمّا القتل، فقد بكاه الإنسان، وناحت عليه الطبيعة، وندبته الأطلال وراثه الشعر. وهذا أبو إسحاق الإلبيري يتحسّر متألّماً على ما كان في مدينته من نجدة وكرم، ومروءة وعلم، وحسن وبهاء، ذهبت كلّها بذهاب أصحابها قال:

[الطويل]^(١)

وَكَمْ مِنْ مُجِيبٍ كَانَ فِيهَا لِصَارِخٍ
تُجَابُ إِلَى جَدْوَى يَدَيْهِ السَّبَّاسِبُ
وَكَمْ مِنْ نَجِيبٍ أَنْجَبَتْهُ وَعَالِمٍ
بِأَبْوَابِهِمْ كَانَتْ تُنَاخُ الرُّكَائِبُ
وَكَمْ بَلَغَتْ فِيهَا الْأَمَانِي وَقُضِّيتُ
لِصَبِّ لِبَانَاتٍ بِهَا وَمَارِبُ
وَكَمْ طَلَعَتْ مِنْهَا الشُّمُوسُ وَكَمْ مَشَتْ
وَكَمْ عَلَى الْأَرْضِ أَقْمَارُ بِهَا وَكَوَاكِبُ
وَكَمْ فَرَسَتْ فِيهَا الظُّلُبَاءُ ضِرَاعِمًا
وَكَمْ صَرَعَتْ فِيهَا الْكُمَاةُ كَوَاعِبُ

وتبلغ حسرته حدّ الحيرة فيكثر من التساؤل وكأنه - لهول المصيبة - يشكّ في أن تلك الخصال ذهبت إلى الأبد مع أربابها. قال:

[الطويل]^(٢)

عَجِبْتُ لِمَا أَدْرِي بِهَا مِنْ عَجِيبَةٍ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ تِلْكَ الْعَجَائِبُ؟
وَمَا فَعَلْتَ أَعْلَامُهَا وَقِيَامُهَا
وَأَرَامُهَا، أَمْ أَيْنَ تِلْكَ الْمَرَاتِبُ؟
وَأَيْنَ بِحَارُ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالنُّدَى
وَأَيْنَ الْأَكْفُ الْهَامِيَاتِ السَّوَاكِبُ؟
شَقَقْنَا عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ جُيُوبَنَا
وَكَانَ قَلِيلًا أَنْ تُشَقَّ التُّرَائِبُ؟

(١) ديوان الإلبيري ٧٣ . (٢) ديوان الإلبيري ٧٤-٥ .

أما ابن شهيد فتصل حسرته حدّ التفجّع على فقد أناس ضربوا بسهم وافر في شتّى فروع المعرفة، وكانوا بظفرهم وأدبهم بهجة المجالس، وبثقتهم وحلمهم قرّة عين الأندية. قال:
[الكامل]^(١):

حُزِنِي عَلَى سَرَوَاتِهَا وَرُؤَاتِهَا
وِثِقَاتِهَا وَحُمَاتِهَا يَتَكَرَّرُ
نَفْسِي عَلَى الْأَثْهَاءِ وَصَفَائِهَا
وَبَهَائِهَا وَسَنَائِهَا تَتَحَسَّرُ
كَبِيدِي عَلَى عُلَمَائِهَا حُلَمَائِهَا
أُدْبَائِهَا طُرْفَائِهَا تَتَفَطَّرُ

أما المقيم فقد بقي، ولكنه كان يتوقّع الشر في كل أونة ولحظة. فكيف حياته حسب الظروف التي فرضت عليه^(٢) وهو وإن أجبر على الانتقال من منزل إلى آخر ومن ربح إلى غيره^(٣) فقد حاول أن يتنكّر^(٤) حتى ينسجم في سلوكه وتفكيره مع الطائفة المنتصرة، ليسلم من أذاها ولو إلى حين.

[الكامل]^(٥) :

دَارُ أَقَالِ اللَّهِ عَثْرَةَ أَهْلِهَا
فَتَبَرُّرُوا^(٦) وَتَغَرُّبُوا وَتَمَصَّرُوا
يَا مَنْزِلًا نَزَلْتُ بِهِ وَإِلَيْهِ
طَيْرُ النُّوَى فَتَغَيَّرُوا وَتَنَكَّرُوا

(١) ديوان ابن شهيد / بلاء. ص ٦٦-٧٠ .

(٢) من ذلك أن أهل قرطبة استفتوا شيوخ المالكية في تعجيل صلاة العتمة قبل وقتها خوفاً من القتل إذ كان متلصصة البرابرة يقفون لهم في الظلام، وفي طرق المسجد فرموا أنوهم أذى شديداً. (ابن حزم : الأحكام ٣/٦٧).

(٣) قال ابن حزم : (ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدث بالجنب الشرقي من قرطبة في ربح الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث... ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته وامتحننا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار وأرزمتم الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا...) (ابن حزم : طوق الحمامة، ٢٨٦).

(٤) ومن مظاهر التنكيل بهؤلاء المقيمين وإن تنكروا أو استتروا ما ذكره صاحب البيان من أنه (لما أتى ابن عبد الجبار وواضح إلى قرطبة قتلوا كل متشبه بالبربر وكل عدوي، ومن لم ير العدو ولا سمع بها... حتى إن كل من بينه وبين أحد عداوة قال هذا بربري فقتل ولم يسأل عنه - (ابن عذاري : البيان ٣/٧٩).

(٥) ديوان ابن شهيد / بلاء، ص ٦٥-٦٠ .

(٦) من معاني تبرير : نجد توحش، ونميل على اعتبار الشاعر قصد بهذا الفعل : أصبحوا بربراً.

وأما النازح، فقد ترك مدينته أو وطنه عن مضض لفراق ربوع عهدها وأماكن ألفها ومشاهد أنس بها. قال ابن حزم:

[الطويل]^(١):

فَيَا دَارَ لَمْ يُفْفِرْكَ مِنَّا اخْتِيَارُنَا
وَلَوْ أَنَّ نَسْطِيعُ كُنْتَ لَنَا قَبْرًا
وَلَكِنْ أَقْدَارًا مِنَ اللَّهِ أَنْفَذَتْ
تَدْمَرُنَا طَوْعًا لِمَا حَلَّ أَوْ قَهْرًا

وأصعب اللحظات التي يعيشها هذا النازح هي لحظات الوداع لمن سيفارقه من أهله وذويه. إنهم جميعا كأغصان شجرة واحدة فرقت بينهم عواصف الفتنة، فغرب بعضهم وشرق آخرون. قال ابن الدراج:

[الطويل]^(٢)

وَيَصْنَدُ مَا ضَمَّ الْوَدَاعُ تَفَرُّقُ
كَمَا انْشَعَبَتْ تَحْتَ الْعَوَاصِفِ أَغْصَانُ
إِذَا شَرَّقَ الْحَادِي بِهِمْ غَرَبَتْ بِنَا
نَوَى يَوْمُهَا يَوْمَانِ وَالْحَيْنُ أَحْيَانُ
فَلَا مُؤْنِسُ إِلَّا شَهِيْقٌ وَزَقْرَةٌ
وَلَا مُسْعِدٌ إِلَّا دُمُوعٌ وَأَشْجَانُ
فَيَا عَجَبًا لِلصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّنا
لَهُمْ غَيْرُ مَنْ كُنَّا وَهُمْ غَيْرُ مَنْ كَانُوا

وأشقى من هذا كله أن يكون فراق هؤلاء وهم في بلاد الغربة. إنه صعب على الشريد أن يترك أهله في منازلهم بين أناس تجمعهم صلة القربى أو الجوار. فكيف به إذا تركهم وهم في دار غربة؟ قال ابن درّاج على لسان زوجته:

[الكامل]^(٣)

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْوَدَاعُ مَدَامِعًا
بِمَدَامِعِ وَتَرَائِبِهَا بِتَرَائِبِ

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام / ١٠٨ .

(٢) نفس المصدر / ٢١٣-٤ . (٣) ديوان ابن درّاج ٩٠ .

أَتَفَرَّقُ حَتَّى يَمُنْزِلَ غُرْبَةً؟
كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةً نَاهِبٍ!

ويعد هذا الوداع المؤلم، تبدأ رحلة العذاب المضنية سواء بالنسبة إلى من ركب البحر، أو ضرب في الأرض. قال ابن الدراج:

[الوافر]^(١)

وَلَا كَبَنِي سَبِيلٍ شَرَدَتْهُمْ
عَنِ الْأَوْطَانِ قَاضِيَةُ الْقَضَاءِ
عَوَاصِفُ فِتْنَةٍ غَمَّتْ بِغَيْمٍ
بَوَارِقُهُ سُيُوفُ الْإِعْتِدَاءِ
فَأَصْعَقَهُمْ بِرَاعِدَةِ الْمَنَآيَا
وَأَمْطَرَهُمْ شَايِبَ الْفَنَاءِ
وَطَافَ عَلَيْهِمْ طُوقَانُ رَوْعٍ
أَفَاضَ بِهِمْ إِلَى الْقَفْرِ الْقَضَاءِ
سِهَامٌ نَوَى إِلَى بَرٍّ وَبَحْرٍ
وَأَغْرَاضٌ لِنُشَابِ الْبَلَاءِ

لقد كَالَتْ (قاضية القضاء) لهؤلاء المشردين الصّاع صاعين، فأرثتهم المنيا ألوانا والرّعب أشكالا. ووتر البلاء قوسه ورمى بنشأته نحوهم، فأصابهم بهول لا نظير له إلا هول يوم القيامة. قال ابن درّاج:

[المتقارب]^(٢)

فَكَمْ لُجٍّ بَحْرٍ وَضَحْضَاحٍ قَفْرِ
تَمَثَّلَ لِي فِيهِ هَوْلُ الْقِيَامَةِ

إنّ طريق البحر له أخطاره، فريح الصّبا -على رقّتها- كفيلة بإثارة لججه العاتية، فتترامى أمواجه الواحدة تلو الأخرى كأنّها الجبال، قال ابن درّاج:

[الطويل]^(٣)

عَلَى لُجَجٍ خُضِرَ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا
تَرَامَى بِنَا فِيهَا ثَبِيرٌ وَثَلَانُ

(١) نفس المصدر، ٢٧٢ .

(٢) نفس المصدر، ٩٧ .

(٣) نفس المصدر، ٧٤ .

وطريق البر لا يخلو هو الآخر من مخاوف ومكاره قال ابن درّاج:

[المتقارب]^(١)

لِيَالِي أُمْسِي صَدَى قَفْرَةٍ
أَجُولُ الْفَلَا بَيْنَ غُولٍ وَهَامَةٍ

وهكذا أصبحت قيثاره هذا الشريد ذي المزاج السوداوي لا تعزف إلا ألحانا قاتمة وقد نعق به غراب البين، فركب غراب البحر. قال ابن درّاج:

[الكامل]^(٢)

نَعَبَ الْغُرَابُ^(٣) بِنَا قَطَارَ بِأَهْلِهَا
سِرْبًا عَلَى مِثْلِ الْغُرَابِ النَّاعِبِ

وأصبحت كلّ عناصر الطّبيعة حوله إذا تحرّكت تذكره بضروب شتى من صور شقائه وبلائه، فيعيش باستمرار آلامه وأحزانه. قال ابن درّاج.

[الوافر]^(٤)

يُذَكِّرُهُمْ زَفِيفُ الرِّيحِ فِيهِ^(٥)
تَنَّاوَحَهَا بِرَبْعِهِمُ الْخَلَاءِ
وَمَحَوُ الْمَاءِ مَا يَخْتَطُّ فِيهِ
دِيَارًا خَلَفُوهَا لِلْعَفَاءِ
وَصَكُّ الْمَوْجِ فِيهَا كُلَّ وَجْهٍ
وَجُوهًا سَاوَرَتْهُمْ بِالْجَفَاءِ
وَعُدْمُهُمْ صَفَاءَ الْمَاءِ مِنْهُ
بِعُدْمِهِمْ لِإِخْوَانِ الصَّفَاءِ

ويزداد ألمه حدة -وهو يكابد المشاق ويتعرّض للأخطار- عندما تتراءى له صور النّعيم التي كان عليها قبل اندلاع الفتنة، وإذا بكلّ حالة من الشقاء في الحاضر تقابلها حالة من النّعيم في الماضي : فاللهو أصبح هولاً والراح باتت ريحاً والهوى صار هواء. قال ابن درّاج:

[الوافر]^(٦)

(١) نفس المصدر، ٩٧ . (٢) ديوان ابن درّاج ٩١ . (٣) نوع من السفن.
(٤) ديوان ابن درّاج ٢٧٣ . (٥) هو ابن الماء كما جاء في البيت الأسبق، ص ٢٧٢ أي السفينة.
(٦) ديوان ابن درّاج ٢٧٣ .

بَحَيْثُ تَبَدَّلُوا بِاللَّهُوِ هَوًى
وَرَحْبَ الْمَاءِ مِنْ رَحْبِ الْفَنَاءِ
وَمِنْ قَصْفِ وَرَاحِ قَصْفِ رِيحٍ
وَمِنْ لَعِبِ الْهَوَى لَعِبِ الْهَوَاءِ

وانقلبت حياتهم كلياً من نعيم وأمن، ورقّة وعزّة، إلى شقاء وأخطار، وخشونة وذلّ. قال ابن درّاج:
[الوافر]^(١)

سَرَوْا فَشَرَوْا بِأَفْيَاءِ ضَوَافٍ
فَيَافِي لَا يَقِينُ مِنَ الضُّحَا
وَحُمَرَ الْمَوْتِ مِنْ خُضْرِ الْمَغَانِي
وَسُودَ الْبَيْدِ مِنْ بَيْضِ الْمَلَأِ
وَمِنْ كِلَلِ السُّتُورِ كِلَالَ خُوصٍ
وَعَدْنَهُمُ النَّجَاةَ عَلَى النَّجَاءِ
وَقَدْ جَدَعَتْ أُنُوفَ الْعِزِّ مِنْهُمْ
خُطُوبُ سُمْنَنَهُمْ أَنْفَ الْإِبَاءِ
وَأَلْبَسَهُمْ ثِيَابَ الذَّلِّ خَطْبُ
يَلِيهِمْ فِي ثِيَابِ الْكِبَرِيَاءِ

وإذا كانوا يلجؤون عند اشتداد القيظ إلى وارف الظلال فلا ملجأ لهم، وهم في الطريق، إلّا لمع السّرّاب، ولهيب السّموم. قال ابن درّاج:
[الكامل]^(٢)

عَاذُوا بِلَمْعِ الْإِلِّ فِي مَدِّ الضُّحَى
مِنْ بَعْدِ ظِلِّ فِي الْقُصُورِ مُمَهَّدِ

ونجد من بين هؤلاء المشرّدين الأطفال، وهم عرضة كال كبار أو أكثر إلى أشدّ الأهوال والأخطار. قال ابن درّاج:

[الطويل]^(٣)

(١) نفس المصدر، ٢٧٢ .

(٢) د. ابن درّاج ٦٣ .

(٣) نفس المصدر، ١٥٨ .

فَكَمْ لِي بَيْنَ السُّوْحِ وَالسُّوْحِ طَائِرًا
وَأَوْكَارُهُمْ فِي طَائِرٍ غَيْرِ ذِي وَكْرٍ
وَكَمْ أَسْلَمُوا لِلْعَسْفِ وَالْخَسْفِ مِنْ حِمَى
وَكَمْ تَرَكُوا لِلْغَصْبِ وَالنَّهْبِ مَنْ وَقَرٍ
وَكَمْ وَجَّهُوا وَجْهًا لِبَارِقَةِ الظُّبَى
وَكَمْ وَطَّنُوا نَحْرًا لِنَافِذَةِ النَّحْرِ
وَكَمْ أَقْدَمُوا بَيْنَ الْمَنَآيَا كَمَا هَوَتْ
فَرَائِسُ أَسَدِ الْغَابِ لِلنَّابِ وَالظُّفْرِ

لقد كان هؤلاء الأطفال في رعاية وحفظ، ونعيم وأمن، وطمأنينة وسكينة، فلم يبق لهم من ذلك شيء. قال ابن درّاج:

[الطويل]^(١)

وَجُوهَ الْمَنَآيَا السُّودِ وَالْحَدَقِ الْحُمْرِ
وَكَمْ بُدِّلُوا مِنْ وَجْهِ رَاعٍ وَحَافِظٍ
تَرْقُرُقَ لَمْعِ الْأَلِ فِي الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ
وَمِنْ رَقْرِفِ الْأَسْتَارِ دُونَ حِجَالِهَا
مُرَاسَلَةَ الْأَلْحَانِ فِي نَغَمِ الْوَتْرِ
وَمِنْ سَاجِعِ الْأَطْيَارِ فَوْقَ غُصُونِهَا
وَهَوْلَ التَّطَامِ الْمَوْجِ فِي لَجَجِ الْبَحْرِ
تُنَادِي عَزِيفَ الْجَنِّ فِي ظُلَمِ الدَّجَى

ويزداد كاهل الشريد ثقلاً بكثرة هؤلاء الأطفال، فهم لقصورهم عالة في كل شيء على غيرهم. إنهم ظماء - كما قال ابن درّاج - وهو ظمأ للماء وظمأ للقوت وظمأ للأمن:

[الوافر]^(٢)

(١) نفس المصدر، ١٥٨ .

(٢) ديوان ابن درّاج ٧-٢٧٦ .

أَخُو ظَمًا يَمُصُّ حَشَاءَ سَبْعٍ
وَأَرْبَعَةً وَكُلُّهُمْ ظِمَاءٌ^(١)
نَقَائِدُ فِتْنَةٍ وَخُلُوفٌ ذُلٌّ
أَلَدٌ مِنَ الْبَقَاءِ بِهِ الْفَنَاءُ

لقد أفلتوا من براثن الدهر ومخالب الموت. فهم (نقائذ فتنة.. فتجب التضحية من أجلهم. وفعلا لقد ضحى الشريد بكرامته. قال ابن دراج:

[الطويل]^(٢)

وَدَائِعُ نَفْسِي عِنْدَ نَفْسِي حَفِظْتُهَا
بِمَا ضَاعَ مِنْ حَقِّي وَمَا هَانَ مِنْ قَدْرِي
قَلِيلٌ غِنَاهُمْ عَنْ يَدِي وَغِنَاؤُهُمْ
سِوَى أَنَّهُمْ مِنْ ضَيْمٍ كَسْبِي لَهُمْ عُذْرِي
وَأَنِّي لَهُمْ فِي مَاءٍ وَجْهِي تَاجِرٌ
أُغْنِمُهُمْ غَنَمِي وَأَرْبِحُهُمْ خُسْرِي

وقال^(٣):

وَحَزِينًا لَوَجْهِ هَانَ فِي صَوْنٍ أَوْجَهُ
كَرِيمٍ بِهِمْ رَبِحِي لَنِيْمٍ بِهِمْ تَجْرِي
وَلَوْلَاهُمْ لَمْ أَبْدِ صَفْحَةً مُعْدِمٍ
وَلَمْ أَسْمِعِ الْأَعْدَاءَ دَعْوَةَ مُضْطَرٍّ

وإن أدنى الأمر فهو مستعدٌ للتضحية من أجلهم بحياته. قال ابن دراج:

[المتقارب]^(٤)

مُعَنَّى بِأَقْلَازِ قَلْبِ حَوَامٍ
تُبَارِي إِلَى كُلِّ مَاءٍ سَمَامَةٌ^(٥)

(١) يقصد الشاعر أربعة أولاد وسبع بنات، وابن دراج يكثر من ذكر عدد أطفاله وهو، زيادة على أنه يريد بذلك استشارة عطف المدوح، كراعي الغنم في مكان غير آمن يخاف على حملانه الفقد والضياع فيعدهم باستمرار (انظر ديوانه، ص ٦٦-١٩٨-٢٨٧).

(٢) ديوان ابن دراج ١٥٩. (٣) نفس المصدر، ١٦٠.

(٤) نفس المصدر، ٩٧. (٥) سمامة : السمّام ضرب من الطير نحو السّماني.

وَكُلُّهُمْ نَمْرِي وَإِنِّي
لِكُلِّ هُنَالِكَ (كعب بن مامة)^(١)

ويعظم خطب صنف من هؤلاء الأطفال، وهم الذين شردوا و لم يجدوا بإزائهم - زمن
الحنّة - الأب الذي يرعاهم ويحميهم. قال الوزير حسان بن مالك بن أبي عبدة:
[الطويل]^(٢)

وَلِي صَبِيَّةٌ مِثْلُ الْفِرَاحِ بِقَفْرَةٍ
مَضَى حَاضِنَاهَا فَاطْحَنَهَا الطَّوَائِحُ
إِذَا عَصَفَتْ رِيحٌ أَقَامَتْ رُؤُوسَهَا
فَلَمْ يَلْقَهَا إِلَّا طُيُورُ بَوَارِحُ
فَمَنْ لِحِصَارٍ بَعْدَ فَقْدِ أَبِيهِمْ
سِوَى سَانِحٍ فِي الدَّهْرِ لَوْ عَنْ سَانِحُ

ومن هؤلاء المشردّين الضعفاء النساء، لقد فقدن ما كنّ تعودنّ عليه من راحة بال
وسكينة نفس ورغد عيش. قال ابن درّاج:
[المتقارب]^(٣)

فَبُدِّلْنَ مِنْ بَعْدِ خَفْضِ النُّعِيمِ
بِشَقِّ الْحُزُونِ وَوَعْتِ السُّهُولِ
وَمِنْ قِصَرِ اللَّيْلِ تَحْتَ الْحِجَالِ
بِهَوْلِ السُّرَى تَحْتَ لَيْلٍ طَوِيلِ
وَمِنْ عِلَلِ الْمَاءِ تَحْتَ الظُّلَالِ
صِلَاءَ الْقُلُوبِ بِحَرِّ الْغَلِيلِ
وَمِنْ أَنْسِهَا بَيْنَ ظَنُورٍ وَتَرْبِ
سُرَى لَيْلِهَا بَيْنَ ذَيْبٍ وَغَوْلِ
وَمِنْ كُلِّ مَرَأَى مُحَايَا جَمِيلِ
تَلَقَّى الْخُطُوبِ بِصَبْرِ جَمِيلِ

(١) يشير ابن دراج هنا إلى ما يذكر عن كعب بن مامة الأبيادي -أحد أجواد العرب المشهورين- من إثارة رفيقه
النمري بالماء حتى مات عطشاً ونجا النمري (ابن عبد ربه : العقد الفريد : ١/٢٩٣).

(٢) المقرئ : النَّفَح ٣/٥٤٨ .

(٣) ديوان ابن درّاج ٦٦ .

وتجلية العروس منهنّ فوق المنصّة أصبحت جلاء لها فوق الراحلة، وحلية هي
دموعها . قال ابن دراج:

[المتقارب]^(١)

فَمِنْ حُرَّةٍ جُلِيَتْ بِالْجَلَاءِ
وَعَذْرَاءٌ نُصِتْ بِنَصِّ الدَّمِيلِ
وَلَا حَلِيٍّ إِلَّا جُمَانُ الدُّمُوعِ
يَسِيلُ عَلَى كُلِّ خَدٍّ أَسِيلِ

وتعرّضت محاسنهنّ -وهي كنزهنّ الثمين الذي يعملن جاهدات على المحافظة عليه -
إلى كلّ عوامل البلى والتغيير . قال ابن دراج:

[الطويل]^(٢)

وَمَآذَا جَلًّا وَجْهَ الْجَلَاءِ مَحَاسِنًا
تَهَابُ الْعُيُونُ مَا نَثَرْنَ مِنَ الدُّرِّ
وَمَآذَا تَلَطَّيَ الْحَرُّ فِي حُرٍّ أَوْجُهُ
تَنْسَمُ فِيهِ بَرْدٌ ظِلٌّ عَلَى نَهْرٍ

وأشدّ ما يؤلم من حالهنّ أن تكون بعض القاصرات منهنّ معرّضات - بعد صون
الخدود - لأهوال الطريق برًّا وبحرًا . قال ابن درّاج:

[الطويل]^(٣)

وَمَآذَا أَجَنُّ اللَّيْلِ فِي مُوحِشِ الْفَلَا
أَوَانِسَ بِالْأَتْرَابِ فِي يَانِعِ الزُّهْرِ
وَمَآذَا تَرَامَى الْمَوْجُ فِي غَوْلٍ لُجَّةٍ
بِلَاهِيَّةٍ بَيْنَ الْأَرَائِكِ وَالْخِدرِ

فيرغمن هكذا على أن يجدن فيما خشنّ لينا وفي ما توحّش أنسا . قال ابن دراج:

[الكامل]^(٤)

دُعِرَتْ بِحِسِّ الْأُنْسِ تَحْتَ حِجَالِهَا
وَأَسْتَأْنَسْتُ بِضَرَاعِمٍ وَذُنَابِ

(١) نفس المصدر . (٢) نفس المصدر، ١٥٨ .

(٣) ديوان ابن درّاج ١٥٨ . (٤) نفس المصدر، ١٥٢ .

وَنَزَتْ بِهِنَّ عَنِ الْأَرَائِكِ رَوْعَةً
مَهَّدَتْ لَهُنَّ حُرُونَ كُلَّ يَبَابٍ

ويعجزن عن تحمل هذا الشقاء بعد النعيم، وهذا الدلّ بعد العزّ فيذرفن دموعاً غزيرة كفيلة بمدّ البحر لو نضب ماؤه. وينطلق من صدورهنّ زفير قادر على تحريك العواصف لو سكنت رياحها. قال ابن دراج:

إِذَا غِيضَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْهَا مَدَدْنَهُ
بِدَمْعِ عُيُونٍ تَمْتَرِيهِنَّ أَشْجَانُ^(١)
وَإِنْ سَكَنْتْ عَنْهَا الرِّيحُ جَرَى بِهَا
زَفِيرٌ إِلَى ذِكْرِ الْأَحِبَّةِ حَنَانُ

ويتساءلن حائرات عن مصيرهنّ: إنّه مصير مؤلم، فالخطر يترقّبهنّ فوق أمواج البحر العاتية ولا ملجأ لهنّ ولا مأمن في فلولات الأرض الموحشة. قال ابن دراج:

يَقْلُنَ وَمَوْجُ الْبَحْرِ وَالْهَمُّ وَالِدَجَى
تَمْوِجُ بِنَا فِيهَا عُيُونٌ وَأَذَانُ
أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا
سِوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى الْمَاءِ أَكْفَانُ؟
وَهَبْنَا رَأَيْنَا مَعْلَمَ الْأَرْضِ هَلْ لَنَا
مِنَ الْأَرْضِ مَأْوَى أَوْ مِنَ الْإِنْسِ عِرْقَانُ؟

إنّ جميع هؤلاء المشرّدين من رجال ونساء وشيوخ وأطفال يخوضون بحرين: بحرًا من الماء وبحرًا من الهموم ويصلّون نارين نارًا من الشمس المحرقة ونارًا بين الجوانح الملتهية. قال ابن دراج:

[الوافر]^(٤)

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام / ٢١٣ .

(٢) نفس المعنى نجده في البيت: وَكَمْ فَاضَتْ مَدَامِعُهُمْ فَمَدَّتْ عُبابَ الْبَحْرِ بِالماءِ الرُّوَاءِ (ديوان ابن دراج، ص ٢٧٣: البحر الوافر).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام / ٢١٣ . (٤) ديوان ابن دراج ٢٧٣ .

وَقَدْ وَقِدَتْ جَوَانِحُهُمْ بِشَجْوٍ
يُنَادِي الشَّمْسُ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ
وَكَمْ خَاضُوا كَهَمَّهُمْ بِحُورًا
وَكَمْ عَدِمُوا الثَّرَى عَدَمَ الثَّرَاءِ

فلا عزاء لقلوبهم المقسمة بين الآلام والأحزان إلا بالصبر. ولا جمع لما بدد الدهر من شملهم إلا في النوم أو الخيال. قال ابن دراج:

[الطويل]^(١)

تَقَسَّمَ رَبُّ الدَّهْرِ وَالنَّأْيِ شَمْلَنَا
وَقَلْبًا غَدَاً لِلْبَيْنِ نَهَبًا مُقَسَّمَا
فَمَا تَأْتِسِي إِلَّا أَسَى وَتَعَزَّيَا
وَمَا نَلْتَقِي إِلَّا كَرَى وَتَوْهُمَّا

- التصدع الاجتماعي: لقد كان لهذه الفتنة أثرها في المستويين الفردي والجماعي. فعلى المستوى الأول شعر الأندلسي - وهو يعيش هذه المأساة بكل أبعادها - بالضيق وعبر الشعراء - الذين عاشوا تلك الفترة - عن إحساسهم هذا بطرق مختلفة.

فابن دراج جعله شعوره بالضيق في خضم هذه الفتنة العارمة ينغلق على نفسه. ولم يعد ينظر إلى مجرى الأحداث إلا من خلال ذاته وأنايته. فباع بضاعته في كل سوق فما نفقت إلا نادرا، وباع ماء وجهه فما أجدى إلا نزرا.

ومع أنه ابتعد نسبياً وهو بسرقسطة عن بؤرة التعفن. ووجد لدى حاكم الثغر الأعلى ما ضمن له بعض الراحة والطمأنينة، فإن شعوره بالضيق لازمه، كيف لا؟ وهو يرى نفسه قد دفن وهو حي. ([الطويل]^(٢)):

وَيَا لَكَ مِنْ ذِكْرِي سَنَاءٍ وَرَفْعَةٍ
إِذَا وَضَعُوا فِي الثُّرْبِ أَيْمَنَ جَنْبِيَا
وَفَاحَتْ لِيَالِي الدَّهْرِ مَيِّتًا
فَأَخْرَيْنَ أَيَّامًا دُفِنْتُ بِهَا حَيًّا

(١) نفس المصدر، ٤-٤٤٣ .

(٢) نفس المصدر، ١٤٩ .

وكان ابن درّاج يشعر وهو في ضياعه هذا بأنّه يبيع وجهه من أجل أطفاله خاصّة،
إلاّ أنّه كان في استجدائه يلمّح. أمّا أبو القاسم بن مقدام^(١) فقد جعله شعوره بالضّياع
ينزل إلى أدنى درجات المهانة فنراه ينسى مكانته في مجتمعه باعتباره قاضيا، ويصف
نفسه بأقبح النّوع من ذلّ وعبوديّة وهو يستجدي المستعين علانية بقوله:

[الوافر]^(٢)

أَهْلُ تَرْضَى لِعَبْدِكَ أَنْ يُذَالَ
وَأَنْ يَبْقَى عَلَى الدُّنْيَا عِيَالًا؟

فبعث إليه الخليفة بصلة وكسوة ووقع له على ظهر كتابه:

[الوافر]^(٣):

مُعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَبْقَى عِيَالًا
وَأَنْ نَرْضَى لِمِثْلِكَ أَنْ يُذَالَ

أمّا ابن شهيد، فقد عبّر عن هذا الضّياع بالشكوى من الغبن الذي لحقه. وهو في
نفس الوقت يعبّر بذلك عن نفس جشعة يراودها الطموح للوصول إلى المناصب العليا.
ولكنّ الحظّ خذله، فتناساه أحرار الرّجال، وأهمله الملوك. فكان ذلك -بالنسبة إليه- خيانة
لما سلف من مجده، وغبنا لما يتمتّع به من مواهب.

[الطويل]^(٤):

سَعَيْتُ بِأَحْرَارِ الرِّجَالِ فَخَانَنِي
رِجَالٌ، وَلَمْ أُجِدْ بِجَدِّ عَظِيمٍ
وَضَيِّعَنِي الْأَمْلَاقُ بَدَاءً وَعَوْدَةً
فَضِيعْتُ بِدَارِ مِثْلِهِمْ وَحَرِيمٍ

ويشتدّ ألم الشاعر عندما تكون الخيانة من الأهل. فتقف العشيرة هكذا حجر عثرة
في سبيل تحقيق ما تصبو إليه نفسه:

[المتقارب]^(٥)

وَلَكِنِّي خَانَنِي مَعْشَرِي
وَرُدَّتْ يَفْعَاءَ وَبِيلَ الْمَرَادِ

(١) لم نتمكن من معرفته.

(٢) ابن الأبار : الحلة ٢/١١ .

(٣) نفس المصدر، الحلة ٢/١٢ .

(٤) ديوان ابن شهيد : بلا، ص ١٤٤-٥ .

(٥) ديوان ابن شهيد : بلا، ص ٥٥ .

وَهَلْ ضَرَبَ السَّيْفُ مِنْ غَيْرِ كَفٍّ
وَهَلْ ثَبَتَ الرَّأْسُ فِي غَيْرِ هَادٍ؟

وإذا لم تتحقق الآمال تتحول شكوى الشاعر إلى تشاؤم، وإذا لم يتمكن الشاعر من تحطيم العراقيل، ينقلب التشاؤم إلى ثورة، فيصب جام غضبه على الأيام والدنيا:
[الخفيف]^(١)

وَلَوْ أَنَّ الدُّنْيَا كَرِيمَةٌ نَجَّرَ
لَمْ تَكُنْ طُعْمَةً لِفَرَسِ الْكِلَابِ
جِيفَةٌ أَنْتَنَتْ فَطَارَ إِلَيْهَا
مِنْ بَنِي دَهْرٍهَا فِرَاحُ الدُّبَابِ

أما ابن حزم، فقد كان يطمح إلى المنصب. فهو ينتمي -كابن شهيد- إلى عائلة لها وزنها ودورها في الحياة السياسية بالبلاد. ولكن جاءت الفتنة فذهبت بالطريف وبالتلبد، فسلب ماله وجاهه، وشعر كغيره بالضيق وحاول أن يسترجع بعض ما فقده. فكانت له مشاركة في بعض أحداث الفتنة. ولكن القضية التي ربط مصيره بمصيرها باءت بالفشل الذريع. وعند ذلك لم يتوقع في بوتقة أنانيته كابن دراج ولم يتشائم ولا يئس كابن شهيد. بل سما بنفسه بعد أن درس الوضع من جوانبه المختلفة. ورأى ألا مجال لأن يترك الفرصة ثانية للدهر يعث به فقام -عن طريق ما يسمّى عند علماء النفس بالتعويض- بتحقيق طموحه السياسي في دولة أنشأها لنفسه قوامها العلم، ودعائمه فضائل الأخلاق، وتحدي الدهر أن ينال منها شيئاً. قال:

[البسيط]^(٢)

فَأَعْجَزَ الدَّهْرَ أَنْ يُؤْذِيَ بِوَاحِدَةٍ
مِنْهَا وَأَقْصَرَ عَنِّي وَاهِي السَّبَبِ
لَا أَخْتَشِي تَضَعُ الْأَيَّامُ مَنْزِلَتِي
مَدَى الزَّمَانِ وَعِنْدِي أَغْلَبُ الطَّلَبِ

(١) ديوان ابن شهيد : بلا، ص ٣٥ .

(٢) محمد الهادي الطرابلسي : شعر ابن حزم، مقال بحوليات الجامعة التونسية ١٩٧٢/٩/ص ١٧٠ .

لَا يَسْتَطِيعُونَ عَزْلِي عَنْ وَلَايَتِهَا
إِذْ كُلُّ وَالٍ لَهُمْ بِالْعَزْلِ فِي الْعُقْبِ
هَذَا بِلَا كُفَّةٍ مِنِّي وَلَا حَرَسٍ
وَلَا عَدِيدٍ وَلَا إِنْفَاقٍ مُكْتَسَبٍ

هذا على المستوى الفردي، أما على مستوى الجماعي فقد كان لسرعة تطوّر الأحداث زمن الفتنة، وانتقالها من سيئ إلى أسوأ حتى استفحل الخطب، أثرها في مختلف طبقات المجتمع الأندلسي، لقد أصيب الجميع بذهول بلبل الأفكار وحيّر العقول. ولم يعد المرء قادراً على الرؤية الواضحة وسط ضباب الأحداث القائم. قال ابن شهيد: [مجزوء الكامل]^(١)

٥٥- عَمَّهَتْ لَهَا أَحْلَامُنَا
وَكَأَنَّهَا أَضْغَاثُ حَالِمٍ
٥٩- فَكَأَنَّهَا عُمِّي نُسَا
قُ عَلَى الْعَمَى فِي ظِلِّ عَاتِمٍ

ولئن اعتدنا أن نرى العامة من الناس يصابون بالذهول عند نزول الكوارث، فلا يدرون ما يفعلون، فإن الفتنة الكبرى -لهولها- جعلت من عرف بالحكمة والقيادة ونفاذ البصيرة وبعد الرؤية، يتيه كغيره. ومن كان خشاشاً محنكاً لا يجد لنفسه أو لغيره منها مخرجاً. قال ابن شهيد: [الطويل]^(٢)

١٣- وَدَوِيَّةٍ مِنْ فِتْنَةٍ مُدْلِهَمَّةٍ
دَرِيسِ الصُّوَى مَعْرُوفُهَا مُتَنَكَّرُ
١٤- إِذَا جَابَهَا الْخَرِيتُ فِي طُرُقَاتِهَا
يَظِلُّ بِهَا أَعْمَى وَإِنْ كَانَ يُبْصِرُ

وقال ابن دراج: [الكامل]^(٣)

لَا يَهْتَدِي سَمَتَ النَّجَاةِ دَلِيلُهَا
دَهَشًا وَلَا وَجْهَ السَّدَادِ سَدِيدُهَا

(١) ابن شهيد : بلا، ص ١٥٤-٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٣) ديوان/ ابن دراج ٥٣ .

والمجتمع الأندلسي، له قيمه التي هي كالقوانين يتمسك بها ويحافظ عليها : فهو
يؤمن بأن المرء ليس فقط بمواهبه بل بأصله ومحتده. إنه كالبنيان لا يصلح أعلاه ما لم
تركز أسسه. قال ابن شهيد:

[الطويل]^(١)

وَمَا طَابَ فِي هَذِي الْبَرِيَّةِ آخِرُ
إِذَا هُوَ لَمْ يُنْجَدْ بِطِيبِ الْأَوَائِلِ

ويؤمن كذلك بالطبقية الاجتماعية. فمن كان في أسفل السلم الاجتماعي لا يمكن
تصوره في أعلاه. ولقد كان التمسك المجحف بهذا المبدأ عاملاً في مزيد استفحال الأزمة.
فكم من وزير مقت ثم نكب لأن أصله وضيع. وكم من خليفة خلع وقتل لأنه اعتمد في
حاشيته على العامة والغوغاء.

ويؤمن أيضا بأن للعنصر العربي -بما له من يد بيضاء في نشر الإسلام وفتح
البلدان- الحق أن يتبوأ مركز الصدارة بين سائر العناصر الأخرى.

وتصدعت هذه القيم الاجتماعية بحلول الفتنة فتجراً العبيد على الأسياد وأذل اللئام
الكرام. قال ابن دراج:

[الكامل]^(٢)

فِي سَاعَةِ مَقْطُوعَةِ أَرْحَامِهَا
لَا الْبِرُّ شَاهِدُهَا وَلَا مَشْهُودُهَا
يَوْمَ أُذِلَّ كِرَامُهُ لِلِلَّئَامِ
وَسَطَّتْ بِأَحْرَارِ الْمُلُوكِ عِيْدُهَا

وأصبحت الأذنان هي الرؤوس، فانقلب السلم الطبقي الاجتماعي رأساً على عقب.
قال ابن شهيد:

[مجزوء الكامل]^(٣)

(١) ديوان ابن شهيد : بلا، ص ١٢٩ .

(٢) ديوان ابن دراج ٥٣ .

(٣) ديوان ابن شهيد : بلا، ص ١٥٥ .

وَتَحَوَّلَتْ فِيْنَا الدُّنَا
بَى الرَّأْسِ وَابْنُ الْمَجْدِ رَاغِمٌ
وَأَدَارَ كُلُّ صَغِيرٍ قَدْ
رِ الْمُنْتَهَى أَرْحَى الْعِظَائِمُ

وخسر العربي مكانته المرموقة، ووصل الأمر به إلى أن ازدراه الأعجمي. قال ابن شهيد:
[الطويل]^(١)

٤- وَأَوْجَعُ مَظْلُومٍ لِقَلْبٍ وَذِي حِجَى
فَتَنَى عَرَبِيٌّ تَزْدْرِيه أَعَاجِمُ

وبتصدع هذه القيم في المجتمع الأندلسي اختل توازنه الأخلاقي، فراجت بضاعة
الأراذل، وكسدت سوق الفضائل، وأفلت النجوم النيرة، وطما ليل الجهل. قال ابن شهيد
على طريقه أبي العلاء:

[الطويل]^(٢)

كَأَنَّ الدَّجَى هَمِّي وَدَمْعِي نُجُومُهُ
تَحَدَّرُ إِشْفَاقًا لِدَهْرِ الْأَرَاذِلِ
هُوتُ أَنْجُمُ الْعُلَيَاءِ إِلَّا أَقْلَهَا^(٣)
وَعَبْنُ بِمَا يَحْظَى بِهِ كُلُّ عَاقِلٍ
وَأَصْبَحَتْ فِي خَلْفٍ إِذَا مَا لَمَحْتَهُمْ
تَبَيَّنْتُ أَنَّ الْجَهْلَ إِحْدَى الْفَضَائِلِ

وأصبح كل شيء في هذا المجتمع مزيفاً فالشجاعة تهريج، والكتابة تزوير، والفقه
دجل، والرمح مغزل والبطل كاعب، والمضاء خور. قال ابن شهيد:

[الطويل]^(٤)

أَرَى حُمُرًا فَوْقَ الصُّوَاهِلِ جَمَّةً
فَأَبْكِي بَعَيْنِي ذُلَّ تِلْكَ الصُّوَاهِلِ

(١) نفس المصدر، ص ١٣٩ . (٢) المصدر السابق، ص ١٢٩ .

(٣) قال ابن شهيد في مكان آخر من ديوانه، ص ١٤٣ (البحر : الطويل) :

مضى السلف الوضاح إلا بقية كفرة مسود القميص بهيم

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٠ .

وَرَبَّتْ كُتَّابٍ إِذَا قِيلَ زُورُوا
بَكَتْ مِنْ تَأْنِيهِمْ صُدُورُ الرِّسَائِلِ
وَنَاقِلِ فِيقِهِ لَمْ يَرَ اللَّهَ قَلْبُهُ
يَظُنُّ بِأَنَّ الدِّينَ حِفْظُ الْمَسَائِلِ
وَحَامِلِ رُمُحِ رَاحٍ فَوْقَ مَضَائِهِ
بِهِ كَاعِبَا فِي الْحَيِّ ذَاتَ مَغَازِلِ

عَدَمَ هذا المجتمع في نهاية المطاف آلة التمييز بين الخبيث والطيب، بين الجيد والردى، وخير مثال على ذلك ما ذكره ابن حيان عن زربوط الطنبوري من أنه أصيب في موقعة قنتيش "فأقام الطنبوريون أصحابه عليه ماتماً مشهوداً"^(١). أمّا من قتل من العلماء والفضلاء والمؤدبين فلم يثر موتهم في النفوس شيئاً.

وزالت عن هذا المجتمع حميته للدين فقد "بلغ من استخفاف أهل قرطبة بالإسلام في هذه الفتنة أن رجلاً نصرانياً وقف بأعظم شوارع قرطبة فقال : ...ونال منه صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم، فلم يكلمه أحد منهم بكلمة. فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي : ألا تنكرون ما تسمعون أما أنتم مسلمون ؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة : إمض لشغلك. وكان الإفرنج إذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولاً لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء"^(٢).

ولم يعد يهتم هذا المجتمع أن تنتهك الأعراض على مرأى ومسمع منه، فقد أخذ النصارى ابنة رجل من البادية "وكانت جميلة حسنة. وعرف أبوها العليج الذي أخذها. فوقف إلى واضح وقال له : إن فلاناً العليج أخذ ابنتي وليست بربرية. فقال له لا تتكلم في شيء من هذا، فما إلى ردها من سبيل، وعلى ذلك عهدناهم. فمضى الرجل باكياً إلى العليج ورغب إليه في ردها عليه. وبذل له أربعمئة دينار فأخذها منه العليج وقتله. وهذا من أنكى الأمور وأقبحها، أن هذا الرجل المظلوم سار ليفتدي ابنته فأخذ ماله وقتل. ذهبت نفسه وماله وابنته، ولم يغير ذلك أحد من أهل قرطبة ولا أنكره"^(٣).

(١) ابن بسّام : الذخيرة I/٤٤.

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب : ٩٧-٣/٨.

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة.

وهكذا خسر هذا المجتمع أهمّ خصاله التي كان الأعداء يعترفون له بها ويقرّون له ألف حساب من أجلها. "حدّث من سمع ابن مامة النصراني (وهو سانشو غرسية) صاحب العسكر الذي كان مع سليمان والبربر يقول : كنّا نظنّ أنّ الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة. فإذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم. وإنّما اتفق لهم ما اتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم. فلما ذهبوا انكشف أمرهم : أما العقول فإنّ البربر قتلهم يوم السبت والبلاء والخوف قائم بهم، ثم أتوا إليهم يوم الاثنين على البغال مقصوفين. فما كان يؤمنهم أن يقتلهم سفهاؤهم ؟. وأمّا الشجاعة فانهزم جندهم وملوكهم وجميعهم من أقلّ من مائتي فارس ليس فيهم رئيس ولا مذكور. وأمّا الدّين فإنّ أصحابي هؤلاء يعني النصارى، يغيرون، ويسرقون بغير أمر. ثمّ يأتي أهل قرطبة يشترّون منهم نهبهم وأموال أصحابهم المسلمين، فلا يرجع عنها أحد منهم. فليس في القوم عقل ولا شجاعة ولا دين"^(١).

- التصدّع السياسي: لقد قضى الناصر الأموي والمنصور العامري عشرات السنين في إقامة هيكل سياسي على دعائم ثابتة، وأسس متينة، يحفظ للدولة استمرارها في كنف نظام لا يخلو من عسف وجور وسلطة مطلقة، ولكنّه كفيل بضمان الأمن والتعايش السلمي بين مختلف عناصر المجتمع.

إنّ منصب الخلافة من حيث النفوذ مسّ في الصميم باستحواذ المنصور بن أبي عامر على السلطة، ولكن هيبة الخلافة بقيت. أمّا مع اندلاع الفتنة فقد خسرت الخلافة السلطة ومعها الهيبة. وأصبح هذا المنصب كالريشة في مهبّ الريح، تتقاذفه الأهواء والمطامع، ويجري وراءه أصحاب الطموح السياسي من المغامرين، وإن لم تكن لهم كفاءة. ومن وصل إليه نال العرض دون الجوهر إذ غالبا ما يكون ألعوبة في أيدي العناصر التي مكّنته من الوصول.

ويضعف نفوذ الخليفة عندما نشبت الفتنة، تعدّدت مراكز القوى. ولم يعد للسفينة

(١) نفس المصدر، ص ٨٩-٩٠ .

الأندلسية قائد واحد يوصلها إلى الشاطئ بسلام. فغرقت في خضم الأحداث العاتية. ولهذا السبب نرى ابن شهيد يتحسّر على الماضي أيام كانت السلطة في يد واحدة، لها الحول ولها القوة، ضمنت بهما الأمن والسلم بين الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم: [الكامل]^(١)

٢٦- أَيَّامَ كَانَ الْأَمْرُ فِيهَا وَاحِدًا
لَأَمِيرِهَا وَأَمِيرٍ مَنْ يَتَأَمَّرُ
٢٧- أَيَّامَ كَانَتْ كُلُّ سَلَامَةٍ
تَسْمُو إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ وَتَبْدُرُ

وتحسّر كذلك ابن حزم على مصير الخلافة، وما آلت إليه من عبث. ففي فترة الصراع الحمودي بين القاسم بن حمود بإشبيلية وابن أخيه يحيى بن علي بقرطبة كان كل واحد منهما يدعى له بإمرة المؤمنين دون أن يجد الآخر غضاضة في ذلك^(٢):

وأشدّ من هذا وأنكى (أنّه اجتمع - زمن استفحال الأزمة - في صقع الأندلس أربعة خلفاء . كلّ واحد منهم يخطب له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه. وذلك فضيحة لم ير مثلها دلّت على الإدبار المؤبّد : أربعة خلفاء في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلّهم يدعى بأمر المؤمنين. ويخطب لهم في زمن واحد وهم خلف الحصري بإشبيلية على أنّه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء ومحمد بن إدريس بن علي بن حمّود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن حمّود بسبّطة^(٣).

وهكذا بلغ التصدّع السياسي في المجتمع الأندلسي حدّ المهزلة. وأصبح الوصول إلى السلطة مبرراً لكلّ الانتهاكات. ويبدو أنّ هذا المجتمع - من جرّاء احتدام الفتنة - لم يعد قادراً على الرؤية الواضحة وأصيب بالذهول. إنّها فتنة - كما قال ابن شهيد - :

(١) ديوان ابن شهيد، تحقيق شارلا بلا، ص ٦٦ .

(٢) ابن عذاري : البيان، المغرب ١٣٢/٣ .

(٣) نفس المصدر : ٣، ص ٢٤٤ / نقط العروس لابن حزم، طبعة ٩٥، ص ٨٣ .

(٤) ديوان ابن شهيد، ص ١٥٤ .

[مجزوء الكامل]^(٤)

عَمَّهَتْ لَهَا أَحْلَامُنَا
وَكَأَنَّهَا أَضْغَاثُ حَالِمٍ
فَكَأَنَّنا عُمِّي نُسَا
قُ عَلَى الْعَمَى فِي ظِلِّ عَاتِمٍ

وهذا العمى الذي أصاب أهل الأندلس، جراً ساستهم على ترويع شتى الأباطيل والترهات، فتجد -رغم ذلك- بعض الأذان الصاغية، وأغرب هذه الأكاذيب أسطورة هشام المؤيد، فقد قال الشاعر أبو طالب عبد الجبار:

[الرجز]^(١)

ذَاكَ الَّذِي مَاتَ مِرَّارًا وَدُفِنَ
فَأَنْتَقَضَ التُّرْبُ وَمَرَّقَ الْكَفَنُ

(فكم قتل -هذا الخليفة- وكم مات، ثم انتفض من التراب ومرَّق الكفن قبل نفخة الصور ووقعة الواقعة. فقد كان مات في يد أول خالعيه محمد بن هشام بن عبد الجبار. ودفن علانية. ثم نشر بيد واضح فتى بني أبي عامر ودال مديدة. ثم قتله خالعه الثاني سليمان المستعين ودفنه خفية. ثم أبرز صداه علي بن حمود المنتزي، يذكي الطلب بثأره على الدولة. ودفنه الدفنة التي خلناها حقيقة فلم يلبث أن نجم حيا بإشبيلية بعد حقب فبقي هناك ملكاً ودال قرناً إلى أن وقعت عليه الميته الثالثة)^(٢).

فإذا كان منصب الخلافة وهو أعلى منصب في الدولة بلغ هذه الدرجة من الذلّ والمهانة، فليس غريباً أن تصبح بقيّة المناصب العليا في الدولة مناصب جوفاء فالوزارة مثلاً أصبحت منصباً شكلياً وحضور الوزير أو غيابه لا يغيّر من الأمر شيئاً. قال حسان بن مالك بن أبي عبدة الوزير^(٣) يخاطب المستظهر:

(١) ابن عذاري : البيان ٣/٢٤٩ .

(٢) ابن بسّام : الذخيرة ٢/١/٣٨ .

(٣) حسان بن مالك بن أبي عبدة : وزير من العلماء باللغة والأدب في الأندلس توفي شوال ٤١٦/١٠٢٥ (ديوان ابن شهيد / تحقيق يعقوب زكي : ٤٤).

(٤) المقرئ : ن/١/٧-٤٣٦ .

[الطويل]^(٤)

إِذَا غِبْتُ لَمْ أُحْضَرْ وَإِنْ جِئْتُ لَمْ أُسَلِّ
فَسَيِّئَانِ مِنِّي مَشْهَدٌ وَمَغِيبٌ
فَأَصْبَحْتُ تَيْمِيًّا وَمَا كُنْتُ قَبْلَهَا
لِتَيْمٍ وَلَكِنَّ الشَّيْبَةَ نَسِيبٌ^(١)

وهذه المناصب -في نهاية الأمر- أصبحت اسما بدون مسمّى وشكلاً بدون محتوى. فهي بهرجة وتزييف و(زخرفة من التّسطير وضع على غير حاصل، ومراتب وضعت على غير طائل، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل. لم يحلوا منها بطائل ولا قبضوا منها مرتباً ولا نالوا بها مرتفقاً)^(٢).

وكثيراً ما تحدّث ابن حيان بكلّ مرارة وسخرية عن جانب سلبي في سياسة الأندلس في القرن ٥/١١، وهو وصول الغوغاء إلى المناصب العليا في الدولة دون أن تكون لهم الكفاءة والأخلاق التي تتطلبها تلك المناصب. فهذا المهديّ مؤجّج الفتنة يقتحم قصور الزهراء بمن كان معه "من العنازين والجزارين والسفلة وسائر غوغاء الأسواق ما لا يحصيهم إلاّ الله تعالى"^(٣).

وكان ابن الفرضي وزير المعتلي يحيى بن علي بن حمّود "أعدى من الجرب على دولته وارقب أهل اللبّ حلول المحنة فقد ما استعاذوا بالله من وزراء السفلة"^(٤). أمّا ابن السقاء وزير بني جهور فقد "خلط لأوّل ترقية في الرئاسة بأن اتّخذ لنفسه جند سوء مال به طبعه الرذل إلى الاستظهار بهم على أقادم الجند بقرطبة ممّن مرّن على الاستقامة، فتخيّرهم من أراذل الطبقات ومصاص شرار الناس وانتقاهم من أصناف الذعرة والدائرة والأساود والرّقاصة، نخل من كلّ طبقة مرفوضة ما بعث على الناس منهم ذنباً عادية

(١) يشير إلى قول الشاعر (وافر) : ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود (المصدر السابق).

(٢) ابن عذاري : البيان ٣/١٣٧ .

(٣) أبو الربيع : لم نتمكّن من معرفته.

(٤) المقتبس لابن حيان، تحقيق محمود علي مكّي، ص ١٢٢ (تمهيد).

(٥) نفس المصدر ونفس الصفحة.

وأعدّهم ليوم الكريهة فلم يغنوا عنه شيئاً لما حاق به قضاؤه^(٥). وفي رسالة التّوابع والزّوابع نجد محاورة ابن شهيد لبغلة صاحبه أبي عيسى، وقوله لها عندما سألته عن عهده بأصحابها في قرطبة "...ومن إخوانك من بلغ الإمارة. وانتمى إلى الوزارة"^(١).

ولهذه الأسباب أصبحت هذه المناصب -الخلافة والوزارة وغيرهما- محلّ تندّر الشعراء. فقد قال أبو الربيع^(٢) في حكم بن سعيد وزير هشام المعتد الأموي:
[مخلع البسيط]^(٣)

هَبْكَ كَمَا تَدْعِي وَزِيرًا
وَزِيرٌ مَنْ أَنْتَ يَا وَزِيرُ ؟
وَاللَّهِ مَا لِلْأَمِيرِ مَعْنَى
فَكَيْفَ مَنْ وَزَرَ الْأَمِيرُ ؟

ومن نال من هؤلاء منصباً فإنّه لا يعدم أعداء يكيّدون له لدى من عينه، ولهذا فهو يعيش في قلق مستمر تنتابه الوسواس ويرى أنّه عرضة في كلّ وقت لكلّ مكروه من عزل أو سجن أو قتل. قال ابن شهيد:

[الطويل]^(٤)

أَرَى أَعْيُنًا تَرْنُو إِلَيَّ كَأَنَّمَا
تُسَاوِرُ مِنْهَا جَانِبِي أَرَأَقُمُ
أَدُورُ فَلَا أَعْتَامُ غَيْرَ مُحَارِبِ
وَأَسْعَى فَلَا أَلْقَى امْرَأَةً لِي يُسَالِمُ

وليس غريباً - نظرا إلى التعفّن السياسي- أن ينجح أصحاب هذه السّعايات فيذهب ضحيّتها البريء والمذنب من هؤلاء الوزراء. فمن يكون اليوم وزيرا قد تراه غدا قتيلاً أو سجيناً. فهذا عبد الرّحمان بن محمد الخياط يفتكّ به هشام المعتدّ بسعي من أعدائه، ومن بينهم ابن شهيد الذي حسنّ للخليفة سطوته به وأغراه بمن بقي من أصحابه فقال:

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٢٣ (تعليق ١).

(٢) أبو الربيع : لم نتمكن من معرفته.

(٣) المقتبس (تمهيد)، ص ١٤٧ .

(٤) ديوان ابن شهيد : بلا، ص ١٣٨ .

[الكامل]^(٥)

لَا يَرْحَمُ الرَّحْمَانُ مَصْرَعَ مَارِقٍ
عَبِثْتُ بِطَاعَتِهِ يَدُ الْأَهْوَاءِ
الْحَقُّ بِهِ إِخْوَانُهُ فَحَيَاتُهُمْ
نَكَدٌ وَقَدْ أَوْدَى أَخُو السُّفْهَاءِ

أما من نكب من هؤلاء الوزراء بالسجن نتيجة لتلك السعيات، فكثيرون، منهم الوزير عبد الله بن مسلمة زمن المستعين. وقام صديقه أبو العلاء صاعد البغدادي -عندما حلت به هذه الرزية- يستعطف له وزيراً آخر سعياً في فكّ عقاله، وهو أبوجعفر أحمد بن سعيد بن الدّب. وقد أشار صاعد في استعطافه هذا إلى ما آلت إليه حالة عائلة المنكوب من ضياع وتشرد، فقال:

[الكامل]^(١)

يَا أَحْمَدَ بْنَ سَعِيدِ الْعَلَمِ الَّذِي
أَوْفَى قَلِيلَ حَدَثَانٍ عَنْهُ زَلِيلُ
أَخَذَ الْعِقَابُ مِنْ ابْنِ مَسْلَمَةَ الَّذِي
حَكَمَ الْقَضَاءُ بِهِ وَغَالَتْ غَوْلُ
لَمْ تَبْقَ غَيْرُ حُشَّاشَةٍ إِنْ أُدْرِكَتْ
خُلِصَتْ وَإِنْ أَسْلَمَتْ فَهُوَ قَتِيلُ
بِيَدَيْكَ بَعْدَ اللَّهِ فَكُ إِسَارِهِ
وَعَلَيْكَ فِي اسْتِنْقَازِهِ التَّغْوِيلُ
فَارْحَمَ أَنْيْنَ أَبِي بَنَاتٍ لَمْ يُصَبْ
لِدُمُوعِهِنَّ عَلَى الْخُدُودِ مَثِيلُ
أَسَفُ الْفِرَاحِ عَلَى كَفِيلِ كَاسِبِ

(١) ابن بسّام : الذخيرة ٤/١١ .

أُودِيَ فَلَيْسَ لَهُنَّ بَعْدُ كَفِيلٌ

وتعرّض ابن شهيد -هو الآخر- للسّجن فقد نجحت تلك العقارب -حسب تعبيره- في الإيقاع به لدى يحيى بن علي بن محمود^(١). والتهمة الموجهة إليه تبدو في الظاهر غير سياسية. فقد اتّخذ أعداؤه ما عرف به من مجون واستهتار مدعاة لإثارة حفيظة الخليفة ضده. ولكن الحقيقة هي أنّ آراء أبي عامر في البربر لم تكن لتجعله مقرباً أو محبباً إلى هذا الخليفة الحمودي. وفي سجنه دافع ابن شهيد عن نفسه. فمجونه لا يعدو أن يكون مزاج شاعر يقول ما لا يفعل:

[الطويل]^(٢)

وَمَا فِي إِلَّا الشَّعْرُ أَثْبَتَهُ الْهَوَى
فَسَارَ بِهِ فِي الْعَالَمِينَ بَرِيدُ
أَقْوَهُ بِمَا لَمْ آتِهِ مُتَعَرِّضًا
لِحُسْنِ الْمَعَانِي تَارَةً فَاذِيدُ
فَإِنْ طَالَ ذِكْرِي بِأُلْجُونِ فَإِنِّي
شَقِيٌّ بِمَنْظُومِ الْكَلَامِ سَعِيدُ

وسجن ابن حزم^(٣) كذلك، وكانت الأسباب سياسية في هذه المرة لا ريب فيها، فقد كان وزيراً للمستظهر. فلما قتله المستكفي وحلّ محله رمى بكبار رجال بلاطه في السجن.

وكان من بينهم ابن حزم، وتنسب إلى صاحب المذهب الظاهري قصيدة قالها في سجنه يشكو ما ألمّ به من مصاب بتفجّع لم نعهده من مثله:^(٤)

[البسيط]^(٥)

(١) في مقدّمة ديوان ابن شهيد، ذكر المحقّق أنّ الخليفة الحمودي الذي سجن ابن شهيد هو علي بن حمود (ديوان ابن شهيد، تحقيق يعقوب زكي، ص ٤٠). وفي هذه القصيدة نجد ابن شهيد يسمّي الخليفة بلقبه فهو المعتلي. وهذا اللقب كما ذكر ابن عذاري في البيان ٣/١٤٤ هو لقب يحيى بن علي بن حمود ويدعم هذا الرأي ما جاء في إعتاب الكتاب لابن سعيد، ص ٢٠٤.

(٢) ديوان ابن شهيد : بلا، ص ٤٢ .

(٣) سجن ابن حزم مرّتين : سجنه خيران العامري بالمرية بتهمة السعي في القيام بدعوة الأمويين. وسجنه المستكفي لأنّه من وزراء المستظهر. وفي هذه القصيدة نجده يتوسّل بالحاجب ليتشفع له لدى الخليفة. فمن المرجّح أنّه قال هذه القصيدة في المناسبة الثانية.

(٤) يشكّ في نسبة هذه القصيدة لابن حزم (إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، ص ٣٨٥).

(٥) نفس المرجع السابق.

يَا هَاجِعًا وَالرَّزَايَا لَا تُورِقُهُ
قُلْ كَيْفَ يَهْجَعُ مَنْ فِي الْكَبْلِ مَهْجَعُهُ؟
أَمْ كَيْفَ حَالُهُ حَيَّ سَاكِنٍ جَدْنَا؟
يَرْنُو بَعَيْنَ أَسِيرٍ عَزَّ مَطْمَعُهُ
قَدْ طَالَ فِي هَاوِيَّاتِ السَّجْنِ مَحَبَسُهُ
وَأَنْشَتَ مِنْ شَمْلِهِ مَا كَانَ يَجْمَعُهُ

وتوترت العلاقات بين هؤلاء الوزراء مرجعه بالدّرجة الأولى إلى أنانية في الذات، وانغلاق في النفس، وغموض في الرؤية، وانعدام للموقف السياسي الملتزم الواضح. فغايتهم هي المنصب لتحقيق مآرب عاجلة أو آجلة. أمّا مصلحة البلاد العليا فهي أبعد من أن تخامر أذهانهم. ولهذا نرى بعضهم إذا لم يساعده الحظّ لنيل مبتغاه مع هذه الطائفة، فإنّه لا يخل من الانتقال إلى طائفة أخرى يكون معها تحقيق ما يصبو إليه. فابن شهيد مثلاً انتقل من الحزب الأموي الأندلسي إلى أعدائه من الحمّوديين البربر لأنّ مصلحته تقتضي ذلك: [الطويل]^(١)

وإِنْ هَشَمْتَ حَقِّي أُمِّيَّةً عِنْدَهَا
فَهَاتَا عَلَى ظَهْرِ الْمَحَجَّةِ هَاشِمٌ

وابن درّاج لا يرى حرجاً في أن يهجو اليوم من كان مدحه بالأمس. وأن ينوّه اليوم بحزب من الأحزاب المتناحرة ليصمه بأقبح النعوت غداً. فمحرّكه وموجّهه هو ما يترقبه من مال الممدوح بعد تملّقه وإرضاء نزواته وغروره، خاصّة وقد اشتدّت الفاقة بهؤلاء الشعراء (وجمحت طباعهم وكانوا كالبرازة الفدّة الجياع انقضّت لفرط الضرورة على الجراة)^(٢).

فهذا محمّد بن هشام بن عبد الجبار في ثورته يرى فيه ابن درّاج مهدي أمّه محمّد. فيقول: [الكامل]^(٣):

(١) ديوان ابن شهيد : بلاء، ص ١٣٩ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ١٢٢ .

(٣) ديوان ابن درّاج، ص ٤٣ .

قُلْ لِلْخَلَافَةِ قَدْ بَلَغَتْ مُنَاكَ
وَرَأَيْتِ مَا قَرَرْتُ بِهِ عَيْنَاكَ
مَهْدِيُّ أُمَّةٍ أَحْمَدٍ وَكَرِيمُهَا
وَحَلِيمُهَا يَاؤِي إِلَى مَاوَاكَ

ولكن هذا المهدي المنتظر، يصبح قعيد الخزي أو قعيد الشرك عندما يستولي سليمان
المستعين على السلطة. قال ابن درّاج:

[الطويل]^(١)

هَنِيئًا لِهَذَا الدَّهْرِ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ
وَلِلدِّينِ وَالِدُنِّيَا أَمَانٌ وَإِيمَانٌ
بِأَنَّ قَعِيدَ الشُّرُكِ^(٢) قَدْ ثُلَّ عَرْشُهُ
وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانٌ

ولقائل أن يقول : إن ابن درّاج أندلسي من جملة من اغتروا بثورة المهدي. فقد
سانده ومدحه أول الأمر ولكن لما تبينت له حقيقته هجاه. لكن ماذا نقول في مدحه للبربر
وهجوه لهم ؟ إن السبب الوحيد في ذلك هو تغيّر الممدوح. فقد مدحهم لما مدح سليمان
المستعين، لأنهم حلفاؤه فقال:

[الطويل]^(٣)

أَسُودُ هِيَاجٍ مَا تَزَالُ تَرَاهُمْ
تَطِيرُ بِهِمْ نَحْوَ الْكَرِيهَةِ عِقْبَانُ
بِكُلِّ زَنَاتِي كَأَنَّ حُسَامَهُ
وَهَامَةً مَنْ لَأَقَاهُ نَارٌ وَقُرْبَانُ
وَأَبْيَضَ صِنُّهَا جِ كَأَنَّ سِنَانَهُ
شِهَابٌ إِذَا أَهْوَى لِقَرْنٍ وَشَيْطَانُ

وهاجم عندما مدح خيران العامري، وكانوا أعداءه:

[الطويل]^(٤)

(١) نفس المصدر، ص ٤٧ . (٢) وفي رواية أخرى : قعيد الخزي.

(٣) ديوان ابن درّاج، ص ٤٩ . (٤) نفس المصدر، ص ٧٧ .

وَرَدَ بِهَا يَوْمَ اللَّقَاءِ زَنَاتُهُ
كَمَا انْقَلَبَتْ يَوْمَ "الْهَبَاءَةِ" ذُبْيَانُ
تَرَاءَكَ حَرْبُ الْبَغْيِ مِنْهُمْ فَأَقْبَلُوا
وَفِي كُلِّ أَنْفٍ لِلْغَوَايَةِ شَيْطَانُ

ووصفة عامة أصبحت الموقف السياسي من هذا الحزب أو ذاك، أو من هذه الطائفة أو تلك خلال هذه الفترة المبيرة كاللباس يغير حسب الظروف والأحوال. قال ابن شهيد:
[الطويل]^(١)

١٢- وَلَا غَرَوْكَ مِنْ تَرْكِ الْقَلَانِسِ جَانِبًا
إِذَا عَرَفْتَ حَقِّي هُنَاكَ الْعَمَائِمُ

- التصدع الاقتصادي: كان من نتيجة هذه الفتنة المبيرة أن انهار الاقتصاد الأندلسي، ومسّ هذا الانهيار تقريباً كلّ الطبقات من أعلى الهرم إلى قاعدته. وقد استطاع ابن حيان -وهو شاهد عيان- أن يقدم لنا صورة دقيقة عن انقلاب الأوضاع وتغير الأحوال في فترة وجيزة وذلك بالمقارنة بين الحالة الاقتصادية في عهد المظفر بن المنصور بن أبي عامر، وفي عهد المستظهر والمستكفي والمعتد. قال يصف موكب الحاجب عبد الملك المظفر وهو خارج إلى آخر غزواته إلى قشتالة سنة ٣٩٨/١٠٠٧ "عهدي به يوم فصوله لغزوته سنة ثمان وتسعين... وقد استكثر فيها من العدة والعدد، فبرز على جواد من مقرباته المنسوبة، بأضخم تلك المراكب المسلسلة، ولبوس درع فضية مطرزة بالذهب، وعلى رأسه خوذة مثمّنة الشكل، محدّدة الرأس، مرصّعة الطرق بدرّ فاخر، واسطته حجر ياقوت أحمر مرتفع القيمة، قد لزم وسط الجيش، وطُرح الشعاع على سنّة وجهه فما رأى الناس بعده ملكاً يعدله في البهاء والبهجة"^(٢).

ولم يكن هذا البذخ مقصوراً على رأس الهرم بل شمل أغلب طبقات المجتمع، فقد

(١) ديوان ابن شهيد / بلا، ص ١٣٩ .

(٢) ابن بسّام الدّخيرة : ٤/١/٨٠ .

(٣) نفس المصدر ٤/١/٧٨ .

أخذ الناس "في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيام، حتى سمت أثمان هذه الأشياء في مدته، وبلغت الأندلس في أيامه إلى نهاية الجمال والكمال"^(١).

كانت هذه الحالة قبل اندلاع الفتنة بسنة ثم انقلبت بعد اندلاعها رأساً على عقب. ويكفي أن نقرأ وصف ابن حيان :

أ - لعهد المستظهر قال : "وكان قدّم على جميع أشغاله وأعماله جماعة من بقايا بني مروان وجماعة من الأعمار كانوا يذهب بهم العجب، قدّمهم على سائر رجاله... وهذا زخرف من التسطير وُضع على غير حاصل، ومراتب نُصبت لغير طائل، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل فلم يحلوا منها بنائل، ولا قبضوا منها مرتزقاً، ولا نالوا مرتفقاً. وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور، وعمل مغصوب، وخراب مستول، ومع سلطان فقير، لا يقع بيده درهم إلا من صباية مستغلّ جوف المدينة، أو نهب مغلول ممّن تقلقل عنها، يقيم منها رمقه، ويفرق جملة على من تكفّفه من جنده ودائرتة، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته"^(٢).

ب - لحالة المستكفي قبل أن يلي الخلافة، قال : "عضّته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة. رأيته أيام الخسف لأهل بيته في الدولة الحمّودية - ولم يكن ممّن لحقه الاعتقال لتحقير أمره - يقصد أهل الفلاحة أو أن ضمّمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليماً ومخاطبة"^(٣).

لنعلم مدى ما أصاب الأندلس من انهيار اقتصادي.

وأورد لنا ابن حيان نموذجاً ثالثاً لزوال كلّ مظاهر النعمة والبذخ والأبهة بعد اندلاع الفتنة، عندما وصف لنا وصول المعتدّ آخر خليفة أموي، إلى قرطبة قال : "وركب جيش قرطبة لاستقباله، فدخل في زيّ تقتحمه العين وهنا وقلة، وعدم رواء وبهجة، وعدد وعدة، فوق فرس دون مراكب الملوك بحلية مختصرة، سادلاً سمل غفارة إلى ما تحتها من كسوة

(١) ابن عذاري : البيان المغرب، ١٣٧/٣-١٣٨ .

(٢) المقتبس، ص ٣٦ (تمهيد).

رثّة، قدّامه سبع جنائن من خيل الموالي العامريّين صيّروها معه للزينة دون علم ولا مطرد، يسير هوناً والناس يهنّؤونه ويصيحون بالدعاء في وجهه^(١).

وهذه صورة تكاد تكون معاكسة للصورة التي قدّمها لنا ابن حيّان عن المظفر عندما خرج لغزوته الأخيرة. ويختتم ابن حيّان هذه المشاهد المزرية بمشهد عجيب -فيه عبرة لمن يعتبر- للمعتدّ بعد عزله "وهو نازل إلى سباط الجامع المفضي إلى المقصورة طارحاً نفسه على جماعة الوزراء وبقية رجال الدولة ينشدهم الله في مهجته"^(٢). وينقل ابن حيّان عن بعض سدنة الجامع أن "أول ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضار كسيرة من خبز يسدّ بها جوع طفيلة له كان قد احتضنها ساترا لها بكمّ من قرّ ليلته تلك. كانت تشكو الجوع ذاهلة عمّا أحاط بها، فتزید في همّه، وسأل سراجاً يأنس بضوئه مع نسائه، فأبكى من كلّهم اعتباراً بعادية الدهر"^(٣).

لقد كان لهذه الفتنة العارمة نتائج وخيمة -كما رأينا- على جميع المستويات. ولئن أمكن نسبياً تلافي الأمور شيئاً فشيئاً في ميادين متعدّدة، فإنّ التصدع السياسي أعقب فترة استطاعت فيها بذور الانشقاق والاختلاف أن تجد المناخ المناسب للنمو والتطور. وهكذا تكون الفتنة الكبرى الأولى قد انتهت لتترك المكان لفراخ لها ستنمو في أجواء ملائمة وظروف مناسبة، عرفت لدى المؤرخين بعهد ملوك الطوائف، وهو عهد شاعرنا ابن زيدون.



(١) المقتبس، ص ٣٧-٣٨ (تمهيد).

(٢) نفس المصدر.

محطة التعفن

قال السَّمِيسِر :

وَجَبَ الْقِيَامُ عَلَيَّكُمْ
إِذِ الْبَالُ صَارَ قُومَتُمْ
لَا تُنْكِرُوا شَقَّ الْعَصَا
فَعَصَا النَّبِيِّ شَقَّقَتْكُمْ

ابن بسام : الذخيرة ١/٢/٨٨٥

أ- التعفن داخل البلاطات:

لقد تعددت بؤر التعفن في عصر ابن زيدون سواء داخل بلاطات أمراء الطوائف أو بين هذه البلاطات. ولنبرز الروائع العظيمة، علينا بتقديم نماذج بالاعتماد على أحداث تاريخية كان لها -بالدرجة الأولى- صدى في المادة الشعرية.

- بلاط إشبيلية: كان بلاط إشبيلية يعاني من مشكل أساسي هو الطموح المفرط والروح الإجرامية، وخير نموذج على ذلك هو المعتضد، فقد فرض جواً من الرعب على كل من يتعامل معه، حتى مع أقرب الناس إليه، ممّا أدّى به إلى أن يتجرّع عقوق ابنه ووليّ عهده إسماعيل، علقماً.

لقد حاول هذا الابن التخلص من أبيه بعد أن رفض -في ما يبدو- الامتثال لبعض مشاريعه الرامية إلى الاستيلاء على قرطبة. فكشفت المؤامرة التي قام بها إسماعيل على مرتين، وفتك المعتضد بابنه^(١).. ونظراً إلى العلاقة بين رأس الفتنة وصاحب الأمر، فقد

(١) عبد الله عنان : دول الطوائف ص٤٩ .

تجنّب الناس الخوض فيها باستثناء الرّسالة الّتي أمر المعتضد كاتبه ابن عبد البر^(١) بتحبيرها لشرح ظروف هذه الواقعة من وجهة نظره هو. أمّا الشعر فلا نكاد نعثر على أثر لهذه الفتنة فيه سوى ما لَحَّ إليه الوزير أبو بكر محمد بن الملح^(٢) في إحدى مقطوعاته : لقد أشار إلى جماعة من الأشقياء يتزعّمهم شيطان رجيم، اتّخذوا جناح الظلام ستارا للتآمر والدس، فكان جزاؤهم الموت. قال:

[الطويل]^(٣)

سَرَوْا تَحْتَ لَيْلٍ فِي الظَّلَامِ بِهِيمٍ
مُكَلَّلٍ أَفَاقِ كَلِيلِ نُجُومٍ
تَوَاصَوْا بِأَعْمَالِ الشَّقَاوَةِ بَيْنَهُمْ
وَعَاذُوا بِشَيْطَانِ هُنَاكَ رَجِيمٍ
مَذَاهِبُ سُوءٍ غَيَّرَتْ مِنْ مَعَاشِرٍ
نُفُوسًا فَلَمْ تَسْلَمْ لَهَا بِجُسُومٍ
كَأَنَّ الْمَنَايَا الْحُمُرَ دَانَتْ نُفُوسَهُمْ
فَحَلَّتْ عَلَى عُسْرِ حُلُولِ غَرِيمٍ

- بلاط غرناطة: أمّا بلاط غرناطة، فكان يعاني من مشكلة لها جانبان: جانب اقتصادي وآخر ديني، لقد التجأ أمراؤه من بني زيري إلى عائلة يهودية لتتولّى منصب الوزارة في دولتهم وهي عائلة ابن النّغرلة NAGRELLA^(٤) بسبب ذلك يكمن في أنّ أصحاب بلاط غرناطة لم يجدوا في أبناء قبيلتهم من البربر لبداءوتهم من هو كفاء لتسيير شؤون الدولة إدارياً ومالياً. وتجنّبوا الاستعانة بالأندلسيين لعدم ثقتهم فيهم. فوجد اليهود

(١) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن الفقيه أبي عامر بن عبد البر النمري من أشهر الكتاب في عهد الطوائف. عمل في بلاط المعتد، وكاد أن يهلك على يديه بسبب وشاية منافسه ابن زيدون. ولكن والده أبا عامر تدخل وأنقذه. ذكر ابن بشكوال في الصلة (ترجمة عدد ٦٠٦) أنه توفي ٤٥٨/١٠٦٥. أمّا ابن بسام في الذخيرة ٣/١/١٢٦ فجعل وفاته ٤٧٤/١٠٨١.

(٢) الوزير الفقيه أبو بكر محمد بن إسحاق اللخمي من أهل شلب يعرف بابن الملح وابن الملاح شاعر وخطيب. توفي في رمضان ٥٠٠/١١٠٦ (ابن بسام : الذخيرة ٢/١/٤٥٢)

(٣) المصدر نفسه ص ٤٦٠

(٤) اشتهر من هذه العائلة وزيران هما إسماعيل وابنه يوسف. وهذا الأخير هو الذي قتل في فتنة غرناطة (عبد الله عنان : دول الطوائف ص ١٣٣ وما بعدها) ٢٠

هكذا المجال فسيحاً ليتبوؤوا في شخص إسماعيل بن النُّغْلَة وابنه يوسف من بعده منصب الوزارة. وهو منصب في ذلك الوقت يمكن صاحبه من السيطرة المطلقة على كامل دواليب الدولة. فلم يمض غير يسير من الوقت حتى أصبح اليهود في المجتمع الغرناطي قوة اقتصادية وسياسية. فآثار ذلك حفيظة بعض العناصر المسلمة من بربر وأندلسيين.

وقد عبر أبو إسحاق الإلبيري^(١)، وهو أحد شعراء غرناطة، عما كان يختلج في نفوس هؤلاء بقصيدة كان لها صداها في مختلف أوساط المجتمع الغرناطي. فوقع الهجوم على اليهود بالمدينة يوم السبت ٩ صفر ٤٥٩/٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ فقتل عدد كبير منهم في مقدمتهم الوزير يوسف بن النُّغْلَة. "إن هذه القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً في التاريخ السياسي لأمة من الأمم فكهربت العزائم ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق وشحذت السيوف للقتل كالدور الذي لعبته هذه القصيدة"^(٢). لكن من الغريب أن تصدر هذه القصيدة من شاعر عرف بزهده وعزوفه عن متع الدنيا وملذاتها. لقد ركز هذا الزاهد تحريضه على الناحية المادية، فآثار لعاب الطامعين فيما اكتنزه اليهود من ثروات -خاصة ثروة ابن النُّغْلَة- خوكت لهم مناصبهم العليا في الدولة جمعها بطرق شرعية أو غير شرعية. فكانت النتيجة أن تميزت طبقة من حيث الثراء والجاه على حساب بقية الطبقات الأخرى. قال الإلبيري:

[المتقارب]^(٣)

وَقَدْ قَسَّمُوهَا وَأَعْمَالَهَا
فَمِنْهُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ لَعِينٌ

(١) إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي: فقيه وشاعر أندلسي ت ٥٩٠/١٠٦٧ (٢) Ei /1/34 كتب المقال غرسية غومس).

(٢) إن رأي غرسية غومس هذا لا يمنعنا من أن نتساءل: هل قصيدة الإلبيري كانت نتيجة للفتنة أو سبباً لها؟ ونرجح أن الشاعر قال قصيدته بعد أن بدأت الأحداث. فكانت كالبزوين صب على حريق فزاد النار اشتعالاً (غرسية غومس: مع شواء الأندلس والمتنبّي، ص ١٣٤).

(٣) ديوان الإلبيري، ص ٩٨.

وَهُمْ يَفْخِرُونَ جَبَايَاتِهَا
وَهُمْ يَخْضِبُونَ وَهُمْ يَفْضِبُونَ
وَهُمْ يَلْبَسُونَ رَفِيعَ الْكُسَى
وَأَنْتُمْ لَأَوْضَعِهَا لِابْسُونَ

والقضية ما كان لها لتثير استغراباً في مجتمع تعتبر فيه الطبقة مبدأ في الحياة لا محيد عنه، لولا وجود الخلاف الديني. فهذه الطبقة هي من اليهود وهم -نظراً إلى سمة الكفر المقتترنة بهم- كتب عليهم في المجتمعات الإسلامية بتأويل لا يخلو من إحجاف أن يكونوا دائماً من الطبقة الدنيا، جاهلاً ومالاً. فكيف يستسيغ العقل رؤيتهم -وقد انقلبت الآية - في أعلى السلم وغيرهم من المسلمين في أسفله؟ قال أبو إسحاق^(١):

فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَخَوْا
وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْدَلِينَ
فَكَمْ مُسْلِمٍ قَاضِلٍ قَانَتْ
لَأَرْدَلٍ قَرْدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
فَصَارَتْ حَوَائِجُنَا عِنْدَهُ
وَنَحْنُ عَلَى بَابِهِ قَائِمُونَ

واليهودي كما صوّره الإلبيري زيادة على كفره -وهو أكبر المعاصي- مثار اشمئزاز من خلقه وخلقته، ومحل ريبة في سيرته وسلوكه. قال مخاطباً باديس^(٢):

وَكَيْفَ تُحِبُّ فِرَاحَ الزَّنَا
وَهُمْ بَغْضُوكَ إِلَى الْعَالَمِينَ

(١) المصدر السابق : ٩٦-٩٧-٩٩ .

(٢) المصدر السابق : ٩٧ .

وَكَيْفَ اسْتَنْمَتْ إِلَى فَاسِقٍ
وَقَارَنْتَهُ وَهُوَ بَيْسَ الْقَرِينِ

ثم مخاطبا صنهاجة^(١):

وَهُمْ أَمْنَاكُمْ عَلَى سِرِّكُمْ
وَكَيْفَ يَكُونُ خَوْفُ أَمِينٍ؟
وَيَأْكُلُ غَيْرَهُمْ دِرْهَمًا
فَيُقْضَى وَيَدْنُونِ إِذْ يَأْكُلُونَ

ويمعن الإلبيري في الإثارة على المستويين الديني والاقتصادي. فهذا اليهودي خرق نواميس للمجتمع ما كان يُسمح له بحال أن يخرقها. فأن يكون يهودياً فذلك له أو عليه وحده، أما أن يسخر من الإسلام وينال منه، فذلك أمر لا مجال في ذلك الوقت للتسامح فيه أو غض الطرف عنه. وأن يكون غنياً فلا جناح عليه، أما أن تعادل ثروته ثروة سيده باديس، فهو أمر في منطق ملوك الطوائف غير مستساغ ولا مقبول. قال الإلبيري^(٢):

وَيَضْحَكُ مِنَّا وَمِنْ دِينِنَا
فَأَيْنَا إِلَى رَبِّنَا رَاجِعُونَ
وَلَوْ قُلْتُ فِي مَالِهِ إِنَّهُ
كَمَالِكَ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ

وهكذا نصل إلى النهاية وهي، وإن كانت تشبع في النفوس نهمها المادي وتشفي فيها تعصبها الديني، فإن الإلبيري يحول بشاعتها إلى نوع من التقرب إلى الله بإقامة شعيرة من شعائره المقدسة. قال مخاطباً باديس^(٣).

(١) المصدر السابق : ٩٩ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

فَبَادِرْ إِلَى ذُبْحِهِ قُرْبَةً
وَضَحَّ بِهِ فَهُوَ كَبُشٌ سَمِينٌ
وَلَا تَرْفَعْ الضَّغْطَ عَنْ رَهْطِهِ
فَقَدْ كَنَزُوا كُلَّ عِلْقٍ ثَمِينٍ
وَقَرَّقُ عِدَاهُمْ وَخُذْ مَالَهُمْ
فَأَنْتَ أَحَقُّ بِمَا يَجْمَعُونَ
وَلَا تَحْسِبَنَّ قَتْلَهُمْ غَدْرَةً
بَلِ الْغَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْْبَثُونَ

- بلاط سرقسطة: أمّا بلاط سرقسطة^(١) عاصمة الثغر الأعلى في الربع الأول من القرن ٥/١١، فقد كان يعاني من مشكلة الصراع الداخلي بين فروع الأسرة التجيبية الحاكمة والمادة الشعرية تشير إلى هذا الصراع بشيء من التفصيل ولكنه لا يخلو من غموض. ولا مجال لأن نستغرب ذلك فصاحب المقطوعات هو ابن درّاج الذي حظّ عصا ترحاله في نهاية المطاف ببلاط المنذر بن يحيى. وهو شاعر مدّاح يلمح إلى الأحداث ولكن بسرعة، لأنّ ذلك كله ليس إلا وسيلة للوصول إلى غايته الأولى من المدح وهي الاستجداء.

ولقد أشار في قصيدتين له على الأقلّ مدح بهما المنذر إلى فتن قام بها أقرباء المدح، ممّن كانت لهم سلطة على بعض الجهات التابعة بالنظر إلى صاحب سرقسطة. ومن المعلوم تاريخياً أنّ وشقة^(٢) كان يحكمها زمن المنذر بن يحيى أحد أبناء عمّه، وهو أبو يحيى محمد بن أحمد بن صمادح^(٣). وكانا أول الأمر على وفاق ثم تكاشفاً وتحارباً، وابن درّاج أكّد مرتين على هذه القرابة. قال في وصف هذا العدو:

[الطويل]^(٤)

إِذَا كَادَ يَقْضِي بِالْأَسَى نَحْبَهُ قَضَتْ
لَهُ الرَّحِمُ الدَّنْيَا بِأَنَّكَ رَاحِمُهُ

(١) مملكة سرقسطة حكمتها أسرّتان : (١) بنو تجيب (٢) بنو هود (عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٢٦٦ وما بعدها).

(٢) وشقة : Huesca على بعد ٧٣ كلم من سرقسطة (١١/2/352 Ei).

(٣) هو والد ابن صمادح الذي سيستقل بالمرية (ابن الخطيب أعمال الأعلام / ١٨٩).

(٤) ديوان ابن درّاج : ١٦٧

وقال مشيراً إلى أحد الأسباب الرئيسيّة لقيام هذا النوع من الفتن:

[الكامل]^(١)

وَهَفَّتْ بِهِ خُدَعُ الظَّنُونِ وَلَمْ يَزَلْ
حَسَدُ الْقَرَابَةِ طَائِشَ الْأَحْلَامِ

والأسباب النفسية أكثر من أن تحصر في الحسد وما يثيره من زيف الأحلام وكذب
الظنون. فهناك اللؤم والعناد. قال ابن درّاج:

[الوافر]^(٢)

عَجِبْتُ لِمَارِقِ يَعْرِصِكَ جَهْلًا
وَقَدْ سَبَقَتْ إِلَيْهِ لَكَ الْأَيَْادِي
فَسَلَّهُ مُخْزِيًا هَلْ كَانَ يَدْرِي
بِأَنَّ الْخِزْيَ فِي طَلَبِ الْعِنَادِ؟
أَلَمْ يَكْ لَوْ أَنَّابَ إِلَيْكَ طَوْعًا
يَنَالُ مِنَ الْعَلَا فَوْقَ الْمُرَادِ؟

[الكامل]^(٣)

وهناك الغطرسة والغرور:

لَمْ يَعْبُدُوا الْأَصْنَامَ إِلَّا أَنَّهُمْ
عَبَدُوا الْغُرُورَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ

ويبدو أنّ القريب الحسود العنيد، أو المغرور اللئيم لم يجد من أهل مدينته أو قلعته
تجاوباً. قال ابن درّاج:

[الوافر]^(٤)

وَلَيْسَتْ فَعْلَةٌ^(٥) تَشْنَاكَ لَكِنْ
تَمَلِّكَ أَهْلَهَا ضِدُّ الْمَعَادِ

(١) المصدر نفسه، ١٧٨ .

(٢) المصدر نفسه، ٤١٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٧٨ .

(٤) المصدر نفسه : ٤١٣ .

(٥) ورد ذكرها مرتين في الديوان ص ١٦٤-١٦٣ ويرى محقق ديوان ابن دراج أنها : إما أن تكون تحريف لفنلة Fanlo. وهناك موضعان يحملان هذا الاسم من أعمال مدينة وشقة. وإما أن تكون تحريف لبغلة Bail وتقع في مواجهة لاردة وشقة (المصدر نفسه ١٦٤ تعليق ١).

وَلَوْ وَجَدُوا السَّبِيلَ إِلَيْكَ يَوْمًا
لَمَا خَفَيْتَ لَهُمْ طُرُقُ الرَّشَادِ

فاستنجد الثائر بالنصارى وهم قريبون في تلك المنطقة النائية من تغور الإسلام
يترصّدون مثل هذه الفرص لتحقيق أهداف لهم آجلة أو عاجلة. قال ابن درّاج:

[الطويل]^(١)

أَبَاحَ حِمَى الْإِسْلَامِ لِلشُّرْكِ مَعْنَمًا
لِتُقَسِّمَ بَيْنَ النَّاهِبِينَ مَغَانِمُهُ
وَقَضَّ خِتَامَ اللَّهِ عَنْ حُرْمَاتِهِ
لِيُقْتَضَّ عَمَّا تَحْتَوِيهِ خَوَاتِمُهُ
وَعَدُّ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مُدَامَةً
فَبَرَّحَ فِي الْأَعْدَاءِ عَمَّنْ يُنَادِمُهُ

وهكذا تفاقم الأمر فقد كان مشكلاً داخلياً، فأصبح اعتداء خارجياً. فلا بدّ من القيام
بما يفرضه الدين من واجب الحماية والدّفاع. قال الشّاعر:

[الطويل]^(٢)

غَدَاةَ دَعَاكَ الدِّينُ مِنْ أَسْرٍ (فَعْلَةٍ)
وَقَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تُسْتَبَاحَ مَحَارِمُهُ
فَلَبَّيْتَهَا فَأَنْجَابَ عَنْهَا ظَلَامُهُ
وَوَافَيْتَهَا فَاسْتَنْكَرَتْهَا مَظَالِمُهُ

ويبدو لنا من خلال بعض الأبيات أنّ الممدوح في إحدى مراحل صراعه، فضّل
الصّلح مع هؤلاء الأقارب، رغم ما يبدو في ذلك الصّلح من هضم لحقوقه. قال ابن درّاج:

[الكامل]^(٣)

وَنَبِيَّيْنَا لَكَ أَسْوَدَ فِي رَدِّهِ
عَنْ أَرْضِ مَكَّةَ مُغْلِنَ الْإِحْرَامِ^(٤)

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٤ . (٢) المصدر نفسه، ص ١٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٩ .

(٤) ردّ النبي عن مكة بعد أن عقد صلح الحديبية مع قريش سنة ٦/٦٢٧ (المصدر السابق تعليق ١).

وتشير أبيات أخرى إلى نجاح المدوح في إخماد هذه الفتنة. وكان دائماً رؤوفاً في معاملته لهؤلاء الأقارب رحيماً. فقد عاملهم معاملة النبي لبني النضير^(١) وهم من حيث الجرم الذي ارتكبه يستحقون أن يعاملوا معاملة بني قريظة^(٢):

فَأَوْسَعَتْهُ حُكْمَ النَّضِيرِ وَقَدْ حَكَى
قُرَيْظَةَ مِنْهُ غِلُّهُ وَجَرَائِمُهُ

إن عظم ما ارتكبه في حق دينهم ووطنهم من غدر وخيانة جعلهم يتوقعون تنكيل صاحب سرقسطة بهم. ففر زعيمهم إلى النصارى^(٣):

وَأَعْصَمَ بِالْإِشْرَاكِ قَائِدُ بَغْيِهَا
إِلَى مَلِكِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ عَاصِمُهُ

وتبعه بعضهم، ولكن بدون جدوى لأن فرارهم إلى العدو سوف لن يضمن لهم الحماية والنجاة كما توقعوا^(٤):

فَعَانِمُ مَا لَا يَحْفَظُ اللَّهُ غَارِمُهُ
وَإِنْ أَحْرَزُوا فِي قُطْرِ شَنْجٍ^(٥) نُفُوسَهُمْ

ويبدو أن هذه الفتن أخذت أبعاداً جديدة في بلاط سرقسطة بوفاة المنذر بن يحيى واعتلاء ابنه المظفر العرش. فقد اغتنمت بعض العناصر الحاقدة الفترة الانتقالية، وثاروا في عدة حصون من التَّغْرِ. وكانوا يظنون أن الأمير الجديد غير قادر على مواجهتهم، لكن خاب ظنهم، فقد تمكن المظفر -حسب ابن دراج- من كسر شوكتهم، فقال الشاعر مهدداً:

[البسيط]^(٦)

(١) بنو النضير : يهود المدينة انتمروا بالنبي، ونقضوا عهده، فحاصرهم المسلمون. ثم صالحهم النبي على أن يجلوا عن المدينة. وأن يكونوا أميين على دمائهم وأموالهم وذرائعهم (المصدر السابق: ١٦٧ تعليق ١).

(٢) بنو قريظة من يهود المدينة ظلوا بها بعد جلاء بني النضير. غير أنهم غدروا بالمسلمين في غزوة الخندق أو الأحزاب. فلما انتهت هذه الغزوة بفشل قريش وأحلافها حاصر المسلمون بني قريظة. وحكم النبي (صلى الله عليه وسلم) فيهم بقتل المقاتلة وقسمة الأموال وسبي الذرية والنساء (المصدر السابق : نفس التعليق).

(٣) المصدر السابق ١٦٥ .

(٤) المصدر السابق ١٦٥ .

(٥) قطر شنج : بلاد البشكنص أو مملكة نبرة Navarre وكان يحكمها في ذلك الوقت شانجة بن غرسية (المصدر السابق، ص ١٦٥، تعليق ٢).

وَقُلْ لِمَنْ أَخْلَفْتُهُ الْوَعْدَ غَدَرْتُهُ
 أَنْ يُخْلِفَ الْقَمَرَ الْوَضَّاحَ إِحْمَالُ
 هَيْهَاتَ أَشْرَقَ فِي جَوْ الْعَلَا مَلِكُ
 بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ قَوَالُ وَقَعَالُ
 وَقُلْ لِمَنْ قَصَّرتْ بِالْأُسْرِ خِبرْتُهُ
 فَشَكَ أَنْ يَخْلِفَ الرَّئِبَالَ رِئِبَالُ
 صَبْرًا لِمَوْقِعِ أَظْفَارِ الْمُظْفَرِ هَلُ
 يُحِيلُهَا عَنْ حَشَاكَ الْيَوْمَ مُحْتَالُ

وعادت تلك الحصون كلها إلى طاعة المظفر بفضل إقدام جيشه. فقال ابن دراج
 ملمحاً لفشل خطة المتآمرين وقد قبض على زعيمهم^(١).

أَبْنَاءُ رَوْعٍ وَأَهْوَالٍ لِمُقْدَمِهِمْ
 فِي أَعْيُنِ الْمَوْتِ أَدْعَارُ وَأَهْوَالُ
 دَعَا إِلَيْكَ حُصُونُ الْغَدْرِ فَاسْتَبَقْتُ
 مِثْلَ النَّجُومِ عَلَى يَمْنَاكَ تَنْثَالُ
 مَعَاقِلُ عَرَفَتْ يَمْنَاكَ فَأَعْتَرَفَتْ
 بِذَنْبِ مَا فَعَلَ الْغَاوُونَ أَوْ قَالُوا
 مُقِرَّةُ أَنَّكَ الْمَوْلَى الْمَلِكُ لَهَا
 وَأَنَّهَا مِنْكَ إِنْْعَامٌ وَإِفْضَالُ
 عَلَى الَّذِي احْتَاذَهَا مِنَّا فَأَوْدَعَهَا
 غِلًّا فَعَادَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ أَغْلَالُ
 نُو حُرْمَةٍ قَالَ مِنْهَا قَالَ طَائِرِهِ
 قَلْبُ غَوَى بِحِجَاةٍ عَنْكَ تَذْهَالُ

(١) المصدر السابق ص ٢٩٧ .

ويشير ابن درّاج في مقطوعة مدح بها ابن باق^(١) - أحد قوَاد دولة التّجيبين بسرّسطة - إلى أنّ هذا القائد قام بإخماد إحدى هذه الفتن الكثيرة. قال:
[الكامل]^(٢)

لله مِنْهُ صَارِمٌ لَكَ كُـلِّمَا
نَجَمَ الشَّقَاقُ دَنَا لَهُ بِصِرَامِ
نُكَصَتْ سِيُوفُ الْغِيِّ عَنْهُ وَأُنْحَنَّتْ
فَهِيَ الْأَهْلَةُ وَهُوَ بَدْرٌ تَمَامِ

وبذلك تمكّن من أن يعيد بعض المناطق الثائرة في الثغر إلى طاعة الحكومة المركزية بسرّسطة^(٣).

أَرْضًا أَنْزَلْتَ الْحَقَّ فِي أَعْلَامِهَا
بِخَوَافِقِ الرَّايَاتِ وَالْأَعْلَامِ
غَادَرْتَهَا لِلْغَدْرِ دَارَ إِزَالَةٍ
وَأَقَمْتَهَا لِلْأَمْنِ دَارَ مُقَامِ
وَنَظَّمْتَ دُرَّ عُقُودِهَا وَعُهُودِهَا
فِي سِلْكِ هَذَا الْمُلْكِ أَيَّ نِظَامِ
وَأَقَمْتَ حَدَّ اللَّهِ فِي مَنْ ضَامَهَا
ضَرْبًا بِحَدِّ الصَّارِمِ الصَّمْصَامِ
بَاغٍ أَصَابَ بِبَغْيِهِ وَبَنَحَتْهُ
نَفْسًا عَلَيْهَا يَتَّقِي وَيُحَامِي

ويبدو أنّ مرض الخلاف العائلي استمرّ في بلاط سرّسطة مع العائلة الثّانية الثّتي حكمت الثّغر الأعلى وهي عائلة بني هود. فقد بادر المقتدر بن هود بنفي ابن عمّه أبي محمّد بن هود^(٤) حسداً له أو خوفاً منه. وكان أبو محمّد شاعراً فعبر عن نكبته بلهجة تذكرنا بصوت أبي فراس مع ابن عمّه سيف الدّولة. فقد رأى في نفيه غبناً وخسارة لذويه قال:

(١) لم يرد أي شيء في المصادر التاريخية عن القائد ابن باق هذا، على أنّ محقق ديوان ابن درّاج عثر على إشارة عابرة إلى قائد كاتب يدعى أحمد بن محمد بن باق كان والياً على مدينة سالم وبها قتل في سنة ٤١٩/١٠٢٨ أو ٤٢٠/١٠٢٨ فهل هو القائد ابن باق ممدوح ابن درّاج ؟ (مقدمة ديوان ابن درّاج، ص٧٦).

(٢) المصدر السابق : ٤١٤-٥ .

(٣) المصدر السابق: ٤١٥

[الطويل]^(١)

ظَلَلْتُمْ جَمِيعًا آلَ هُودٍ عَنِ الْهُدَى
وَضَيَّعْتُمْ الرَّأْيَ الْمَوْفَّقَ أَجْمَعًا
وَشَبَّهْتُمْ يَمِينَ الْمَلِكِ بِي فَقَطَّعْتُمْ
بِأَيْدِيكُمْ مِنْهَا وَبِالْغَدْرِ إصْبَعًا

- بلاط بطليوس ودانية: ويشبهه بلاط بطليوس ودانية بلاط سرقسطة في هذه الظاهرة. فقد احتدم النزاع بين المتوكل بن الأفتس وأخيه المنصور في بلاط بطليوس. ولم ينته هذا الصراع إلا بعد موت المنصور ١٠٧٢/٤٦٤، لكن موته لم يكن يعني نهاية لمقاومة بعض أنصاره. وفي بلاط دانية قام حسن بن مجاهد بمحاولة اغتيال أخيه إقبال الدولة. وهو وإن استعان في مؤامرتة بالخارج، فلا بد أن نفترض أن له عناصر تؤيده، من الداخل.

إن المادة الشعرية التي بين أيدينا لا تمكنا من الجزم بما تشير إليه من أحداث، ولم يبق إلا الافتراض. لقد اضطر المتوكل إلى القيام بحملة ضد قوم من الجناة - حسب تعبير صاحب المغرب- في بلاد الجوف. فهل يمكن أن يكون هؤلاء الجناة بعضا من أنصار أخيه؟ قال ابن اللبانة:^(٢)

[الطويل]^(٣)

وَقَدْ كَانَ جَوْفُ الْقَطْرِ كَالْجَوْفِ يَشْتَكِي
سَقَامًا فَلَمَّا رَزَتْهُ زَارَهُ الطَّبُّ
رَعَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ الْعُقَابِ فَأَصْبَحُوا
نَشَاوَى مِنَ الْبَلَاوَى كَأَنَّهُمْ شَرِبُوا

وأجبر أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن سيدة^(٤) على الفرار من دانية واستعطف إقبال الدولة بن مجاهد صاحبها والتصل من ذنب لم يحدده فهل يمكن أن

(١) ابن الأبار : الحلة ١٦٥/٢

(٢) ابن اللبانة : أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي شاعر أصله من دانية وينسب إليها فيقال له الداني ت. بميوقرة ١١١٣/٥٠٧ (٢) Ei/٨٧٦/٣ كتب المقال شارل بلا).

(٣) ابن بسام : الذخيرة ٦٧٠/٢/٣ .

(٤) أبو الحسن علي بن إسماعيل (أو أحمد) بن إسماعيل لغوي أندلسي من مرسية ت ١٠٦٦/٤٥٨ Ei(٢)

نفترض أن لابن سيدة علاقة من بعيد أو قريب بمؤامرة الحسن بن مجاهد ؟ أو أن هناك من ورطه فيها حقًا أو باطلا، حتى نبرر قوله لإقبال الدولة.

[الطويل]^(١)

وإن تَتَأَكَّدُ في دَمِي لَكَ نِيَّةُ
فَإِنِّي سَيْفٌ لَا أُحِبُّ لَهُ جَفْنًا
إِذَا مَيِّتَةً أَرْضَتْكَ مِنَّا فَهَاتِهَا
حَبِيبُ إِلَيْنَا مَا رَضِيتَ بِهِ عَنَّا

ب- التعضن بين البلاطات :

إن هذا الصراع الذي كنّا بصدد تبيان بعض نماذجه داخل بلاطات أمراء الطوائف، ما هو إلا صورة مصغرة للصراع الخارجي بين ملوك الطوائف. فالأحقاد التي خلفتها الفتنة الكبرى ما كانت لتزول أو تمحي بقيام هذه الدويلات. بل يمكن القول إنها ازدادت حدة بمرور الزمن. ولا شك أن مهمة السفارة التي قام بها ابن زيدون بين صاحب قرطبة وبعض أمراء الطوائف، قد عرّفته على جوانب سلبية كثيرة في علاقة هؤلاء الأمراء فيما بينهم كما مكنته من تلمس أسبابها وبواعثها.

لقد أصيب حكام الأندلس الجدد بداء العظمة والكبرياء في علاقاتهم ببعضهم ببعض. وهو نوع من التعويض النفسي لما أصبحوا عليه من ضعف وعجز، وذلل ومهانة أمام النصاري. وهذا المرض النفسي يفسر لنا بصفة عامة ما نلاحظه من شعر في تلك الفترة من تبجح مفرط في الفخر، وإطراء ممل في المدح. ويفسر بصفة خاصة بعض تصرفات هؤلاء الأمراء الأقزام كالإفراط في التحلي بشارات الملك، واتخاذ الألقاب التي تذكرنا بعضمها الساسة وكبار الملوك، حتى لقد لفت هذا التصرف انتباه ابن رشيق فقال:

[البسيط]^(٢)

مِمَّا يُبَغِّضُنِي فِي أَرْضِ أُنْدَلُسٍ
سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدٍ

(١) الفتح : المطمح، ص ٦٩ .

(٢) ابن بسام : النخيرة ١٧٢/٤/١ .

الْقَابُ مَمْلَكَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

وينضاف إلى هذا العامل النفسي ما كنّا أشرنا إليه من انعدام لكل صبغة شرعية أو تاريخية لهذه الأنظمة. وانعدامها لم يعقد الأمور في الدّاخل فقط وإنّما جعل هؤلاء الحكّام يتّبعون سياسة قوامها "الغاية تبرر الوسيلة". ولم لا ؟ وجّلهم وصل إلى ما وصل إليه من سلطة ونفوذ عن طريق الانتزاع. واستجاز كلّهم هذا المنهج، ولم يروا في اتّباعه أيّ غضاضة. فكيف يمكن أن نتصوّر علاقاتهم بعضهم ببعض والحالة تلك؟

إنّ النّاطق إلى الفترة التي عاشها ابن زيدون في القرن ٥/١١، يرى أنّ العلاقات بين ملوك الطوائف لها جانبان مختلفان في الظّاهر، ولكنّهما يؤدّيان إلى نفس النّتائج السلبيّة تقريباً:

- جانب سلمي مزيف : هو إلى النّفاق أقرب.
- جانب عدائي واقعي : هو الحقيقة بعينها.

أمّا الجانب الأوّل فيتجلّى -حسب المادّة الشعريّة- في مظاهر ثلاثة :

- انّتراسل: ما كان هؤلاء الأمراء يتبادلونه فيما بينهم من رسائل نثرية ومقطوعات شعريّة تطفح بالثناء والتّنويه والتّعظيم. من ذلك قول المعتصم صاحب المريّة في المعتمد:

[البسيط]^(١)

يَا وَاحِدًا عَلِمًا فِي كُلِّ مَنَقَبَةٍ
جَلَّتْ، وَيَا ثَالِثًا لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
لَنْ حُرْمَتُ لِقَاءٍ مِنْكَ أَشْكُرُهُ
لَقَدْ حَلَلْتَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ

فأجابه المعتمد:

[البسيط]^(٢)

يَا مَنْ وَرَدَتْ الْوَفَاءُ الْغَمْرُ مُرْتَوِيَا
مِنْ عَهْدِهِ إِذْ يُسَاقِي النَّاسَ بِالْغَمْرِ

(١) ابن الأبار : الحلة ٢/٨٧ .

(٢) المصدر السابق.

أَحْرَزْتَ سَرَّوَ السَّجَايَا ثُمَّ قَارَنَهُ
ظَرْفُ اللِّسَانِ اقْتِرَانَ الكَّاسِ بِالْوَتْرِ

لكن هذا المدح لم يمنع من أن يسخر المعتمد من المعتصم، وأن يكيد ابن صمادح لابن عباد.

ومدح المعتضد صهره مجاهد العامري صاحب دانية فقال فيه:

[البسيط] ^(١)

أَقْدِي أَبَا الْجَيُوشِ الْمُوَفَّقَ إِنَّهُ
لِلْمَكْرُمَاتِ، مُيَسَّرٌ وَمُؤَفَّقٌ

لكن ذلك لم يمنعه من أن يكيد لابن مجاهد إقبال الدولة بالتآمر عليه مع أخيه حسن ابن مجاهد.

- التزاور: وهذا سواء أكان بإرسال الوفود وهو كثير، أم بالحضور الشخصي وهذا قليل. وفي الشعر نجد إشارة إلى زيارة سليمان بن محمد بن هود الجذامي حاكم لارادة ليحيى بن المنصور صاحب سرقسطة. وقد رأى فيها ابن دراج تمتينا لأواصر المودة بين الأميرين، سيكون لها أثرها في انتظام شمل المسلمين بتلك الربوع النائية من أرض الإسلام، فقال:

[البسيط] ^(٢)

شَمِلُ مِنَ الدِّينِ مَنَظُومٌ لَهُ وَبِهِ
فِي حَبْلٍ عَهْدٌ مُمَرَّ الْفَتْلِ مُحْصَدِهِ
مِنْ كُلِّ عَاقِدٍ مِيتَاقٌ يَدًا بِيَدٍ
لَمْ تَحُلْ فِيهَا يَدُ الرَّحْمَانِ مِنْ يَدِهِ
رَأَى نِظَامَ الْأَمَانِ فِي تَأْلُفِهِ
فَطَارَ نَحْوَكَ خَوْفًا مِنْ تَبَدُّدِهِ

لكن هذه الزيارة لم تمنع سليمان هذا من أن يكون هو القاضي على حكم الأسرة التَّجِيبِيَّة بِسَرَقِسطَة.

(١) ديوان المعتضد : ص ٢٢٠ .

(٢) ديوان ابن دراج : ص ٢٠٤ .

- التّصاهر: وهي عادة كان من الممكن -لو كانت النّوايا صافية- أن تدعّم علاقات الأخوة بين ملوك الطّوائف، وتقلّل إلى حدّ بعيد من خصوماتهم. فهذا ابن درّاج رأى في ابتناء يحيى بن المنذر التّجيبى بأميرة من آل ذي النّون ميثاقاً بين الدّولتين، سيفتح عهداً جديداً بينهما من الأخوة والأمن وحسن الجوار. ولا يستنكف الشّاعر من الدّعاء على من تحدّثه نفسه بفصم هذه العروة الوثقى بين الجانبين. قال هذا الشّاعر:

[الطويل]^(١):

فَيَا ذِمَّةَ الصَّهْرِ الَّذِي شَدَّ عَهْدَهَا
بِخَاتِمَةِ الْآيَاتِ مِنْ آيَةِ الْكُرْسِيِّ
فَعَقَتْ رُسُومَ الْغَدْرِ مِنْ ظَاهِرِ الثَّرَى
وَحَطَّتْ وَقَاءَ الْعَهْدِ فِي صَفْحَةِ الشَّمْسِ
فَإِنْ حَمَلَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَيْفَ فِتْنَةٍ
يَدٌ فَتَخَلَّتْ مِنْ أُنَامِلِهَا الْخَمْسُ
وَإِنْ أَوْتَرَتْ قَوْسًا إِلَى رَمِي مُسْلِمٍ
فَلَا انْقَصَلَتْ عَنْ مَقْبِضِ الْعِظَمِ وَالْعَجَسِ
وَلَا ضَاعَتْ الْأَنْسَابُ بِالْغَدْرِ وَالْقَلَى
وَلَا بَاعَتْ الْأَحْسَابُ بِالْثَمَنِ الْبَخْسِ

ورأى أبو عامر محمّد بن عثمان البرياني^(٢) في زواج المستعين بن هود من ابنة الوزير أبي بكر التّجيبى صاحب بلسنية إعازا للدين وتوطيداً لأركانه، ونشراً للأمن وتدعيماً لأسسه:

[الكامل]^(٣):

الْيَوْمَ وَطِدَ قَاعَتَلَى الْإِسْلَامِ
وَتَوَاخَتِ الْأُسُيَافُ وَالْأَقْلَامُ
لَا حَادِثٌ يُخْشَى وَلَا نَبَأٌ وَقَدْ
أَخَذَتْ تُجِيبُ عُهْدَهَا وَجُذَامُ

(١) المصدر السابق: ٤٣٢-٤٣٤ .

(٢) أبو عامر محمد بن عثمان البرياني : لم نتمكن من معرفته.

(٣) ابن ليون: نفح السحر ص ٥٧ .

ومع ذلك كان بلاط سرقسطة في عهد التَّجِيبِيِّين وفي عهد بني هود في خلاف مستمرٍّ مع بلاط طليطلة وبلنسية.

أمَّا الجانب الثَّاني : وهو الجانب العدائي، فله مظاهر متعدّدة، فهو يبدأ عادة بالتَّنَافُس والتَّفاضل، فالتَّنَازُل والسُّخْرية. ثم يتطوّر إلى التَّحْريض والتَّفتين لينتهي إلى الخداع والغدر^(١).

- التَّنَافُس: ويبدو من خلال ما وصلنا من نماذج شعريّة، أدباً رمزيّاً من حيث الشَّكل، سياسيّاً من حيث الهدف. لقد حاول أدباء كلِّ بلاط في العهد الطَّائفي أن يرفعوا من مكانة سيّدهم صاحب البلاط. فكانوا يتخيّلون جدلاً بين الأزهار في المفاضلة، ينتهي عادة باتِّفاق الجميع على تفوُّق نوع منها فتتمّ مبايعته. ولنا من ذلك نموذجان: الأوّل رسالة لأحمد بن محمّد بن برد^(٢) وصف فيها نواوير خمس، وتصورّ جدلاً بينها، انتهى باتِّفاقها على مبايعة الورد. وهذه شهادة البهار قال:

[الكامل]^(٣)

شَهِدَ الْبَهَارُ وَذُو الْجَلَالَةِ عَالِمُ
بِصَحِيحٍ مَا يُبْدِي وَمَا يُخْفِيهِ
أَنَّ الْإِمَارَةَ فِي الْأَزْهَارِ كُلِّهَا
لِلْوَرْدِ لَا يُؤْتَى لَهُ بِشَبِيهِ

وليس بخاف هدف ابن برد من هذه الرسالة التي بعث بها من بلاط مجاهد العامري بدانية إلى بلاط بني جهور بقرطبة، فهو يومئ إلى أن صاحبه منفرد بين الرؤساء تفرد الورد بين النّوار، وأنّ هذا التفرد يجب أن يؤخذ بالتَّسليم الكامل^(٤).

(١) قال ابن الخطيب في: أعمال الأعلام، ص ٢٢٤ (وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغيرات. فلم تتصل لهم في الله يد ولا نشأ على التعاضد عزم ولا توجه إلى الاستكثار قصد).

(٢) أبو حفص بن برد الأصغر صاحب نظم ونثر اتصل ببلاط المرية أولاً ثم استقر بدانية في بلاط مجاهد. ذكر الحميدي أنه رآه بالمرية بعد ٤٨٠/٤٤٠ (ابن سعيد: المغرب: ١/٨٦).

(٣) أبو الوليد الحميري: البديع، ص ٥٧.

(٤) إحسان عباس: تاريخ الأدب: عصر الطوائف، ص ٢٩٢.

وكان ما هو متوقَّع من رفض بلاط إشبيلية هذه المبايعة. فقام أحد كتَّابه وهو أبو الوليد إسماعيل الحميري^(١) بالردِّ على ابن برد. فبعث برسالة إلى المعتضد جاء في بدايتها: (كان من اجتماع بعض النواوير واتِّفاق طائفة من الأزهير على تقديم الورد عليها وتفضيله بينها وتخيُّره للخلافة منها ما قد وقفت عليه ونظرت إليه... فأول من رأى ذلك الكتاب وعان الخطاب نواوير فصل الربيع التي هي خيرة الورد في الوطن وصحابته في الزَّمن. فلمَّا قرأته أكبرت ما فيه وبنّت على هدم مبانيه وبعض معانيه وعرَّفت الورد بما عليه فيما نسب إليه من استحقاقه ما لا يستحقه واستبهاله ما لا يستأهله)^(٢). وانتهى النقاش بين الأنوار بنقض بيعة الورد ومبايعة البهار. وهذه شهادة الخيريِّ الأصفر:

[مجزوء الرمل]^(٣)

أَصْفَرُ الْخَيْرِيِّ يَشْهَدُ
أَنْ عَفَّ دَ الْوَرْدِ قَدْ رُدُّ
وَيَرَى أَنَّ الْبَهَّارَ
مُنْتَقَى أَعْلَى وَأَمْجَدُ
مَلِكٌ يَقْظَانُ يَأْتِي
وَصُنُوفُ النَّوْرِ هُجْدُ

وليس يخفى ما في هذه الأبيات وغيرها من دعوة سياسية صريحة لبلاط إشبيلية وصاحبه.

- التناوب: ويعتبر مظهراً من أهمِّ مظاهر الصِّراع بين ملوك الطوائف. فمن عجز عن أن ينال من جاره أو خصمه بالفعل فلا أقلَّ من أن ينال منه بالقول. فمجاهد العامري مثلاً صاحب دانية، لما فسدت علاقته بصاحب بلسنية المنصور بن أبي عامر الأصغر ولم يجد من سبيل إلى الاعتداء عليه. كتب إليه رقعة ولم يضمنها غير بيت الحطيئة:

[البسيط]^(٤)

(١) هو صاحب كتاب: البديع في وصف الربيع، من كتَّاب بلاط إشبيلية. توفي قريباً من ٤٤٠/١٠٤٨ هـ (مقدمة. هـ بيراس محقق الكتاب ص٢).
(٢) المصدر السابق ص ٩-٥٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٧ .

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا
وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فأخرجت المنصور وأقامته وأقعدته -على حدّ تعبير صاحب النفح- فأحضر وزيره
أبا عامر بن التّاكرني^(١). فكتب عنه:

[الكامل]^(٢)

شَتَمَتْ مَوَالِيَهَا عَبِيدُ نِزَارٍ
شَيْمُ الْعَبِيدِ شَتِيمَةُ الْأَحْرَارِ

وهو بيت يلمّح لعبودية مجاهد، فهو مولى لبني عامر. وسخريته بأحد منهم إنّما هي
نموذج لتداول العبيد على سادتهم.

وكان لسلوك ابن عمّار^(٣) - لما انتزى بمرسية وخلع طاعة المعتمد - مجالا لسخرية
جاره ابن عبد العزيز^(٤) صاحب بلنسية منه. لقد تظاهر ابن عمّار بالتفرد والاستقلال.
وحاكى المعتمد في الزي والتّصيير (التّوقيع) وتختّم في كلتا يديه. وعلم ابن عمّار أنّه
أصبح موضوع تندر في بلاط جاره فقال:

[الكامل]^(٥)

وَصَلَتْ دُعَابَتُكَ الَّتِي أَهْدَيْتَهَا
فِي خَاتَمِ التَّامِينَ وَالتَّامِيرِ
وَأَظْلُنُهَا لِلطَّاهِرِيِّ فَإِنْ تَكُنْ
فَخَلِيقَةُ التَّقْدِيسِ وَالتَّطْهِيرِ

أشار في البيت الأوّل إلى الخاتم الذي أهداه إليه ألفنسو السّادس عند اجتماعه به،
وليأذنه فراراً من الوحشة الواقعة بينه وبين ابن عبّاد وتخوّفاً منه. وفي البيت الثّاني عزا

(١) أبو عامر محمد بن سعيد التّاكرني من أهل الأدب والبلاغة والشعر. سكن بلنسية وخدم صاحبها عبد العزيز بن
أبي عامر بعد الأربعمائة. قال ابن الخطيب في أعمال الأعلام، ص ٢٢٤-٥: إن ابن التّاكرني لم تنزل حاله تسمو
حتى اتصل بوزارته (ابن سعيد: المغرب: ١/٣٣٢).

(٢) المقرئ: النفح ١٣٢/٤.

(٣) أبو بكر محمد بن عمار بن حسين بن عمار وزير وشاعر أندلسي ينتمي إلى عائلة مغمورة وفقيرة، قتله المعتمد
٤٧٩/١٠٨٦ (٢) Ei/3/72 كتب المقال شارل بلا).

(٤) ابن الأبار: الحلة ١٢٩/٢ ترجمة عدد ١٣٢. (٥) المصدر السابق، ٢/١٤١.

هذه السخرية إلى ابن طاهر وهو الذي غدر به ابن عمار، وافتك منه مرسية.

ولم يكتف ابن عمار بذلك بل ردّ على سخريه جاره بالنيل منه. فابن عبد العزيز، وإن ترقى إلى درجة الوزارة، فقد شوّه هذا المنصب مظهرًا وجوهرًا قال:

[الكامل]^(١)

قُلْ لِلْوَزِيرِ وَلَيْسَ رَأْيُ وَزِيرٍ
أَنْ يَتَّبَعَ التَّدْبِيرَ بِالتَّنْذِيرِ
إِنَّ الْوِزَارَةَ مُدٌّ لِبِسْتِ رِدَاءَهَا
رُفِعَتْ عَلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّزْوِيرِ

ومن صور هذا التنازع ما أورده صاحب الذخيرة من أن المنذر بن يحيى صاحب سرقسطة، كاتب المنصور حفيد ابن أبي عامر حاكم بلنسية يهدده بعد مقتل مقاتل الصقلبي صاحب طرطوشة، وحمل رأسه إلى بلنسية، ممّا يدلّ على تورط العامري في الفتك به. فراجع أبو عامر التآكرني على لسان سيده المنصور ببيتين للمتنبي، يسخر فيهما من تهديد التجيبي ويهدده في نفس الوقت:

[المتقارب]^(٢)

فَإِنْ كَانَ أَعْجَبَكُمْ عَامُكُمْ
فَعُودُوا إِلَى حِمَصِ الْقَائِلِ
فَإِنَّ الْحُسَامَ الْخَضِيبَ الَّذِي
قُتِلْتُمْ بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ

- التّحريض والغدر: وتأتي المرحلة الثالثة من تهريج هؤلاء الأمراء - الأطفال وتتمثل في محاولة الإطاحة بالخصم. وذلك عن طريق إثارة العناصر الداخلية ضده. ولنا في المصادر التاريخية أمثلة عديدة وكان لبعضها صدق في المادّة الشعريّة.

لقد رأينا كيف استغلّ ابن عمار وزير المعتمد الفرصة واستقلّ بمرسية. غير عابئ

(١) صلاح خالص : محمد بن عمار، ص ٢٩٣ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة، ٣/١/٢٢٦ .

(٣) لنا في هذه النقطة قصيدتان: قصيدة للمعتمد في اللوم والعتاب وجواب ابن عمار عنها (صلاح خالص: محمد ابن عمار ص ٢٨٤).

بما يمكن أن ينجّر له عن تصرفه هذا من غضب صاحب إشبيلية. واكتفى بالمرأوفة عندما راسله المعتمد يعاتبه ويلومه^(٣). وانزعج ابن عبد العزيز صاحب بلنسية من وصول هذا الثعلب الماكر إلى جواره بمرسية. فتوقّع منه شرّاً. فبدأ أولاً بتخليص صديقه ابن طاهر حاكم مرسية السابق من عقاله وأطمع ابن عمّار أنّه سيتخلّى له عن حصن جُملة^(١) مقابل الإفراج عن أسيره. ولكنّه نكث وعده، فقال ابن عمّار:

[الكامل]^(٢)

نُكْثَ الْيَمِينُ وَجَارَ عَنْ سُنَنِ التَّقَى

وَقَضَى عَلَى الْإِقْبَالِ بِالْإِدْبَارِ

وعمل ابن عمّار بعد أن خدعه ابن عبد العزيز كلّ ما في وسعه لتحريض أهل بلنسية على الثورة، وذلك بإثارة الرعب في النفوس : لقد كانت بلنسية جنة وستصبح جحيماً، قال:

[الكامل]^(٣)

خَبَرُ بَلَنْسِيَّةٍ وَكَانَتْ جَنَّةً

أَنْ قَدْ تَدَلَّتْ فِي سَوَاءِ النَّارِ

ولم يكن ذلك عن جرم ارتكبه أو ذنب اقترفه، وإنّما لما سينجرّ لها عن تصرفات أميرها الخرقاء. لقد أوى إلى جواره -ويقصد ابن طاهر- من سيجلب لها بشؤمه وحمقه الويل والتبؤر. قال يخاطب أهل بلنسية:

[الكامل]^(٤)

يَا أَهْلَهَا مِنْ غَائِبٍ أَوْ حَاضِرٍ

وَقَطِئْنَهَا مِنْ رَاسِخٍ أَوْ طَارِي

جَازُوا بَنِي عَبْدِ الْعَزِيزِ فَإِنَّهُمْ

جَرُّوا إِلَيْكُمْ أَسْوَءَ الْأَقْدَارِ

ثمّ يخصّ ابن عبد العزيز بهذا الجرم^(٥):

(١) جملة : Jumila مدينة في مديرية مرسية، تبعد عنها ٧٤ كلم (ابن الأبار: الحلة ٢/١٥٥ تعليق ٢).

(٢) صلاح خالص : محمد بن عمار، ص ٢٨٨.

(٣) نفس المرجع، ص ٢٨٧.

(٤) ابن الأبار، الحلة ٢/١٥٥.

(٥) المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٦) يقصد أبا عبد الرحمان بن طاهر صاحب مرسية السابق وسيصرّح باسمه في البيت الموالي.

أَوَى لِيَنْصُرَ مَنْ نَبَا الْمُنَوَّى بِهِ^(٦)
 وَدَهَاهُ خِذْلَانُ مِنَ الْأَنْصَارِ
 مَا كُنْتُمْ إِلَّا كَأُمَّةٍ صَالِحٍ
 فَرَمَاكُمْ مِنْ طَاهِرٍ بِقُدَارِ^(١)
 هَذَا وَخَصَّكُمْ بِأَشْنَامٍ طَائِرٍ
 وَرَمَى دِيَارَكُمْ بِأَلَامٍ جَارٍ

ولم يبق بعد أن ربط الأسباب بنتائجها إلا أن يدعو القوم إلى المجاهرة
 بالعصيان والثورة^(٢):

ثُورُوا بِهِمْ مُتَأَوِّلِينَ وَقَلِّدُوا
 مَلِكًا يَقُومُ عَلَى الْعَدُوِّ بِنَارٍ
 هَذَا مُحَمَّدٌ أَوْ فَهَذَا أَحْمَدُ
 وَكِلَاهُمَا أَهْلُ لِبْتِلكِ الدُّارِ
 بُرِّ الْيَمِينِ وَلَمْ يُعَرِّضْ نَفْسَهُ
 وَنُفُوسَكُمْ لِمَصَارِعِ الْفُجَّارِ

ولا يكتفي ابن عمار بالتحريض بل يهدد صراحة. قال مخاطبا ابن عبد العزيز
 محملاً إياه ما سيحل ببلنسية من مصائب:

[الكامل]^(٣)

وَتَرَى بِلَنْسِيَّةً وَأَنْتَ قُدَّارُهَا
 سَيِّنَالُهَا التَّدْمِيرُ مِنْ تَدْمِيرِ^(٤)

(١) قدار : رجل من ثمود يذهب المفسرين إلى أنه هو الذي أشار على قومه بنحر ناقة صالح وفي الأمثال: أشنام من قدار (ابن الأبار : الحلة، ٢/١٤١ تعليق ٦). يقصد أبا عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية السابق وسيصرح باسمه في البيت الموالي.

(٢) صلاح خالص : محمد بن عمار، ص ٨- ٢٨٧ .

(٣) ابن الأبار : الحلة، ٢/١٤١ .

وحاول ابن عبد العزيز بدوره إزاء هذا التهديد والتّحريض أن يزيد في تعميق الهوة بين ابن عمّار والمعتمد، باعتبار أنّ ذلك يمثل أسلم وسيلة وأنجع طريقة للتخلّص منه.

وفي محاولة ابن عبد العزيز التّفّتين بين المعتمد وصديق صباه، نستطيع أن نلاحظ إلى أي مدى يمكن أن تلعب بعض المقطوعات الشعريّة دورها في تعقيد الأوضاع وتوتير الأعصاب. فقد تحصّل صاحب بلنسيّة على بعض أبيات من القصيدة التي قالها ابن عمّار في تهديده، وهو في حالة زهو أنساه الحيلة والحذر كقوله : [الكامل]^(١)

كَيْفَ التَّفَلُّتُ بِالْخَدِيعَةِ مِنْ يَدِي
رَجُلِ الْحَقِيقَةِ مِنْ بَنِي عَمَّارٍ

فأوصلها إلى المعتمد، وكان يتميّز غيظاً من تصرّفات وزيره، ولكنّه في ما يبدو كان غير قادر على أن يفعل أيّ شيء على الأقلّ في تلك الفترة. فاكتمل بأن ذيل قصيدة ابن عمّار السّابقة ساخرا من أصله الوضع ومستهنّاً من أمّه بقوله: [الكامل]^(٢)

تَبْكِي عَلَيْهِمْ شَنْبُوسٌ^(٣) بِعَبْرَةٍ
كَاتِيَهَا الْمُتَدَافِعُ النَّيَّارُ
يَا شَمْسُ^(٤) ذَاكَ الْقَصْرِ كَيْفَ تَخَلَّصْتُ
فِيهِ إِلَيْكَ طَوَارِقُ الْأَقْدَارِ

ثمّ قام ابن عبد العزيز بإيصال هذه الأبيات إلى بلاط مرسية (ودسّ نبيلاً من يهود شرقي الأندلس لابس ابن عمّار حتّى اطمأنّ إليه. وأحلّه محلّ الرواية لأشعاره في هجاء المعتمد)^(٥) كقوله يردّ على سخرية المعتمد معرّضاً به وبزوجته إعتما:

[المتقارب]^(٦)

تَخَيَّرْتَهَا مِنْ بَنَاتِ الْهَجَا

(١) ابن الأبار : الحلة ٢/١٥٦ . (٢) المصدر السابق، ص ١٥٧ .
(٣) شنبوس : قرية بمدينة شلب كانت مقرا لسلف ابن عمار (ابن الأبار : المجلة ٢/١٥٧ / تعليق ١).
(٤) شمس : اسم أم ابن عمار (نفس المصدر السابق).
(٥) ابن الأبار : الحلة، ١٥٨/٢ .
(٦) صلاح خالص : محمد بن عمار، ص ٢٩١-٢ .

نِ رُمَيْكِيَّةٍ مَا تُسَاوِي عِقَالاً
فَجَاءَتْ بِكُلِّ قَصِيرِ الْعِدَا
لِ لُئِيمِ النَّجَارِينَ عَمَاءَ وَخَالاً

وقال في المعتمد: (١)

سَأَكْشِفُ عِرْضَكَ شَيْئًا فَشَيْئًا
وَأَهْتِكُ سِنِّيَّكَ حَالًا فَحَالًا

وتمكن اليهودي من أن يرسل نسخة بخط ابن عمّار من هذا الهجاء إلى ابن عبد العزيز. فأرسلها هذا بدوره إلى المعتمد. فكان ذلك من أهمّ العوامل التي أدّت إلى مقتل ابن عمّار بطبرزين على يد المعتمد نفسه.

وليس غريباً في هذا الجوّ المفعم بالدسّ والسّعاية أن تكون نهاية المطاف فيه الغدر والخديعة. فهذه الظّاهرة هي سمة العصر ولكن بتفاوت نسبي بين ملوك الطوائف.

ولعلّ أبرز من يمثل، من ملوك الطوائف، هذا الاتجاه في السّياسة الميكافليّة أمير إشبيلية المعتضد بن عبّاد. فقد طبّقها بكلّ أبعادها اللّأخلاقية مع الإمارات البربرية التي كانت تجاوره. وكان يرى فيها نظراً إلى تحالفها تارة مع صاحب غرناطة وأخرى مع صاحب بطليوس خطراً على مملكته. وهي في نهاية الأمر تقف حجر عثرة في سبيل تحقيق مشاريعه التّوسعية.

وتتفق المصادر التاريخيّة والمادّة الشعريّة في أهمّ عملية غدر قام بها المعتضد مع زعماء البربر من الزّناتيين. فقد قام بدعوة أبي نور هلال اليفرني صاحب رندة (٢) وعبدون بن خزرون الأرنياي صاحب أركش (٣) ومحمّد بن نوح الدمري صاحب مورور (٤)، سنة ٤٤٥/١٠٥٣ فساروا إليه في صحبهم وفرسانهم في أحسن زي وأكمل هيئة. وكان

(١) ابن الأثير : الحلة، ٢/١٥٨ .

(٢) انظر تاريخ هذه الإمارة في (عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ١٥٢).

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٥ .

(٤) المرجع السابق، ص ١٥٤ .

المعتضد قد نوى بهم شرّاً. وفعلاً انتهت هذه الدّعوة الغادرة بالقبض على ثلاثتهم مع أتباعهم وتكبيّلهم في الأغلال. فمات إثنان منهم في حمّام المعتضد بطريقة بشعة. وأُخلى سبيل الثالث وهو هلال أبو نور.

والمادّة الشعريّة تذكر لنا أسماء القبائل أو الفروع التي ينتمي إليها (ضيوف) ابن عبّاد، وتذكر ما آل إليه أمرهم من اعتقال ثمّ هلاك. قال ابن حصن الإشبيلي^(١) شاعر المعتضد بطريقة الشّاعر المدّاح:

بِهِ دَمَّرَ الرَّحْمَانُ دُمَّرَ وَأَنْطَوَى
بَنُو يَفْرَنْ^(٢) أَعْدَى الْأَعَادِي وَأَمْرَقُ
وَمِنْ آلِ يُرْنِيَّانَ أَنْكَثُ أُمَّةٌ^(٣)
لِعَهْدٍ وَمِيثَاقٍ وَأَعْوَى وَأُفْسَقُ
ثَلَاثَةُ رَهْطٍ بَدَّدَ اللَّهُ شَمْلَهُمْ
أَنْفَافِي كَانُوا لِلْفَسَادِ فَفُرَّقُوا

إنّ هؤلاء الزّعماء مع رهطهم أصبحوا -في نظر الشّاعر الذي تقمّص وجهة نظر سيّده، وأصبح يتكلّم بلسانه- يجمعون إلى المروق الفسق، وإلى الغواية الخيانة. وهذا كاف لتبرير ما قام به نحوهم صاحب إشبيلية:^(٤)

وَصَيَّرَهُمْ قَبْلَ انْقِضَاءِ حَدِيثِهِمْ
حَدِيثًا بِهِ ظَهَرَ الْجَدَالَةُ يُخْرَقُ
وَكُلُّ غَدَا رَهْنًا بِمَا كَانَ عَامِلًا
وَكُلُّ عَلَى مَا خَيَّلَتْ سَوْفَ يَغْلَقُ

(١) أبو الحسن علي بن حصن الإشبيلي : من مشاهير شعراء المعتضد، نشأ معه فاستوزره، إلا أنه كان فيه طيش

أداه إلى حتفه (ابن بسام : الذّخيرة ٢/١٥٨).

(٢) ابن بسام : الذّخيرة ٢/١٧٩.

(٣) فرع من بني يفرن (قبيلة زنّانة)، (ابن عذاري : البيان المغرب ٣/٢٧٠).

(٤) المصدر السابق : ٣/٢٧١.

(٥) ابن بسام : الذّخيرة، ٢/١٧٩.

(٦) المصدر السابق.

وهكذا تنقلب الآية، فعمل المعتضد ليس غدرًا إنما هو جزاء عن خيانة وردع لغواية:
[الطويل]^(١)

هُمْ نَقَضُوا مِيثَاقَ عَهْدِكَ عُنُوءَ
فَأَوْثَقَهُمْ فِي رِبْقَةِ الْأَسْرِ مُوثِقُ
هُمْ أَنْضَجُوا ذَاكَ الشَّوَاءَ فَرَمَدُوا
وَهُمْ طَبَخُوا ذَاكَ الْقَدِيدَ فَأَرْعَقُوا

ويشاطر ابن زيدون ابن حصن في وجهة نظره هذه، فيرى أن عمل المعتضد مع هؤلاء الأعداء هو نوع من الحزم والدهاء:
[الطويل]^(١)

لَعَمْرُ الْعِدَى الْمُسْتَدْرِجِيكَ بِزَعْمِهِمْ
إِلَى غِرَّةٍ كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ تُكْسَفُ
لَكَالْوَكِّ صَاعَ الْغَدْرِ لَوْمْ سَجِيَّةُ
وَكَيْلٍ لَهُمْ صَاعُ الْجَزَاءِ الْمُطَقَّفُ
لَقَدْ حَاوَلُوا الْعُظْمَى الَّتِي لَا شَوَى لَهَا
فَأَعْجَلَهُمْ عَقْدٌ مِنَ الْهَمِّ مُحْصَفُ
وَلَمَّا رَأَيْتَ الْغَدْرَ هَبْ نَسِيمُهُ
تَلَقَّاهُ إِعْصَارُ لِبَطْشِكَ حَرْجَفُ

والمعتضد -في نظر ابن زيدون- لا يجازي خونة غدروا، بل يجازي لئاماً كفروا بنعم أسبغها عليهم، وحاولوا قطع اليد التي امتدت لمساعدتهم^(٢):

تَحَمَّلْتُ عِبَاءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكُلُّهُمْ
بِنُعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّنْعَمِ مُتَرَفُ
فَإِنْ يَكْفُرُوا النُّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ
بِسَيْفِكَ قَاعُ صَفْصَفِ الرَّسْمِ تُنْسَفُ
وَطَيِّ الثَّرَى مَنُوءَى يَكُونُ قُصَارَاهُمْ
وَإِنْ طَالَ مِنْهُمْ فِي الْأَدَاهِمِ مَرْسَفُ

(١) ديوان ابن زيدون : ١١٤ .

وهكذا نرى أنَّ هذه العلاقات المقامة على أثافي الحقد: السَّخْرية والتَّحْريض والغدر لا يمكن أن تثمر إلا علقماً، فاندعمت نتيجة لذلك كلَّ امكانية للتعايش السِّلْمِي بين هذه الطوائف. وتضافرت عوامل متعدّدة لتجعل لغة السَّيْف هي الحوار الوحيد بينهم. فنتج عن ذلك كثير من الاصطدامات الدِّمَوِيَّة كان لها صداها في المادَّة الشعريَّة.

والنَّاظر في هذه المادَّة من حيث قيمتها الإخباريَّة يجد أنَّها أشارت بطريقة أو بأخرى إلى بعض هذه الأحداث. وكان لبلاط إشبيلية نصيب الأسد منها. وليس ذلك بغريب وهو بلاط استقطب -لأسباب متعدّدة- عدداً لا بأس به من الشعراء. وكان أصحابه أكثر ملوك الطوائف طموحاً وأشدَّهم تحمّساً.

وهذه الإشارات التي نجدها في تلك المادَّة على أنواع ثلاثة:

- إشارات عامّة إلى معارك وقعت بدون تحديد دقيق لمختلف جوانبها، لكن نعرف على الأقلَّ أنَّها وقعت في عهد هذا الأمير أو ذاك، لأنَّها جاءت في قالب قصيد مدحي^(١).

ومن هذا النّوع لدينا على الأقلّ ثلاث مقطوعات : الأولى لابن عمّار ذكر فيها حرباً للمعتضد مع البربر في غضون سنة ١٠٥٣/٤٤٥، وهي سنة كان لصاحب إشبيلية فيها جولات متعدّدة مع دويلات البربر المجاورين له. قال ابن عمّار: [الكامل]^(٢)

شَقِيتْ بِسَيْفِكَ أُمَّةً لَمْ تَعْتَقِدْ^(٣)
إِلَّا الْيَهُودَ وَإِنْ تَسَمَّتْ بِرَبْرًا
أَتَمَرْتَ رُمَحَكَ مِنْ رُؤُوسِ كُمَاتِهِمْ
لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمَرًا

(١) لكن هذا لا يعني أننا سنأخذ بعين الاعتبار كل قصيد مدحي فيه إشارة إلى بطولة المدح في انتصاراته وقهره لأعدائه، لأن هذا يكاد يكون عاماً في كل قصائد المديح باعتبار أن الشجاعة هي إحدى الخصال الأساسية التي ينوه بها الشعراء وإن كان المدح لم يعرف الحرب مطلقاً.

(٢) صلاح خالص : محمد بن عمار ص ١٩٣ .

(٣) في كتاب ابن دحية : المطرب، ص ١٧١ نجد : وتعتمد : ويصبح المعنى إشارة إلى سيطرة اليهود في مملكة غرناطة على دواليب الحكم.

(٤) قد تكون هي نفسها الفرقة التي كان يقاومها بلاط المرية . قال ابن الحداد في ابن معن: (الطويل)

وكم قد رأيت رأي الخوارج فرقة فكنت علياً في حروب شراتها

أمّا الثّانية - وهي لابن عمّار أيضا - فنجد فيها ما يمكن أن يعيننا على معرفة الفئة البربريّة التي كانت تصارع قوَّات صاحب إشبيلية، فهم من البربر الخوارج. ولا شكّ أنّه يعني بني دمر لأنّ هؤلاء من بربر تونس وكانوا من الخوارج الإباضيّة^(٤). قال ابن عمّار:
[المتقارب]^(٥)

وَقَلَيْتَ لِرَبِّكَ فِي مَنْ غَدَرَ
وَأُنْصَفْتَ دِيْنَكَ مِمَّنْ كَفَرَ
تَعَاطَى الْخَوَارِجُ حَتَّى بَرَرْتَ
تَقْوَمُ مِنْ خَدِّهَا مَا صَعَرَ
وَكَمْ نُبِتَ فِي حَرْبِهِمْ عَنْ عَلِيٍّ
وَنَابَ عَنِ النَّهْرَوَانِ النَّهَرُ

وإذا كان أعداء المعتضد في القطعة الأولى من البربر اليهود، وكانوا في الثّانية من البربر الخوارج. فهم في الثّالثة -وهي لابن المعلّم^(١)- قوم (نبذوا الإسلام) فهل يعني الشّاعر بذلك إحدى الفئتين السّابقتين؟ قال:

[البسيط]^(٢)

مَدُّوا إِلَيْكَ أَكْفَ الْبَغْيِ فَأَنْجَذَمَتْ
وَقَدْ خَلَّتْ مِنْهُمْ بِالسَّيْفِ أَقْفَاءُ
قَوْمٌ هُمْ نَبَذُوا الْإِسْلَامَ قَاطِبَةً
عَنْهُمْ كَمَا نَبَذَ الْأُمَوَاتُ أَحْيَاءُ

وهناك إشارات إلى حروب معيّنة تكاد تتفق المصادر التّاريخية والمادة الشعريّة على خطوطها العامّة وفي جزئياتها، كالحروب التي وقعت بين صاحب إشبيلية وبلاط بطليوس في عهد المعتضد والمظفر: لقد أرسل ابن عبّاد ابنه إسماعيل سنة ٤٤٢/١٠٥٠ لنجدة ابن يحيى صاحب لبلة^(٣) إثر هجوم قوَّات ابن الأفطس عليه. وأسفرت الموقعة عن هزيمة

(١) أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلّم : أحد وزراء المعتضد ومشاهير كتّابه (ابن بسام : الذخيرة ٢/١/١١٢).

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٠ .

(٣) إمارة تقع غربي إشبيلية (انظر عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ٤٠).

(٤) المرجع السابق، ص ٨٤ .

(٥) ابن بسام : الذخيرة ١/١/٣٨٦ .

صاحب بطليوس ومقتل كثير من رجاله حتى أن حاضرتة -كما ذكر صاحب الذخيرة -
بقيت مدة خالية الدكاكين والأسواق. وقد أشار ابن زيدون إلى هذا الحدث. فقال مشيراً
إلى فرار المظفر من أرض المعركة، ومقتل المعز بن إسحاق البرزالي حليفه^(٤) :
[الطويل]^(٥)

سَلِ الْخَائِنَ الْمُغْتَرَّ كَيْفَ احْتِقَابُهُ
مَعَ الدَّهْرِ عَارًا بِالْفِرَارِ مُخْلَدًا
رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هِزْبَرًا مُصَمَّمًا
قَلَمَ يَعْدُ أَنَّ أَمْسَى ظَلِيمًا مُشْرَدًا
يَوَدُّ إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ أَنَّهُ
أَقَامَ عَلَيْهِ آخِرَ الدَّهْرِ سَرْمَدًا
لِبَيْسِ الْوَفَاءِ اسْتَنْ فِي ابْنِ عَقِيدِهِ^(١)
عَشِيَّةً لَمْ يُصْنِرْهُ مِنْ حَيْثُ أُورِدَا
وَأَصْبَحَ يَبْكِيهِ الْمُصَابُ بِثُكْلِهِ
بُكَاءَ لَبِيدٍ حِينَ فَارَقَ أَرْبَدَا

على أن هناك صنفاً ثالثاً من هذه المقطوعات تظهر قيمتها الإخبارية جلية واضحة
في تأريخها لتداول سقوط بعض المدن والحصون بين ملوك الطوائف. وضرب بلاط إشبيلية
-كالعادة- رقما قياسياً، خاصة مع المعتضد. فقد استطاع إثر معارك عديدة أن يقضي
على مجموعة من البلاطات المجاورة له. فاستولى على رندة ٤٥٧/١٠٦٥ عاصمة بني
يفرن. فقال مفتخراً ومهدداً:

[مجزوء الوافر]^(٢)

لَقَدْ حُصِّلْتُ يَا رُنْدَةَ
فَصِرْتُ لِمُلْكِنَا عِقْدَةَ

(١) عقيدته : حليفه ولعله المعز بن إسحاق كما جاء في الرواية التاريخية.

(٢) ديوان المعتضد، ص ١٨٥ .

ونفذ فعلاً تهديده فقد استولى في السنة الموالية على مورور عاصمة بني دمر ٤٥٨/١٠٦٦ ثم قرمونة ٤٥٩/١٠٦٧ حاضرة بني برزال^(١). وقد جاء استيلاؤه على قرمونة المعقل البربري الخطر تتويجا لعدة محاولات بدأها والده محمد بن إسماعيل بن عبّاد. فقد حاول هذا الأخير فتحها ولكنه فشل ودفع ثمناً باهظاً تمثل في مقتل ابنه إسماعيل في هذه المحاولة سنة ١٠٣٩/٤٣١. ولم تفل هذه النكبة في غرب المعتضد عند تولّيه الحكم بل أصرّ على إلحاقها بمملكته. وتمّ له ذلك إثر سلسلة من الوقائع من أهمّها المعركة التي قادها ابنه المظفر وأخذ فيها بثأر عمّه إسماعيل وأشاد بها ابن عمّار بقوله:

[الطويل]^(٢)

أَطْلَ عَلَى قَرْمُونَةٍ مُتَبَلِّجًا
مَعَ الصَّبْحِ حَتَّى قِيلَ كَانَا عَلَى وَعْدٍ
فَأَرْمَلَهَا بِالسَّيْفِ ثُمَّ أَعَارَهَا
مِنَ النَّارِ أَثْوَابَ الْحِدَادِ عَلَى الْفَقْدِ

ويسخر ابن عمّار من باديس صاحب غرناطة حليف البرزالي عندما فرّ من المعركة^(٣).

كَأَنِّي بِبَادِيسٍ وَقَدْ حَطَّ رَحْلُهُ
إِلَى الْفَرَسِ الطَّائِي عَنِ الْفَرَسِ النَّهْدِ
إِلَى الْفَرَسِ الْجَارِي بِهِ طَلَقَ الرَّدَى
سَرِيعًا غَنِيًّا عَنْ لِجَامٍ وَعَنْ لِبْدٍ
يَحِنُّ إِلَى غَرْنَاطَةٍ فَوْقَ مَنْنِهِ
كَمَا حَنَ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ إِلَى الْوَرْدِ

وفي الأخير يهنئ المعتضد بهذا الفتح^(٤):

هَنِيئًا بِبِحْرٍ فِي الْفُتُوحِ نَكَحَتْهَا
وَمَا قَبِضَتْ غَيْرَ الْمَنِيَّةِ فِي النَّقْدِ

(١) حول هذه الإمارة البربرية انظر كتاب (عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ١٤٨ وما بعدها).

(٢) الفتح : القلائد ٩٩.

(٣) المصدر نفسه.

وتمكن المعتضد من الاستيلاء على مالقة ٤٥٨/١٠٦٦، وكانت تابعة آنذاك لمملكة غرناطة، فأرسل إليها ابنه المعتمد (فلما أطل عليها أعطته صفقتها وأمطته صهوتها إلا قصبته فإنها امتنعت بطائفة من السودان المغاربة)^(١) أسرعوا بإيصال الخبر إلى باديس. ويبدو أن الحدث كان على جانب كبير من الأهمية فقد قيلت فيه عدة قصائد إحداها تنسب إلى المعتضد، وهي قصيدة في الفخر وتنسب البقية إلى ابنه المعتمد وهي في الاعتذار.

توجد القصيدة الأولى في الملحق الذي أضافه محققا شعر ابن زيدون في ديوانه^(٢). ويشتمل هذا الملحق على مقطوعات للمعتضد والمعتمد. وقد جاء في تقديم هذه القصيدة، (وقال -أي المعتضد- حين دخل على المعتمد مالقة) ثم وردت القصيدة الفخرية التي مطلعها: [الوافر]^(٣)

أَرِيَّةُ^(٤) أَنْتِ فَأَيَّدَةُ الزَّمانِ
فَقَدْ فُتَّتِ الْمَمَالِكُ فِي مَعَانِ

وهذا التقديم لم يضعه المحققان وإنما هو من الأصل المعتمد عليه في التحقيق. وهو يشير بوضوح إلى أن المعتضد قد التحق بالمعتمد بعد فتحه مالقة أثناء الفترة التي بقيت فيها المدينة تحت سيطرتهم. وتدعم هذه الإشارة بما جاء في الحلة، فقد أورد ابن الأبار البيتين الأخيرين من القصيدة السابقة وقدم لهما بقوله (وأشدد - أي المعتضد - على منبر مالقة، ودعي له بها وبخمسة وعشرين حصناً من حصونها في جمعة واحدة)^(٥).

ومن المعلوم تاريخياً أن مالقة لم تبق في يد المعتمد إلا مدة وجيزة، تمكن خلالها باديس صاحب غرناطة من إنجاد حامية المدينة التي بقيت على ولائها له متحصنة بقصبته. فهل أن المعتضد جاء أثناء ذلك وخطب على منبر مالقة ؟

(١) المصدر نفسه، ٢٠.

(٢) هذه الطبعة من ديوان ابن زيدون قام بتحقيقها : كامل كيلاني وعبد الرحمان خليفة ط ١/١٩٣٢. قصيدة المعتضد في الملحق، ص ٣٧٦.

(٣) ديوان، المعتضد : ص ٢٠٠.

(٤) كورة رية: هي الإقليم الذي أصبحت مدينة مالقة Malaga عاصمته في جنوب شرق شبه الجزيرة (الحميري : الروض ص ٧٩ - (١) ١٢٢١/٣ كتب المقال (برفصال).

هذا ما لم تتمكّن من العثور عليه في المصادر التاريخية باستثناء الحلة لابن الأبار. فإنّ صحّ مجيئه فإنّ مدّة إقامته لم تطل، أو على الأقلّ لم يبق فيها حتى وصلت قوّات باديس، وإلاّ لتحملّ مع المعتمد مسؤوليّة الإخفاق في المحافظة على المدينة. وهو ما لا يتماشى مع روح المقطوعات التي قالها المعتمد في الاعتذار لأبيه بعد أن استرجع باديس عاصمة كورة ريّة.

إنّ نشوة الانتصار وقد بلغت أقصاها، كما تبدو من خلال أبيات القصيدة، تجعلنا لا نستبعد أن يسرع المعتضد إلى دخول مالقة بعد فتحها دخول الأبطال متوجّاً بأكاليل الغار. أليست هذه المدينة مفتاحاً لكامل كورة ريّة؟ لقد تطفّن المعتضد إلى ذلك فبدأ بمخاطبتها: [الوافر]^(١)

أَرِيَّةُ أَنْتِ فَائِدَةُ الزَّمَانِ
فَقَدْ فُتَّتِ الْمَمَالِكُ فِي مَعَانِ
وَقَدْ رُمْنَاكَ مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ
فَأَدْنَاكَ إِلَهُ بِلَا تَوَانِ

ودخوله إلى المدينة هو تشريك منه لأهلها في هذه النّشوة، فهو في نظرهم البطل المنقذ، وقد بلغت النفوس التّراقي ذللاً ومهانة^(٢):

لِيُهْنِي أَهْلَ مَالِقَةَ انْتِصَارِي
وَإِعْزَازِي لَهُمْ بَعْدَ الْهَوَانِ

ولكن هذه النّشوة لم تطل مدّتها، فقد أسرع باديس -كما أشرنا سابقاً- إلى نجدة المدينة الثّانية في مملكته. وتمّ له إنقاذها بدون كبير عناء. فقد انغمس المعتمد - منذ أن دخل مالقة- مع جيشه في اللّهو واقتناء الملذّات وأغفل الحذر والحيلة.

(١) ديوان المعتضد : ٢٠٠.

وبقدر نشوة المعتضد كان سخطه، وحمل المعتد مسؤولية هذا الإخفاق الذريع.
ويبدو أن الابن توقع شرًا من أبيه، فأرسل إليه مسرعًا يعتذر ويطلب الصفح والغفران:
[مخلع البسيط]^(١)

سُخْطُكَ قَدْ زَادَنِي سَقَامًا
فَابْعَثْ إِلَيَّ الرِّضَى مَسِيحًا
وَاعْفِرْ دُنُوبِي وَلَا تُضَيِّقْ
عَنْ حَمْلِهَا صَدْرَكَ الْقَسِيحَا

والشاعر، وإن لم يحاول التنصل من جريرته فقال:

[الوافر]^(٢)

وَلَسْتُ بِمُنْكَرٍ دُنْيِي وَلَكِنْ
نَنِي قَدْ جِئْتُ فِي حَالِ الْمُرِيبِ
فَإِنْ عَاقَبْتَنِي فَجَزَاءُ مِثْلِي
وَإِنْ تَصَفَّحَ فَلَيْسَ مِنَ الْغَرِيبِ

فإنه يحمل القضاء والقدر مسؤولية الهزيمة بالدرجة الأولى:

[البسيط]^(٣)

وَإِنْ يَكُ قَدَرٌ قَدْ عَاقَ عَنْ وَطَرٍ
فَلَا مَرَدٍّ لِمَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

ومع القدر هناك خيانة بعضهم:

[البسيط]^(٤)

مَا الذَّنْبُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ ذَوِي دَغَلٍ
وَفِي لَهُمْ عَهْدُكَ الْمَعْهُودُ إِذْ غَدَرُوا
قَوْمٌ نَصِيحَتُهُمْ غِشٌّ وَصِدْقُهُمْ
مَيِّنٌ وَنَفْعُهُمْ إِنْ صُرِّقُوا ضَرَرٌ

(١) ديوان المعتد، ص ٩٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٨ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٩ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٢ .

ورقة الاعتذار هذه لا يمكن بحال أن تخفي عنا الجانب الثاني من شخصية المعتمد. فهو صورة من أبيه في بعض قسوته وشدة طموحه، وأتبع نفس السياسة التوسعية التي سنّها والده على حساب بعض الملوك والأمراء أنس فيهم ضعفاً أو غفلة. وقد بدأ بتحقيق حلم طالما راود حكام إشبيلية وهو الاستيلاء على قرطبة. وهم وإن كانوا يحاولون التظاهر بصداقة بني جهور، فقد كانوا منذ وفاة أبي الحزم يتحينون الفرصة لضمّ عاصمة الخلافة الأموية إلى مملكتهم. ولقد عبر ابن زيدون بعد فراره إلى بلاط إشبيلية عن هذا الأمل في قطعة يحنّ فيها إلى مدينة صباه وموطن أحبّته:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْأَحَبَّةَ إِذْ أَبَتْ
ذَكَرَاهُمْ أَنْ يَطْمَئِنَّ مِهَادُ
لَا بَأْسَ رَبِّ دُنُو دَارِ جَامِعِ
لِلشُّمْلِ قَدْ أَدَّى إِلَيْهِ بَعَادُ

وجاءت الفرصة لبلاط إشبيلية عندما هاجم يحيى بن ذي النون (المأمون) صاحب طليطلة، حاضرة بني جهور. وكانت له، هو الآخر، فيها نوايا وأطماع فاستنجد عبد الملك بن جهور بصديقه -ظاهرياً- المعتمد، فوجه إليه الأمداد وتمكّن جيش إشبيلية من طرد ابن ذي النون. ولكن عوض أن يعود إلى حاضرتة وأتباعاً لسياسة الغدر المعهودة بين ملوك الطوائف، استولت قوات ابن عبّاد على قرطبة حسب خطة سرية وضعت من قبل. وقام ابن القصيرة^(٢) وهو الشاعر المدّاح ينوّه بهذا الانتصار ويتشقى من إخفاق ابن ذي النون:

فَسَلِّ عَنْهُ أَحْشَاءَ ابْنِ ذِي النُّونِ هَلْ سَرَى
إِلَيْهَا سَكُونٌ مُنْذُ زَلَزَلَهَا الدُّعْرُ

وهو يعتبر أنّ الاستيلاء على قرطبة هو انقاذ لها:

[الطويل]^(٤)

(١) ديوان ابن زيدون، ٩٤.

(٢) الفقيه الكاتب أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة: كان من أهل التفنن في العلوم كاتباً بارع الخط. وسافر رسولاً عن المعتمد بن عباد إلى الملوك غير مرة. توفي سنة ٥٠٨/١١١٤ (ابن بسام: الذخيرة ٢/١/٢٣٩).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة ٢/٥١٧.

(٤) المصدر نفسه، ٥١٨.

فَلَوْلَاكَ لَمْ تُفْصَلْ عُرَى الْإِصْرِ عَنْهُمْ
وَلَا انْفَكَ مَنْ رِبْقِ الْأَذَى لَهُمْ أَسْرُ
أَعَدْتَ نَهَارًا لِيَلَهُمْ وَلَطَالَمَا
أَرَاهُمْ نَجُومَ اللَّيْلِ فِي أَفْقِهِ الظُّهْرِ

وأثار هذا الحدث شاعرية المعتمد. إن الاستيلاء على عاصمة الخلافة الأموية له أكثر من معنى ببعديه السياسي والديني. قال مفتخرًا:

[البسيط]^(١)

مَنْ لِمُلُوكِ بِشَاوِ الْأَصِيدِ الْبَطَلِ
هَيْهَاتَ جَاءَتْكُمْ مَهْدِيَّةُ الدَّوَلِ
خَطَبْتُ قَرْطُبَةَ الْحَسَنَاءِ إِذْ مَنَعْتُ
مَنْ جَاءَ يَخْطُبُهَا بِالْبَيْضِ وَالْأَسَلِ
وَكَمْ غَدَتْ عَاطِلًا حَتَّى عَرَضْتُ لَهَا
فَأَصْبَحَتْ فِي سُرَى الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ

وبقي ابن ذي النُّون يحاول التَّأرُّ لنفسه من صاحب إشبيلية طيلة خمس سنوات، إلى أن تمكَّن عن طريق قائد له مغامر يعرف بابن عكاشة من اغتنام فرصة انغماس الظَّافر بن المعتمد حاكم قرطبة في لهوه ومجونه، ففتك به واحتلَّ المدينة سنة ١٠٧٤/٤٦٧، وكانت مصيبة المعتمد بفقد ابنه وسقوط المدينة مضاعفة. فحاول ابن المعلِّم أن يخفِّف من وقع الكارثة برثاء الابن الفقيد وتعزية الأب المنكوب:

[البسيط]^(٢)

رُزِئْتُهُ فَأَحْتَسِبُهُ عِنْدَ خَالِقِهِ
زُلْفَى بِذَلِكَ تَقَرِّيبٌ وَإِنْنَاءُ
وَلَوْ أَفَادَ عَلَيْكَ الْحُزْنَ قَائِدَةً
لَكَانَ صَخْرًا وَكُلُّ النَّاسِ خُنُسَاءُ

(١) ديوان المعتمد، ١٠٥ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ٢/١٢٣ .

ولم يهناً للمعتمد بال إلا بعد أن قام في نفس السنة التي افتكت منه قرطبة باسترجاعها عنوة. وتمكن من قتل ابن عكاشة وصلبه مع كلب إمعانا في التشقى. وقام معزّي الأمس يهنئ اليوم:

[البسيط]^(١)

صَفَا لَكَ الشَّرْبُ كَانَتْ فِيهِ أَقْدَاءُ
وَعَادَ بُرْءٌ عَلَى مَا أَفْسَدَ الدَّاءُ
وَلَنْ يُعَجَّلَ مَقْدُورٌ لَهُ أَجَلُ
وَلِلْأُمُورِ مَوَاقِيتُ وَأَنْوَاءُ
وَقَدْ تَبَاطَأَ وَحْيُ اللَّهِ أَوْنَةً
عَنِ النَّبِيِّ وَعَابَتْ عَنْهُ أُنْبَاءُ
فَلْيَهْنِكِ الصُّنْعُ قَدْ رَأَتْ عَوَاقِبُهُ
وَشُقِّعَتْ مِنْهُ بِالْآلَاءِ
فَتُحْ كَمَا وَضَحَ الْإِصْبَاحُ مِنْهُ عَلَى
أَفَاقٍ مُلْكِكَ إِشْرَاقٌ وَلِأَلَاءِ

وشارك المعتمد شعراء بلاطه هذه النشوة المزدوجة، بعد أن ثار لابنه واسترجع عاصمة الخلافة. قال أبو الحسن البغدادي المعروف بالفكيك:^(٢)

[البسيط]^(٣)

غَنَى حُسَامُكَ فِي أَرْجَاءِ قُرْطُوبَةٍ
صَوْتًا أَبَادَ الْعِدَى وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرُ
حَيْثُ الدَّمَاءُ مُدَامٌ وَالْقَنَا زَهَرُ
وَالْقَوْمُ صَرَعَى بِكَاسِ الْحَنْفِ قَدْ سَكِرُوا

ووصف ابن المصيصي^(٤) أهل قرطبة، وهم فوق السور يلوحون بأيديهم لركب المعتمد وهو يدخل منتصراً مدينة قرطبة ثانية، بعد أن تمكن من أن يثأر لابنه ولنفسه:

[الطويل]^(٥)

(١) المصدر نفسه.

(٢) من الشعراء الوافدين على الجزيرة، اختص بالمعتمد، كان حلو الجواب مليح التندر (ابن بسام : الذخيرة ٤/١، ص ٣٦٨).

(٣) المقرئ : النَّفَح ٣/١٢٠ .

(٤) الوزير الكاتب أبو الوليد حسان بن المصيصي من شلب : من شعراء المعتمد، أصبح كاتب سر الفتح بن المعتمد عند استيلاء بني عباد على قرطبة (ابن بسام : الذخيرة ٢/١/٤٣٣).

(٥) ابن بسام : الذخيرة ٢/١/٢٧٣ .

وَلَيْسُوا بِغَرَقَى قَدْ أَشَارُوا لِسَاحِلِ
وَلَكِنَّهُمْ غَرَقَى أَشَارُوا إِلَى بَحْرِ

ولسنا ندري مبعث هذا الترحاب أهو الخوف أم السرور؟ ذلك أن أهل المدن المفتوحة
زمن ملوك الطوائف، ليس لهم مجال للاختيار عند دخول المنتصر مدينتهم. فهم مجبرون
على أن يعلنوا فرحتهم بقدومه تفادياً لما يمكن أن ينالهم من سطوته وانتقامه.

ويبدو أنه بسقوط قرطبة نهائياً بيد المعتمد فُسح له المجال للاستيلاء على بعض
الحصون المجاورة سواء أكانت تابعة لها أم لغيرها، فقد أشار ابن الباجي^(١) إلى سقوط
حصنين : غافق والمدور^(٢) رغم ما عرف عن أهلها من شدة وبأس:

[الطويل]^(٣)

أَنَارَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَوَجَّهَكَ أُنُورُ
وَجَلَّتْ عَطَايَاهَا وَقَدَّرَكَ أَكْبَرُ
وَدَارَ كَمَا شِئْتَ الْقَضَاءُ مُسَاعِدًا
فَجَبَّاءَتْ وَلَاءٌ غَافِقُ وَالْمُدُورُ
فُتُوحُ يَمُوتُ الْحَاسِدُونَ شَجًّا بِهَا
فَلَيْتَ حَلِيفَ الْغَيِّ يَحْيَا فَيُخْبِرُ

ولا شك أن هذا الانتصار زاد في حدة أطماع المعتمد، فرمى ببصره بعيداً شمالاً
وجنوباً برّاً وبحراً. فنراه تارة يدخل في معركة بحرية مع صاحب سبتة^(٤) أشار إليها ابن
المعلم في إحدى قصائده المدحية:

فَأَرْحُ جِيَادَكَ فَهِيَ أَطْلَاحُ السُّرَى
وَقَدْ الْجِيُوشَ إِلَى الْعِدَى أَسْطُولَا

(١) الفقيه أبو عمر يوسف بن جعفر الباجي : ففقيه جليل القدر، رحل إلى المشرق وحج وولي قضاء حلب، وعاد إلى
الأندلس، فجل قدره في بلاط سرقسطة زمن المقتدر بن هود (ابن سعيد : المغرب، ١/٤٠٥).

(٢) غافق : حصن بقرب حصن بطروش قرب قرطبة. وكذلك بالنسبة إلى المدور فهو حصن آخر قريب من قرطبة (ابن
سعيد : المغرب، ١/٢٢٢ - الحميري : الروض، ١٣٩).

(٣) ابن بسام : الذخيرة، ١/٨-٢/١٩٧.

(٤) صاحب سبتة في ذلك الوقت هو سكوت البرغواطي من موالي بني حمود وكان ولي حكم سبتة في أواخر أيامهم
ثم استولى على طنجة واستمرت ولايته زهاء ٢٠ عاماً (عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ٣١٢).

(٥) ابن بسام : الذخيرة، ٢/١٢١.

أُنْشَأْتُهُنَّ سَفَائِنًا وَمَدَائِنًا
وَجَنَّبْتُهُنَّ كَتَائِبًا وَرَعِيلاً

ونراه أخرى يحمله طموحه -بإغراء من وزيره ابن عمّار- إلى شرقيّ الأندلس
فينصب شبাকে للإيقاع بابن طاهر صاحب مرسية. ورغم أن بلاط إشبيلية- بتدبير من هذا
الوزير المغامر- استعان بالنصارى مقابل أموال طائلة لتنفيذ مشروعه، فقد باءت هذه
المحاولة بالفشل، وخاف ابن عمّار من نقمة سيّده فراسله خائفاً معذراً:

[الطويل]^(١)

وَإِنِّي لَتَنْنِيَنِي إِلَيْكَ مَوْدَّةً
يُغَيِّرُهَا مَا قَدْ تَعَرَّضَ مِنْ دُنْيِي
فَمَا أَغْرَبَ الْأَيَّامَ فِي مَا قَضَيْتَ بِهِ
تُرِينِي بُعْدِي عَنْكَ أَنْسَ مِنْ قُرْبِي
أَخَافُكَ لِلْحَقِّ الَّذِي لَكَ فِي دَمِي
وَأَرْجُوكَ لِلْحُبِّ الَّذِي لَكَ فِي قَلْبِي

فأجاب المعتمد وزيره مطمئناً له:

تَقْدَمُ إِلَيَّ مَا اعْتَدْتَ عِنْدِي مِنَ الرَّحْبِ
وَرِدَ تَلَقُّكَ الْعُنْبَى حِجَابًا عَنِ الْعُتْبِ
مَتَى تَلْقَانِي تَلْقَ الَّذِي قَدْ بَلَوْتَهُ
صَفُوحًا عَنِ الْجَانِي رُوُوفًا عَنِ الصُّحْبِ

وأعاد ابن عمّار الكرة للاستيلاء على مرسية، بعد أن أقنع المعتمد بأن الوقت قد
حان لقطع الثمرة الناضجة. وقام ابن عمّار لتنفيذ مشروعه بالاعتماد على ابن رشيق
صاحب حصن بلج^(٢) وهو امرؤ لا يقل عنه جرأة وغدراً. وسقطت المدينة فعلاً في سنة
٤٧٨/١٠٧٨، فأسرع إليها ابن عمّار ليتولّى حكمها نيابة عن المعتمد فلماً تهيأ للخروج قال

(١) ابن الأبار : الحلة ٢/٦-١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه، ١٣٦ .

(٣) بلج أو بلش الحمراء : Velez Rubio يقع في منطقة جيان (عبد الله عنان : دول الطوائف، ٦٥).

له المعتمد. (سر على خيرة الله ولا تظن أنني مخدوع). فقال ابن عمّار: لست بمخدوع ولكنك مضطر^(١). وهذا نموذج من حوار ينبيء بأن المعتمد قد بدأ يشك في نزاهة وزيره، وأن ابن عمّار قد بدأ العجب يأخذ من نفسه مأخذاً عظيماً.

وقام الشعراء عند سقوط مرسية: منهم من ينوّه ويهنئ، ومنهم من يعزّي ويسلّي، حسب العلاقة التي تربطهم بالمنتصر أو المهزوم. فأبو محمد بن الطلاء المهدوي^(٢) أشاد بخصال ابن عمّار التي مكّنت بلاط إشبيلية من أن يمدّ جناحيه شرقاً وغرباً. فقال:

[الكامل]^(٣)

إِنَّ ابْنَ عَمَّارٍ حَكَى عَمْرُو الْقَنَّا
لِلْمُسْتَجِيرِ وَحَاتِمًا لِلْمُملِّقِ
لَمَّا وَصَلَتْ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى بِهِ
هَجَرَ الْكَرَى فَاقْتَادَ مُلْكُ الْمَشْرِقِ

أمّا ابن البني فقد تأثر إليه الرئيس أبو عبد الرحمان بن طاهر صاحب مرسية من هوان واعتقال. فقام يخفف عنه وقع المصاب، ويؤمّله في الرجوع إلى ما كان عليه من مجد وسؤدد:

[الطويل]^(٤)

يَقُولُونَ: لَيْثُ الْغَابِ فَارَقَ غَيْلَهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ أَنْتُمْ لَهُ الْآنَ أَخُوفُ
وَلَنْ تَرَهُبُوا الصَّمْصَامَ إِلَّا إِذَا غَدَا
لَكُمْ خَارِجًا مِنْ غَمِّدِهِ وَهُوَ مُرْهَفُ
سَتَكْشِفُ عَنْ سِرِّ الْكِتَابَةِ مِثْلَمَا
رَأَيْتُكَ عَنْ سِرِّ الْبَلَاغَةِ تَكْشِفُ

(١) ابن الأبار: الحلة ٢/١٤٠.

(٢) أبو محمد بن الطلاء المهدوي: من الشعراء الوفاة على بلاط المعتمد: استنقص شعره صاحب الذخيرة (ابن بسام: الذخيرة ٤/١/٣٦٠).

(٣) المصدر السابق، ص ٣٦١.

(٤) أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البني: كان أديباً شاعراً، عاش في بلاط مبشر صاحب ميورقة، وقد اضطر إلى طرده لسوء سيرته (ابن سعيد: المغرب: ٢/٣٥٧-المقري: النفع ٤/٢٢٨). أمّا الأبيات المستشهد بها فهي من (الفتح: القلائد ٦٩/).

أمّا المدينة الثالثة التي تذكر المادة الشعريّة أن المعتمد تمّ له الاستيلاء عليها فهي لورقة^(١). لكن لم يتمكّن من ذلك إلا بعد أن ذاق في مرحلة أولى مرارة الهزيمة. ذلك أنّه أرسل إليها جيشاً بقيادة ابنه المعتدّ عادت فلوله تجرّ أذيال الخيبة والهزيمة. وحاول يزيد الرّاضي بن المعتمد^(٢) -وكان قد رفض المشاركة في هذه الحملة- أن يخفّف من وقع هذه الهزيمة على والده بطريقة تذكّرنا بما قاله المعتمد لأبيه لما تمّ لباديس استرجاع مدينة مالقة. فالممدوح في حلّ من الهزيمة، والقضاء والقدر هما المسؤولان بالدرجة الأولى عنها:

[البيسط]^(٣)

لَا يُكْرِثُنْكَ^(٤) خَطْبُ الْحَادِثِ الْجَارِي
فَمَا عَلَيْكَ بِذَلِكَ الْخَطْبِ مِنْ عَارٍ
مَاذَا عَلَى ضِيْغَمٍ أَمْضَى عَزِيمَتُهُ
أَنْ خَانَهُ حَدُّ أَنْيَابٍ وَأَظْفَارٍ؟
عَلَيْكَ لِلنَّاسِ أَنْ تَسْعَى لِنَصْرِهِمْ
وَمَا عَلَيْكَ لَهُمْ إِسْعَادُ أَقْدَارٍ

والمصادر التّاريخيّة تجعل استيلاء المعتمد على لورقة صلحاً. فقد كانت هذه المدينة تابعة لمملكة المريّة وثار حاكمها ابن شبيب سنة ٤٤٣/١٠٥١ على المعتصم بن صمادح. وأعانه في ثورته تلك عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية. ولئن تمكّن المعتصم بعد معارك ساندده فيها حليفه باديس صاحب غرناطة من استرجاع المدينة، فإنّ ابن شبيب استأنف الثّورة وعاد فاستقلّ بها. وخلفه في الحكم ثلاثة إخوة بالتّعاقب اعترف آخرهم بطاعة بني عبّاد، وحكمها باسمهم حتى مجيء المرابطين ٤٨٤/١٠٩١^(٥).

(١) لورقة : Lorca تقع بين غرناطة ومرسية وهي تابعة لكرورة تدمير (١) ٢٣/٣/Ei، كتب المقال ل. بروفنصال.

(٢) ابن الأبار : الحلة ٢/٧٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) لا يسوعتك.

(٥) عنان : دول الطوائف، ص ١٦٦-٧.

أما المادة الشعرية فهي توحى بأن الاستيلاء على لورقة تمّ عنوة. قال ابن اللبانة مخاطبا المعتمد:

[الطويل]^(١)

تَخَلَّلْتُ حَتَّى غَابَةِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ
وَأُنْزِلْتُ حَتَّى سَاكِنِ الْأَبْلَقِ الْفَرْدِ
وَجَرَدْتُ دُونَ الدِّينِ سَيْفَكَ فَاثْنَيْ
مِنْ النُّصْرِ فِي حَلِي مِنْ الدَّمِ فِي غِمْدِ
لَقَدْ ضَمَّ أَمْرَ الْمُلْكِ حَتَّى كَأَنَّهُ
نِطَاقُ بَخْصَرٍ أَوْ سِوَارٍ عَلَى زَنْدِ

ويمكن أن نرى بين المصدرين تكاملاً، لا تناقضاً. فما من شك أن إخوة ابن شبيب صاحب لورقة لم يستسلموا لصاحب إشبيلية إلا بعد معارك، حاولوا فيها الاحتفاظ باستقلالهم، ولكنهم في النهاية خضعوا لانعدام التوازن في القوى بينهم وبين بني عبّاد.

واتّبع بلاط بطليوس تقريباً نفس السياسة التي سلكها بنو عبّاد. فما إن أنس ضعفا في مملكة طليطلة حتى قام المتوكّل بالهجوم على الشمال الأوسط لشبه الجزيرة الإيبيرية. فاستولى على مجريط واستعصت عليه مدينة وادي الحجارة إذ أصرّ حاكمها حامد بن مسرة على الامتناع والمقاومة. وقد أشار إلى ذلك شاعر المتوكّل أبو الخطاب ابن عطية^(٢) بقوله:

[الطويل]^(٣)

رَمَيْتَ قِصِيَّ الثُّغْرِ بِالْخَيْلِ شُرْبًا
هَبَطْنَ عَلَى غَوْرٍ فَأَصْعَدْنَ فِي نَجْدِ
وَأَقْبَلَتْهَا مَجْرِيْطُ شُعْنًا كَأَنَّهَا
كَوَأَسِرُ عُقْبَانٍ تَقْضَيْنَ مِنْ فَنْدِ
فَلَمَّا رَأَتْ مَجْرِيْطُ وَجْهَكَ أَقْبَلَتْ
لِعَزَّتِكَ الْقَعَسَاءُ فِي ذُلِّ الْعَبْدِ

(١) محمد مجيد السعيد: شعر ابن اللبانة ص ٣٥

(٢) الوزير الكاتب أبو الخطاب عمر بن أحمد بن عبد الله بن عطية التجيبي الطليطلي : كان رغم جودة شعره وتفوقه فيه لا يتكسب به، اتصل ببلاط المتوكّل صاحب بطليوس (ابن سعيد : المغرب، ١٦/٢ - ابن بسام : الدّخيرة ٣/٧٧٣).

(٣) ابن بسام : الدّخيرة ٣/٧٧٦-٣/٧٧٧..

فَأَوْسَعَتْهُمْ مَنَا بِأَمْنِهِمْ وَقَدْ
تَطَلَّعَ سَيْفُ الْأَنْتِقَامِ مِنَ الْغَمْدِ
وَمَا حَامِدٌ مِنْ ذَا الْوَرَى فَعَلَ حَامِدٌ^(١)
وَقَدْ أَبْرَزَ الْبَهْمُ الضَّعَافَ إِلَى الْأُسْدِ
كَأَنِّي أَرَى وَادِي الْحَجَارَةِ قَدْ جَرَى
دَمًا بِهِمْ حَتَّى يُعَافَ عَنِ الْوَرْدِ

وسلك بلاطا سرقسطة وطليلة نفس المنهج، رغم قربهما من الخطر النصراني. وكانت مدينة وادي الحجارة نفسها مسرحاً لصراع عنيف بينهما استغلّه النصارى استغلالاً كاملاً وكان له أسوأ الأثر في تلك المنطقة.

ولا نعثر في المادة الشعرية على وصف مباشر لتلك الأحداث، ولكن هناك إشارات إليها جاءت عرضاً في قصائد ابن غصن الحجاري^(٢) لما نكبه المأمون بن ذي النون. ويذكر لنا المقرئ في النّفح أن سبب محنته هو صحبته لرئيس بلده ابن عبيدة^(٣)، واستيلائه على وزارته. وأورد ابن سعيد في المغرب سبباً ثانياً هو هجو ابن غصن لابن ذي النون.

وبالاعتماد على المصادر التاريخية نفهم أن هذه النكبة الفردية لها علاقة بالصراع القائم بين ابن هود وابن ذي النون. فقد كانت مدينة وادي الحجارة من أعمال طليطلة، إلا أن فريقاً من أهلها كانوا ينزعون إلى الانضواء تحت لواء سليمان بن هود. وكان سليمان بدوره يعمل على بثّ الاضطراب فيها على يد رسله وأعوانه. فلما استفحلت دعوته أرسل إليها قوة من جيشه بقيادة ولده أحمد، تمكّن من منازلتها ودخولها. وحاول المأمون بن ذي النون التدخل فهزم، وحاصره ابن هود، فلم ينجح من هذا الحصار إلا الأمر الذي ورد من سرقسطة بترك سبيله^(٤).

(١) هو حامد بن مسرة حاكم وادي الحجارة في تلك الفترة.

(٢) أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجاري من أهل وادي الحجارة كان فقيهاً أديباً شاعراً صاحب منظوم ومنثور وكانت وفاته بغرناطة سنة ٤٥٤/١٠٦٢ (ابن بسام : الذخيرة، ٣/١/٣٣١).

(٣) ذكره المقرئ في : النّفح ٤٢١/٣-٤٢٤ عرضاً.

ولا شك أن هذه الهزيمة ولدت حقدا في صدر المأمون على كل من سعوا في احتلال ابن هود لمدينة وادي الحجارة، وعلى رأس هؤلاء كان ابن غصن، نظرا إلى المكانة المرموقة التي يحتلها باعتباره وزيرا لحاكمها.

وفعلًا كان ابن غصن من مؤيدي سياسة الانفصال عن طليطلة والانضمام -ولو اسميًا- إلى بلاط سرقسطة. فكان هذا كافيًا - عندما وقع في يد ابن ذي النون - أن يعتقله. وأثناء اعتقاله راسل ابن هود يستنجد به ليعمل على إنقاذه باعتباره أحد أتباعه المؤيدين لسياسته ومشاريعه التوسعية. من ذلك قوله:

[الطويل]^(١)

أَيَا رَاكِبِ الْوَجْنَاءِ بَلَغَ تَحِيَّةُ
أَمِيرِ جُذَامٍ مِنْ أَسِيرٍ مُقَيَّدِ
وَلَمَّا دَهَنَنِي الْحَادِثَاتُ وَلَمْ أَجِدْ
لَهَا وَزْرًا أَقْبَلْتُ نَحْوَكَ أَعْتَدِي
حَنَائِيكَ أَلْفًا بَعْدَ أَلْفٍ فَإِنِّي
جَعَلْتُكَ بَعْدَ اللَّهِ أَعْظَمَ مَقْصَدِي

ولم يمنع هذا الصراع بلاطي طليطلة وسرقسطة من استغلال بعض الفرص التي تتاح لهما لتوسيع مملكتهما في اتجاه الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة الأندلسية على حساب غيرهما من ملوك الطوائف، بعد أن أصبح عليهما عسيرا بل مستحيلا أن يقوموا بذلك في اتجاه الشمال.

فبالنسبة إلى بلاط طليطلة، قام صاحبه المأمون بن ذي النون لما أنس ضعفا من عائلة بني عامر بالاستيلاء على بلنسية، دون مراعاة لأواصر القرى التي كانت تربط بينهما. فعزل صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، ثم قبض عليه وعلى ولده ونفاهما إلى بعض القلاع. وكان ذلك في شهر ذي الحجة ٤٥٧ / نوفمبر ١٠٦٥^(٢).

(١) المقرئ : النَّفْح، ٣/٤ - ٣٦٣ .

(٢) عبد الله عنان : دول الطوائف، ٢٢٥ .

وللسَّميسِر الشَّاعِر مَقْطُوعَةٌ يَرِثِي فِيهَا عَائِلَةً بَنِي عَامِرٍ، وَهِيَ مِنْ نَوْعِ رِثَاءِ الْإِعْتِبَارِ لَا رِثَاءِ الْمَوَاسَاةِ. فَهَلْ تَكُونُ الْمَقْطُوعَةُ قِيلَتْ فِي هَذَا الْحَدَثِ وَهُوَ عِزْلُ بَنِي عَامِرٍ عَنِ بِلَنْسِيَّةٍ؟ إِنَّ الْجَزْمَ بِذَلِكَ صَعْبٌ، لِأَنَّ الشَّاعِرَ أَرَادَ قَصْدًا التَّعْمِيمَ دُونَ التَّخْصِصِ. وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى مَا أَصَابَ هَذِهِ الْعَائِلَةَ مِنَ الزَّمَنِ، كَمَا يَلْمَحُ لِمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ دُونَ الْمَوْتِ الْمَادِّيِّ. فَهَلْ هَذَا كَافٍ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى الْعِزْلِ دُونَ الْقَتْلِ، وَهُوَ مَا وَقَعَ فَعَلًا عِنْدَ سَقُوطِ بِلَنْسِيَّةٍ فِي يَدِ الْمُأْمُونِ. إِنَّنَا نَمِيلُ إِلَى أَنَّ الشَّاعِرَ أَرَادَ أَنْ يَرِيبَ بِدَايَةِ مَأْسَاةِ بَنِي عَامِرٍ بِنَهَائِثِهَا. فَجَمَعَ بِذَلِكَ بَيْنَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ وَالْمَاضِي الْبَعِيدِ. فَمَا أَصَابَ هَذِهِ الْعَائِلَةَ فِي بِلَنْسِيَّةٍ هُوَ صُورَةٌ مُصَغَّرَةٌ لِمَا أَصَابَهَا فِي قَرِطَبَةِ زَمَنِ الْفِتْنَةِ الْكُبْرَى، فَأَضَاعَتْ بِذَلِكَ طَرِيفَ مَجْدِهَا وَتَلِيدِهِ. وَهُمْ وَإِنْ بَقُوا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فَهُمْ أَجْسَامٌ بَلَا أَرْوَاحَ كَالْمَنَازِلِ الْخَالِيَةِ وَالْأَرْبَعِ الدِّرَاسَةِ بَلَا سَاكِنٍ وَلَا أَهْلٍ، تُوْحِي بِحَيَاةٍ كَانَتْ فِيهَا وَانْتَهَتْ. وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ أَرَادَ الْإِتْعَازَ وَالْإِعْتِبَارَ. قَالَ السَّمِيسِرُ:

[المتقارب]^(١)

أَصَابَ الزَّمَانُ بَنِي عَامِرٍ
وَكَانَ الزَّمَانُ بِهِمْ يَفْخَرُ
فَعَادَ نَهَارُهُمْ مُظْلِمًا
وَلَيْلُهُمْ بَعْدُ لَا يُقْمِرُ
وَأَيَّامُهُمْ بَعْدُ لَا تُزْدَهَى
وَصَبَّحَهُمْ ظُلٌّ لَا يُسْفِرُ
أَمَاتَهُمُ الدَّهْرُ قَبْلَ الْمُنُونِ
فَهُمْ مَيِّتُونَ وَلَمْ يُقْبَرُوا
كَأَنَّهُمْ أَرْبَعُ دَارِسَاتٍ
فَمَا لَهُمْ غَيْرَ أَنْ يُذَكَّرُوا
فَأَيْنَ السَّرِيرِ وَأَيْنَ السُّرُورِ
وَأَيْنَ الْقُصُورِ الَّتِي عَمَرُوا؟
فَلَا تَعْجَبَنَّ بِمَا قَدْ تَرَى
فَلَا خَيْرَ فِي كُلِّ مَا تَبْصُرُ

(١) ابن بسام : الذخيرة ١/٢/٨٩-٨٩ .

وَهَوْنٌ عَلَيْكَ كَثِيرَ الْحَيَاةِ فَسُكُونُكَ فِي قَبْرِكَ الْأَكْثَرُ

أما بلاط سرقسطة فقد قام صاحبه أحمد بن سليمان بن هود (المقتدر) بالاستيلاء على دانية حاضرة إقبال الدولة علي بن مجاهد. وكان سقوطها محض الصدفة، لأنه خرج وليس في نيته إلا فتح بعض القلاع على الحدود. فلما وصل إليه -وهو يحاصر دانية- معز الدولة بن علي رسولا عن أبيه للتفاوض، وأنس منه ضعفاً وخوراً (طفق يقرع له عصا الوعيد، ويرمي به مضلات البيد. وهو يقول : أي عمّ، تبلغ رضاك، ومتى اختلفنا عليك أو خالفناك. فقال له ابن هود في ما قال : والله لا أريم العرصه حتى يسهل مرامها ويخلى في يدي زمامها -يعني تلك المعازل- فقال له معز الدولة الجبان الجاهل وظنه يريد دانية: أي عمّ، وأين تنقلنا؟ وإلى من تكلنا؟ ولم يفطن ابن هود لما قصد. وكان إلى جنبه وزيره ابن أحمد فغمز يده وقال له: غرة فاهتبلها وعثرة فلا تقلها، قد ألقى الرجل بيده وخلق بينك وبين بلده. فعمل ابن هود على ذلك^(١).

ومع أن دانية سقطت هكذا غنيمة سهلة ولقمة سائغة في يد ابن هود، فإن أبا الحسن الحصري^(٢) رأى في فتح دانية عملاً حربياً عظيماً، تهيأ له المدوح بعدته وعتاده:
[الوافر]^(٣)

كَذَا تَفْتَضُ أَبْكَارَ الْبِلَادِ
وَلَا مَهْرٌ سِوَى الْبَيْضِ الْحِدَادِ
هَدَيْتِ الْعَسْكَرَ الْجَرَّارَ لَيْلًا
فَأَهْدَيْتِ الظُّبَابَةَ إِلَى الْهَوَادِي
مَلَأْتَ بِهِ الْقَضَاءَ، قَضَاءَ لَيْلٍ
مَحَتَ فِيهِ الظُّبَى شَكْلَ السَّوَادِ

(١) ابن بسام : الذخيرة ٤/١/٨-٣٦٧ .

(٢) أبو الحسن علي بن الغنى الكفيف شاعر القيروان، انتقل إلى الأندلس بعد خرابها توفي ٤٨٨/١٠٩٥ (ابن بسام : الذخيرة ٤/١/٢٤٥).

ولم يولّ المقتدر وجهه إلى دانية جنوباً إلا بعد أن سوّى الوضع في الثغر شمالاً.
فدانية مدينة حصينة ليس من السهل اقتحامها فلا بدّ من التعبئة العامة لها وتوحيد القوى
من أجلها^(١) :

وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا بَعْدَ مَا قَدْ
سَقَيْتَ الثُّغْرَ مِنْ ثُغْرِ الْأَعَادِي
وَكَانَ مَرَامٌ دَانِيَةً عَزِيزًا
فَهَانَ عَلَى الْمُسَوِّمَةِ الْجِيَادِ
فَأَثَرَتِ الْعَوَالِي فِي الْمَعَالِي
وَأَثَرَتِ الصَّلَادُ فِي الصَّلَادِ

والشاعر يرى في عمل الممدوح جهاداً تميّز به وانفرد، فخصته المشيئة الإلهية ببعض
عنايتها^(٢) :

كَأَنَّ سَيُوفَكَ الْأَقْدَارُ تَجْرِي
بِمَا شَاءَ إِلَهُ عَلَى الْعِبَادِ
وَمِنْ لَكَ مَنْ جَنَى ثَمَرَ الْأَمَانِي
وَأَتَى حَقُّهُ يَوْمَ الْحَصَادِ
تَشَاغَلْتَ الْمُلُوكُ بِمَنْ دَهَاها
وَشُغِّلَكَ فِي جِهَاتِكَ بِالْجِهَادِ

تعلّات التعنّن

لقد تجلّى لنا عند استعراضنا للقيمة الإخبارية لهذه المادّة الشعريّة والتعنّن داخل
بلاطات أمراء الطوائف وبين هذه البلاطات، أنّها جاءت في قوالب أدبيّة تقليديّة هي الهجاء
والمدح والفخر. وهو هجاء -في نظرنا- إلى الإجحاف والتجنّي أقرب، وفخر هو بالغرور
والغطرسة أنسب، ومدح هو إلى الإطراء المملّ أميل. ومع ذلك فقد أنشد المنشد، وأعجب

(١) المصدر السابق، ٢٦٤ .

(٢) المصدر السابق.

السَّامِع، فتاه الممدوح عجباً، وضاق صدر المهجور غضباً. ومن الغريب أن انتصاراً في موقعة بسيطة، أو استيلاء على مدينة أو حصن أو قلعة، يصبح في نظر ملوك الطوائف فتحاً بما في هذه الكلمة من شحنات عاطفية ودينية. قال ابن المَعْلَم مخاطباً المعتمد لما استرجع قرطبة: [البسيط]^(١)

فَتَنَحَّ كَمَا وَضَحَ الْإِصْبَاحُ مِنْهُ عَلَى
أَفَاقٍ مُلْكِكَ إِشْشَرَاقٌ وَلَأْلَاءُ

إن كلمة فتح التي تعني نظرياً توسيعاً لدار الإسلام، أصبحت عملياً تعني تخريباً لهذه الدار. ولا يمكن أن يكون هذا الأمر قد غرب عن أذهان هؤلاء الأمراء. فهم على يقين أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم. ومع ذلك تمسكوا بهذه السياسة حوالي ٣/٤ القرن. فما سبب ذلك؟

لقد كنّا عزونا سبب التظاهر بالأبهة لدى ملوك الطوائف إلى ما يسميه علماء النفس بالتعويض. ويبدو لنا هذا التفسير ممكناً أيضاً هنا. فالمجتمع الأندلسي -رعاة ورعية- تعود طيلة القرن ٤/١٠ زمن الناصر الأموي وخاصة المنصور العامري بجو البطولات الخارقة والانتصارات الباهرة. وفجأة وجد نفسه في خضم الصراع الداخلي الذي شتت قواه ومزق أوصاله. ومع أن الروح المحبة للبطولة بقيت متجذرة فيه، فإنه لم يعد بإمكانه - نظراً إلى تغير ميزان القوى لصالح النصارى - تجسيم نماذج حقيقية منها، فسعى إلى تحقيق نماذج وهمية أو مزيفة، يعوّض بها النماذج الحقيقية. فكانت هذه السياسة الانتحارية التي اتبعتها ملوك الطوائف ووجدنا لها صدًى في ما قيل من شعر ترضي النفوس وتستسيغها العقول.

لكن هذه الجولات الدونكيشوتية للملوك الطوائف بعضهم ضد بعض، وإن كانت من الناحية النفسية تملأ فراغاً وترضي طموحاً، فهي تبقى مرفوضة من حيث النظرة الأخلاقية والدينية. ولهذا كان لا بد لها من مبررات من جنس عوامل الرّفْض أي مبررات أخلاقية وأخرى دينية.

وهنا تظهر جلياً قيمة المادة الشعرية، فهي التي تقدم لنا هذه المبررات. فمن حيث النظرة الأخلاقية جاز لبعض ملوك الطوائف أن يناصروا العداء قوما ضربوا عرض الحائط

(١) المصدر السابق : الذخيرة ٢/١/١٢٣ .

بكلّ القيم والمبادئ، وتمسكوا بكلّ ما هو مشين قولاً وفعلاً. وعمدوا إلى طريق المروق والغواية فسلكوه. قال ابن درّاج في المنذر بن يحيى:

[الوافر]^(١)

عَجِبْتُ لِمَارِقٍ يَعْصِيكَ جَهْلًا
وَقَدْ سَبَقَتْ إِلَيْهِ لَكَ الْأَيَْادِي

وقال ابن زيدون مخاطباً المعتضد:

[الطويل]^(٢)

وَنَهَجُكَ سُبُلَ الرُّشْدِ فِي قَمْعٍ مِّنْ غَوَى
وَعَدْلُكَ فِي اسْتِنْصَالٍ مِّنْ جَارٍ وَاعْتَدَى

وكان الغرور واللؤم سمة من سماتهم قال ابن درّاج:

[الكامل]^(٣)

لَمْ يَعْزُبُوا الْأَصْنَامَ إِلَّا أَنَّهُمْ
عَبَدُوا الْغُرُورَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ

وقال ابن زيدون:

[الطويل]^(٤)

فَإِنْ يَكْفُرُوا النُّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ
بِسَيْفِكَ قَاعٌ صَفْصَفُ الرِّسْمِ تُنْسَفُ

وكان الغدر والنفاق والخيانة مبدءاً من مبادئهم لا يحدون عنه. قال ابن

[الطويل]^(٥)

عَدْرَتُمْ فَكَانَ الْغَدْرُ مِنْكُمْ سَجِيَّةً
فَتَى الْعِلْمِ وَالْمَجْدِ التَّلِيدِ الْمُؤْتَلِّ

وقال ابن زيدون:

[الكامل]^(٦)

(١) ديوان ابن درّاج، ٤١٢ .

(٢) ديوان ابن زيدون، ٩٩ .

(٣) ديوان ابن درّاج، ٩٧ .

(٤) ديوان ابن زيدون، ١١٤ .

(٥) الأديب أبو عامر بن الأصيلي كان -حسب الذخيرة- جوابة آفاق، وناظماً وناثراً باتفاق (ابن بسام : الذخيرة ٣/٢/٨٥٧).

(٦) المصدر السابق، ٨٦٧ .

(٧) ديوان ابن زيدون، ١٦٠ .

وَاحْسِمِ بِسَيْفِكَ دَاءَ كُلِّ مُنَافِقٍ
يُبْدِي الْجَمِيلَ وَضِدَّ ذَلِكَ يَخْتُمُ

وقال ابن عمّار: [الكامل]^(١)

نُكْتُ الْيَمِينَ وَجَارَ عَنْ سُنَنِ التُّقَى
وَقَضَى عَلَى الْإِقْبَالِ بِالْإِدْبَارِ

وقال ابن حصن: [الطويل]^(٢)

بِهِ دَمَّرَ الرَّحْمَانُ دُمَّرَ وَأُطْوَى
بَنُو يَفْرُنْ أَعْدَى الْأَعَادَى وَأَمْرَقُ
وَمِنْ آلِ يُرْنِيَّانَ أَنْكُثُ أُمَّةٍ
لِعَهْدٍ وَمِيثَاقٍ وَأَغْوَى وَأَفْسَقُ

وأما من حيث النظرة الدينية فهناك الإشارة إلى الفئة الباغية وهي الفئة التي جاء
النص صريحاً بوجوب قتالها . قال تعالى (فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)^(٣).

لقد وسم أغلب الشعراء الفئة التي تقابل المدح بهذه السمة. قال ابن درّاج:

[الطويل]^(٤)

وَأَعَصَمَ بِالْإِشْرَاقِ قَائِدُ بَغْيِهَا
إِلَى مَلِكِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ عَاصِمُهُ

وقال ابن المعلم: [البسيط]^(٥)

مَدُّوا إِلَيْكَ أَكْفَ الْبَغْيِ فَأَنْجَذَمَتْ
وَقَدْ خَلَتْ مِنْهُمْ بِالسَّيْفِ أَقْفَاءُ

(١) ابن الأبار : الحلة ٢/١٥٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ٢/١٧٩ .

(٣) ٩م الحجرات ٤٩ .

(٤) ديوان ابن درّاج : ١٦٥ .

وقال ابن الباجي: [الطويل]^(١)

فُتُّوحُ يَمُوتُ الْحَاسِدُونَ شَجًّا لَهَا
فَلَيْتَ حَلِيفَ الْبَغْيِ يَحْيَا فَيُخْبِرُ

وقال ابن زيدون: [الكامل]^(٢)

قُلْ لِلْبُغَاةِ الْمُتْبِضِينَ قِسِيَّهِمْ
سَتَرُونَ مَنْ تَصْمِيهِ تِلْكَ الْأَسْمُ

والفئة الباغية -كما نلاحظ- غير محددة عند أغلب الشعراء، أمّا عند ابن عمّار فهذه الفئة هي من الخوارج. ولقد كنّا أشرنا سابقا إلى أنّ هناك من البربر من كان ينتمي فعلاً إلى بعض الفرق المتطرفة من هذا المذهب كالإباضية. قال ابن عمّار: [المتقارب]^(٣):

تُعَاطَى الْخَوَارِجُ حَتَّى بَرَزَتْ
تُقَوُّمٌ مِنْ خَدِّهَا مَا صَعَرَ

ويخطو بعض الشعراء خطوة أخرى، فيجعلهم ممّن تنكّروا للإسلام قلباً وقالباً. وهذه درجة أقوى في تبرير الفتك بهم. فالبغي لا يخرج الفرد أو الطائفة عن الإسلام: قال ابن المعلّم: [البسيط]^(٤)

قَوْمٌ هُمْ نَبَذُوا الْإِسْلَامَ قَاطِبَةً
عَنْهُمْ كَمَا نَبَذَ الْأَمْوَاتُ أَحْيَاءُ

ويأتي ابن عمّار كعادته فيسمّي الأشياء بأسمائها. فهؤلاء هم من اليهود ديناً وإن كانوا من البربر جنساً: [الكامل]^(٥):

شَقِيتُ بِسَيْفِكَ أُمَّةً لَمْ تَعْتَقِدْ
إِلَّا الْيَهُودَ وَإِنْ تَسَمَّتْ بِرَبْرًا

(١) ابن سعيد : المغرب ١/٤٠٥ .

(٢) ديوان ابن زيدون : ١٦٢ .

(٣) الفتوح : القلائد ١٠٠ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ٢/١٢٠ .

(٥) صلاح خالص : محمد بن عمار، ص ١٩٣ .

[الطويل]^(١)

وقال:

يَهُودًا وَكَأَنَّتْ بَرَبْرًا فَأَنْتَضَ الظُّبَى
وَأَنْبِئْتُهُمْ مِنْهَا بِالسُّنَّةِ لُدَّ

فهل كانت هناك فعلاً طائفة من البربر في ذلك العهد تعتنق الديانة اليهودية في الأندلس أو أن الشاعر أراد أن يشير إلى ما كان عليه بعضهم من اليهودية سابقا في عهد الكاهنة مثلاً؟.

يغلب على الظن أن الأمر لا يعدو أن يكون إشارة، فيها كثير من المبالغة، من ابن عمّار -وهو عدو لدود للبربر- إلى سيطرة اليهود المطلقة على دواليب الدولة في مملكة بني زيري، حتى كأن البلاد أصبحت بأكملها بلادهم والدولة دولتهم، وكلّ الناس رعاياهم. لقد ذكر الإلبيري لباديس أن سيطرة اليهود جلبت له مقت الناس جميعا في الدّاخل والخارج. قال مخاطبه:

[المتقارب]^(٢)

وَكَيْفَ تُحِبُّ فِرَاحَ الزَّنَا
وَهُمْ بَغَضُوكَ إِلَى الْعَالَمِينَ

وأكد المعتضد - بعد استيلاء المعتمد على مالقة - على هذه السيطرة المطلقة لليهود بالمدينة، حتى لقد أصبح القرآن ذليلاً وأصبحت التّوراة -مع تحريفها- مكرّمة:

[الوافر]^(٣)

وَتَوْرَاةٌ مُحَرَّقَةٌ أُعْزَّتْ
فَطَالَتْ ذُلَّةُ السَّبْعِ الْمَنَانِي

فهان المسلمون وعزّ اليهود^(٤):

وَكَانَ ذُوُّ الْهُدَى مَا بَيْنَ نَّارٍ
قَتِيلٍ أَوْ قَقِيدٍ الْعَقْلِ فَنَانٍ

(١) نفس المرجع، ص ١٩٧ .

(٢) ديوان الإلبيري، ٩٧ .

(٣) ديوان المعتضد، ٢٠١ .

(٤) المصدر نفسه، ٢٠٢ .

مُذِ افْتَرَنْتَ بِبَرِّهِمْ يَهُودُ
أَبَاحَ حُسَامُهُمْ حُسْنَ الْقِرَانِ

وبدخول المنقذ المدينة قلبت الأحوال رأساً على عقب. قال المعتضد^(١):

فَعَادَ الْبِرُّ مَعْمُورَ الْمَغَانِي
وَأَضَ الْفِسْقُ مَهْدُومَ الْمَبَانِي
وَقَامَ إِمَامٌ جَامِعِهِمْ يُصَلِّي
وَأَنْسَتِ الْمَسَامِعُ بِالْأَذَانِ

وهكذا يصبح أمر الاستيلاء على مالقة واجباً مقدساً، وحقّ للمعتضد أنذاك أن يدّعي أنه يقوم بفرضة الجاهد: [الوافر]^(٢)

عَتَادِي أَجْرُ مَا أُولِيَتْ فِيهِمْ
مِنَ الْفَتَكَاتِ بِكَرٍ أَوْ عَوَانِ
وَحَسْبِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَوْتُ
يَكُونُ ثَوَابُهُ خُلْدَ الْجِنَانِ

البعد النفسي خلال عهد الطوائف :

ومن خلال هذه المبررات الأخلاقية والدينية، تجلّت لنا بعض الأمراض النفسية أصبح المجتمع الأندلسي بكل طبقاته يعانيتها. (لقد سادت ذلك العصر كلّ روح من البذخ المسرف والإجرام السّافر، من المطامع والنزوات)^(٣). وكانت الحياة التي يعيشها ملوكهم في قصورهم مقامة أساساً على المتع وخاصة المتعة الجنسية، فانعكس كل ذلك على نشاطهم السياسي وأعمالهم العسكرية، فالمدن تصبح حسانا يغرين بما أوتين من فتنة وجمال هؤلاء الأمراء. قال ابن القصيرة: [الطويل]^(٤)

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٧٨ .

وَيَا شَدَّ مَا أَغْرَتْهُ قُرْطُبَةُ وَقَدْ
أَبْشَرَتْهَا خَيْلُنَا فَكَانَ لَكَ الدُّرُّ(*)

وحصار المدينة يصبح طريقة لطلب يد الحبيبة الحسنة، وعسر الاستيلاء عليها هو علامة على رفضها، وفتحها هو دليل على رضاها. قال المعتمد:

[البسيط]^(١)

خَطَبْتُ قُرْطُبَةَ الْحَسَنَاءِ إِذْ مَنَعَتْ
مَنْ جَاءَ يَخْطُبُهَا بِالْبَيْضِ وَالْأَسَلِ
وَكَمْ غَدَتْ عَاطِلًا حَتَّى عَرَضَتْ لَهَا
فَأَصْبَحَتْ فِي سُرَى الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ
عَرَسُ الْمُلُوكِ لَنَا مِنْ قَصْرِهَا عُرْسُ
كُلِّ الْمُلُوكِ بِهِ فِي مَاتَمِ الْوَجَلِ

ولا يتراءى لأبي الحسن علي بن عبد الغني الحصري في مخيلته لتصوّر دخول ابن هود إلى دانية إلا العملية الجنسية. فقال:

[الطويل]^(٢)

كَذَا تَفْتَضُ أَبْكَارَ الْبِلَادِ
وَلَا مَهْرٌ سِوَى الْبَيْضِ الْحِدَادِ

ونفس هذه اللغة نجدها عند ابن عمار لتصوير دخول المعتضد إلى قرمونة. قال:

[الطويل]^(٣)

هَنِيئًا بِبِكْرِ فِي الْفُتُوحِ نَكَحَتْهَا
وَمَا قَبِضَتْ غَيْرَ الْمَنِيَّةِ فِي النَّقْدِ

ومما يدل على أن هذه التعبيرات الجنسية ليست مقتصرة على طبقة الخاصة، وإنما هي متداولة حتى في الأوساط الشعبية، أنه لما استولى المقتدر بن هود على مدينة دانية من

(١) ديوان المعتمد : ١٠٥-٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ٤/١/٢٤٥ .

(٣) الفتح : القلائد ١٠٠ .

إقبال الدولة سنة ١٠٧٥/٤٦٨ ظهرت أغنية شعبية في كلمات أعجمية مزدوجة معناها : (ما أحرق هذا وأهوجه عجز عن الأيم ونكح المروجة)^(١). وهم يشيرون بالأيم إلى بلنسية وبالمروجة إلى دانية. وفي ذلك تحريض -بتعبير جنسي- حتى يستولي المخاطب على بلنسية فهي امرأة بدون زوج يسهل الحصول عليها.

وانتقل هذا التعبير من المجتمع الأندلسي الإسلامي إلى المجتمع الأندلسي النصراني. وأصبح من التعبيرات الشائعة التي يحلو لرواة الأساطير استعمالها (من هذا ما نراه في القصة الشعبية التي تدور حول شخصية أسطورية اسم صاحبها ابن عمّار، وفيها نقراً: (وهنا تحدث الملك الدون خوان، استمعوا جيداً إلى ما قال : إن أردت يا غرناطة تزوجتك وأعطيتك صداقاً قرطبة وإشبيلية، فقالت : إنني متزوجة أيها الملك الدون خوان، متزوجة، ولست بأرملة. إن العربي الذي يحورني يحبني حباً عظيماً)^(٢).

والتعبير -كما قيل- صورة عن الواقع الذي نشأ فيه. والمجتمع الأندلسي -كغيره من المجتمعات الإسلامية- بالغ فعلاً في جعل الرباط بين المرأة والرجل من الأمور التي يمكن أن تعقد وتحل بسهولة، خاصة مع الرجل وما ملكت يمينه، لأن أساس هذا الرباط هو المتعة ولا شيء غيرها، فانعكس كل هذا على سلوك هؤلاء الملوك وتصرفاتهم الشخصية والرسمية. فهم لا ينشدون من وراء حروبهم، بالدرجة الأولى، إلا نشوة هي أقرب ما تكون إلى المتعة الجنسية، ويقف الأمر عند هذا الحد لانعدام البرنامج السياسي الكفيل بتوظيف تلك الانتصارات حتى تحقق غايات معينة.

ومع طغيان ظاهرة الجنس في المجتمع الأندلسي، برزت آفة أخرى هي نتيجة حتمية أو تكاد لتلك الاصطدامات الدموية. إنها القسوة التي أصبحت سمة العصر.

صحيح أن القسوة هي طابع القرون الوسطى، سواء في بلاد الإسلام أو في بلاد

(١) ابن بسام : الذخيرة ٣/١/٤٢ .

(٢) أنجل جنثال بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٩٩ .

النَّصَارَى. لَكِنَّهَا كَانَتْ تَأْخُذُ أَبْعَادًا جَدِيدَةً مِنَ التَّشْفِيِّ وَالْإِنْتِقَامِ عِنْدَمَا يَحْتَدِمُ الصَّرَاعُ دَاخِلَ الْمَجْتَمَعِ الْوَاحِدِ. الْمُؤَرِّخُونَ مِثْلًا الَّذِينَ تَتَّبَعُوا عَنْ كُتُبِ سِيرَةِ بَادِيس^(١) وَالْمَعْتَصِد^(٢) - وَهُمَا نُمُودَجَانِ لِلْمُلُوكِ الطَّوَائِفِ فِي الْقَسْوَةِ وَالْجَرَاءِ عَلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ - لَمْ يَطْلُقُوا عَلَيْهِمَا تِلْكَ النُّعُوتَ جَزَافًا فَهَنَّاكَ مَا يَبْرُرُهَا. وَلَقَدْ اِنْعَكَسَتْ تِلْكَ الظَّاهِرَةُ عَلَى مَا كَانَ يَنْشُدُهُ لَهُمُ الشُّعْرَاءُ إِثْرَ تَشْفِيهِهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ. قَالَ ابْنُ اللَّبَّانَةِ فِي مَصْلُوبَيْنِ:

[الطويل]^(٣)

مَلَأَتْ جُدُوعَ النُّخْلِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحَتْ
بِهِمْ كَرِحَالٍ شُدَّ مِنْ فَوْقِهَا قِتْبُ

ويشير ابن المعلّم إلى الرؤوس المعلقة: [البسيط]^(٤)

أَبْنَاءُ دَايَّةٍ مِنْ مَقْطُوفِ هَامِهِمْ
عَلَى الْجُدُوعِ لَهَا وَقْعٌ وَإِقْعَاءُ

وقال ابن درّاج في ثائر ضدّ ابن يحيى: [الطويل]^(٥)

وَعَدَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ مُدَامَةً
فَبَرَّحَ فِي الْأَعْدَاءِ عَمَنْ يُنَادِمُهُ

ويشير الإلبيري على باديس بكلّ بساطة في فتنة غرناطة: [المتقارب]^(٦)

فَبَبَادِرٍ إِلَى ذُبْحِهِ قُرْبَةً
وَضَحٍّ بِهِ فَهُوَ كَبِشٍ سَمِينٍ

وَحَتَّى لَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْفِظَاعَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَادِيَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، وَأَنَّ التَّقْدِمَ الْبَشَرِيَّ الَّذِي أَحْرَزَتْ عَلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ خِلَالَ النَّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنَا نَقْسُو فِي حُكْمِنَا عَلَى تِلْكَ الْمَجْتَمَعَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ نَلَاظِحَ أَنَّ بَعْضَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ

(١) أنظر ما قاله فيه الفتح بن خاقان في القلائد ٢٠٠ / .

(٢) أنظر ما قاله فيه ابن بسام في الذخيرة ٢٥ / ٢ / .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ٦٧٠ / ٢ / ٣ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ١٢٠ / ١ / ٢ .

(٥) ديوان ابن درّاج : ١٦٤ .

(٦) ديوان الإلبيري : ٩٩ .

كان يتشقى من أعدائه بطريقة تدلّ على حالة مرضيّة لا شكّ فيها. فقد كان المعتضد مثلاً يتمتع برؤية رؤوس أعدائه. ووصل به الشّدوذ إلى أنّه كان يحتفظ بها على شكل أصص للأزهار يرصفها في حديقة قصره. وكان يأمر بإحضارها كلّما لعبت الخمرة بعقله^(١). ويبدو أنّ المهدي -مشعل الفتنة الكبرى- (قد سبق المعتضد إلى اتّخاذ مثل هذه الحديقة المطلّعة لرؤوس أعدائه، فغرس منها فوق الخشب المعلّية لها بشطّ النّهر حداء قصره حديقة هول عريضة طويلة الخطّ، جمّة عدد الصّفوف المسطّورة فأضحت شغلاً للنّظارة)^(٢).

ورغم ما في هذا المنظر المزعج من هول فقد وجد المهدي ثمّ بعده المعتضد من الشّعراء من يشاطرهما -حقيقة أو تملّقاً- تلك النّشوة الغريبة الدّالة لا محالة على شذوذ. قال صاعد البغدادي^(٣):

جاءَ العَيْنُ مُبْهَجَةُ النُّفُوسِ
حَدَائِقُ أَطْلَعَتْ تَمَرِ الرُّؤُوسِ
هَنَّاكَ إِلَهَ مَهْدِيٍّ الْمَسَاعِي
جَنَى الْهَامَاتِ مِنْ تِلْكَ الْغُرُوسِ
فَلَمْ أَرْ قَبْلَهَا وَحْشًا جَمِيلًا
كَرِيهَ رُؤَايِهِ أُنْسُ الْأَنْبِيَسِ
فَمَاذَا يَمْلَأُ الْأَسْمَاعَ مِنْهَا
إِذَا مُلِئَتْ مِنْ أَنْبَاءِ الطُّرُوسِ؟

ولم يكتف المعتضد بذلك بل كانت له زيادة على الحديقة السّابقة (خزانة -أكرم لديه من خزانة جوهر- في جوف قصره أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه)^(٤). وهذا يبدو

(١) ابن بسام : الذّخيرة ٢/٢٧ .

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه : الذّخيرة ٤/١/٨، سها إحسان عباس فذكر أن صاعد البغدادي قال مقطوعته في حديقة المعتضد والصحيح كما جاء في الذّخيرة أنها قيلت في حديقة المهدي مؤجج نار الفتنة الكبرى (انظر الخطأ في دراسات في الأدب الأندلسي لإحسان عباس ووداد القاضي وألبير مطلق ص ٧-١٦).

(٤) ابن بسام، الذّخيرة ٢/١/٢٧ .

(٥) ابن الأبار، الحلة ٢/٥٠ .

جلياً في قوله لما استولى على رندة: [مجزوء الوافر]^(١)

لَقَدْ حُصِّلْتُ يَا رُنْدَةَ
فَصِرْتُ لِمَلِكِنَا عِقْدَةَ
فَكَمْ مِنْ عُدَّةٍ قَتَلْتُ
تُ مِنْهُمْ بَعْدَهَا عُدَّةُ
نَظَّمْتُ رُؤُوسَهُمْ عِقْدًا
فَحَلَّتْ لَبَّةُ السُّدَّةِ

لقد نظم جماجم الأعداء عقداً وزين بها سدة قصره كما زين الحسناء لبثها وهي موضع القلادة من صدرها^(٢).

والمادة الشعرية التي بين أيدينا قد توحى بشذوذ أكبر خطراً وأشدّ هولاً. فهناك بعض الأمثلة يقتزن فيها الجنس بالقسوة. قال ابن حمديس يمدح المعتمد:

[الطويل]^(٣)

عَلَى الْكُرْهِ حَتَّى كَانَ صَارِمُكَ الْفَحْلَا
وَمَا وَلِدَتْ سُودُ الْمَنَايَا وَحُمُرَهَا

وقال يمدح ابنه الرشيد عبيد الله بن المعتمد:

[السريع]^(٤)

تَمْهَرُ أَرْوَاحَ الْعِدَى بِيَضُهُ
إِذَا أَرَادَتْ مِنْ حُرُوبٍ نِكَاحُ

ونشوة الانتصار التي تصبح كالمثعة الجنسية كما رأينا سابقاً، لا تبلغ ذروتها إلا في أجواء الألم والعذاب، كحالات السادية لا تحلو فيها المثعة الجنسية إلا والضحية في بركة من الدماء. فمتمعة المعتمد بعروسه قرطبة لا تكتمل إلا إذا كان غيره من الملوك الذين حكموا قرطبة أو أرادوا الاستيلاء عليها يعيشون آنذاك أجواء الماتم والأحزان قال:

(١) عبد المجيد عابدين : دراسة تحليلية نقدية لنماذج من الشعر الأندلسي، ص ٦٠ .

(٢) ديوان ابن حمديس : ٣٧٧ .

(٣) المصدر نفسه، ٩١ .

(٤) ديوان المعتمد، ١٠٦ .

[البسيط]^(٤)

عُرْسُ الْمُلُوكِ لَنَا فِي قَصْرِهَا عُرْسٌ
كُلُّ الْمُلُوكِ بِهِ فِي مَاتَمِ الْوَجَلِ

والمهر الذي يقدمه صاحب إشبيلية للمدن الأبيكار التي يتزوجها هو الموت. قال ابن عمّار:

[الطويل]^(١)

هَنِيئًا بِبِكْرِ فِي الْفُتُوحِ نَكَحْتَهَا
وَمَا قَبِضْتُ غَيْرَ الْمَنِيَّةِ فِي النَّقْدِ

فإذا كانت متزوجة بدأ الممدوح بإرمالها، وفي ذلك إشارة إلى إزالة الحاجز -وهو الزوج- الذي يقف حجر عثرة أمام الغريزة، ثم يشعلها ناراً. قال ابن عمّار :

[الطويل]^(٢)

فَأَرْمَلَهَا بِالسَّيْفِ ثُمَّ أَعَارَهَا
مِنَ النَّارِ أَتُوبَ الْحِدَادِ عَلَى الْفَقْدِ

وفي رؤيته لها وهي تحترق بألسنة اللهب الحمراء صورة نموذجية للضحية التي تتخبط في دماغها.

النقد السياسي زمن ملوك الطوائف :

إنّ النماذج الشعرية التي كنّا بصدد تحليلها والتي رأينا في بعضها تبريراً للفتن وفي الأخرى شذوذاً في السلوك لا تعني أبداً أنّ الشعراء كانوا جميعاً على وتيرة واحدة في مساندة هؤلاء الملوك بالحق أو الباطل. فهناك من وقف يندد بجرائمهم ويكشف سوءاتهم، لكن مع إقرار بحرج الموقف لأنّهم في عصر تمكّن فيه حكامه من غلق الأفواه وقطع الألسن ترغيباً وترهييباً. فكان الشاعر بين أمرين لا حظاً له فيهما كهذه الضفدعة التي جاءت في قول بعض أهل الأدب بقرطبة:

[السريع]^(٣)

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْنِي

(١) الفتح : القلائد ١٠٠ .

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الحميدي : الجذوة (الترجمة عدد ٨٢٨).

كَضِرْفُودَعٍ فِي وَسْطِ الْيَمِّ
إِنْ هِيَ قَالَتْ مَلَأْتُ حَلْقَهَا
أَوْ سَكَتَتْ مَاتَتْ مِنَ الْغَمِّ

ومع ذلك فقد ساعد عاملان -هما إمكانية الفرار من بلاط إلى آخر، وسوء العلاقة بين ملوك الطوائف -بعض الشعراء على أن يتجزؤوا وينقدوا وكان نقدم على ضربين :

- الأول له منطلقات ذاتية ومساس بحياة الشاعر ومشاكله الشخصية. والأمثلة على ذلك كثيرة كالحاجة المادية التي أنطقت أبا عامر محمد بن الأصيلي^(١) بهجاء فيه كثير من الاقذاع. وهذا النوع يخرج عن نطاق هذه الدراسة.

- الثاني وله منطلقات سياسية، فقد يعبر الشاعر عن موقف ما من سيرة أحد ملوك الطوائف أو سياسته. فهذا ابن زيدون مثلاً لا يتمالك عن الفرح والسرور لموت طاغية إشبيلية المعتضد. قال:

لَقَدْ سَرَّنِي أَنَّ النَّعِيَّ مُوَكَّلٌ
بِطَاغِيَةٍ قَدْ حُمَّ مِنْهُ حِمَامٌ
تَجَانِبَ صَوْبِ الْغَيْثِ عَنْ ذَلِكَ الصَّدَى
وَمَرَّ عَلَيْهِ الْمُرْنُ وَهُوَ جَهَامٌ

ويبدو أن السَّميسر كان معارضاً لباديس في سياسته التي تقوم على الاستعانة بغير المسلمين، لتولي المناصب الكبرى في الدولة، وخاصة منصب الوزارة. فقد شنع بباديس لما أسند الوزارة إلى نصراني بعد موت وزيره اليهودي، وهو أمر من الناحية التاريخية انفرد السلفى به، وأيده السَّميسر بقوله:

[مجزوء الخفيف]^(٢)

كُلُّ يَوْمٍ إِلَى وَرَا

(١) الإصفهاني : الخريدة ٢/٣٠٨ .

(٢) ابن الأبار : الحلة ٢/٤٣ .

(٣) إحسان عباس : أخبار وتراجم أندلسية، ص ٨٤ .

بُدِّلَ الْبَبُولُ بِالْخَرَا
فَزَمَانًا تَهَوُّدًا
وَزَمَانًا تَنْصُرًا
وَسَيَصْبُو إِلَى الْمَجُورِ
سِإِنْ الشَّيْخُ عَمْرًا

وسخر السَّميسر كذلك من ابن بلقين عندما قام بتحسين قلعة غرناطة ورأى في ذلك دليلاً على خوفه وجبنه. وهو وإن وفّر لنفسه الأمن والحماية، فإنّ ذلك هو نفسه الذي سيورده في النّهاية موارد الهلاك. قال السَّميسر:

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا
كَأَنَّهُ دُودَةُ الْحَرِيرِ

وهجا ابن غصن الحجاري المأمون بن ذي النون لإصراره على ضمّ وادي الحجارّة إلى مملكة طليطلة:

تَلَقَّبْتَ بِالْمَأْمُونِ ظُلُمًا، وَإِنِّي
لَأَمِنْ كَلْبًا حَيْثُ لَسْتُ مُؤْمِنُهُ
حَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُودَ بِبِشْرِهِ
وَأَمَّا النَّدَى فَاُنْدُبْ هُنَاكَ مَذْقَنُهُ
سُطُورُ الْمَخَازِي دُونَ أَبْوَابِ قَصْرِهِ
بِحُجَابِهِ لِقَاصِدِينَ مُعْنُونُهُ

وسخر ابن خيرة القرطبي المعروف بالمنفقل^(٣) من جهران بن يحيى^(٤) صاحب لبلة

(١) المقرئ : النَّفَح ٣/٤١٢ .

(٢) ابن بسام : الذَّخِيرَة ١/٢/٧٦١ تعليق عدد ٢ .

(٣) الأديب أبو حامد عبد العزيز بن خيرة القرطبي من أعلام شعراء البيرة في مدة ملوك الطوائف (ابن سعيد : المغرب ٢/٩٩).

(٤) المصدر نفسه ٤-٣٦٣ .

لسوء سلوكه. قال: [الكامل]^(٥)

إِنَّ ابْنَ يَحْيَى ضَحَكَةٌ فَتَوَسَّم
وَإِذْ كُرِّبَ بِهِ خُدَّامُ نَارِ جَهَنَّمَ
أَكَلَ الْخَبِيثَ فَشَعَرُهُ مَتَسَاقَطٌ
كَالْكَلْبِ اسْقَطَ شَعْرَهُ لَعَقُ الدَّمِ

وقد يقف الشاعر من حزب معين موقف الهزاء والسخرية للتقليل من شأنه خاصة إذا كان هذا الحزب يمثل كتلة سياسية وعسكرية لها وزنها وخطرها. قال السَّمِيسِر في البربر: [البسيط]^(١)

رَأَيْتُ أَدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ
أَبَا الْبَرِّيَّةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا
أَنَّ الْبَرَائِرَ نَسْلٌ مِنْكَ قَالَ : إِذْنُ
حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا

أو يقف من جماعة موقف التنديد بها والتخريض عليها. كقول ابن الجدي^(٢) في اليهود: [الوافر]^(٣)

نَحَكَمَتِ الْيَهُودُ عَلَى الْفُرُوجِ
وَتَاهَتْ بِالْبِغَالِ وَبِالسُّرُوجِ
وَقَامَتُ دَوْلَةُ الْأَنْدَالِ فِينَا
وَصَارَ الْحُكْمُ فِينَا لِلْعُلُوجِ
فَقُلْ لِلْأَعْوَرِ الدَّجَالُ هَذَا
زَمَانُكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلَى الْخُرُوجِ

ولا نعدم بعض المقطوعات التي يعبر فيها الشاعر عن موقف الرِّفْض لكامل نظم الحكم

(١) المقرئ : النَّفَح ٣/٤١٢ .

(٢) الوزير الكاتب أبو الحسين يوسف بن محمد بن الجدي، ينتمي إلى عائلة من الأعيان، استكتبه الوزير أبو بكر بن عمار أيام حربه بمرسية (ابن بسام : الذخيرة ٢/٥٥٦).

(٣) ابن بسام: الذخيرة ٢/٥٦٢.

التي كانت موجودة زمن ملوك الطوائف. لقد انساق هؤلاء في مجون لا يحدّ ولهو لا ينتهي أفقدهم الوعي بكلّ ماهو خطر وخطير حولهم. وتركاهم أشبه بحيوانات ضخمة الجثة قويّة الغريزة ولكنها قليلة النفع عديمة التمييز. قال ابن الجدّ مشيراً إلى ملوك الطوائف:

[البسيط]^(١)

وَكَيْفَ يَشْعُرُ مَنْ فِي كَفِّهِ قَدَحٌ
يَحْدُو بِهِ مُلْهِيَاهُ : النَّايُ وَالْوَتَرُ
صَمَتٌ مَسَامِعُهُ مِنْ غَيْرِ نَعْمَتِهِ
مِمَّا تَمُرُّ بِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ
تَلْقَاهُ كَالْفَحْلِ مَعْبُودًا بِمَجْلِسِهِ
لَهُ خُورٌ وَلَكِنْ حَشْوُهُ خُورُ

لقد أفلست سياسة هؤلاء الملوك في الدّاخل فانعدم الأمل فيهم والرّجاء. قال السّمسير:

[الوافر]^(٢)

رَجَوْنَاكُمْ فَمَا أَنْصَفْتُمُونَا
وَأَمَّلْنَاكُمْ فَخَذَلْتُمُونَا

وأفلست سياستهم في الخارج. لقد خانوا قضيّة الإسلام الأولى بتناحرهم الدّخلي فمكّنوا العدوّ النّصراني في أرضه بما كانوا يدفعونه له من إتاوات وضرائب. قال ابن الخطيب:

[الرجز]^(٣)

حَتَّى إِذَا أَقْضَى إِلَى فَسَادُ
أَمْرُ مُلُوكِ هَذِهِ الْبِلَادِ
وَأَلْفُوا الرَّاحَةَ وَالْبِطَالَهَ

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ٢٤٢ .

(٢) ابن بسام : الذّخيرة ١/٢/٨٨٥ .

(٣) ابن الخطيب : رقم الحل، ص ٥٠ .

أَلَتْ بِهِمْ لِشُرْكَ تِلْكَ الْحَالَةَ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمْوَالُ
وَعُظِّمَتْ لَدَيْهِمُ الْأَمْوَالُ^(١)

ولهذا كان القيام على هؤلاء الملوك واجباً تبرره مخازيهم في الدّاخل والخارج. قال
السّميسر:

[مجزوء الكامل]^(٢)

وَجَبَ الْقِيَامُ عَلَيْهِمْ
إِذْ بِالْأَنْصَارِ قُمْتُمْ
لَا تَنْكُرُوا شِقَّ الْعَصَا
فَعَصَا النَّبِيِّ شَقَّ قُنُومُ



(١) كرّر نفس المعنى في المصدر السابق، ص ٤٧ .

(٢) ابن بسام : الدّخيرة ١/٢/٨٨٥ .

محطة الحرب الصراع بين الهلال والصليب

"ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى، والفتنة بين أمراء الأندلس قبّحهم الله تستعر إلى أن كلب العدو على جميعهم ومل من أخذ الجزية ولم يقنع إلا بأخذ البلاد وانتزاعها من أيدي المسلمين"

ابن عذاري : البيان المغرب ٣/٢٣٩

عندما اندلعت الفتنة الكبرى الأولى بقرطبة في نهاية القرن ١٠/٤، واستفحلت طيلة الربع الأول من القرن ١١/٥، لم تحاول الممالك النصرانية في الشمال - لأسباب متعددة- استغلال الفرصة للنيل من دولة الإسلام بالأندلس بصفة علنية. بل عملت على تأجيج نار الفتنة بين الأطراف المتنازعة بمد يد المساعدة بصفة علنية لمن يطلبها منهم مقابل ما يقع التنازل لها عنه من بعض الحصون والقلاع في الثغور الإسلامية المتقدمة. وقد رأينا، ومن خلال المادة الشعرية، سقوط بعض قادتها الكبار على أرض المعركة وهي تحارب مع هذا الطرف أو ذاك.

ولا شك أن مشاركة النصارى مع بعض الأطراف المتنازعة في الفتنة الكبرى الأولى كشفت لهم النقاب، وقد احتكوا بالمجتمع الأندلسي احتكاكاً مباشراً، عن حقائق أذهلتهم. فالرعب الذي قذفه ابن أبي عامر في قلوبهم إثر غزواته الموفقة طيلة ربع قرن على أراضيهم، جعلهم يعتقدون أن الجيش القرطبي هو جيش لا يقهر. فلما شاركوا في معارك

هذه الفتنة تبين لهم أنهم واهمون وأن المجتمع الأندلسي -وقد أعوزته القيادة- أضحى عديم العقل والشجاعة والدين^(١).

هذه الحقيقة هي أكبر كسب نفسي خرج به هؤلاء النصارى من الفتنة الكبرى. فلما تفتتت الوحدة الأندلسية، وتمخضت الفتنة عن دويلات صغيرة متناحرة، شعر هؤلاء النصارى أن زمن المنصور بن أبي عامر، بقوة الضاربة، قد ولى وانقضى. ولم يعد يواجههم في صراعهم مع المسلمين إلا دويلات هي مثلهم (في بعض الأحيان) أو أقل منهم (في أغلب الأوقات) من حيث الاستعدادان العسكري والنفسي.

أ- مملكة سرقسطة والناظر :

إن الناظر في خريطة شبه الجزيرة الإيبيرية، السياسية والجغرافية في النصف الأول من القرن ١١/٥، يلاحظ أن دول الطوائف بشمالها كانت معرضة أكثر من غيرها لخطر الأطماع النصرانية، وفي مقدمة هذه الدول مملكة سرقسطة في الثغر الأعلى، بموقعها الدقيق الخطر بين ثلاث دول نصرانية هي: قطلونية من الشرق ونبارة من الشمال وقشتالة من الجنوب والغرب^(٢).

وكان من الطبيعي أن تتجه إليها أنظار أصحاب الطموح من ملوك النصارى، لكن اختلافهم فيما بينهم كان من العوامل التي ساعدت التجيبيين حكام سرقسطة، أن يفرضوا وجودهم، ولو إلى حين، في ذلك الثغر النائي.

ومن حسن حظنا أن قذفت محن الفتنة الكبرى ونوائبها بشاعر مثل ابن درّاج إلى بلاط سرقسطة في بداية القرن ١١/٥، فكان ديوانه خير معين لنا لتحسّس صدق العلاقات التي كانت قائمة بين هذه الدولة الإسلامية وجيرانها النصارى، وأغفل بعض جزئياتها المؤرخون :

(١) ابن عذاري : البيان ٣/٩/٨٩ .

ب - حروب أمرائها مع النصارى :

- مقتل يحيى بن عبد الرحمان التجيبي: ومن هذه الجزئيات التي تلقي بعض الأضواء على تاريخ الثغر الأعلى ما أشار إليه ابن دراج من مقتل حاكم هذا الثغر في بداية القرن ٥/١١، وهو يحيى بن عبد الرحمان التجيبي^(١)، وهذا ما لم تذكره المصادر التاريخية، فقد اكتفت بالقول : إنه كان من الفرسان غير النابهين^(٢) وإنه توفي سنة ٤٠٨/١٠١٧^(٣)، فخلفه ابنه المنذر. أمّا ابن درّاج فقد ذكر في إحدى قصائده التي مدح فيها هذا الابن أنّ يحيى سقط شهيداً، وأنّ المدوح، مهما كانت نكايته في ملوك النصارى العظام وقوادهم الكبار، لن يستوفي حقّه منهم. وهذه النكاية هي أبعد ما تكون عن أن تعتبر أخذاً بثأر الفقيه العظيم. قال ابن درّاج يخاطب المنذر بن يحيى:

[المتقارب]^(٤)

وَلَوْ شِئْتَ سَيْفَكَ فِي صَدْرِ كِسْرَى
وَقَيْصَرَ بَيْنَ الطُّلَى وَالْوَرِيدِ
لَمَا نِلْتَ حَقَّكَ سَعِيًّا وَهَدِيًّا
وَلَا بَعْضَ ثَأْرِ أَبِيكَ الشَّهِيدِ

- حروب المنذر بن يحيى مع النصارى: لكن يجب أن نعترف أن هذه المادة الشعرية، وإن عوّضت نسبياً المادة التاريخية، فهي تبقى على جانب كبير من الغموض، لأنّ ابن درّاج، شأنه شأن كل الشعراء يلمح إلى الأحداث. وليس دائماً ممكناً أن نصل إلى تفسير تلك التلميحات، ووضع ما تشير إليه من أحداث في إطارها التاريخي.

(١) كرر محقق ديوان ابن درّاج في الصفحة ١٨٢ أن يحيى -والد المنذر مؤسس إمارة التجبيين بالثغر الأعلى- هو يحيى بن مطرف بن عبد العزيز، وهذا خلط لأنّ يحيى بن مطرف قتل سنة ٣٩٠/٩٩٩ في إحدى غزوات المنصور بن أبي عامر مع النصارى. وكان من قواده. أما يحيى المقصود في ديوان ابن درّاج. فقد قتل سنة ٤٠٨/١٠١٧. وهو يحيى بن عبد الرحمان. ويرى عنان في دول الطوائف ص ٢٦٦ ول. بروفنسال في تاريخ اسبانيا ٢/٢٣٢ أنه يحيى بن عبد الرحمان التجيبي قتل المنصور في سنة ٣٧٩/٩٨٩.

(٢) ابن عذاري : البيان ٣/١٧٦.

(٣) عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ٢٦٦.

(٤) ديوان ابن درّاج : ص ١٨٥.

ومع ذلك، فإنّ المتمعّن في بعض القصائد التي قالها ابن درّاج في أمير سرقسطة المنذر بن يحيى (٤٠٨/١٠١٧-٤١٤/١٠٢٣) يلاحظ أنّ سياسته تجاه جيرانه النصارى كانت تقوم على مظهرين أساسيين:

المهادنة: حاول من خلالها هذا الأمير أن يخلق جوّاً من التّعايش السّلمي بين المسلمين والنّصارى، ولو كان ذلك على حساب إثارة غضب قسم من رعيّته ممّن غابت عنهم ما كان يصبو إليه أميرهم من أهداف بعيدة. فقد نظّم المنذر في قصره بسرقسطة حفلاً لعقد المصاهرة بين أميرين من أمراء النّصارى وهما :

- ابن فرذلند : وهو شانجة بن غرسية بن فرذلند ملك قشتالة : Garcés III sancho

-وابن رايمن : وهو رايمند بن برييل قومس برشلونة عاصمة قطلونية

.Ramon Borrel III:

على أساس أن يزوّج قومس برشلونه ابنه ووليّ عهده برنجار بن رايمند: Berenguer Ramon بابنة قومس قشتالة المعروفة باسم شانجة Sancha وذلك سنة ٤٠٨/١٠١٧^(١).

ولا شك أنّ ابن درّاج، وقد عاش في بلاط قرطبة زمن العامريين، تذكّر دور الحكم الذي كان يقوم به المنصور بن أبي عامر في الربع الثاني من القرن ٤/١٠ بين ملوك النصارى، بعد أن فلّ جموعهم، وخضد شوكتهم فجنحوا للسلم والمهادنة فأراد أن يسقط هذا الدور على ممدوحه صاحب سرقسطة فهذه المصاهرة التي عقدها المنذر، هي مظهر من مظاهر خضوع هؤلاء الملوك والأمراء لمشيئته وحكمه. وهم لم يلتجئوا إليها إلا بعد أن أجبروا في ميدان الجلاء والنضال على ذلك، ورأوا أنّ طاقة لهم بالممدوح، فجنحوا للسلم متيقنين أنّه سيكون خير حكم لحسم ما يعرض بينهم من خلافات. وما عقد هذه المصاهرة

(١) المصدر السابق، ص ١٢٤ .

-والمنذر شاهدها- إلا دليل حاسم على ثقتهم به، وبرهان قاطع على النية في إحلال السلام والوثام بينهم محل القطيعة والصدام. قال ابن دراج:

[الكامل]^(١)

جَاهَرْتَ حُرَّ بِلَادِهِمْ بِجِهَادِهِمْ
حَتَّى غَدَوْا وَهُمْ لَهَا أَسْرَارُ
وَسَرَيْتَ حَتَّى ظَنَّ مَنْ صَبَّحَتْهُ
أَنَّ الظَّلَامَ عَلَى سُرَاكَ نَهَارُ
وَلَكَمْ أَطَارَهُمْ لِسَيْفِكَ بَارِقُ
حَتَّى دَعَوْتَهُمُ إِلَيْكَ فَطَارُوا
وَجَنَحْتَ لِلْسَّلْمِ الَّتِي جَنَحُوا لَهَا
وَقَضَاءُ رَبِّكَ فِي الْعِبَادِ خِيَارُ
فَأَتَوْكَ مُسْتَبِقِينَ قَدْ قَرُبَ الْمَدَى
مِنْهُمْ إِلَيْكَ وَذُلَّ الْمِضْمَارُ
آيَاتُ نَحْرٍ فِي الْوَرَى بِسُيُوفِهَا
أَمِنَ الْهُدَاةُ وَأَمِنَ الْكُفَّارُ

ولقد كانت هذه المصاهرة التي شهدها الرهبان والأخبار عقداً كفيلاً بإلقاء السكينة في النفوس، والطمأنينة في القلوب، فسكنت الهواجس، وانجلت المخاوف^(٢):

فَهُنَاكَ أَخْلِصْتَ النُّفُوسَ وَأَكْدَتَ
عُقْدَ الْعُهُودِ وَشَدَّتِ الْأَنْصَارُ
وَتَوَاصَلَ الْبُعْدَاءُ مِنْكَ بِطَاعَةٍ
وُصِلَتْ بِهَا الْأَرْحَامُ وَالْأَصْهَارُ
فَعَقَدْتَ فِي عُنُقِ الضَّلَالِ مَوَاقِفًا
دَانَتْ بِهَا الرُّهْبَانُ وَالْأَخْبَارُ

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٨ .

وَكَأَنَّمَا كَانَتْ عُقُودَ تَمَائِمٍ
سَكَنْتَ بِهَا الْأَوْجَالَ وَالْأُدْعَارُ
ثُمَّ أَنْتَنُوا يَبْأُونُ مِنْكَ بِطَاعَةَ
رَقَعُوا بِهَا أَعْلَامَهُمْ وَأَنَارُوا

وهذه السياسة -كما ذكرنا سابقاً- لم تعجب أهل سرقسطة. فقد رأوا فيها صلحاً بين الأعداء يزدادون به اتحاداً وقوة، وبالتالي خطراً عليهم. وحاول ابن درّاج -كعادته- أن يبرّر موقف ممدوحه التجيبي فأشار في إحدى قصائده المدحية إلى أن السياسة المتبعة في معاملة العدو ليست غاية في حدّ ذاتها، والمهمّ هو النتيجة التي تتمخض عنها فإذا كانت سياسة القوة والمجابهة قد تخضد من شوكة العدو، فإن سياسة السلم والمهادنة قد تجعله تابعا للمدوح وصنيعة له. وفي نطاق هذا النّظر البعيد والرؤية المستقبلية يجب فهم موقف الممدوح من عقد هذه المصاهرة بين النصارى. قال الشاعر مبرزاً هذه الثنائية التي أقام عليها المنذر بن يحيى سياسته إزاء جيرانه النصارى:

[الطويل]^(١)

عَلَى أَنْ بَعْضَ الْعَفْوِ قَتْلٌ وَمَغْنَمٌ
وَمَا رَدَّ رِبْحَ الْمُلْكِ فِي الْحَرْبِ حَازِمٌ
فَإِنْ قَتِيلَ السَّيْفِ لِلذَّيْبِ مَطْعَمٌ
وَإِنْ قَتِيلَ الْعَفْوِ لِلْمُلْكِ خَادِمٌ
فَيَا لِبُرُوقٍ لَمْ يَزَلْنَ صَوَاعِقًا
عَلَى الْكُفْرِ غَيْثُ الْأَمْنِ مِنْهُنَّ سَاجِمٌ
تُقَطِّعُ بِالْأَمْسِ الرُّقَابَ وَوَصَّلَتْ
بِهَا الْيَوْمَ أَرْحَامَ لَهُمْ وَمَحَارِمُ
غَدَتْ وَهِيَ أَغْرَاسُ لَهُمْ وَعَرَائِسُ
وَبِالْأَمْسِ مَوْتُ فِيهِمْ وَمَاتِمٌ
بِعَقْدِ بِنَاءٍ أَنْتَ شِدْتَ بِنَاءَهُ
وَلَيْسَ لَهُ فِي الْأَرْضِ غَيْرَكَ هَادِمٌ

(١) ديوان ابن درّاج، ص ١٣٤ .

فِرْنَجَةُ أَعْلَاهُ وَقَشْتَلُ أُسُهُ^(١)
وَسَلْمُكَ أَرْكَانُ لَهُ وَدَعَائِمُ

وكما لم تعجب هذه السياسة رعية المنذر، فهي لم ترق بعض ملوك النصارى الأقوياء، ممن كانت له أطماع في أراضي غيره. فإذا كانت هذه المصاهرة أمنية تحققت بالنسبة إلى هؤلاء الأمراء المتصاهرين، فهي بالنسبة إلى ابن شنج-ملك نبارة^(٢) - منية لأنها تقف حجر عثرة في سبيل تحقيق مطامعه التوسعية. وهذا ما لم تشر إليه بتفصيل شاف مصادر التاريخ الإسباني . قال ابن دراج^(٣):

مَنْ كَانَ فِيهَا لِابْنِ شَنْجٍ مَنِيَّةٌ
يُغْرِغُ مِنْهَا رَاهِقُ الرُّوحِ كَاضِمٌ

إن موقف ابن شنج المعادي لهذه المصاهرة قد يمكّننا من الافتراض أن المنصور التجيبي أراد بواسطته تلك أن يخلق بين بعض أمراء النصرانية تحالفا يستطيعون به الوقوف أمام أطماع ملك نبارة القوي. ومما يرجح هذا الافتراض -حسب المادة الشعرية- أن هؤلاء الأمراء كانوا عادة ما يهرعون إلى صاحب سرقسطة للاستنجاد بد ضدّ عدوهم القوي. وكان التجيبي لا يألو جهداً في إعانتهم باعتبارهم يمثلون -ولو بطريقة غير مباشرة- درعاً واقياً لإمارته من ناحية، وعاملاً في استقرار التعادل في ميزان القوى بمنطقة الثغر الأعلى من جهة ثانية. وابن دراج ذكر لنا ثلاثة من هؤلاء المستنجدين وهم: ابن رذمير، وفرذلند، وابن ميرو.

أمّا الأوّل فهو ملك ليون المعروف بألفنسو النبيل^(٤) Alfonso el Noble وأمّا الثاني فرجّ محقّق ديوان ابن درّاج أنه أحد الأمراء -بدون تحديد- المستقلّين ببعض الإمارات المسيحية الصغيرة المحيطة بمملكة نبارة، وكان لابن شنج -سانشو الأكبر Sancho Garcés أطماع فيها .

(١) يشير ابن درّاج في هذا الصدد إلى كون الذكر في هذا الصهر الذي أتمّ عقده الممدوح من (فرنجة) ويعني الأندلسيون بهذه الكلمة في الغالب نصارى إمارة برشلونة. أما الأنثى فكانت من قشتالة (المصدر نفسه، ص ١٣٤ تعليق عدد ٣).

(٢) حكم مملكة نبارة Navarra بيت سنتي ٣٩١/١٠٠٠-٤٢٧/١٠٣٥، ديوان ابن درّاج، ص ١٢٢ تعليق عدد ١).

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٥ .

(٤) حكم مملكة ليون بين سنتي ٩٩٩/٣٩٠-١٠٢٧/٤١٨ (المصدر السابق، ص ١٢٧).

ويبدو -من سياق إحدى قصائد ابن درّاج - أنّهما حضرا حفل المصاهرة في قصر المنذر. ولا شك أنّ حضورهما هو نوع من الاحتماء بجاه صاحب سرقسطة ممّن كان يتربّص بهم شرّاً من أبناء دينهم. وهو سياسة منهما لإثبات حقهما في الوجود على رأس إمارتهما وخاصة فردلند منهما. قال ابن درّاج:

[الطويل]^(١)

وَدَنَا ابْنُ رُذَمِيرٍ يُزَلِّزُ خَطْوَهُ
أَمَلُ تَقَسُّمِ نَفْسِهِ وَحِذَارُ
فَقُؤَادِهِ مِنْ دُغْرِ سَيْفِكَ طَائِرُ
طَوْرًا وَمِنْ عَجَلِ إِلَيْكَ مُطَارُ
وَلَقَبْلُ أَيْقَنَ فِرْدَلَنْدُ مَالَهُ
إِلَّا إِلَيْكَ مِنَ الْحِمَامِ فِرَارُ
كُلُّ يَخِرُّ لِأَحْمَصِيكَ وَطَالَمَا
سَامَوْكَ فِي رَهْجِ الْخَمِيسِ فَخَارُوا
أَحْيَيْتَ مِنْهَا^(٢) مُلْكَ رُذَمِيرٍ^(٣) وَقَدْ
مَشَتْ الدُّهُورُ عَلَيْهِ وَالْأَعْصَارُ
وَأَقَمْتَ تَاجَ جَبِينِهِ مِنْ بَعْدِمَا
عَفَّتِ الْمَعَالِمُ مِنْهُ وَالْأَثَارُ

وأما الثالث ابن ميرو فهو على ما رجّحه محقق الديوان - حاكم إمارة صغيرة تدعى بليارش Pallars في المنطقة المتاخمة للشعر الأعلى ولمملكة نبرة. ونسبه الشاعر إلى جدّه ميرو بن ريمند ١ قومس بليارش Regemendo I وكان لابن شنج أطماع في هذه الإمارة

(١) المصدر السابق ص ٨-١٢٧

(٢) الضمير يعود على المصاهرة

(٣) نرجح أنّ رذمير هذا هو نفسه ابن رذمير ولكن الضرورة الشعرية جعلت الشاعر يحذف كلمة (ابن)

(٤) د. ابن درّاج ص ١٦٨ .

الصغيرة. وتمكن بالفعل من الاستحواذ عليها سنة ١٠٢٥/١٦هـ^(٤). ويبدو -حسب المادة الشعرية- أنَّ هذا الأمير كان يقوم بزيارة المنذر التَّجِيبِي مستنجدًا عندما يلوح له الخطر محدقًا به للحيلولة دون وقوع إماراته بين براثن ابن شنج.

ويصف لنا ابن درَّاج هذا الأمير النصراني عند وصوله إلى بلاط سرقسطة في عظمة مركزه، باعتباره سيِّداً وأميراً، ودلَّ موقفه وهو في حالة انكسار واستنجد، يتقاسم نفسه أمل النجاح وخيبة المسعى قائلاً:

[الكامل]^(١)

وَلَيْتُنْ حَمَى عَنْكَ "ابْنُ مِيرٍ" مَحَلَّةً
فِي شَامِخٍ أَعْيَا النُّجُومَ حُلُولُهُ
وَنَمَاهُ مُلْكٌ لَا يُضَعِّعُ تَاجَهُ
وَوَقَاهُ عِزٌّ لَا يُخَافُ خُمُولُهُ
فَلَقَدْ دَعَاكَ إِلَى رِضَاكَ وَدُونَهُ
غَوْلُ الضَّلَالِ حُزُونُهُ وَسُهُولُهُ
فَأَتَاكَ يَا مَنْصُورٌ فَاقْدَ غَمِّهِ
بِرَجَاءٍ مَجْرُورٍ إِلَيْكَ دُيُولُهُ

وقال^(٢):

فَمَشَى إِلَيْكَ بِهِ الزُّحَامُ كَأَنَّهُ
عَانٍ يُقَصِّرُ خَطْوَهُ تَخْبِيلُهُ
مَبْهُورٌ أَنْفَاسِ الْحَيَاةِ كَظِيمُهَا
وَعُضِيضٌ لَحْظِ النَّاطِرِينَ كَلِيلُهُ

ويراعي الممدوح موقف الأمير المستغيث، مهما كانت العداوة بينهما سابقاً، فيبسط له جناح الرحمة، ويرفع بين ناظره لواء الأمان. قال الشَّاعِر^(٣):

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٠-١٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٢-١٧٣.

حَتَّى تَنْفَسَ رُوحَهُ فِي رَاحَةٍ
 عَلَىَاءَ مَقْبُولَا بِهَا تَقْبِيلُهُ
 وَرَفَعْتَ نَاطِرَهُ بِنَظَرَةٍ بَاسِطٍ
 لِلْأَمْنِ مَبْلُوغَا بِهَا تَأْمِيلُهُ
 وَرَأَى صَرِيحَ الْخَطْبِ كَيْفَ ثَقُلُهُ
 وَرَأَى عَثُورَ الْجِدِّ كَيْفَ ثَقِيلُهُ
 وَرَأَى دَلِيلَ الْحَقِّ كَيْفَ تُعِزُّهُ
 وَرَأَى عَزِيزَ الشَّرِّ كَيْفَ تُدِيلُهُ

ولئن لم يحقق المدوح انتصاراً مادياً عسكرياً بسياسته تلك، فقد حقق انتصاراً آخر لا يقل عنه قيمة وهو الانتصار الأدبي. ولننظر كدليل على ذلك إلى هذا الأمير كيف أصبح ينظر إلى قومه بعد أن وقف منه المدوح هذا الموقف^(١):

فَلَهَا بِقَدْرِ الرُّومِ وَهِيَ أَرْوَمُهُ
 وَزَرَى بِمُلْكِ الصَّفَرِ وَهِيَ أَصْوَلُهُ
 لِمَنْ اصْطَفَى قَحْطَانَ عِزَّةً مَلِكُهُ
 وَمِنْ التَّبَابُعِ جِدْعُهُ وَقَبِيلُهُ

وهذا الكسب الأدبي ليس مقتصرًا على شخص المدوح، فهو كسب جماعي للعنصر العربي أمام العناصر الأعجمية:

[الطويل]^(٢)

مَآثِرُ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِنَّ سَابِقُ
 وَلَا رَامَهَا مِنْ قَبْلِ سَعْيِكَ رَائِمُ
 كَسَا الْعَرَبَ الْعَرَبَاءَ مِنْهُمْ مَفْخَرُ
 تُصَلِّبُ مِنْهُ لِلْوُجُوهِ الْأَعَاجِمُ
 وَشَدَّتْ بِهَا فِي الرُّومِ وَالْقُوطِ رِفْعَةٌ
 تُسَامِي بِهَا عِنْدَ السُّهَا وَتُزَاحِمُ

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٥-١٣٦ .

وفي نظر ابن دراج لم يجد ابن شنج، زعيم السياسة العدائية ضد إخوانه وضد المسلمين بدءاً، بعد هذه المواقف، من الخضوع إلى سياسة الممدوح السلمية. فقد أجبر على الاعتراف بالأمر الواقع وتخلّى عن مشاريعه وطموحاته. لكن هذا الموقف من الناحية التاريخية، لئن كان، فهو لمدة وجيزة، فابن شنج لم يتخلّ نهائياً عن سياسته التوسعية:

[الكامل]^(١)

حَتَّ ابْنُ شَنْجٍ يَوْمَ أَمَّكَ خَاضِعاً
تَسْعَى إِلَيْكَ بِهِ نَدَامَةٌ تَائِبٌ
مِنْ بَعْدِ مَا رَأَى الْبِلَادَ فَلَمْ يَجِدْ
فِي الْأَرْضِ عَنْ مَأْوَاكَ مَهْرَبَ هَارِبٍ
وَرَأَى الضَّلَالَ عَلَىكَ أَضْعَفَ نَاصِرٍ
وَرَأَى الْفِرَارَ إِلَيْكَ أَيْمَنَ صَاحِبٍ
وَدَعَاكَ مُعْتَرِفاً بِذَلَّةٍ مُذْنِبٍ
وَأَتَاكَ مُشْتَمِلاً بِلِبْسَةِ رَاهِبٍ

ويتجلى لنا من بعض مظاهر هذه السياسة السلمية، أن العقلية الأندلسية قد تغيّرت في بداية القرن ١١/٥، وتغيّر موقف المسلمين من النصارى. فلم يعد العربي يفكر في المبادرة بالغزو، واكتفى في هذه المرحلة بمحاولة الاحتفاظ بما لديه وحتى وإن أجبر على الحرب وكان النصر حليفه، فهو لم يعد يجرؤ على استغلال ذلك النصر لتحقيق فتوحات جديدة على حساب الأراضي النصرانية، بل نراه يميل إلى تجسيم انتصاراته على أعدائه بضرب أمثلة من نبل الفروسية العربية وسمو الأخلاق الإسلامية.

وعلى عكس من ذلك كانت العقلية النصرانية، فهذه القيم والمبادئ لم تكن لتغيرها اهتماماً. فقد وضعت نصب عينيها هدفاً سياسياً ووطنياً ودينيّاً، وبدأت تسعى، ولو بإمكانيات متواضعة في هذه الفترة، إلى تحقيقه. ولهذا فالتسامح الإسلامي -حسب ابن دراج- كان يقابله الغدر النصراني. وكان العفو العربي يجازى بالنفاق الإسباني. فهذا ابن

(١) المصدر نفسه، ١٤٢.

شنج صاحب بنبلونة وملك نبارة -أشد أمراء النصرانية طموحا وجراً- يقع أسيراً في يد المنذر بن يحيى. ورغم العداوة بينهما فقد أطلق سراحه. فلم ير الملك النصراني في هذا العفو إلا فرصة جديدة أتحت لنصب كمان غدره وبغيه لمملكة سرقسطة. قال ابن دراج:

[الطويل]^(١)

وَكَمْ رَدَّ عَنْ نَفْسِ ابْنِ شَنْجٍ سَهَامَهَا
وَقَدْ أَغْرَقْتَ نَزْعًا وَأَمَكْنَهَا رَمِيَا
طَلِيقُكَ مِنْ كَفِّ الْإِسَارِ وَقَدْ هَوَتْ
بِهِ الرُّقْمُ الرُّقْمَاءُ وَالْمُوَيْدُ الدُّهْيَا
فَحَكَمْتَ فِيهِ حَدَّ سَيْفِكَ فَأَقْتَضَى
وَشَاوَرْتَ فِيهِ الْفَضْلَ فَاسْتَعْجَمَ الْفُتْيَا
فَأَخَّرْتَ عَنْهُ حُكْمَ بَأْسِكَ بِالرَّدَى
وَأَمْضَيْتَ فِيهِ حُكْمَ عَفْوِكَ بِالْبُقْيَا
وَوَقَّيْنَتْهُ حُرَّ الْحِمَامِ لَوْ اتَّقَى
وَزَوَّدَتْهُ بَرْدَ الْحَيَاةِ لَوْ اسْتَحْيَى
فَأَقْلَتَ يَنْزُورُ فِي حَبَائِلِ غَدْرَةٍ
بَأَوْتَ بِهَا عِزًّا وَبَاءَ بِهَا خِرْيَا
فَأَتْبَعْتُهُ تَحْتَ الْعَجَاجَةِ رَايَةً
بَهَرْتَ بِهَا رَأْيًا وَأَعْلَيْتَهَا رَأْيَا
وَجَرَدْتَ سَيْفَ الْحَقِّ مُدْرِعَ الْهُدَى
لِمَنْ سَلَّ سَيْفَ النُّكْثِ وَادَّرَعَ الْبَغْيَا
وَكُلَّ كَمِيٍّ فِي مَنَاطِ نَجَادِهِ
دَوَاءً لِدَاءِ النُّكَثِ إِذَا أَعْيَى
وَإِنْ لَمْ يُفِيقْ دَاءُ ابْنِ شَنْجٍ بِطَبِّهِ
فَقَدْ بَلَغَتْ أَدْوَاؤُهُ النَّارَ وَالْكَيَّا

واستغلَّ النصارى -ولم يحدد الشاعر إلى أي إمارة ينتسبون- مرض المنذر، وعاثوا

(١) المصدر نفسه، ص ٦-١٤٥ .

في أرض مملكته فساداً، فلما برئ من علقته، بادر بإعلان الحرب عليهم، وكلل جهاده بالنصر، ويبدو أنه استولى على بعض حصونهم أو مدنهم، وأسر من كان فيها من أهلها. وإيماننا منه بمثل عليا إسلامية، تخلّى المنذر عن أسراه- رجالاً ونساءً وأطفالاً- إسوة بالرسول في إحدى غزواته ضدّ كفار بني ثقيف بالطائف. فقال ابن دراج:

[الطويل]^(١)

فَوَشَّكَانَ مَا عَادَتْ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً
تَجَلَّتْ بِهَا فِي تَاجِهَا وَشُنُوفِهَا
فَرَدَّتْ عَلَى الْإِسْلَامِ نُورَ عُيُونِهِمْ
وَأَهْدَتْ إِلَى الْأَعْدَاءِ رَغْمَ أُنُوفِهَا
بِكَرْ نَوَاصِي الْخَيْلِ نَحْوَ دِيَارِهَا
تَنْصُ الْمُنَى فِي نَصِّهَا وَوَجِيفِهَا
يَشْبُ سَيْوْفَ الْهِنْدِ نُورُ دَلِيلِهَا
وَيُعْبِي حِسَابَ الْهِنْدِ عَدُّ أُلُوفِهَا
وَإِنْ عَجَبَ يَا مَنْصُورُ^(٢) مِنْهَا فَأُسُوءُ
بَرْدَ جُنُودِ الْمُصْطَفَى عَنْ ثَقِيفِهَا

المجابهة: وهو المظهر الغالب على العلاقات بين سرقسطة وأجوارها النصراني. وما المظهر الأول إلا وقتي حتمته ظروف الدول النصرانية التي كانت بصدد الاستعداد للبدء في حركة الاسترداد ضد الوجود الإسلامي بالأندلس. وكما كان متوقعا كان تصادم بلاط سرقسطة بالدرجة الأولى مع أقوى الدول النصرانية في منطقة الثغر الأعلى وأكثرها أطماعا، وهي مملكة نبرة في عهد شانجة بن غرسية III المعروف بالأكبر El Mayor وقد وصلت هذه المملكة في عهده إلى أوج عظمتها، ويسميه ابن دراج في ديوانه بابن شنج واضطراً ممدوحه المنذر التّجيبّي أن يضرب على هذا الملك النصرانيّ الطموح مراقبة شديدة، فكان يتتبع حركاته باستمرار حتى يحبط في الوقت المناسب، خططه ومشاريعه التوسعية. قال ابن دراج:

(١) المصدر السابق، ص ١٧٥ .

(٢) المنصور : هو المنذر بن يحيى.

(٣) ديوان ابن دراج، ص ١٢٢ .

[البسيط]^(٢)

فَتِلْكَ نَفْسُ (ابْنِ شَنْجٍ) لَا مَالَ لَهَا
مِنْ مِيتَةِ السَّيْفِ أَوْ عَيْشٍ عَلَى نَكَدِهِ
مَا يَرْتَقِي شَرْقًا إِلَّا رَفَعَتْ لَهُ
وَجْهًا مِنَ الرُّوعِ مَرْفُوعًا عَلَى رَصْدِهِ
وَلَا انْتَحَى بَلَدًا إِلَّا قَرَنْتَ بِهِ
هَمًّا يُبَلِّدُهُ عَنْ مُنْتَحَى بَلَدِهِ

ويبدو أن أطماع هذا الملك النصراني اتجهت إلى بعض الإمارات النصرانية الصغيرة المجاورة له، ومن بينها إمارة يسمي ابن دراج صاحبها بفرزلند. فلجأ هذا الأمير إلى صاحب سرقسطة، فوجد من لدنه حماية في كل مرة تحفّ به الأخطار.

ولئن حاول الشاعر أن يظهر ممدوحه بما يقدمه من مساعدة لهذا الأمير على أنه ضرب من شهامة النفس، ونبل الفروسية، فلا شك أن المنذر بن يحيى لم يكن ليواجه أطماع نبارة لو لم ير في طموحه المشط خطرا على مملكته بالدرجة الأولى. قال ابن دراج^(١):

وَقَرْنَلَنْدُ رَدَدَتْ الْمُلْكَ فِي يَدِهِ
وَمَا رَجَا غَيْرَ رَدِّ الرُّوحِ فِي جَسَدِهِ
شِبْلٌ دَعَاكَ لِأُسْدٍ فَوَقَّهْ لِبَدٌ
فَأَفْشَعَتْ عَنْهُ وَالْأَظْفَارُ فِي لِبَدِهِ
وَطَارَ نَحْوَكَ سَبْحًا فِي مَدَامِعِهِ
وَقَدْ تَزَوَّدَ مِلءَ الصَّدْرِ مِنْ زُؤْدِهِ
ثُمَّ انْتَنَى وَمَلُوكُ الشَّرِّكَ أَعْبَدُهُ
إِذْ جَاءَ عَبْدٌ يَدِ الْقَى لَهَا بِيَدِهِ

وهكذا عاد فرزلند متوجًا، ورجع المنذر منتصرًا، وبقي ابن شنج -وقد قلّ جمعه-

(١) المصدر السابق، ص ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق.

مغترباً مشرداً^(٢):

وَقَدْ نَرَكْتَ (ابْنَ شَنْجٍ) قُلٌّ مُعْتَرِكٌ
إِنْ لَمْ يَمُتْ مِنْ ظُبَاهُ مَاتَ مِنْ كَمَدِهِ
مُشَرِّدًا فِي قَوَاصِي الْبَيْدِ مُعْتَرِبًا
وَقَدْ مَلَأَتْ فِجَاجَ الْأَرْضِ مِنْ خُرْدِهِ

ويبدو أن التجيبي كان يقوم، للحد من مشاريع ابن شنج التوسعية، بغزو معاقله وحصونه في أقصى أراضيه، وذلك ليلهيهِ عما يريد تحقيقه على حساب هذه الإمارة أو تلك^(١):

فَتَتُّ مِنْهَا قَوَاصِي مَنَبَلُونَتِهِ^(٢)
بِالْهَدْمِ وَالنَّارِ فَتًا فِي عَضُدِهِ
وَقُدَّتْ مِنْهَا مَطَايَاهُ مُوقَّرَةٌ
بِأَهْلِ كُلِّ رَفِيعِ الْقَدْرِ أَوْ وَلَدِهِ

وهكذا أصبحت مملكة سرقسطة في بداية القرن ١١/٥ تقف حجر عثرة في وجه أهم قوة نصرانية في الثغر الأعلى، مما أدى إلى وقوع بعض المعارك الكبرى بينهما. ويحدثنا ابن دراج عن إحداها كان النصر فيها حليف المنذر بن يحيى، فتغنّى الشاعر بهذا الفتح الذي أذلّ أهل الشرك، وجدع أنفَ مَنْ تغطرس من قواده وجنوده:

[البسيط]^(٣)

فَتَحُّ تَقَدَّمَتْ فِي اسْتِفْتَاكِ مُقْفَلِهِ
بِخَافِقَاتٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ مُبْتَدِرَةٍ
هُوَ الْجِهَادُ الَّذِي بَرَّتْ مَشَاهِدُهُ
فَأَشْهَدْتُهُ الْكَرَامَ الصَّفْوَةَ الْبَرَّةَ
ذَلَّلْتُ فِيهِ حِمَى الْإِشْرَاكِ مُقْتَحِمًا
بِالْخَيْلِ رَائِحَةً فِيهِ وَمُبْتَكِرَةً
فِي كُلِّ ضَاحِيَةٍ أَلْبَسَتْهَا كِسْفًا

(١) المصدر السابق.

(٢) Pamplona بنبلونة عاصمة نبرة. Pampelune مقال . (1) Ei/٣/١٠٩١ كتبه ل. بروفنسال.

غَادَرَتْ شَمْسُ الضُّحَى فِيهِنَّ مُنْعَفِرَةً
وَنَآخِرًا أَمْسٍ فِي الْبَيْدَاءِ مِنْ عِظَمٍ
وَالْيَوْمَ أَصْبَحَ فِيهَا أَعْظَمًا نَخِرَةً

وصُرع في هذه المعركة قائدان كبيران لابن شنج وعلق رأساهما، على عادة القرون الوسطى، على بابين من أبواب سرقسطة يؤديان إلى مدينة طليطلة، نكاية واعتبارا في انتظار رأس كبيرهم ابن شنج نفسه^(١):

رَأْسُ مُطَلٍّ عَلَى بَابِي طَلِيْطَلَةٍ
يُومِي إِلَى الْكُفْرِ: هَذَا مَوْعِدُ الْكَفَرَةِ
وَهَامَةٌ قَدْ قَضَتْ نَحْبَ الْحِمَامِ ضَحَى
وَهَامَةٌ فَوْقَ صَفْحَى (شَنْجُ) مُنْتَظَرَةٍ

وتعمد ابن دراج ذكر اسم أحد القائدين القتيلين وهو لبس^(٢) أي الذئب بالإسبانية. ويرمي الشاعر من وراء ذلك إلى التنويه بالممدوح، فقد مكّنه الله من هذا القائد الذي كان في تسلطه على المسلمين وعدوانه عليهم كالذئب مع فريسته في خبثه وشراسته.

كَمْ مِنْ سَمِيٍّ لَهُ فِيهَا وَذِي نَسَبٍ
لَمْ يَدْخُرْ نَابَهُ عَنْهُ وَلَا ظُفْرَهُ
فَهَلْ لِنَفْسِ ابْنِ شَنْجٍ بَعْدَهَا عَوْضٌ
مِنْ لُبِّ (لُبْسٍ)^(٣) أَوْ مِنْ كَافِرِ الْكَفَرَةِ

ويقدر ما كان فرح المسلمين عظيماً بقتل هذا القائد كان حزن ابن شنج لفقده كبيراً،

(١) المصدر السابق، ص ٤١٨ .

(٢) هذا الاسم مشتق من اللاتينية Lupus وفي الإسبانية الحديثة Lopo ومعناه الذئب (المصدر السابق، ص ٤١٩).

(٣) - لبس = Lopez وهو اسم القائد النصراني. وكان لابن شنج أكثر من قائد يحملون هذا الاسم . وأقربهم - حسب محقق الديوان- إلى أن يكون هو الذي قصده ابن دراج بهذه الإشارة أحد اثنين :
- لبس بن غند شلب Lope Gonzalez وكان حاكماً على مدينة ناجرة Najera في نهاية ق ١٠/٤ وبداية ق ١١/٥ .

- لبس بن شانجة Lope Sanchez وكان من كبار قواد الملك المسيحي بين سنتي ١٠٠٩/٤٠٠ و ١٠٢٠/٤١١، ديوان ابن دراج، ص ٢٠٤ تعليق (١).

(٤) المصدر السابق، ص ٤١٩ .

فقد كان عضده الأيمن في حروبه. فهو سيفه ورمحه، وهو عتاده وذخره. قال ابن درّاج^(٤):

فَإِنْ جَرَى دَمُهُ^(١) فِيهَا^(٢) فَأَطَقَهَا
فَإِنْ نَفْسَ ابْنِ شَنْجٍ مِنْهُ مُسْتَعِرَّةٌ
شَقِيقُ مَفْخَرِهِ، إِنْ قَامَ مُفْتَخِرًا
وَشَقُّ مُهْجَتِهِ إِنْ وَاتِرٌ وَتَرَةً
عَتَادُهُ لِلْوَعَى، إِنْ خَافَ طَارِقَهَا
وَذُخْرُهُ لِمُلْمِ الْخَطْبِ إِنْ حَذِرَهُ
وَسَيْفُهُ وَسَيُوفُ الْهِنْدِ بَارِقَةً
وَرُمَحُهُ وَرِمَاحُ الْخَطِّ مُشْتَجِرَةً

والقائد الثاني لا يقلّ قيمة عن الأول، فهما معا بمنزلة السمع والبصر للملك النصراني، وقد أصبح بفقدهما في عداد الصمّ والعميان، وانهار بذلك صرح آماله وفشلت كل خططه ومشاريعه:

[البسيط]^(٣)

صَبَّوَاهُ فِي حَرْبِهِ أَوْ فِي ضَلَالَتِهِ
قَدْ كَانَ ذَا سَمْعَةٍ فِيهَا وَذَا بَصَرَةٍ

وينساق ابن درّاج وراء هذه المبالغات الشعرية، التي كانت تطرب الممدوح، فتهتز لسماعها أعطافه. فلم يكتف بأن جعل هذا الملك النصراني أعمى وأصمّ لتلك الكارثة التي أصابته بفقد قائديه، بل ذكر انتصارا آخر حققه الممدوح عليه قد أذهب عقله هولاً وأطار نفسه جزعاً:

[الطويل]^(٤)

فَيَا رَبَّ أَنْفٍ لِلنِّفَاقِ جَدَعَتَهُ
بِهَا^(٥) وَابْنُ شَنْجٍ صَاغِرُ الْأَنْفِ رَاغِمُهُ
غَدَاةَ أَطَارِ الْعَقْلِ عَنْهُ وَنَفْسُهُ

(١) أي دم القائد القتيل.

(٢) أي الحروب.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢١ .

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٦ .

(٥) الضمير يعود على سيوف الممدوح.

بِسَيِّفِكَ يَوْمٌ رَأَيْدُ الْهَوْلِ جَائِمَةٌ

- حروب المظفر يحيى بن المنذر (٤١٤/١٠٢٣-٤٢٠/١٠٢٩): وتواصل هذا المظهر العدائي بين سرقسطة وجيرانها مع المظفر يحيى بن المنذر. ووفاء لسياسة تحيّن الفرص، استغلّ النصارى الفترة الانتقالية بين موت المنصور واعتلاء المظفر العرش في بداية العقد الثالث من القرن ٥/١١، فغدروا ببعض الحصون والثغور على الحدود. وكان لبعض الناقمين على المظفر أو الطامعين في عرشه من المسلمين يد في ذلك^(١). فقال ابن دراج يهدد هؤلاء جميعا، ويذكرهم بأن الأتقار تخلفها البدور في تمام ضيائها وكمال رفعتها، والأشبال تخلف الرئبال في عنف انتقامها وعظم بأسها:

[البسيط]^(٢)

وَقُلْ لِمَنْ أَخْلَفْتُهُ الْوَعْدَ غَدَرْتُهُ :
أَنْ يُخْلِفَ الْقَمَرَ الْوَضَّاحَ إِكْمَالُ
وَقُلْ لِمَنْ قَصَّرْتَ بِالْأَسَدِ خِبْرَتُهُ
فَشَكُّ أَنْ يَخْلِفَ الرَّئْبَالَ رِئْبَالُ
صَبْرًا لِمَوْقِعِ أَظْفَارِ الْمُظْفَرِ هَلْ
يُحِيلُهَا عَنْ حَشَاكَ الْيَوْمَ مُحْتَالُ

ويبدو أن الأمير الجديد أراد أن يظهر لأعدائه من النصارى والمسلمين أنه جدير بخلافة والده، فزحف بجنده على (حصون الغدر هذه) وأعادها إلى حوزته، بعد أن أوسع النكاية في أهل الشرك^(٣):

أَبْنَاءُ رَوْعٍ وَأَهْوَالٍ لِمَقْدَمِهِمْ
فِي أَعْيُنِ الْمَوْتِ أَدْعَارٌ وَأَهْوَالُ
تُبَّتْ الْمَوَاقِفُ لَوْ زَالَتْ بِأَرْجُلِهِمْ
تَحْتَ الْعَجَاجِ مَثُونُ الْأَرْضِ مَا زَالُوا
دَعَوْا إِلَيْكَ حُصُونُ الْغَدْرِ فَاسْتَبَقْتُ

(١) لهذا السبب اعتبرنا أن هذه المعارك هي فتن أيضاً لأنّ الشاعر كان يندد وهو يمدح المظفر بفتنتين : فئة البغي، وفئة الشرك.

(٢) ديوان ابن دراج : ٦-٢٩٧ .

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٧ .

مِثْلَ النَّجُومِ عَلَى يَمْنَاكَ تَنْثَالُ
وَالْمَوْتُ قَدْ عَدَّهُمْ أَكْلاً لَهُ فَقَدْتُ
أَعْدَادَهُمْ مِنْ بَنِي الْإِشْرَاكِ أَبْدَالُ

ولما كان ابن شنج أكبر عدو للأب بالأمس، أصبح ألد أعداء ابنه اليوم، فقد استمرت المعارك بين سرقسطة ونبارة، وتردد اسم هذا الملك النصراني مرات عديدة في ديوان ابن دراج عند وصف المعارك بما في ذلك من تنويه بالبطولة وتمجيد للانتصارات، ولكن بدون تحديد للزمان أو المكان^(١).

ومهما كان مقدار الصدق فيما كان ينشده الشاعر لممدوحه من قصائد، فلا يمكن أن نتصور أن يمدحه وقد رجع مهزوما من معركة. ولهذا فإن المادة الشعرية، وإن بالغت في التنويه، فلها منطلق واقعي لا شك. قال ابن دراج في إحدى هذه المعارك التي أعاد بها المظفر إلى أذهان المسلمين صدى انتصارات أبيه الكبرى على هذا العدو الطموح:
[الطويل]^(٢)

تَجَارَةُ غَزْوِ نَقْدُهَا الْبَيْضُ وَالْقَنَّا
قَضَاءُ حُقُوقٍ وَأَقْتِضَاءُ لَأْجَالِ
فَلَيْلَهُ كَمْ أَغْلَيْتَ مِنْ دَمٍ مُسْلِمِ
وَأَرْخَصْتَ فِي أَعْدَائِهِ مِنْ دَمٍ غَالِ
وَأَسْلَمْتَ لِلْإِسْلَامِ فِيهَا بِضَاعَةً
تَعُودُ بِأَضْعَافٍ وَتُوفِي بِأَمْثَالِ
وَحَسْبُكَ فِيهَا بَابُنِ شَنْجٍ وَجُنْدِهِ
مِنْ السَّبَبِيِّ أَبْدَالًا، وَأَيُّهُ أَبْدَالُ !
مَلِيكًا وَمَا يَحْوِي شَرِيَّتَ بَعْضِهِ

(١) وكما اضطر ابن شنج للخضوع للأب خضع للابن. قال ابن دراج (ديوانه ص ٢٠٧) (كامل) :
ولمَّا قَادَ ابْنَ شَنْجٍ نَفْسَهُ وَجُنُودَهُ فِي طَاعَةِ لَكَ قَائِدَهُ

(٢) ديوان ابن دراج، ص ٢٣٥ .

وَأَرْبِحْ بِقِنْطَارٍ يُبَاعُ بِمِثْقَالٍ

ومن أشهر هذه المواقع التي كانت للمظفر على النصارى غزوه لناجرة Najera وهي عاصمة منطقة صغيرة تحمل اسمها ولا يستبعد -حسب ما يمكن أن نستنتجه من كلام ابن الخطيب عنها^(١)- أنها من أرض نبارة أو من أحوازها. وكانت في عهد الدولة الإسلامية في الأندلس ثغراً على جانب كبير من الأهمية^(٢).

ويتضح لنا من خلال المادة الشعرية التي رددت صدى هذا الهجوم أن المدح لم تكن له نية الاستيلاء على هذا الثغر والاحتفاظ به، وإنما غزاه انتقاماً أو ردّاً لغائلة. فقتل الرجال وسبى الحسان وترك الثكالى يندبن قتلاهن، وقد امتلأت قلوبهن هما وغما قال ابن دراج: [الطويل]^(٣)

لَمَعَتْ بِهِ^(٤) فِي جَوْ (نَاجِرٍ) لَمْعَةٌ
ثَنَنْتُ كَبِدَ الشَّيْطَانِ دَامِيَةَ الْجُرْحِ (*)
وَصَبَّحْتُهَا فِي جُنْحِ لَيْلٍ مِنَ الْقَنَّا
أَحَلَّ بِهَا لَيْلَ الْأَسَى مُطْبِقَ الْجُنْحِ

وقال في سبى النساء^(٥):

وَبَيْضَةِ كُفْرِ كَمْ وَكَمْ لَكَ أَسْمَحَتْ
بِبَيْضَةِ خِدْرِ لَا تُوَاتِي يَدَ السَّمْحِ
كَوَاعِبُ إِلَّا أَنْهَنْ كَوَاكِبُ
جَلَوْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا السَّيْفِ وَالرُّمَحِ
فَهَاتِيكَ أُمُّ الْكُفْرِ (نَاجِرٍ) بَعْدَهَا
ظَلَامًا بِلَا نَجْمٍ وَلَيْلًا بِلَا صُبْحِ
لَبِستَ بِهَا ثَوْبَ الْفَخَارِ مُجَدِّدًا

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥.

(٢) ذكر ياقوت في معجمه ط. القاهرة ١٩٠٦ ج ٨/٢٣٥ أنها مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة (ديوان ابن دراج، ص ٢٣٩، تعليق عدد ١).

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(*) هكذا ورد البيت في الأصل، ويلاحظ أن وزن الشطر الأول (الكامل) جاء مغايراً لوزن بقية القصيدة (الطويل).

(٤) الضمير يعود على سيف المدح.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٠-٢٣٩.

وَعَادَرْتَهَا تَلْتَفُّ فِي خَلْقِ الْمِسْحِ
تُبَاكِ صَدَى الْهَامِ الَّتِي تَرَكْتُ بِهَا
سُيُوفُكَ عَنْ ذَاتِ الْمَحَاسِنِ وَالْمِلْحِ
وَعَبْرَةَ تَكَلَّى مَا تُقَلِّبُ نَاطِرًا
إِلَى أَفُقٍ إِلَّا يَقُولُ لَهَا : سُحِّي !

وأهم ما تمتاز به المادة الشعرية عن المصادر التاريخية في هذه الفترة، أنها تمكنا من معرفة بعض الشخصيات الحربية التي أهملها التاريخ، وخلد مآثرها الشعر نظرا إلى ما امتازت به من مواهب وما حققته من بطولات. وفي ديوان ابن دراج نجد إشارة إلى شخصيتين في الثغر الأعلى هما :

أبو مسعود : وهو قائد يبدو أنه ينتمي إلى بني مناد الصنهاجيين من حكام إفريقية فقد قال ابن دراج في مدحه:

[الكامل]^(١)

فَالْجَوُّ مِنْ فَحْوَاهُ مِسْكٌ فَائِجٌ
وَالْأَرْضُ مِنْ يُمْنَاهُ رَوْضٌ يَانِعٌ
مِنْ بَعْدِمَا وَلَدَتْهُ مِنْ صَنْهَاجَةٍ
شِيمٌ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ شَوَافِعُ
فَاسْعُدْ أَبَا مَسْعُودَ بِالْهَمِّ الَّتِي
عَلَيْتَ فَهَنْ إِلَى النُّجُومِ نَوَازِعُ

وأجل ما قام به هذا القائد هو إيقاعه سيده في إحدى المعارك، تضافرت فيها جهود أهل البغي والشرك معا في محاولة جريئة منهما للإطاحة بالمنصور المنذر بن يحيى. قال ابن دراج:

[الطويل]^(٢)

وَجَاءَكَ مَدُّ إِلَهٍ مِنْ كُلِّ نَاصِرٍ
عَلَى الْحَقِّ مَهْدِيَا إِلَيْكَ مَقَادِمُهُ
وَنَادَى أَبُو مَسْعُودِ النَّصْرَ مُسْعِدًا

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٥ .

عَزَائِمَكَ اللَّاتِي تَلِيهَا عَزَائِمُهُ
بِوُدِّ كَمَاءِ الْغَيْثِ يَسْقِي رِيَاضَهُ
وَبَأْسِ كَحَرِّ النَّارِ يُضْرَمُ جَاحِمُهُ

ابن باق: وهو قائد إحدى المعارك التي انتصر فيها المظفر التجيبي على ابن شنج صاحب نبارة. ويبدو أن ابن باق هذا لعب الدور الأكبر في هذا الانتصار. فهو القائد المحنك الذي تمرس بجيوش النصارى عن كتب فخرهم وعرفهم. وهو يجمع مع هذه التجربة الحربية أمانة النفس ونزاهة الضمير، قال ابن دراج يخاطب صاحب سرقسطة:
[الطويل]^(١)

فَأَبَقَ لَهَا^(٢) بَأْسَ ابْنِ بَاقٍ وَنُصْحَهُ
فَمَا لَمَسَ الْجَرَبَاءَ مِثْلُ يَدِ الطَّالِي
وَلَا أَحْصَنَ الْحَرْبَ الْعَوَانَ كَبَعْلِهَا
وَلَا رَاعَ أَسَادًا كَغَاصِبِ أَشْبَالِ
وَلَا سَيِّمًا حُرًّا جَلًّا لَكَ غَيِّمُهُ
نَصِيحَةَ لَا وَانٍ وَأَشْفَاقَ لَا آلِ
بِهَا^(٣) رَدَّ خَيْلَ الْبَغْيِ^(٤) تَدْمَى كُلُّومُهَا
وَقَدْ يَبْسُتُ مِنْ نُصْرَةِ الْعَمِّ وَالْخَالِ
وَأَمَّنْ مِنْ عُدْوَانِهَا كُلِّ خَائِفٍ
وَأَشْكَلَهَا مُسْتَوْدَعَ الْأَهْلِ وَالْمَالِ

وبهذه الخصال، ويكفيه منها البطولة والوفاء، استحق هذا القائد من سيده كل إكرام وتعظيم. قال ابن دراج يخاطب ابن باق:

(١) ديوان ابن دراج، ص ٢٣٧ .

(٢) الضمير يعود على حصون العدو وأسواره.

(٣) الضمير يعود على سرعة القائد المدحوم في نصرته سيده.

(٤) إن كلمة (البغي) التي استعملها الشاعر تفيد أن هذه المعركة التي خاضها ابن باق هي نتيجة لفتنة داخلية. لكن من السياق رجحنا أنها حرب بين المسلمين والمسيحيين، فقد ذكر الشاعر قبل ذلك أعداء المدحوم من النصارى. وذكر اسم ملكهم وهو ابن شنج، ولا ينفي هذا اشتراك بعض المسلمين مع النصارى ضد صاحب سرقسطة.

(٥) ديوان ابن دراج : ص ٧ - ٣٩٦ .

[المتقارب]^(٥)

فَحَلَاكَ إِكْرَامُهُ فِي الْعُيُونِ
لَتَقْدُمَ أَعْلَامُهُ فِي الْحُرُوبِ
وَأَذْكَى سِرَاجِكَ وَسَطَ الْقُصُورِ
لِيُعْلِيَ عَجَاظَكَ خَلْفَ الدُّرُوبِ
حَمَمَيْتَ ذَرَاهُ بِأَنْفِ حَمِيٍّ
وَرَحِبَ ذَرَاهُ بِصَدْرِ رَحِيبِ
وَعَنْهُ تَنَكَّبَتْ قَوْسَ النُّضَالِ
فَرَشَتْ لَهَا كُلَّ سَهْمٍ مُصِيبِ
فَأَوْتَرَتْهَا لِقُلُوبِ الْعُدَاةِ
وَأَغْرَقَتْ^(١) فِيهَا لِرْمَى الْغُيُوبِ

ولئن كانت خصال القائد دعما لسيده وتوطيدا لملكه، فهي في نهاية الأمر دفاع عن الدين. وعز للإسلام:

[الكامل]^(٢)

أَقْدَمْتَ دُونَ مَعَالِمِ الْإِسْلَامِ
فَأَقْدَمَ بِخَيْرِ تَحِيَّةٍ وَسَلَامِ
مُتَقَلِّدًا سَيْفَ الْغَنَاءِ وَقَوْفَهُ
حَلِيَّ الْبَهَاءِ وَحُلَّةَ الْإِعْظَامِ
فَوْرًا بِأَسْنَى الْقِسْمِ مِنْ مَلِكِ حَوَى
مِنْ صِدْقِ سَعْيِكَ أَجْزَلَ الْأَفْسَامِ
فَجَزَاكَ مِنْ كَرَمِ الْقُدُومِ وَقَاءَ مَا
أُبْلَيْتَهُ مِنْ صَادِقِ الْإِقْدَامِ
بِمَوَاقِفٍ لَكَ فِي الْوَعَى سُمْنُ الْعِدَى
طَيْشَ الْعُقُولِ وَزَلَّةَ الْأَقْدَامِ
وَحَمَائِلٍ فِي طَيِّ مَا حَمَلْتَهَا

(١) أغرق النازع في القوس : أي استوفى مدّها.

(٢) ديوان ابن دراج : ص ٤١٤ .

ذُلُّ الضَّلَالِ وَعِزَّةُ الْإِسْلَامِ

- حروب المقتدر بن هود (٤٣٨/١٠٤٦-٤٧٤/١٠٨١): لم يتغير الوضع بمملكة سرقسطة بعد حلول عائلة بني هود محلّ عائلة بني تجيب في حكم الثغر الأعلى. بل يمكن القول إنّ التكالِبَ النصراني قد زاد، ووجد هؤلاء في تعفّن الوضع الداخلي بهذه المملكة وما ينجم عنه من فتن، تشجيعاً لهم على مواصلة سياستهم التوسعية، وواصل حكّام سرقسطة الجدد المنهج الذي رسمه سابقوهم. وهو منهج يعتمد الخطط الدفاعية أساساً. ففي سنة ٤٦٢/١٠٦٩ أجبر المقتدر بن هود على ردّ هجوم قام به ابن رذمير^(١). ولئن نجح المقتدر في فتح أحد حصون العدو بعد ذلك، فإنّ هذا الانتصار لم يكن خروجاً عن السياسة المتبعة. فهذا الحصن المفتوح هو نفسه الحصن الذي بناه الملك النصراني على الحدود، واتخذة نقطة انطلاق لعملياته العسكرية ضد ثغور مملكة سرقسطة. قال ابن الحداد:^(٢)

[الطويل]^(٣)

مَضَاؤُكَ مَضْمُونٌ لَهُ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ
وَسَعْيُكَ مَقْرُونٌ بِهِ الْيَمْنُ وَالنُّجْحُ
إِذَا كَانَ سَعْيُ الْمَرْءِ لِلَّهِ وَحْدَهُ
تَدَانَتْ أَقْصَايِ مَا نَحَاهُ وَمَا يَنْحُو
بِكَ اقْتَدَحَ الْإِسْلَامُ زَنْدَ انْتِصَارِهِ
وَبَيَضُكَ نَارُ شَبَّهَا ذَلِكَ الْقَدْحُ
وَجَلَّى ظَلَامَ الْكُفْرِ مِنْكَ بَغْرَةٌ

(١) نرجّح أن يكون ابن رذمير هذا هو سانشو راميرز بن راميرو: تولى عرش أراجون ونبرة بعد مقتل والده راميرو سنة ٤٥٦/١٠٦٣. وكانت له أطماع لا حد لها في مملكة سرقسطة. توفي وهو يحاصر وشقة سنة ٤٨٧/١٠٩٤ فاستمرّ في متابعة الحصار ولده بيدرو الأول إلى أن استولى عليها سنة ٤٨٩/١٠٩٦. (عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢٨٨، ٤٠٥، ٤٠٦).

(٢) محمد بن أحمد بن الحداد أصله من وادي أش إلا أنّه استوطن المرية أكثر عمره. وفي بني صمداح معظم شعره ومع ذلك طولب عندهم هنالك ولحق ببني هود، له فيهم أيضاً غير ما قصيد. وهو من فحول الشعراء وأفراد البلغاء حسب ابن الأبار، له تأليف في العروض توفي في حدود ٤٨٠/١٠٨٧ بالمرية (ابن سعيد: المغرب ٢/١٤٣- ابن بسام: الذخيرة ١/٢/٦٩١).

(٣) ابن بسام: الذخيرة ١/٢/٧٢٧.

هِيَ الشَّمْسُ وَالْهِنْدِيُّ يَفْقِدُهَا الصُّبْحُ
فَهُمْ ذَهَلُوا عَنْ شَرْعِهِمْ وَحُدُودِهِ
فَقَدْ عَطَلَ الْإِنْجِيلُ وَأَطْرَحَ الْفُصْحُ

وفي عهد المقتدر خرج ابنه يوسف المؤتمن (حكم ما بين ١٠٨١/٤٧٤-١٠٨٤/٤٧٨) إلى الحدود غازياً. وقام ببناء حصن المدور^(١) في نحر العدو، حسب تعبير صاحب الذخيرة^(٢). فقال ابن الحداد، مشيراً إلى أَنَّ السلم المعقودة بين النصارى والمقتدر لا تعني أمناً وسلامة، فما عرف عن هؤلاء من الغدر يجعل من مراقبة الحدود المستعرة وبناء الحصون الحامية أمراً حتمياً: [الطويل]^(٣)

مَسَاعِيكَ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ سِهَامٌ
وَرَأْيِكَ فِي هَامِ الضَّلَالِ حُسَامٌ
وَلَمَحُكَ يُرْدِي الْقِرْنَ وَهُوَ مُدَجَّجٌ
وَذَكَرُكَ يَتْنِي الْجَيْشَ وَهُوَ لَهَامٌ
كَأَنَّكَ لَا تَرْضَى الْبَسِيطَةَ مَنْزِلًا
إِذَا لَمْ يُطَنَّبْهُ عَلَيْكَ قَتَامٌ
كَأَنَّكَ خِلْتَ الشَّمْسَ خَوْدًا فَلَمْ يَزَلْ
يُقَنِّعُهَا بِالنَّفْعِ مِنْكَ لِثَامٌ
وَقَدْ يَحْسِبُونَ السَّلَامَ مِنْكَ سَلَامَةً
وَرُبَّ مَنَامٍ دَبَّ فِيهِ حِمَامٌ

ج- سقوط المدن :

– سقوط بربشتر^(٤) Barbastro سنة ١٠٦٣/٥٦٤: تعتبر مدينة بربشتر من أهم مدن

(١) هو غير حصن المدور الواقع قرب قرطبة أي في الجنوب لأنَّ حصن المدور المعني هنا يقع في الثغر الأعلى أي الشمال انظر بالنسبة إلى الأول (ابن سعيد : المغرب ١/٢٢٢).

(٢) ابن بسام : الذخيرة ١/٢/٨-٧٢٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٢٨ .

(٤) تقع في ناحية وشقة على أحد فروع نهر إبره إلى الشمال الشرقي من سرقسطة (2) Ei/١/١٠٧٢ كتب المقال :

الثغر الأعلى، وهي تابعة لمملكة سرقسطة. وكانت الفتنة بين المقتدر بن هود وأخيه يوسف هي السبب الرئيسي في ترك هذه المدينة تلقى مصيرها المؤلم، إذ اقتحمها عنوة جيش من النورماندين -تسميهم الرواية العربية الأردمليس- نزل من شمال فرنسا في حملة صليبية مبكرة ببلاد الأندلس بتوجيه من البابا اسكندر^(١).

واشتركت المادة الأدبية، نظماً وشعراً، في وصف هذه الكارثة التي حلت بالمسلمين في بداية النصف الثاني من القرن ٥/١١، ويمكن القول إن المنثور منها -على عكس ما تعودناه في الفجائع والمآسي- كان أغزر مادة، وأبلغ تعبيراً وأقوى تأثيراً من المنظوم.

ولقد اتفقت المادتان النثرية والشعرية على أن ما حل بالمسلمين إنما سببه غضب من الله عز وجل لكثرة ما اقترف من ذنوب، وانتهك من حدود. قال ابن عبد البر في رسالة له على لسان أهل بربشتر: "ولولا فرط الذنوب لما كان لريحهم علينا من هبوب"^(٢). وقال ابن عسالة^(٣):
[الكامل]^(٤):

لَوْلَا ذُنُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَأَتَاهُمْ
رَجَبُوا الْكَبَائِرَ مَا لَهْنُ خَفَاءُ
مَا كَانَ يُنْصَرُّ لِلنَّصَارَى قَارِسُ
أَبَدًا عَلَيْهِمْ فَالذُّنُوبُ الدَّاءُ
فَشِرَارُهُمْ لَا يَخْتَفُونَ بِشَرِّهِمْ
وَصَالِحُ مُنْتَحِلِي الصَّلَاحِ رِيَاءُ

وانفردت المادة النثرية بذكر سبب يعتبر تاريخياً هو السبب الأول في سقوط بربشتر: وهو الانشقاق الناجم عن الفتنة بين أفراد عائلة بني هود حكام الثغر الأعلى قال ابن عبد

(١) بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص ٤٧٦ تعليق عدد ٦ وإسكندر الثاني هو بابا روما من ٩٥٣-١٠٧٣/٤٦٦.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٣/١٧٨.

(٣) أبو محمد عبد الله بن فرج اليعصبي المشهور بابن عسالة، كان متفنناً فصيحاً لساناً، وكان الأغلب عليه حفظ الحديث، وكان شاعراً مقلداً توفي ٤٨٧/١٠٩٤ (ابن سعيد المغرب ٢/٢١).

(٤) الحميري: الروض، ص ٤١.

البر: "ولو كان شملنا منتظماً وشعبنا ملتئماً وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم. ولا ذلّ لنا حزب ولا فلّ لنا غرب، ولا روع لنا سرب"^(١) ومن المعلوم أن المقتدر بن هود رفض إنجاز المدينة وهي محاصرة -وكان بإمكانه ذلك- لأن المدينة تابعة لأخيه ومنافسه يوسف.

وانفردت المادة الشعرية بذكر سبب آخر قد يوضح بصفة أكثر عمقاً موقف حكّام الثغر الأعلى الشائن من إنجاز بربشتر. فهناك النزاع بين الأخوين، هذا صحيح، ولكن هناك خوف من ملاقات العدو، وهناك الجبن عن مواجهته، قال ابن عسال:

[الكامل]^(٢)

بَاتَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِرُغْبِهِمْ
فَحُمَاتُنَا فِي حَرْبِهِمْ جُبْنَاءُ

وتضيف المادة النثرية سبباً رابعاً، سنرى شبيهاً له في واقعة بطرنة، هو التهاون المتمثل في تحليل النفس بالباطل والاعتزاز بالزمان والغفلة عن سدّ الثغور^(٣).

ومن خلال المادة الشعرية التي وصلتنا -وهي قليلة نسبياً- ندرك أهم ما تتسم به مثل هذه الحملات الصليبية من عنف وقسوة، وتكالب وإلحاح حتّى يقطعوا كلّ أمل ورجاء لأعدائهم في الغوث والنجدة. قال ابن عسال^(٤):

وَلَقَدْ رَمَانَا الْمُشْرِكُونَ بِأَسْهُمْ
لَمْ تُخْطِ لَكِنْ شَأْنُهَا الصَّمَاءُ
هَتَكُوا بِخَيْلِهِمْ قُصُورَ حَرِيمِهَا
لَمْ يَبْقَ لَا جَبَلٌ وَلَا بَطْحَاءُ
جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ شَعْوَاءُ

ومن الناحية النفسية، وجد الجنود النصاري- بعد أن ألهبت وصايا البابا على

(١) ابن بسام : الذخيرة ٣/١٧٨ .

(٢) الحميري : الروض، ص ٤٠ .

(٣) المقرئ : النَّقْح ٤٥٢/٤ .

(٤) الحميري : الروض، ص ٤٠ .

لسان قساوستهم حماتهم، وأعمى الحقد بصيرتهم- فرصة ليشفوا غليلهم من أعداء دينهم. فنراهم يتنكرون لكل المبادئ والقيم والمثل. فلا الضعيف يُرحم، ولا العرض يُصان، ولا الكرامة تُحفظ، قال ابن عسّال^(١):

كَمْ مَوْضِعٍ غَنِمُوهُ لَمْ يُرَحَّمْ بِهِ
طِفْلٌ وَلَا شَيْخٌ وَلَا عَذْرَاءُ
وَلَكَمْ رَضِيعٌ فَرَّقُوا مِنْ أُمِّهِ
قَلَهُ إِلَيْهَا ضَجَّةٌ وَبَغَاءُ
وَلَرُبُّ مَوْلُودٍ أَبُوهُ مُجَدَّلٌ
فَوْقَ الثُّرَابِ وَقَرْنُهُ الْبَيْدَاءُ
وَمَصُونَةٌ فِي خَدْرِهَا مَحْجُوبَةٌ
قَدْ أَبْرَزُوهَا مَا لَهَا اسْتِخْفَاءُ
وَعَزِيزٌ قَوْمٌ صَارَ فِي أَيْدِيهِمْ
فَعَلَيْهِ بَعْدَ الْعِزَّةِ اسْتِخْذَاءُ

ووصل الأمر بهؤلاء الجنود حسب المادة النثرية إلى أن أصبحوا كالسوائم أو أضل سبيلاً، تقودهم غرائزهم إلى الدرك الأسفل من قذارة النفس وتوحش الطبع فكانوا يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بعين زوجها وأهلها^(٢).

وكان لهذه المأساة صداها في كامل ربوع الأندلس. فتحركت الأقلام تصف هولها وأبعادها. فقد رأى فيها أبو حفص الهوزني^(٣)، وهو يخاطب عبداً -صاحب إشبيلية- دكاً

(١) الحميري : الروض، ص ٤٠-٤١ .

(٢) المقرئ : النَّفْح ٤٥٠/٤ .

(٣) أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني : من إشبيلية، كان صديقاً للمعتضد صاحب إشبيلية رحل إلى المشرق سنة ٤٤٠/١٠٤٨ ثم عاد إلى الأندلس فسكن مرسية. فلما اقتحم الروم بريشتر. خاطب المعتضد برسالة يحثه فيها على الجهاد فراجع المعتضد برسالة يشير عليه فيها بالرجوع إلى بلده. فاغترأ أبو حفص ورجع إلى إشبيلية سنة ٤٥٨/١٠٦٥ فقتله المعتضد بسبب رسالته السابقة التي رأى فيها توريطاً له أو تشنيعاً عليه سنة ٤٦٠/١٠٦٧ (ابن سعيد : المغرب ١/٢٣٤ - ابن بسام الذخيرة ٢/١/٨٣).

(٤) ابن بسام : الذخيرة ٢/١/٨ - ٨٧ .

لصرح الإسلام بهذه الجزيرة قال: [الطويل]^(٤)

أَعْبَادُ، كَلَّا قَدْ عَلَوْتَ فَضَائِلًا
تَقَاصِرَ عَنْهَا كُلُّ أَرْوَغَ مَاجِدٍ
فَقَدْ جَدَّ أَمْرُهُ هَدًى شَرَعَ مُحَمَّدٍ
وَمَا مُخْبِرٌ عَنْ حَالَةٍ مِثْلَ شَاهِدٍ

ولم يكن الهوزني متملقا عندما ناشد المعتضد أن يقوم بواجبه نحو أبناء دينه، فكلّ الناس على يقين أن بلاط إشبيلية هو القادر -في تلك الظروف- بما له من إمكانيات على جبر ما انكسر وسدّ ما انتلم، فقد أصبح بجسم، بالنسبة إليهم، خيط الأمل الذي بقيت نفوسهم متعلقة به. قال نفس الشاعر: [الطويل]^(١)

أَعْبَادُ ضَاقَ الدَّرْعُ وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ
وَلَا غَرْبَ لِلدُّنْيَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ شَرْقُ
وَدُونِكَ قَوْلًا طَالٍ وَهُوَ مُقَصِّرُ
فَلِلْعَيْنِ مَعْنَى لَا يُعْبَرُهُ النُّطْقُ
إِلَيْكَ انْتَهَتْ أَمَالُنَا فَارَمَ مَا دَهَى
بِعَرْمِكَ يَدْمَعُ هَامَةً الْبَاطِلِ الْحَقُّ

والقضية بالنسبة إلى هذا البلاط ليست في جمع الجيوش، فهو قادر على جمعها، وقد فعل ذلك من قبل، قال الهوزني: [الطويل]^(٢)

فَكَمْ مِثْلُهَا جَأَوَاءُ^(٣) نَهْنَهَتْ فَاثْنَتَتْ
وَنَاطِرُهَا مِنْ شِدَّةِ النَّفْعِ أَرَمَدُ
فَمَرَّتْ تُنَادِي الْوَيْلَ لِلْقَادِحِ الصَّفَا
لِبَعْضِ الْقُلُوبِ الصَّخَرُ أَوْ هِيَ أَجَلْدُ
وَأَلَقَتْ نَبَاءً كَاللِّطَائِمِ^(٤) نَشْرُهُ

(١) المصدر السابق، ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الجأواء : الكتيبة التي يعلوها لون السواد لكثرة الدروع.

(٤) وعاء المسك.

تَبِيدُ اللَّيَالِي وَهُوَ غَضٌّ يُجَدِّدُ

وإنما القضية هي أن يهتم صاحب هذا البلاط بما وقع فيخصص له جزءاً من عنايته، ويحاول أن يجد لما حدث علاجاً. قال أبو حفص الهوزني يمدح المعتضد، ولكنه مدح إلى التقريع أقرب، وهو إلى تحميل عبء المسؤولية أنسب

[الطويل]^(١)

أَعْبَادُ جَلِّ الرُّزْءِ، وَالْقَوْمُ هُجَّعٌ
عَلَى حَالَةٍ مَا مِثْلُهَا يُتَوَقَّعُ
فَلَقَّ كِتَابِي مِنْ فَرَاغِكَ سَاعَةً
وَإِنْ طَالَ، فَاَلْمَوْصُوفُ لِلطُّولِ مَوْضِعٌ^(٢)
إِذَا لَمْ أَبْثُ الدَّاءَ رَبُّ نَجَادَةٍ
أَضَعْتُ وَأَهْلُ لِمَلَامِ الْمُضَيِّعِ

وكم كان بودّ الشاعر أن يقع التفكير في المشكل قبل وقوعه، وفي النكبة قبل حلولها فقال لائماً متحسراً:

[الطويل]^(٣)

لِكُلِّ يَبِينِ الرَّأْيِ عِنْدَ وَقَاتِهِ
وَهَلْ مِنْ دَوَاءٍ بَعْدَ نَهْشِ الْأَسَاوِدِ؟

وفعللاً كانت موقعة بطرنة أولاً، وكان سقوط بربشتر ثانياً بمنزلة ناقوس الخطر الذي رنّ في أرجاء الأندلس الإسلامية وسماعته كلّ الأذان. قال الهوزني:

[المديد]^(٤)

بَيَّتِ الشَّرُّ فَلَا يُسْتَنْزَلُ
طَرَقَ النُّوَامُ سَمْعُ أَزَلُ

(١) ابن سعيد : المغرب ١/٢٣٥ .

(٢) ليس غريباً أن يكون هذا البيت هو الذي جعل المعتضد يمقت الشاعر ويتربص به الدوائر إلى أن قتله سنة ٤٦٠/١٠٦٧ .

(٣) ابن بسام : الدّخيرة ٢/١٨٨ .

(٤) المصدر نفسه، ٨٩ .

صَرَّحَ الشَّرُّ فَلَا يُسْتَقَلُّ
إِنْ نَهَلْتُمْ جَاءَكُمْ بَعْدُ عَلُّ

وهذا الشرّ -حسب الشاعر- مازال في بدايته، ومن المتوقع أن يرى القوم منه -لو استمروا على نومهم- أصنافا من الأهوال وضروبا من المآسي^(٥):

نَقَّبُوا فَالِدَاءُ رُزْءٌ يَحُلُّ
وَاعْمِدُوا سَيْفًا عَلَيَكُمْ يُسَلُّ
بَدءٌ صَغَقَ الْأَرْضَ نَشْءٌ وَطَلُّ
وَرِيَّاحٌ ثُمَّ غَمِيمٌ أَبَلُّ

فعليهم أن يغيروا ما طبعوا عليه من ترف الحضارة ولينها، ونعيم الحياة وبذخها، ويعودوا إلى ما كان عليه آبائهم من خشونة في الطبع وشظف في العيش، ليوажوها هذه الجموع النُصرانية التي ما زالت في طور البداوة والتوحش^(١):

فَتَبَّوْا وَاخْشَوْشِيئُوا وَاحْزَلُّوْا
كُلُّ مَا رُزْءٌ سِوَى السَّيِّئِ قُلُّ

وليس هذا بصعب المنال على أناس، كانوا وما بالعهد من قدم، يفوقون أعداءهم عزة وكرامة وبأسا وشجاعة^(٢):

يَدُنَا الْعُلَيَّا وَهُمْ وَيَكْ شَلُّ
فَلِمَ اسْتَرْعَى الْأَعَزُّ الْأَذَلُّ
عَجَبُ الْأَيَّامِ لَيْتَ صُمْلُ
دَعَرَتْهُ نَعَجَةٌ إِذْ تَصِلُ

د- مملكة بطليوس والنصارى :

- سقوط مدينتي مليقة (لاميقو) وبازو (Vizeu): لما انتهى الصراع بين فرناندو الأول

(١) المصدر نفسه، ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٠ .

وإخوته وأصبح هذا الأخير ملكاً على قشتالة وليون المتحدتين، خرج بقواته سنة ١٠٥٧/٤٤٩ إلى أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة بين نهر التاجه ونهر دويره. وكانت هذه الأطراف "تمثل منطقة نائية مجردة من وسائل الدفاع القوية، وكانت قواعدها المنعزلة المستقلة معتمدة في الدفاع عن نفسها... واستولى الملك النصراني على مدينتي بازو ولاميقو الواقعتين في شمال البرتغال واللتين عمرهما المسلمون منذ أيام المنصور بن أبي عامر"^(١).

بدأ فرناندو بمدينة بازو "فضرب حولها الحصار، فدافع عنها أهلها المسلمون أشد دفاع وأعنفه، وأبدى الرماة المسلمون كما أبدوا من قبل أيام أن حاصرها ألفونسو الخامس براعة عظيمة في إصابة العدو، حتى اضطرَّ النَّصارى إلى ارتداء دروع مثلثة واضطر فرناندو إلى إنشاء فرقة من حملة المقاتل، وانتهى القشتاليون بأن اقتحموا المدينة بمنتهى العنف، وأمعنوا في أهلها قتلاً وأسراً. وكان من بين الأسرى ذلك الرامي الماهر الذي أصاب بسهمه المسموم ألفونسو الخامس من قبل ذلك بثلاثين عامًا، فأمر فرناندو به فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه حتى أسلم الروح"^(٢).

ثم "سافر فرناندو ثانية إلى لاميقو الواقعة شمال بازو وكانت حصينة عالية الأسوار، فاقتحمها واستولى عليها بعد ذلك ببضعة أشهر وقتل معظم أهلها وأسره"^(٣) كما فعل بالمدينة السابقة، ولم يحرك ابن الأفطس ساكنا لنجدة المدينتين المنكوبتين يقينا منه من استحالة الدفاع عنهما. كما لم ينبس الكتاب والشعراء ببنت شفة لرتاء المدينتين أو لطلب النجدة لهما.

سقوط قلمرية: Coimbra تقع مدينة قلمرية في شمال غربي البرتغال "على جبل مستدير وعليها سور حصين ولها ثلاثة أبواب وهي في نهاية الحصانة"^(٤).

ومن حيث الإنتاج الفلاحي "هي مدينة -رغم صغرها- عامرة كثيرة الكروم

(١) عبد الله عنان : دول الطوائف ص٦-٨٥

(٢) نفس المرجع، ص ٣٨٣ .

(٣) نفس المرجع.

(٤) أبو عبد الله الحميري : الروض المعطار حَقَّق القسم المتعلق بالأندلس، ل. بروفنسال ونشره تحت عنوان "صفة جزييرة الأندلس" ط. القاهرة ١٩٣٧/١٣٥٦ ص١٦٤ رقم ١١٥ .

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر.

والتفاح"^(٥) ومن حيث المسافات ذكر الحميري أن بين قلمرية وشنترين ثلاث مراحل وبينها وبين البحر اثنا عشر ميلاً"^(٦).

فتح هذه المدينة المنصور بن أبي عامر في إحدى غزوانه سنة ٣٧٥/٩٨٥، واسترجعها فرناندو الأول سنة ٤٥٠/١٠٦٤ بخيانة قائد الحامية "وذلك أن قائدها في هذا الوقت كان عبداً من عبيد ابن الأفطس يسمى رائد فخطب فرناندو (فرناندو I) في السر أن يؤمنه في نفسه وأهله ويخرج إليه من البلد ليلاً فأعطاه اللعين (فرناندو I) الأمان، فخرج اللعين (قائد المدينة) سراً إلى عسكر النصاري وأصبح أهل البلد وقد أخذوا أهبة القتال، فقال لهم النصاري كيف تُقاتلوننا وأميركم عندنا، ولم يكن لأهل المدينة علم بذلك، فلما لم يجدوه وعلموا صحة خبره طلبوا من العليج (فرناندو I) الأمان فلم يجبههم إليه ونفذت أقواتهم، وعلم عدو الله ذلك منهم فجذب في حريهم حتى دخلها عنوة فقتل الرجال وسبى الحريم والذرية... وانصرف رائد غلام ابن الأفطس إلى مولاه فوبّخه على فعله الذميمة ثم أمر بضرب عنقه"^(١).

وعهد فرناندو حكم قلمرية إلى المستعرب سيسنندو دافيدس (في الرواية العربية ششنند) وكان هذا المستعرب قد ربّي بعد أسرهِ في بلاط المعتضد بن عباد. ونظراً إلى مواهبه عينه سفيراً له إلى فرناندو الأول ثم التجأ إلى بلاط قشتالة فقربه فرناندو I لمعرفة الجيدة بلغة العرب وعاداتهم وتقاليدهم. وكان يلقب بالوزير على الطريقة العربية^(٢).

هـ - مملكة بلنسية والنصاري :

– موقعة بطرنة^(٣) سنة ٤٥٦/١٠٦٤^(٤): إذا كانت الحرب في النصف الأول من القرن ٥/١١ سجالات بين المسلمين والنصاري، نظراً إلى ما كانت عليه الممالك النصرانية من

(١) ابن عذاري : البيان ٣/٢٣٩ .

(٢) قيل إنه أصبح حاكماً على طليطلة بعد أن استولى عليها الفنسو السادس وقيل إنه بقي حاكماً لقلمرية إلى أن توفي سنة ٤٨٤/١٠٩١ (عنان، دول الطوائف، ص ٢٨٥).

(٣) بطرنة : Paterna قرية من عمل بلنسية (ابن سعيد : المغرب، ٢/٣٥٥).

(٤) أخذنا في تحديد تاريخ هذه المعركة بما جاء في الأخيرة : ٣/٢/٨٥٥ لأنها أقرب المصادر إلى زمن الحادث تأليفاً.

انقسام، وما شغلت به من حروب داخلية، فإنّ ميزان القوى في النصف الثاني من هذا القرن قد أصبح -من دون أدنى شك- لصالح النصارى وذلك لعدّة أسباب، من أهمها تواصل النزاع على أشده بين ملوك الطوائف.

ولم يمنع خضوع هذه الدويلات لبعض القوى النصرانية وأداء الجزية لها من أن تكون عرضة لحرب استنزاف متواصلة، بسبب أو بدون سبب لمزيد إنهاكها، وتمهيداً للاستيلاء عليها. وقد شجع النصارى على سلوك هذه السياسة ما بلغه المجتمع الأندلسي من ترف حضاري، وما انغمس فيه من حياة ماجنة أخمدا فيه روح الشهامة والشجاعة والرجولة.

وتقوم موقعة بطرنة خير دليل على ذلك. فقد هاجمت قوآت من الروم مدينة بلنسية وأهلها -كما قال ابن حيّان- "ما بين جاهل غرّ، أو مترف مغتر، أو غفل لا خير ولا شر، قد خلوا بشهواتهم، وانخدعوا بإغفاء الدهر عن غراتهم، لا عهد لهم يومئذ بصريع إلا من كأس شمول أو لحظات أعين كحيل، ولا بعان كنيع إلا لعتاب خليل أو إعراض حبيب وصول.." (١). ونظراً إلى ما كانت تتمتع به بلنسية من حصانة عوّل النصارى على الحيلة والغدر "فأظهروا الندم على منازلتها، والضعف عن مقاومة من فيها، وخدعوههم بذلك فانخدعوا وأطمعوههم فطمعوا وكمنوا في عدّة أماكن جماعة من الفرسان. وخرج أهل البلد بثياب زينتهم وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر (٢)، فاستدرجهم العدو -لعنهم الله تعالى- ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر" (٣). ووصف ابن معلى (٤) خروج أهل بلنسية لعدوهم، وقد انطلت عليهم حيلته، فكان ما كان من الفتك الذريع بهم، فقال:

[الكامل] (٥)

(١) ابن بسام : الذخيرة ٣/٢/٨٥٠ .

(٢) لا يمكن أن يكون أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر لأن هذا توفي سنة ٤٥٢/١٠٦٠ فهو حينئذ ابنه عبد الملك الذي حكم إلى ٤٥٧ / ١٠٦٤ .

(٣) المقرئ : النّفح ٤/٤٤٨ .

(٤) أبو إسحاق إبراهيم بن معلى الطرسوني نسبة إلى طرسونة إحدى مدن الثغر. شاعر ممتدّ النفس، شديد المرس، قدّير على التطويل، اشتهر ذكره بمدح ملك الثغر المقتدر بن هود، وجال على بلاد الأندلس. وهو ممن ذكره ابن بسام وقال فيه: قدح البلاغة المعلّى، وسيفها المحلّى (ابن سعيد : المغرب ٢/٤٥٧ - ابن بسام: ض. ٣/٢/٨٤٠ - وعند العماد في الخريدة ٢/١٦٥ نجد اسمه ابن معلى البرياني).

لَيْسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْوَعَى وَلَيْسَتْهُمْ
حُلَلُ الْحَرِيرِ عَلَيْكُمْ أَلْوَانًا
مَا كَانَ أَقْبَحَهُمْ وَأَحْسَنَكُمْ بِهَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ بِبَطْرَنَةِ مَا كَانَا

والبيتان يكشفان عن حقيقة مؤلة بالنسبة إلى المجتمع البلنسي خاصة، والمجتمع الأندلسي عامة. فهو زيادة على ما أصيب به من انحلال، أصبح مجتمعا طفلا، عديم الوعي، حُجبت عنه حياة الترف واللهو^(١) حقيقة وضعه الخطر. قال الجغرافي الأندلسي أحمد بن عمر بن أنس العذري الدلائي^(٢) : "وقد اطّبع مدينة بلنسية بقلّة الهم، لا تكاد ترى فيها أحدا من جميع الطبقات إلّا وهو قليل الهم، مليئا كان أو فقيرا، قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحة والفرح، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلّا وقد اتّخذ عند نفسه مغنيّة أو أكثر من ذلك. وإنّما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني يقولون عند فلان عودان وثلاثة وأربعة أو أكثر من ذلك. وقد أخبرت أنّ مغنيّة بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيّبة وأما دون الألف فكثيرات"^(٣).

وهذه الحقيقة تنطبق على رأس الهرم الاجتماعي وقاعدته، فهذا عبد العزيز بن أبي عامر حاكم بلنسية^(٤) -وابن بسام يحمله مسؤولية ما وقع-^(٥) لم يجد من وقت للاستشارة وطلب النصيحة إلا بعد أن فات أوانها، وعدمت جدواها. فقد ذكر صاحب الذخيرة أنّه كان ينشد وهو بربوة بين لمة من فرسانه، والذعر قد عقد لسانه، والنصارى يعملون السيف في من خرج من أهل بلنسية:

خَلِيلِي لَيْسَ الرَّأْيُ فِي صَدْرٍ وَاحِدٍ

- (١) استشهد ابن بسام في الذخيرة ٣/٢/٨٥٦ لوصف تخنّث أهل بلنسية وقد خرجوا للقاء عدوهم ببيت للكُميت يقول فيه : يمشون مشي قطا البطاح تأودا هيف الخصور رواجح الأكفال (الكامل)
- (٢) من أشهر جغرافيين الأندلس في ق ١١/٥ توفي ٤٧٦/١٠٨٣ أو ٤٧٨/١٠٨٥. (حسين مؤنس : الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد عدد ٧ و ٨ ، ٦٠-١٩٥٩، ص ٢٧٧).
- (٣) حسين مؤنس : الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس -صحيفة- معهد الدراسات الإسلامية في مدريد عدد ٨٢٧/١٩٥٩ - ١٩٦٠، ص ٢٨٢.
- (٤) نفس المرجع، ص ٣٠٣، تعليق ٢.
- (٥) ابن بسام : الذخيرة ٣/٢/٨٥٦.
- (٦) نفس المصدر، ص ٨٥٧.

II - البعد الذاتي

قال شوقي :

يَا ابْنَ زَيْدُونَ مَرْحَبًا
قَدْ أَطَلَّتِ التَّغْيِيبَا
أَنْتَ فِي الْقَوْلِ كُفْلُهُ
أَجْمَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
بِأَبِي أَنْتَ هَيْكَلًا
مِنْ فُنُونِ مَرْكَبَا
شَاعِرًا أَمْ مُصَوِّرًا
كُنْتَ أَمْ كُنْتَ مُطَرِّبَا

ابن زيدون : حياته

٣٩٤/١٠٠٣ - ١٥ رجب ٤٦٣/١٨ أفريل ١٠٧٠

هو أبو الوليد ذو الوزارتين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومي^(١) ينتمي إلى عائلة تعتبر من أبرز العائلات الأرستقراطية العربية بقرطبة.

ولد أبو الوليد سنة ٣٩٤/١٠٠٣ بالرّصافة إحدى ضواحي قرطبة (انظر الخريطة) وهي في قمّة مجدها الحضاري والعسكري بعد سنة ونصف من موت الحاجب المنصور ابن أبي عامر، وفي عهد خلافة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرّحمان النّاصر وهو الخليفة الثالث من خلفاء بني أميّة في قرطبة، وهو العاشر من حكام بني أميّة بالأندلس بدءاً بعبد الرّحمان الدّاخل الملقّب بصقر قریش والمؤسس للدولة الأمويّة بقرطبة سنة ١٣٨/٧٥٥ بعد أن أفل نجم خلافتهم بدمشق سنة ١٣٢/٧٤٩ .

كان هشام المؤيد عند ولادة ابن زيدون خليفة اسماً وشكلاً دون نفوذ وسلطة. فقد كان الأمر والنّهي بيد الحاجب رقم ٢، المظفر بن المنصور بن أبي عامر. وقد تولّى هذا الحاجب الأمر بعد أبيه الحاجب رقم ١ المنصور بن أبي عامر. وقد استغلّ المنصور -وهو الحاجب القويّ- ضعف هشام فاستولى تدريجياً على كلّ دواليب الدّولة. ولم يبق لهشام إلاّ الجانب التشريفي منها.

(١) 998/III/EI(2) وكتب المقال G. LE COMTE.

ولم يجد المنصور بن أبي عامر صعوبة تذكر في سلب هشام المؤيد كلّ صلاحياته والاستئثار دونه بالسلطة. فقد كان في بداية أمره طفلاً لا يفقه، ولمّا بلغ مبلغ الرجال كان أقرب إلى المجذوبين منه إلى رجل يميّز بين الجيد والرديء، بين ماهو من الشريعة والدّين، وماهو من باب الشعوذة والتدجيل. واستغلّ بعضهم هذا الجانب من شخصية الخليفة، فوصلوا بمظهرهم الخارجي كاللّحية الطويلة الحمراء، والقامة المديدة في السّماء إلى مناصب لا يحلمون بها وأموال لا يستحقونها. وليس غريباً أن يكون هذا بتدبير من المنصور بن أبي عامر لترك الخليفة في عتقه يمرح وبين هؤلاء المتحيّلين يسرح. قال ابن حيان "ونال -في مدّة هذا الانهماك (انهماك هشام في مظاهر تديّنه) والدّعة- أهل الاحتيال من الناس عندهم (حاشية الخليفة)، الرّغائب النّفيسة بما ازدلفوا به من أثر كريم أو زخرفوه من كذب صريح، حتّى لقد اجتمع عند نساء القصر ثمانية حوافر (حيوانات ذات حوافر) عُزي جميعها إلى حمار عزيز المستحيي بالآية الباهرة، واجتمع عندهنّ من خشب سفينة نوح عليه السّلام وألواحها قطع جليّة، وظفرت من نسل غنم شعيب عليه السّلام بثلاث، وكُلّفن من هذا ومثله لعفّتهنّ وزهد صاحبهنّ بأشياء توجّهت على أموالهنّ من قبلها أعظم حيلة، ولهجه مع ذلك بطلب ذوي الأسماء الغريبة من النّاس الموافقة أسماؤهنّ لمن اجتباه الله من خلقه مثل عبد النّور وعبد السّميع وعبد اللّطيف وعبد المؤمن وحزب الله ونصر الله وفضل الله، ومثل ياسين، وأليسع ومن جانسّه، يصير الرّجل من هؤلاء في الحاشية (حاشية الخليفة هشام) ويُسّتعمل على وكالة جهة، ولا يبعد أن يتموّل في أقرب مدّة.

لم يبلغ ابن زيدون الخامسة من عمره أي سنة ٣٩٩/١٠٠٨ حتى توفي الحاجب المظفر، وتولى أخوه عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجل^(١) شؤون الدولة. ويبدو أن صغر سنّه وقلة خبرته، مع طموح جارف وثقة في النفس مبالغ فيها جعلته يرغم الخليفة هشاماً على تعيينه ولياً لعهد، ويقرر في نفس سنة ٣٩٩/١٠٠٨ الخروج للغزو في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية على عادة أبيه وأخيه. وما إن غادر قرطبة حتى اندلعت الفتنة الكبرى بها ضده^(٢). كان هذا هو الحدث الخطر الذي عاشه ابن زيدون على المستوى الاجتماعي سياسياً وعسكرياً، وبعد ست سنوات أي سنة ٤٠٥/١٠١٤، وقد بلغ ابن زيدون الحادية عشرة من عمره، سيعيش الفتى حدثاً مؤلماً على المستوى العائلي حناناً وسنداً، وهو موت والده. ولم يخفف عنه هذا الفراغ العاطفي إلا كفالة جدّه من جهة الأم، له.

وسيعيش الطفل ابن زيدون إلى سنّ الشباب ثمّ يتخطاه فيبلغ مبلغ الرجال في أتون فتنة عمياء أكلت الأخضر واليابس واستبّحت فيها الحرمات، واستحلت الدماء واختلط الحابل بالنابل، ودامت ٢٣ سنة من ٣٩٩/١٠٠٨ - ٤٢٢/١٠٣٠ .

ولئن تعرّض العديد من علماء قرطبة وأدبائها وشعرائها إلى الامتحان بالسجن والمصادرة وأحياناً بالتعذيب والقتل، فإنّ ابن زيدون استطاع أن يتجنّب لهيبها بالانكباب على الأخذ والدراسة. ويبدو أنّه وجد الوقت الكافي لذلك سواء في منزلهم على يد أبيه وجدّه لأمه أو في بعض المساجد التي استمرت فيها الدروس رغم قساوة الأحداث وكثرة الأخطار. وهكذا "حفظ القرآن ودرس أسرار اللّغة وتوفّر على العلوم الدينيّة، وقرأ أدب الأقدمين وثقّف نفسه ثقافة عقلية فلسفية، وهضم أخبار العرب وأيامهم وأمثالهم"^(٣) قال ابن زيدون:

[الطويل]^(٤)

(١) هو الابن الثاني للحاجب المنصور بن أبي عامر، وكانت أمّه -ابنة أحد ملوك الإشبان في الشمال- تناديه وهو طفل بشنجل : وهو تصغير لاسم شانجه. وكان أبوها يسمّى بهذا الاسم.

(٢) انظر محطة الفتنة.

(٣) مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس، طبعة بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٨٧ .

وَنَجَّدَنِي ^(١) عِلْمٌ تَوَالَتْ قُنُونُهُ
كَمَا يَتَوَالَى فِي النُّظَامِ سَخَابٌ ^(٢)
وَرَدْتُ مَعِينَ ^(٣) الطَّبْعُ إِذْ ذِيدٌ ^(٤) دُونَهُ
أُنَاسٌ لَهُمْ فِي حُجْرَتِيهِ لَوَابٌ ^(٥)

ضنَّتُ علينا المصادر بذكر شيوخ ابن زيدون الذين جلس للأخذ عنهم، فقد ذكر هو أحدهم بمناسبة الرسالة التي بعث بها إليه ابن زيدون إثر فراره من السجن وهو أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي الأديب. وكان هذا الشيخ "متقدِّماً في علم العربية واللغة رابوية للشعر وكتب الآداب. وكان لتلاميذه -ومنهم ابن زيدون- كالأب الشفيق والأخ الشقيق" ^(٦). ولد أبو بكر مسلم سنة ٣٧٦/٩٨٦ وتوفي سنة ٤٣٣/١٠٤١ .

ويمكن أن نضيف لأبي بكر شيخين آخرين ذكرتهم المصادر على أنَّهما من شيوخ أبي بكر محمد بن ذكوان. وليس غريباً أن يكون ابن زيدون قد درس عليهما لأنَّه كان لدَّة لابن ذكوان، وعاشا معاً في نفس المدينة أي قرطبة. وهذان الشيخان هما :

- أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث ويعرف بابن الصَّفَّار من أهل العلم بالفقه والحديث، له شعر في الزَّهد، وله كتاب "فضائل المنقطعين إلى الله"، ولي الشورى وقضاء الجماعة، توفي سنة ٤٢٩/١٠٣٧ ^(٧).

- أبو المطرّف عبد الرَّحمان بن مروان الأنصاري القنازعي، كان من الزَّهاد عالماً بالفقه والتفسير والحديث له كتاب في الشُّروط على المذهب المالكي أرادَه علي بن حمّود للشورى فامتنع ^(٨).

(١) المُنَجَّدُ : الذي جَرَبَ الأمور وقاسها بعقله وعَلِمَتَهُ التجارب، نقول المُنَجَّدُ والمُنَجَّدُ.

(٢) السَّخَابُ : العَقْد.

(٣) مَعِين : الماء منبِعه.

(٤) ذِيدٌ عَنْهُ : مَنَعٌ.

(٥) اللُّوَابُ : العطش. ومعنى البيت : أَنَّهُ طُبِعَ عَلَى الشَّعْرِ فِي حِينَ أَنْ غَيْرَهُ حَبَسَ عَنْ وَرُودِهِ فَلَهُ فِي حُجْرَتِهِ أَي جَانِبِيهِ عَطَشٌ.

(٦) ابن يشكوال : الصَّلَة، طبعة مصر، ١٩٦٦، ص ٦٢٦، ع ١٣٧٨ د.

(٧) أبو الحسن النِّبَاهِي السَّالِقِي : المَرْقَبَةُ العَلِيَا، طبعة بيروت، ١٩٨٣، ص ص ٩٥-٩٦ .

(٨) الحميدي : جذوة المقتبس رقم ٦١٦ .

لقد أصبح ابن زيدون في المرحلة الأخيرة من الفتنة الكبرى، وقد امتلأ وطابه علماً وتفتّحت مواهبه شعراً، نموذجاً لشباب الطبقة الأرستقراطية العربية، له من شبابه وجماله وحسبه ونسبه وثقافته وطموحه ما يبوّنه أن يلعب دوراً لا يستهان به في نهاية هذه الفتنة. وكأنّ القدر لم يرد أن يخرج منها دون جرح عميق، فقد استحلّ وزير المعتدّ آخر خليفة أموي^(١) بقرطبة دم جدّه فقتله.

وقد جعل هذا الحدث الفظيع ابن زيدون يشترك بصورة فعلية مع حكماء قرطبة في دكّ صرح الخلافة الأموية والتخلّص نهائياً منهم سنة ٤٢٢/١٠٣٠.

لقد كان ابن زيدون شاهد عيان على دخول هذا الخليفة الأخير -وهو المعتدّ- إلى قرطبة في حالة رثة قادمة من ألبونت. وكان شاهد عيان على ثورة "أميّة" أحد أحفاد النّاصر عليه في آخر أيّامه. فالتجأ المعتدّ إلى أحد الأبراج، واقتحم الثائر القصر ونهبه. عند ذلك تحرّك عميد الجماعة أبو الحزم بن جهور^(٢) وأسرع بدعوة وجهاء قرطبة، وأكد أنّ ابن زيدون كان من بينهم، واتّجهوا مع رجال مسلّحين إلى القصر. وخطب أبو الحزم في الثّائرين فدعاهم إلى الكفّ عن النّهب فامتثلوا لأوامره إمّا رهبة منه لمكانته أو خوفاً من الرّجال المسلّحين معه أو لأنّه لم يعد هناك ما يُنهب في القصر. ثمّ اتّجهوا إلى الخليفة المحاصر وطلبوا منه لفكّ الحصار عنه التّنازل عن الخلافة فانصاع لطلبهم. وفي اليوم الموالي أي ١٣ من ذي القعدة ٤٢٢ / ٣ نوفمبر ١٠٣١ ألغيت الخلافة "ونُودي في الأسواق والأرباض ألاّ يبقى في قرطبة أحد من بني أميّة ولا يكتنفهم أحد"^(٣). وطُرد أميّة الثّائر خارج المدينة، أمّا الخليفة فاقتيد إلى السجن ولكنّه استطاع النّجاة بنفسه فذهب إلى لاردة من أعمال بني هود أصحاب سرقسطة وعاش فيها إلى أن مات سنة

(١) الوزير هو : حكم بن سعيد القرّاز أساء معاملة العامّة فبطشت به وقتلته ٤٢٢/١٠٣٠ (أعمال الأعلام لابن الخطيب تحقيق لفي برو فنصال، ط. بيروت، ١٩٥٦، ص ١٣٨).

(٢) كان أبو الحزم من وزراء الدّولة العامرية قديم الرّئاسة موصوفاً بالدّهاء والسّياسة، لم يغيّر من أمره شيئاً بعد تولّيه الحكم في قرطبة حتّى أنّه بقي يؤدّن على باب مسجده ولم يتحوّل عن داره إلى قصر الخلافة.

(٣) أعمال الأعلام، ص ١٣٩.

٤٢٨/١٠٣٦، وبفرار المعتدّ وإلغاء الخلافة انتهى حكم الأمويّين نهائياً من الأندلس، وعُهد إلى جماعة من حكماء قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم بن جهور بحكم المدينة، فنشأ حكم جماعي شبه جمهوري بها^(١).

كان ابن زيدون أحد أفراد هذه الجماعة من حكماء قرطبة وكان صديقاً لزعيمها أبي الحزم بن جهور، وكان محلاً لثقته ولده لابنه أبي الوليد بن جهور. وكان لابن زيدون من ثقافته وطموحه ما بوّاه مكانة مرموقة في بلاط الدولة الجديدة فنال الوزارة باستحقاق في بلاط "حكومة الشورى" وهو في الثامنة والعشرين من عمره يتقدّح حزماً وعزماً وحيوية ونشاطاً، ولم يبخل عليه زعيم الجماعة أبو الحزم بن جهور بلقب ذي الوزارتين تمييزاً له وتعظيماً.

وهكذا وصل ابن زيدون إلى القمة بسرعة في دولة بني جهور. وكلّ من يعلو تتجّه إليه الأنظار من الحاقدين والمناوئين. ألم يجمع وهو في عنفوان شبابه بين الجمال والجاه والمال والموهبة؟ وكلّها مجلبة لسهام الحاسدين والمنافسين؟ خاصة إذا لم يكن من هؤلاء حذراً.

ارتبطت حياة ابن زيدون العاطفية في هذه الفترة بولادة بنت الخليفة المستكفي وكانا متكافئين في الحسب والنسب والجمال والموهبة، ممّا جعل مكانة ابن زيدون في قلبها وقصرها وفي مجالسها وندواتها تكون هي العليا.

وهكذا وجد منافسوه في الحبّ والسياسة كالوزير ابن عبدوس وغيره الفرصة سانحة للكيد له وجعله محلّ ريبة وشكّ في نظر أبي الحزم. لقد صور هؤلاء المنافسون لابن جهور أنّ هذه العلاقة بينه وبين ولادة قد تكون بداية خطة ترسم لإرجاع الحكم للأمويّين، خاصة بعد أن أعلن المعتضد بإشبيلية ظهور هشام المؤيد من جديد^(٢).

(١) حكومة الجماعة أو حكومة الأقلية الأرستقراطية : وهو ضرب من الحكم يُشبهه ما تمّ في بعض الولايات الإيطالية في عصر الإحياء مثل حكومة "الكموني" في جنوة، وحكومة "السينوريا" في فلورنس أيام حكم آل مديتشلي.
(٢) إن موت هشام وظهوره من جديد عدّة مرّات أصبحت أسطورة يتندّر بها المؤرّخون.

ولم يكن لدى ابن جهور من الأدلة ما يجعله يتهم ابن زيدون بالتهمة السياسية السابقة وهي التآمر لإرجاع الحكم للأمويين. وكما يُصنع اليوم لُفقت له تهمة أخرى أُلصقت به ذريعة لتقديمه إلى المحاكمة قبل أن يُودع السجن. فنُسب إليه اغتصاب عقار لأحد مواليه بعد وفاته، وعيّن له خصيصاً قاضياً "لم يكن من القضاء في ورد ولا صدر"^(١). وانتهت هذه المحاكمة الشكلية بحكم يقضي بحبس ابن زيدون حبساً مطلقاً.

وهكذا سجن الشاعر على يد صاحب دولة كان أحد مؤسسيها وبُناتها. ووُضع في حبسه أوّل الأمر مع مستوري الناس وذوي الهيئات فيه، ولكن لإذلاله نُقل في مرحلة ثانية إلى حيث الجناة المفسدون واللصوص المقيّدون، ولزيد تعذيبه مُنع في مرحلة ثالثة من زيارة أهله له.

ومن السجن كتب ابن زيدون لابن جهور أروع قصائده في الاستعطاف، فخلّد في أدبنا العربي بحسه المرهف شعراً ذاتياً إنسانياً، صوّر فيه أعمق مشاعر النفس في حالة السّحق الماديّ والمعنوي. ولكنّ محاولاته مع صاحب قرطبة لم تُجدِ نفعا وباءت بالفشل. فقررّ الفرار من السجن بعد أن قضى فيه أكثر من خمسمائة يوم. وبرّر فراره لمن لاهمه بقوله:^(٢)

لَا عَارَ، لَا عَارَ فِي الْفِرَارِ فَقَدْ
فَرَّ نَبِيُّ الْهُدَى إِلَى الْغَارِ^(٣)

فرّ ابن زيدون من السجن وأسرع السّير إلى إشبيلية ليلاً، لكنّه لم يبق فيها إلا مدّة يسيرة رتب فيها مسألة اختفائه في الزّهاء الضّاحية الشماليّة لقرطبة. ومن هذه الضّاحية راسل ابن زيدون أستاذه أبا بكر مسلم بن أحمد^(٤) ليشفع له لدى أبي الحزم أو لدى ابنه المهيأ لخلافته في الحكم وهو أبو الوليد بن جهور.

(١) هذا القاضي هو عبد الله بن أحمد بن عبد الملك بن هشام، أبو محمد بن المكوي القرطبي، كان أبوه أحمد من أئمة أهل زمانه. أمّا أبو محمد فقد استقضاه أبو الحزم بن جهور خصيصاً لابن زيدون لقلة علمه وكان ذلك سنة ٤٢٢/١٠٤٠، ولمّا تولّى أبو الوليد الحكم بعد أبيه صرفه عن القضاء سنة ٤٣٠/١٠٤٣ فبقي خاملاً إلى أن توفي سنة ٤٤٨/١٠٥٦ (الذخيرة I/1/338).

(٢) الذخيرة. I/1/413

(٣) أخطأ الشاعر فالنبي هاجر بوجي من الله ولم يفرّ، فقد ذهب الرّسول إلى أبي بكر، وقال له : إنّ الله أمرني بالهجرة فعرض عليه أبو بكر الصّحبة (مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس، ص ٣٩٦).

(٤) هو الذي راسله ابن زيدون وهو مُختف في ضاحية الزّهاء وبرّر فراره في رسالته له. انظر فصل آثار ابن زيدون

ولعلّ الخوف من القبض عليه والزجّ به ثانية في السّجن هو الذي جعله يبتعد عن قرطبة، فسافر إلى إشبيلية خفية وبقي في كنف المعتضد ابن عباد حوالي سنة.

وهذه الفترة من حياة ابن زيدون، ما بين فراره من السّجن ورجوعه إلى الحياة العامّة في قرطبة، يشوبها كثير من الغموض. والأرجح أنّه نال العفو من حاكم قرطبة سنة ٤٣٠/١٠٤٣ فعاد مسرعاً إلى الوطن وكلّه شوق إلى مراتع شبابه ومسارح لهوه وحبّه. فهل تمّ ذلك قبيل وفاة أبي الحزم أو بُعيد وفاته ؟ لقد رأى الشاعر توطيداً للعلاقة التي كانت تربطه بأبي الوليد بن جهور أنّ هناك واجباً نحو حاكم قرطبة الجديد فاغتنم فرصة وفاة الأب سنة ٤٣٠/١٠٤٣ فرثاه ومدح الابن^(١).

وأكد الشّاعر في قصائده التي وجهها لأبي الوليد ملماً ومصرّحاً أنّه لا يهتمّ بالمنصب من أجل المال، فله منه الكفاية، بل المنصب بالنسبة إليه هو شرف له ورفع لمنزلته من جهة وهو فرض يقوم من خلاله بواجب النصيحة لأميره من جهة أخرى، قال مخاطباً أبا الوليد:

لَعَمْرُكَ مَا لِلْمَالِ أَسْعَى فَبِإِنَّمَا
يَرَى الْمَالُ أَسْنَى حَظَّهُ الطَّبِيعُ^(٢) الْوَعْدُ^(٣)
وَلَكِنْ لِحَالٍ - إِنْ لَبَسْتُ جَمَالَهَا -
كَسَوْنُكَ ثَوْبَ النُّصْحِ أَعْلَامُهُ الْحَمْدُ

ولئن اطمأنّ أبو الوليد إلى تربيته ابن زيدون للصداقة التي ربطت بينهما في الماضي، فإنّه لم يكن يثق فيه تمام الثقة فعينه سفيراً بينه وبين أمراء الطوائف ليبعده ولو إلى حين

(١) قال في مطلعها

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ وَأَنَّ قَدْ كَفَانَا - فَقَدْ نَا الْقَمَرَ - الْبَدْرُ

- الديوان، ص ١٥٠ -

(٢) الديوان، ص ١٨٣ وتبدأ القصيدة، ص ١٧٧ .

(٣) الطَّبِيعُ : يُقال رجل طَبِيعٌ أي طَمِعَ متدنّس العِرْضِ ذو خلقٍ دنيءٍ لا يستحي من سوءه، (الديوان، ص ١٨٣ تعليق عدد٢).

(٤) الوغد : الأحمق، الضعيف العقل (نفس المصدر والصفحة والتعليق).

عن قرطبة.

ولم يكن ابن زيدون ليرضى بهذا المنصب الذي يرى فيه دون مواهبه. وعبر عن عدم رضاه بالإبطاء في سفارة له في بلاط أمير مالقة إدريس بن علي بن حمّود^(١) فأحنق تصرفه هذا أبا الوليد فعزله، فأسرع ابن زيدون بالرجوع إلى قرطبة وخاطبه بقصيدة مطلعها "بنيت فلا تهدم"^(٢). لكن أبا الوليد أعرض عنه، فقرّر الشاعر الخروج من قرطبة ولو إلى حين. وقصد بلاط بلنسية في ظلّ أميرها أبي عبد الله عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر (المنصور II)^(٣) ثم بطليوس في ظلّ أميرها المظفر بن الأفضس^(٤). وظلّ في هذه المدينة إلى أن عفا عنه أبو الوليد فعاد إلى محبوبته قرطبة، لكنّه لم يهنأ بالعيش فيها، فقد عادت أصابع الاتّهام تتّجه إليه في فتنة بني ذكوان سنة ١٠٤٨/٤٤٠^(٥)، فقد اتّهم أحدهم وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن ذكران^(٦) بإرجاع الحكم الأموي في قرطبة. ولمّا انكشفت المؤامرة خشي ابن زيدون على نفسه. ألم يتّهم في عهد الأب بنفس التّهمة وسجن؟ فما المانع أن يتّهم بها ثانية في عهد الابن وينكّل به؟ لقد أسرع ابن زيدون فتنصّل من هذه المؤامرة وتبرّأ من القائمين بها، بل أظهر سخطه وعداءه لهم^(٧). وخاطب أبا الوليد شعراً^(٨). ومع أنّ أبا الوليد تظاهر بتصديقه فلم يمسه بسوء، فإنّ ابن زيدون أخذ بالقولة المشهورة "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتّين"، فنزح سرّاً من قرطبة إلى إشبيلية بالاتّفاق مع المعتضد ابن عبّاد، لكن قبل أن يلتحق بإشبيلية مرّ ببطلّوس للمرّة الثانية، وبقي هناك بضعة أشهر (حوالي أربعة أشهر) كانت نفسه فيها تنقطع حزناً وأسى على فراق قرطبة. ويقبل العيد

(١) انظر شجرة بني حمّود في مالقة.

(٢) الديوان، ص ٦١.

(٣) انظر شجرة حكام بلنسية، ص

(٤) انظر شجرة حكام بطليوس، ص

(٥) انظر شجرة عائلة بني ذكوان، ص

(٦) انظر التعليق رقم ٨.

(٧) الديوان، ص ١٣٤، بداية القصيدة، ص ١٣٠.

(٨) الديوان، ص ١٣٣.

وهو غريب فيزداد ألمه وشوقه.

يشدّ ابن زيدون الرّحال من بطليوس إلى إشبيلية عاصمة بني عباد، ويصلها سنة ٤٩٠/٤١١ وينزل بدار صديقه أبي عامر بن مسلمة فحضر لزيارته الكتاب والشعراء، وتلقاه المعتضد بكلّ مظاهر الاحترام والتبجيل. وسيبقى في بلاط أقوى أمير في عهد الطوائف عقدين من الزّمن. لكن يمكن لنا أن نتساءل، لماذا اختار ابن زيدون بلاط إشبيلية للإقامة فيه دون غيره من البلاطات رغم أنّه يعرف الخطر الذي يمثّله المعتضد على من عاش حوله من أبنائه^(١) ورجال بلاطه^(٢)؟ أقرب إشبيلية من قرطبة الوطن الحبيب ؟ ألا يمكن التّفكير في أنّ ابن زيدون كان من المؤمنين بوحدة الأندلس، وبوجوب تجسيماها في بلاط قويّ من بلاطات ملوك الطوائف ؟

لكن رغم الخطر الذي يمثّله المعتضد على رجال بلاطه، كان ابن زيدون يرى أنّ هذا البلاط هو الأقوى، وهو الذي يمكن أن يحقق ما يصبو إليه في قرارة نفسه من توحيد بلاد الأندلس لمواجهة الخطر النّصراني المتفاقم يوما بعد يوم. وكان لابن زيدون من الحنكة السياسيّة والتجارب المرّة ما مكّنه من أن يتجنّب غضب المعتضد فينال ثقته ورضاه ويصبح بالتالي المستشار القدير والنّاصح الأمين في بلاط إشبيلية. فهل لعب ابن زيدون دوراً فيما جدّ من أحداث داخل هذا البلاط أو خارجه ؟ هل كان له تأثير فيما أخذه المعتضد من قرارات تهّم العلاقة بينه وبين أمراء الطوائف أو ملوك النّصارى أو تهّم العلاقة بينه وبين بعض أفراد عائلته ؟

إنّ المصادر التي بين أيدينا لا تمكّننا من تحديد الدّور الذي لعبه ابن زيدون في هذه الأحداث : لقد اندلعت الحرب بين ابن الأفطس والمعتضد سنة ٤٤٢/١٠٥٠ من أجل مدينة لبلّة، أي بعد سنة من وصول ابن زيدون إلى بلاط إشبيلية قادماً إليه من بلاط

(١) قتل ابنه إسماعيل عندما ثار عليه سنة ٤٥٠/١٠٥٨ .

(٢) قتل الوزير.

بطليوس. ثم تمّ الصلح بينهما في السنة الموالية ٤٤٣/١٠٥١ بتدخل أبي الوليد بن جهور صاحب بلاط قرطبة.

لكن هل كان لابن زيدون دور في الاستيلاء على ولبة وشلطيش وشنتمرية الغرب سنة ٤٤٣/١٠٥١ تمّ على لبله ٤٤٥/١٠٥٣ ثمّ الجزيرة الخضراء ٤٤٦/١٠٥٤ ؟

ماذا كان موقف ابن زيدون من مصرع إسماعيل بن المعتضد على يد أبيه سنة ٤٥٠/١٠٥٨^(١) وهل كان له يد في إلغاء المعتضد الخطبة لهشام المؤيد سنة ٤٥١/١٠٥٩ ؟

ألم ينصح الشاعر المعتضد بالاستيلاء على شلب سنة ٤٥٥/١٠٦٣ ؟ ألم يشجعه في نفس السّنة على الذهاب إلى معسكر فرناندو ليعقد صلحاً معه يدفع بموجبه جزية له؟ ماذا كان موقف الشاعر من سقوط بربشتر سنة ٤٥٦/١٠٦٣ تلك المأساة التي أذهلت الجميع ؟

لقد فشل بلاط إشبيلية -وابن زيدون أحد وزرائه ومستشاريه- في الاستيلاء على مالقة من يد باديس بن زيري سنة ٤٥٨/١٠٦٦ ولكنّه استطاع أن يضمّ أركش وشدونة في نفس السّنة ثمّ قرمونة سنة ٤٥٩/١٠٦٧ .

لقد توفّي المعتضد وابن زيدون محرز على رضاه وثقته سنة ٤٦٠/١٠٦٨ . وحاول مناوئوه في بلاط إشبيلية -وعلى رأسهم الوزير الشاعر ابن عمّار- اغتنام الفرصة ليتخلّصوا منه فأشاعوا أنّه حرّض المعتضد قبل وفاته على قتل ابنه المعتمد أو على الأقلّ رميه في السّجن، وهم بذلك يريدون إثارة حساسيّة المعتمد بعد عشر سنوات من مقتل أخيه إسماعيل وذلك بالإشارة إلى دور ما قام به الشاعر في تلك الفجيرة الكبرى التي حلّت بأسرة بني عبّاد، ولزید التحريض أشاعوا بيتين على لسان ابن زيدون في هجاء المعتضد بعد وفاته، كما أرسلوا بمقطوعة شعريّة عن طريق المناورة لإفساد العلاقة بين الوزير الشيخ والأمير الشاب لكن محاولتهم باءت بالفشل.

(١) القصيدة الدّالية فيها إشارة إلى مناوئي المعتضد، وقد يكون الشاعر يشير في بعض أبياتها إلى إسماعيل بن المعتضد عندما ثار على أبيه فكان مصيره القتل (الدّيان، ص ٢١٨-٢١٩).

ورغم وقوف المعتمد إلى جانب الشاعر. فقد ارتاع ابن زيدون ممّا يُحاك ضده من دسائس فأسرع بمدح المعتمد والتعريض بمن يخطّطون لإفساد العلاقة بينه وبين أميره الشاب.

ولا شك أنّ القدر أراد أن تُختم حياة ابن زيدون بتحقيق أمله في الرجوع إلى قرطبة منتصراً بعد أن خرج منها مخفياً، فقد قام بتخطيط عملية الاستيلاء على قرطبة وانتزاعها من يد بني جهور وإسقاط دولتهم سنة ١٠٧٠/٤٦٢-١٠٦٩^(١)، وهي دولة عمل على تأسيسها ثمّ اكتوى بلهيب نيرانها واضطّر إلى مغادرة مسقط رأسه تجنباً لشرّها وأذاها.

لقد انتقل الشاعر مع بني عباد إلى قرطبة سنة ١٠٦٩-٤٦٢/٧٠ قرير العين، بعد أن استولى عليها المعتمد بتدبيره من يد بني جهور. وكما أخرج من قرطبة وقع إخراج بني جهور منها جميعاً وتمّ نفيهم إلى جزيرة شلطيّش ومات أبو الوليد بعد أربعين يوماً من سقوط دولتهم.

وسوف لن يجود الشاعر بأنفاسه الأخيرة إلا بعد أن نجح أعداؤه وعلى رأسهم الشاعر ابن عمار وابن مَرْتِين في الكيد له. فقد أقنعوا المعتمد بإرساله إلى إشبيلية لإخماد فتنة أو شبه فتنة اندلعت فيها، وسببها مقتل يهودي سبّ الشريعة. فقبض صاحب المدينة على القاتل تطبيقاً للقانون، فأنكر عامّة الناس اعتقاله، فخاطب المعتمد بقرطبة فأرسل له ابنه سراج الدولة ومعه الشاعر ابن زيدون^(٢). وكان المعتمد على علم بما يكنّه أهل إشبيلية لابن زيدون من المحبة والتقدير، فأرسله لاستغلال حبّهم في تسكين الاضطراب وتهدئة الخواطر^(٣). وكان الشاعر زيادة على تقدّمه في السنّ مريضاً فمات وهو على مقربة من إشبيلية عاصمة بني عباد في ١٥ رجب ٤٦٣/١٨ أفريل ١٠٧٠ .

(١) قام بلاط إشبيلية قبل ذلك بمحاولتين للاستيلاء على قرطبة : الأولى سلماً عندما وقع بعث هشام الأسطورة من جديد على يد المعتضد بن عباد سنة ١٠٣٧/٤٢٩، وأراد المعتضد بذلك بسط هيمنته ولو الاسميّة على كلّ بلاطات الطوائف باعتباره الأقوى عسكرياً والثانية عندما خطّط المعتضد لإرسال جيشه بقيادة ابنه إسماعيل سنة ٤٤٩/١٠٥٧ لكنّ المحاولة لم تتمّ لرفض إسماعيل القيام بها.

(٢) حسن جاد حسن : ابن زيدون، ص ٩٠ .

(٣) الديوان، ص ٢٢، والذخيرة ٤١٨/١.

وهكذا يكون ابن زيدون قد شاهد وهو طفل سقوط الدولة العامرية وشاهد في عنفوان شبابه سقوط الخلافة الأموية، وشارك بكل حماس في هذا الحدث، وشاهد وهو شيخ سقوط دولة بني جهور. وكما كان من أبرز من أسسها كان المدبر الأول لإزالتها.

ابن زيدون : عائلته

ينتمي ابن زيدون إلى عائلة قرطبية أرستقراطية، يرتفع نسبه من جهة الأب إلى بني مخزوم^(١)، فرع من قبيلة قريش، ومن جهة الأم إلى قبيلة قيس عيلان اليمانية فهو عربي أصيل من جهة الأب والأم. ومع ذلك لم يذكر ابن حزم في الفقرة التي خصصها لولد مخزوم بن يقظة بن مرة، شيئا عن المنتمين إلى مخزوم في الأندلس^(٢) مع أنه كان معاصراً وبلدياً للشاعر ولوالده الفقيه عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومي^(٣).

نعرف من عائلة ابن زيدون بعض أفرادها :

أ- الأب : وهو أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومي : كان من أهل النباهة والجلالة والمعرفة باللغة والأدب. قام بتربية ابنه خلال السنوات الأولى من عمره، وليس غريباً أن يكون الابن قد تأثر بميولات أبيه الأدبية. كان صديقاً لأبي العباس أحمد بن عبد الله بن زكران، وقد يكون وصوله إلى منصب الفقيه المشاور في بلاط الحاجب المنصور بن أبي عامر بتنويه ووساطة من أبي العباس بن زكران قاضي القضاة. ولد أبو بكر سنة ٣٥٤/٩٦٥ بقرطبة وتوفي بالبيرة سنة ٤٠٥/١٠١٤^(٤) وحمل جثمانه ليوارى التراب بقرطبة. رثاه أحد الشعراء بقوله (الخفيف)^(٥):

أَيُّ رُكْنٍ مِنَ الرَّئِيسَةِ هِيضًا

(١) من أعلام مخزوم القائد الفاتح خالد بن الوليد (معجم قبائل العرب لكحالة - بيروت، ١٩٩٤، ج ٣ / ١٠٥٨).

(٢) ابن حزم : الجمهرة، تحقيق عبد السلام هارون، ص ص ١٤٩-١٤١ .

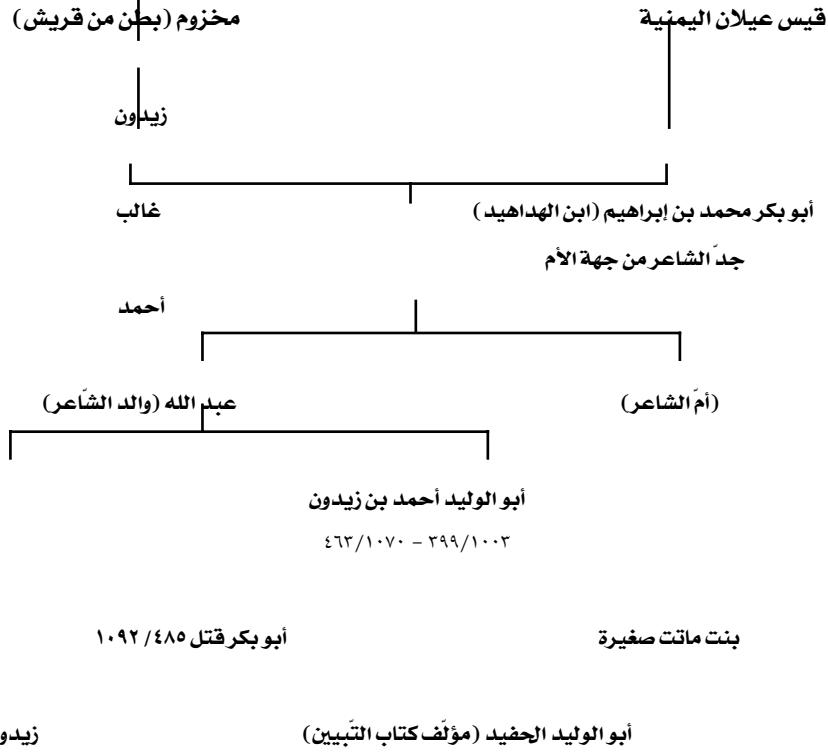
(٣) إن حرق كتب ابن حزم في إشبيلية سنة ٤٥٤/١٠٦٢ وابن زيدون الرجل الثاني بعد المعتضد في بلاط إشبيلية يدل على أن العلاقة بين الشاعر وصاحب المذهب الظاهري لم تكن على ما يرام.

(٤) الصلة : رقم ٥٧٦ . (٥) الديوان، ص ٣٠ .

(٦) الجموم : بئر كثيرة المياه. (٧) غيض : نضب.

وَجَمُومٌ^(٦) مِنَ الْمَكَارِمِ غِيضًا^(٧)
 حَمَلُوهُ مِنْ بَلَدَةٍ نَحْوِ أُخْرَى
 لِيُؤَافُوا بِهِ ثَرَاهُ الْأَرِيْمَا
 مِثْلَ حَمَلِ السَّحَابِ مَاءً صَيِّبًا
 لِيُدَاوِيَ بِهِ مَكَائًا مَرِيضًا

شجرة عائلة ابن زيدون



ب - الأم : يبدو أن ابن زيدون كان وحيداً^(١) لذا كان أليها شديداً عندما زج ابن

(١) قال ابن زيدون : "وقد هجرت الأرض التي هي ظنري، والدأر التي كانت مهدي وغبت عن أم أنا واحدها"،
 الذخيرة: ٤١٧/١/١.

جهور بابن زيدون في السَّجْن. وكان الشاعر على يقين من أنها كانت تتلظى ألما لنكبته،
فخاطبها عديد المرَّات يهَوِّن عليها أمر مصابه وشبَّهها بأمَّهات الرُّسل والأنبياء ممَّنْ
أصابهم الدَّهر بسهامه والأَيَّام بنبالها. قال يخاطبها:

أَمَقْتُوْلَةَ الْأَجْنَانِ؟ مَا لَكَ وَالِهَا؟
أَلَمْ تُرِكَ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي؟
أَقِلِّي بُكَاءَ لَسْتُ أَوَّلَ حُرَّةٍ
طَوْتُ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَمَضِ الثُّكْلِ
وَفِي أُمِّ مُوسَى عِبْرَةٌ أَنْ رَمَتْ بِهِ
إِلَى السَّيْمِ، فِي الثَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَاسْلِي

ج - الجدّ : (من جهة الأم) أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم ويعرف بابن
الهدايد وقيل ابن أبي القراميد، أحد أعلام قرطبة، ينسب إلى قبيلة قيس عيلان اليمنية
وهو سليل أسرة من الفقهاء والعلماء تولَّى قضاء مدينة سالم. ثم أصبح قيِّمًا على شؤون
الشرطة والسُّوق بقرطبة وهو مناصب يعادل خطّة الوزارة في ذلك الوقت^(١).

لما مات والد ابن زيدون كفله هذا الجدّ ماديًا وعوَّضه حنان الأب عاطفيا وواصل
الإشراف على تربيته علميًا. وكان الشاعر في الحادية عشرة من عمره.

قتل هذا الجدّ حكمٌ بن سعيد القرَّاز وزير الخليفة المعتدّ آخر خلفاء بني أمية بقرطبة.
وليس غريبًا أن يكون هذا من الأسباب التي دفعت ابن زيدون ليكون من المناهضين لخلافة
بني أمية فينضمّ إلى الجماعة التي دعت إلى نفيهم من قرطبة نهائيا وأُسند أمرُ المدينة إلى

(١) الصلّة لابن بشكوال، الترجمة رقم ١١٤٢، الحلّة ٢/٩٩.

(٢) عنب العذارى : صنف من العنب يشبّه بأصابع العذارى لطوله.

(٣) الديوان، ص ١٥٢.

(٤) العذارى : عنب العذارى.

(٥) أي حلو دونه في الحلاوة ريق العذارى، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى جرأة ابن زيدون فهو يخاطب جدّه ولا يرى
في كلامه حرجًا.

حكيم هذه الجماعة وهو أبو الحزم بن جهور.

بعث ابن زيدون لجدّه عنبا عذارى^(٢) وكتب مع الهدية أبياتاً مطلعها:

[الوافر]^(٣)

أَتَاكَ مُحَيِّيًا عَنِّي اعْتِذَارًا

عَذَارَى^(٤) دُونَهُ رِيقُ الْعَذَارَى^(٥)

د- أبنائه : ذكرت المصادر لابن زيدون من الأبناء :

- بنتاً ماتت صغيرة : فوقف ابن زيدون لاستقبال المعزّين له فيها، وكان رغم حرج الموقف يردّ على كلّ معزّ بعبارة "فما سُمع يجيب أحداً بما أجاب غيره لسعة ميدانه وحضور جنانه"^(١).

- ابناً هو الوزير أبو بكر : خلفه في الوزارة بعد وفاته في بلاط المعتمد. ثمّ أصبح وزيراً للفتح بن المعتمد (المأمون) في بلاط قرطبة بعد استيلاء بني عبّاد عليها وبعد مقتل سراج الدولة بن المعتمد^(٢). عهد إليه المعتمد - في إحدى الروايات - بمهمة سياسية خطيرة وخطيرة، فقد أرسله إلى يوسف بن تاشفين يستصرخه ويدعوه إلى نجدة الأندلس وقد تكالب عليها النصارى وخاصة ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨/١٠٨٥.

كانت لأبي بكر صلة بصديق أبيه المؤرخ القرطبي الكبير ابن حيّان صاحب المقتبس، فقد راسله ووجه إليه هدية مع اعتذار عن نزارة الهدية، فراجع ابن حيّان شاكراً ممتناً،

(١) شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة، طبعة مصر ١٩٥٧/١٣٧٧، ص ٣.

(٢) استولى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، على قرطبة وقتل قائده ابن عكاشة حاكم قرطبة وهو سراج الدولة عبّاد بن المعتمد سنة ٤٦٧/١٠٧٥، لكن سرعان ما استرجعها المعتمد وثار لابنه بمقتل ابن عكاشة وعين عليها ابنه المأمون ومعه الوزير أبو بكر بن زيدون.

(٣) ابن سعيد : المغرب ١/٦٩.

وقد عرفنا من خلال إجابة ابن حيّان أنّ الهدية تشتمل على أحمال من القمح والزيت والدّهْن وأبدى ابن حيّان سروره بها لأنّها وصلتة وهو في أشدّ الحاجة إليها.

ولمّا قرّر يوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف توجّه جيش مرابطي بقيادة جرور الحشمي إلى قرطبة، فقاوم المأمون بن المعتمد ووزيره أبو بكر بن زيدون مقاومة شديدة لكنّ الجيش المراتبي اقتحم المدينة وقتل الوزير والأمير وهما يدافعان عن المدينة سنة ٩٢٠/٤٨٥^(٣).

هـ- أحفاد ابن زيدون : قُتل أبو بكر وترك ولدين هما :

- أبو الوليد أحمد بن زيدون سميّ الشاعر، وهو صاحب كتاب في التاريخ عنوانه «كتاب التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس»، نحا فيه منحى المسعودي في كتابه "التبيين لخلفاء الماضين"، وقد أخطأ الباحثون عندما نسبوا هذا الكتاب للشاعر الجدّ بينما هو لحفيده وسمّيه.

- زيدون وهو الابن الثاني لأبي بكر : ذكر بمناسبة إملاء أخيه عليه كتاب التبيين^(١).

(١) انظر شجرة عائلة ابن زيدون.

ابن زيدون : أصدقاؤه

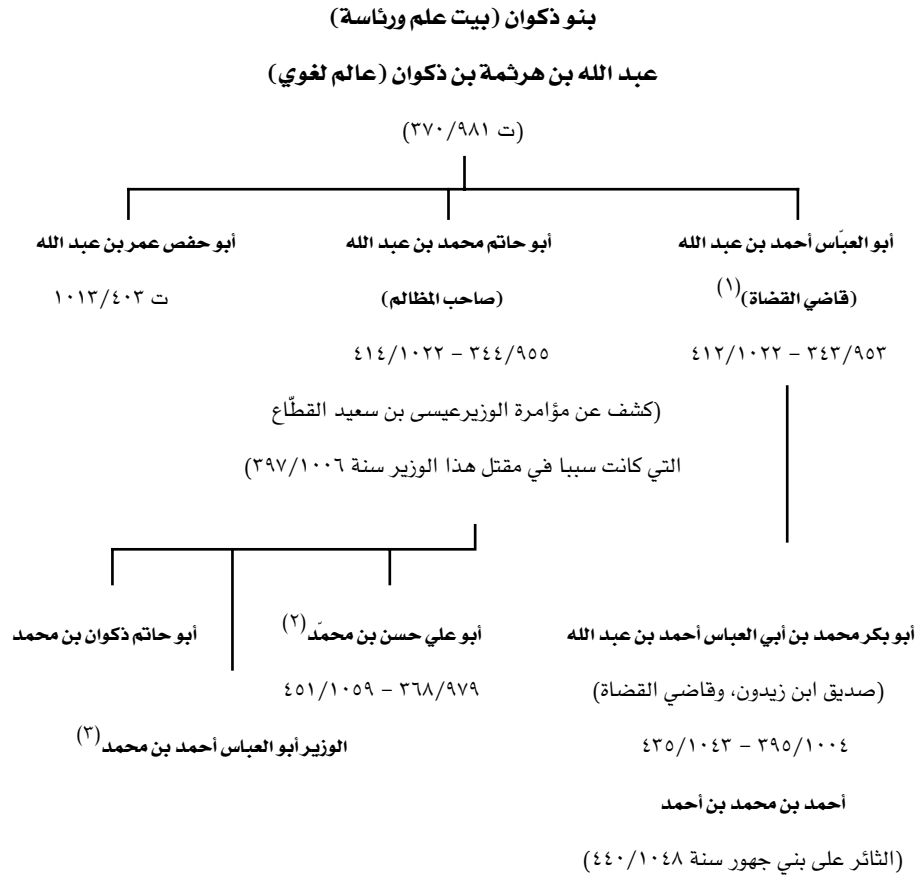
علاقة ابن زيدون ببعض معاصريه من أصدقائه تقدّم لنا جانباً هاماً من الحياة الاجتماعية في عصره ثقافياً وسياسياً. من هؤلاء يمكن أن نذكر :

- أبا بكر محمد بن أبي العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان (٣٩٥/١٠٠٤ - ٤٣٥/١٠٤٣) : هو صديق ابن زيدون ولِدته وبلديّه، لهذا نرجّح أنّ الشاعر درس على نفس الشيوخ الذين درس عليهم أبو بكر، ومن بينهم أبو الوليد يوسف بن عبد الله بن مُغيث المعروف بابن الصّفار (ت ٤٢٩/١٠٣٨) وأبو المطرّف عبد الرّحمان بن مروان الأنصاري القنازعي (ت ٤١٣/١٠٢٢). كان أبو بكر مغرماً بالكتب فكوّن لنفسه مكتبة من أنفس المكتبات بقرطبة.

عيّن أبو بكر وزيراً في عهد يحيى بن علي بن حمّود، وتولّى خطّة المظالم في عهد المعتدّ آخر خلفاء بني أميّة بقرطبة. ثمّ عرض عليه أبو الحزم بن جهور بعد وفاة شيخه ابن مغيث خطّة القضاء بإشارة من أهل قرطبة فرفضها، ولكنّه عاد وقبلها بعد أن اشتدّ إلحاح الناس عليه.

جرى في القضاء على سنن أبيه في الصلابة ونصرة الحقّ فحمّد بعضهم سيرته، ومقتته آخرون. رفض أن يسلم مال الأوقاف إلى أبي الحزم، وعزل نفسه سنة ٤٣٠/١٠٣٩ عندما أحسّ بكره الناس وصاحب قرطبة له لصرامته في تطبيق الشريعة^(١).

(١) عيّن أبو الحزم بن جهور في القضاء مكانه محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بالمكوي، وهو القاضي الذي حكم على ابن زيدون بالسّجن، بعد عزل هذا القاضي سنة ٤٣٥/١٠٤٣ رجعت الخطّة إلى بني ذكوان في شخص أبي علي حسن بن محمد بن ذكوان. (انظر شجرة عائلة بني ذكوان في الصّفحة الموالية).



- (١) اتّهم أبو العباس مع أخيه أبي حاتم بالميل إلى سليمان المستعين والبربر، فنفاهما واضح حاجب هشام إلى المريّة ثمّ وهران، ثمّ عادا إلى قرطبة بعد مقتل واضح.
- (٢) تولّى أحكام السوق ثمّ القضاء، عُزل ولزم بيته في ثورة ابن ابن عمّه أحمد بن محمد بن أحمد (الذخير/١/٢٨٤ تعليق ٢).
- (٣) هو الذي خاطبه ابن زيدون في خصوص تحريم ابن جهور للخمرة (الدّيان، ص ١٨٢)، تولّى السّفارة مع أخيه ذكوان لأبي الوليد بن جهور فهل كان ذلك على حساب ابن زيدون ؟

أشار ابن بسّام في الذخيرة إلى جانبين متناقضين ولكن متكاملين في شخصية أبي بكر : الجدّ والصّرامة في مجلس قضائه، والدّعابة والهزل في مجلس أنسه^(١)، وهذا الجانب الأخير هو الذي جعله من أعزّ أصدقاء الشّاعر. فنراه يتألّم لوفاته ويرثيه في مناسبتين^(٢).

- أبا مروان حيّان بن خلف بن حيّان : أعظم مؤرّخ أنجبته الأندلس (٢٧٧/٩٨٧ - ٤٦٩/١٠٧٦). كان أبوه خلف (ت ٤٢٧/١٠٣٦) من أعمق أساتذته تأثّيرا فيه، وأهمّ مصدر من مصادر تاريخه^(٣). ترك له مكتبة ثريّة وجد فيها الابن الطّلبة ضالّته. ونرجّح أنّ ابن زيدون جلس مع صديقه ابن حيّان للأخذ عن أبيه خلف، رغم أنّ المؤرّخ كان أكبر سنّا من الشّاعر.

وقد خصّ ابن حيّان ابن زيدون بفقرات في كتابه تدلّ على إعجاب متبادل بينهما. خدم الاثنان بلاط بني جهور بقرطبة، لكن لم يبلغ ابن حيّان الدّرجة التي بلغها ابن زيدون. كما أنّ الرّجلين تعرّضا إلى محنة من هذه الدّولة التي عاشا في كنفها : بالنّسبة إلى محنة ابن زيدون سنحلّلها بشيء من التّفصيل فيما بعد. أمّا محنة ابن حيّان فقد رواها لنا ابن سعيد في المغرب بقوله "حلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دم ابن حيّان، فأحضره أبوه أبو الوليد وقال : والله لنن طراً على ابن حيّان أمر لا أخذنّ فيه سواك. أتريد أن يضرب بنا المثل في سائر البلدان بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرّخين ببلدنا تحت كنفنا مع أنّ ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه"^(٤). وسبب نقمة عبد الملك على ابن حيّان واعتزامه الإيقاع به هو أنّه نقد والدّه أبا الوليد بن جهور نقداً لاذعا ذكر فيه أنّه لا يصلح للإمارة في قرطبة. وكان عبد الملك معروفا بالتسرّع والجرأة على الدّماء، فقد قتل وزير والده ابن السّقاء رغم

(١) الذخيرة : ٢/١ - ٤٢١.

(٢) الديوان، ص ١٥٣ - الذخيرة : ٢/١ - ٣٩١، ٤٢٢.

(٣) ابن سعيد : المغرب : ١/١١٧.

(٤) المصدر السّابق.

معارضة أبي الوليد.

وعن ابن زيدون أخذ ابن حيّان بعض الأخبار :

- أخذ عنه الحوار الذي دار بين حبّوس الصنهاجي ومحمد بن عبد الله، وفيه من الذكاء وسرعة البديهة ما يذكّرنا بأخبار العرب قديماً^(١).

- أخذ عنه الخبر الذي رواه ابن زيدون عن ابن الباجي كاتب الرّسائل في تصوير شخصية أبي جعفر أحمد بن عبّاس وزير زهير الصقلبي صاحب المريّة^(٢).

ويبدو أنّ علاقة ابن حيّان استمرّت بعد وفاة الشاعر مع ابنه أبي بكر بن أبي الوليد بن زيدون بعد أن أصبح (ابن الشاعر) وزيراً للمأمون بن المعتمد في قرطبة. فقد راسل أبو بكر ابن حيّان صديق والده، وبعث له بهديّة تتمثّل في أحمال من القمح والزيت والدّهن، وكان فرح ابن حيّان بها كبيراً^(٣).

آمن ابن حيّان بوحدة الأندلس، وقد تحقّقت هذه الوحدة مع بني أميّة فمدحهم وأثنى عليهم، وتمزّقت هذه الوحدة أيام ملوك الطوائف بسبب أنانيّتهم وتناحرهم، فبدأت الأندلس تضيع على أيديهم ممّا جعل ابن حيّان ينقدهم بكلّ جرأة نقداً لاذعاً. هل كان صديقه ابن زيدون ممّن يؤمنون بهذه الوحدة ؟

- ابن شهيد : (٣٨٢/٩٩٢ - ٤٢٦/١٠٣٥) : كان ابن شهيد شبيهاً بصديقه ابن زيدون في جمعه بين المنظوم والمنثور، وأكد أنّ مجالس الأُنس كانت تجمعهما في قرطبة، ولا تخلو هذه المجالس من دعابة بين الشعاعين، فقد أورد ابن بسّام "أنّ ابن شهيد كان

(١) الدّخيرة : ٤٦١/١/١.

(٢) الدّخيرة : ١٧٦/٢/١.

(٣) المقتبس : تحقيق مكّي، ص ٥٢ من التّمهيد.

(٤) محمد مفتاح : وجهة نظر في غزل ابن زيدون (مجلة الكتاب : عدد خاص بابن زيدون، طبعة الرباط ١٣٩٥/١٩٧٥، ص ٣٤٦).

(٥) ديوان ابن شهيد، تحقيق شارل بلا - بيروت ١٩٦٣/١٣٨٣، ص ١٦١.

يحبّ مازحة غلام ومنافرته فوشى بينهما واش ولعلّ هذا الواشي هو ابن زيدون نفسه^(٤)
كما يتّضح من خلال مقطوعة لابن شهيد:
[المتقارب]^(٥)

وَقُلْتُ: ابْنَ زَيْدُونِ لَا كُنْتُ لِي
بِخَالٍ وَلَا كُنْتُ لِي بِابْنِ عَمٍّ
خَبِيثٌ سَعَى بَيْنَنَا بِالنَّمِيمِ
وَقَطَعَ خُلَّتْنَا بِالْجَلَمِ

- وذكر ابن زيدون في ديوانه ورسائله شخصيات أخرى من شيوخه وأصدقائه وهم:

- أبو حفص بن برد : أحمد بن محمد بن أحمد بن برد ويلقب بابن برد الأصغر
تميّزا له عن جدّه أحمد به برد الأكبر (ت ١٠٢٧/٤١٨) خاطبه ابن زيدون بقصيدة رائعة
مطلعها:
[مجزوء الرمل]^(١)

مَا عَلَى ظَنِّي بَأْسُ
يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو

كان ابن برد الأصغر حيّاً سنة ١٠٤٨/٤٤٠^(٢).

- أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النّحوي : راسله بعد فراره من سجنه نشرّاً
وشعراً ليبرّر فراره ويطلب شفاعته لدى ابن جهور^(٣).

- أبو القاسم بن رفق : راسله شعراً يشكو من الدهر الخؤون الذي أبعد عنه صديقاً
وفياً وسنداً قوياً، فأصبح وحيداً أمام خطوب الزّمن وويلات اللّياالي ومصائب الأيام، ثمّ
يذكر صديقه بمجالس الأنس، بمتعها ومباهجها، بنعيمها ومسراتها^(٤).

- ذو الوزارتين أبو عامر محمد بن مسلمة : راسله شعراً يستدعيه لزيارته في ليلة

(١) الديوان، ص ١ .

(٢) ابن خاقان : القلائد، تحقيق ابن عاشور، طبعة تونس ١٩٩٠/١٤١١، ص ١٨٥ .

(٣) الديوان، ص ١٣ .

(٤) الديوان، ص ١٧٠ .

(٥) الديوان، ص ٥٩ .

أنس بإشبيلية^(٥). وأبو عامر هذا هو صديق لابن زيدون ولوالده من قبله، وهو الذي توسّط له لدى المعتضد بعد خروجه إلى إشبيلية.

وأغلب هؤلاء الأصدقاء والشيوخ لم يغادروا قرطبة مثل ابن زيدون أثناء الفتنة الكبرى، فقد عاشوا بقرطبة أيام عزّها، فأبوا مغادرتها أيام بؤسها. وعُلّ ابن شهيد ذلك بأنّه العشق لاط بالقلوب لعجوز فانية كانت حسناء فانتة:

[المتقارب]^(١)

عَجُوزٌ لَعَمْرُ الصَّبَا فَانِيَةٌ
لَهَا فِي الْحَشَا صُورَةُ الْغَانِيَةِ
زُنْتُ بِالرَّجَالِ عَلَى سَنِّهَا
فَيَا حَبِّذَا هِيَ مِنْ زَانِيَةٍ
تَرَدَيْتُ مِنْ حُزْنٍ عَيْشِي بِهَا
غَرَامًا قَيَا طُولَ أَحْزَانِيَةِ

وأكد أنّ ابن زيدون عاش في مجتمعه من كانوا يتظاهرون له بالصدّاقة وهم يكتنون له الحقد والبغضاء كالوزير الشاعر ابن عمار وآخرين كانوا له أصدقاء ثمّ تغيّروا وانقلبوا عليه كابن عبدوس وابن القلاس وابن المكوي^(٢).



(١) ديوان ابن شهيد، ص ١٧٧ .

(٢) انظر محطّة المحبّة، ص ٢١٩ .

ابن زيدون :آثاره

قال ابن بسّام : "كان أبو الوليد صاحب منثور ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم، وأحد من جرّ الأيَّام جرّاً، وفاق الأنام طراً، وصرف السلطان نفعاً وضرّاً، ووسع البيان نظماً ونثراً، إلى أدب ليس للبحر تدفّقه ولا للبدر تألّقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزّهر اقترانه، وحظّ من النثر غريب المباني، شعري الألفاظ والمعاني"^(١).

وابن زيدون في جمعه بين النّظم والنثر يشبهه في المشرق كلثوم بن عمرو العتّابي وإبراهيم بن العبّاس الصّولي وأبا إسحاق الصّابي وأبا الفرج البغّاء، وأبا الفتح كشاجم وأبا العلاء المعرّي، وفي المغرب والأندلس ابن رشيق وابن شرف وابن شهيد وابن الخطيب.

بالنسبة للمنظوم ترك لنا ابن زيدون ديواناً، ومع الأسف لم يتمّ إلى سنة ١٤٢٤/٢٠٠٣ تحقيقه تحقيقاً علمياً، لذا نجد اختلافاً بيننا في عدد القصائد، وأحياناً في عدد الأبيات، وتارة في قراءة بعض الأبيات. وهذا راجع إلى الاختلاف بين نسخ مخطوطاته. وحسب أحد محقّقي الديوان "وفق النسخ أيّما توفيق في تشويه محاسن هذا الديوان الفذّ وتحريف أبياته وطمس غرره وغيوبه"^(٢):

أ- مخطوطات الديوان :

– مخطوط رقم ٧٦، شعر تيمور، مكتبة تيمور، دار الكتب المصرية.

– مخطوط رقم ٦١٧، شعر تيمور، مكتبة تيمور، دار الكتب المصرية.

– مخطوط رقم ٤١٣، مكتبة الأزهر، دار الكتب المصرية.

(١) ابن بسّام : الذخيرة : ٣٣٦/١/١.

(٢) ديوان ابن زيدون، شرح وضبط وتصنيف كامل الكيلاني وعبد الرحمن خليفة، طبعة I، ١٣٥١/١٩٣٢، وهو الديوان المعتمد في هذه الدراسة.

- مخطوط رقم ٥٥٥، أدب، دار الكتب المصرية.

- مخطوط رقم ٤٩٥، أدب، دار الكتب المصرية.

- جزء من شعر ابن زيدون في "المختار من شعراء الأندلس" لأبي القاسم علي بن سليمان المعروف بابن منجب الصيرفي (ت ١١٤٧/٥٤٢)، مخطوط مكتبة ح.ج. عبد الوهاب - دار الكتب الوطنية التونسية.

ب- طبقات الديوان : مرتبة ترتيباً زمنياً:

- أوغست كور : Auguste Cour ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق ودراسة لقسم من شعره ونثره - طبعة قسنطينة - جامعة الجزائر، كلية الآداب، مطبعة أ. ثبار. و م. بوات سنة ١٩٢٠/١٣٣٩ في ٢٢٩ ص : ٦٦ ص بالعربية، ١٥٩ بالفرنسية، فهارس الأعلام ٣ صفحات.

- أبو بكر محمد عليم (شارح) : ديوان ابن زيدون ورسائله - طبعة أم درمان - السودان، المكتبة العصرية، مطبعة الشرق ١٩٢٦/١٣٤٥ في ٣٩٨ ص منها ٨ صفحات للرسالة الجدية، و ١٣ ص للرسالة الهزلية وه صفحات للفهرس والتصويبات.

- كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة (شرح وضبط وتصنيف) : ديوان ابن زيدون ورسائله وأخباره، شعر الملكين (المعتضد والمعتد)، طبعة I، ١٩٣٢/١٣٥١ رقم ٤٧٤، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (فهرس من ص (٣) - (٧) تصدير (٨) - (٩)، مقدمة من ص (١٠) - (٥٦)، الديوان من ص ١-٣١٢، الرسائل : الهزلية ٣١٤، الجدية ٣٣٣، المظفرية ص ٣٤٦-٣٥٤، رسالة إلى ابن مسلمة ٣٥٥، رسالتان إلى المعتضد ص ٣٥٧-٣٥٨ رسالة بعث بها وهو في سجنه ٣٦٠، شعر المعتضد ٣٧٠، شعر المعتد ٣٧٧، معارضات الشواء لابن زيدون ٤٠١، نصوص ٤٢١، دراسات ٤٣٠، فهرس القوافي ٤٥٥ .

- محمّد سيّد كيلاني (محقّق)، طبعة I، القاهرة ١٩٥٦، مطبعة مصطفى البابي الحلبي في ٣١٥ ص، طبعة II، ١٩٦٥ .
- كرم البستاني (محقّق)، ديوان ابن زيدون، طبعة I، ١٣٧١/١٩٥١ في ٣٠٣ ص، مطبعة دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة II، ١٣٨٠/١٩٦٠ في ٢٩٦ ص، مقدّمة ٦ ص، فهرس ٣ ص، طبعة III/١٣٨٣/١٩٦٣، طبعة IV/١٣٨٤/١٩٦٤، طبعة V، ١٩٧٩/١٤٠٠، ط VI، ١٩٨٤/١٤٠٥ .
- علي عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله، طبعة I، القاهرة ١٩٥٧، مطبعة نهضة مصر بالفجالة في ٨٧٠ ص، وفي هذه الطبعة زيادة على الديوان نجد الرسائل : الهزليّة، الجديّة، البكريّة الغاويّة، المظفريّة، العباديّة، ط II، ١٩٨٠ في ٨٠٩ ص.
- ديوان ابن زيدون، طبعة الشركة اللبنانيّة للكتاب، بيروت ١٩٦٩ .
- حنّا الفاخوري (محقّق) : ديوان ابن زيدون، طبعة بيروت ١٩٩٠، مطبعة دار الجيل للنشر والتّوزيع والطباعة في ٥٢٦ ص (موسوعة دواوين الشّعْر).
- يوسف فرحات (شارح)، طبعة بيروت، ١٩٩١، مطبعة دار الكتاب العربي في ٣٤٧ ص.
- عبّاس إبراهيم : ديوان ابن زيدون، طبعة بيروت ١٩٩٦، مطبعة دار الفكر العربي للطباعة والنّشر في ٢٣٨ ص.
- ديوان ابن زيدون، مطبعة دار صادر، بيروت ٢٠٠٠، في ٢٩٩ ص.
- عمر فاروق طباع (محقّق) : ديوان ابن زيدون، مطبعة دار القلم بيروت، بدون تاريخ في ٢٥٥ ص.
- ديوان ابن زيدون، مطبعة دار صادر بيروت، بدون تاريخ في ٣٠٠ ص.
- ديوان ابن زيدون، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ديوان ابن زيدون ورسائله دار النّهضة، القاهرة، د.ت.

أما بالنسبة للمنثور فلا بن زيدون عدّة رسائل :

أ- مخطوطات الرسائل :

- الرسالة الهزلية : كتبها على لسان ولادة للوزير ابن عبدوس منافسه في حبّ ولادة "وقد تهكّم ابن زيدون عليه أبرع تهكّم وجعله مضغّة في الأفواه، وموضع تفكّه النَّاس وتندّرهم"^(١).

- مجموع الخزانة العامّة بالرباط ٩/٤٩٦، ص ص ٢٤٢-٢٤٤.

- مجموع الخزانة العامّة بالرباط ١٦٣ D / ١٩٠٠ من الورقة ٢٥/ب إلى ٣١/أ: ذكرها بروكلمان في ملحقه I / ٤٨٥، وكذلك سركيس في معجمه، ص ٢٦٣ .

- شرح الرسالة الهزليّة "شرح العيون" لابن نباتة : مخطوط المتحف البريطاني رقم ٨٥٧٨.

- جامع الفنون في شرح رسالة ابن زيدون لأمين بن إبراهيم الشّميل اللّبناني (ت١٨٩٧/١٣١٥)، مخطوط تونس رقم ٣٧٤٠ .

- الرسالة الجدّية : وهي الرسالة التي بعث بها ابن زيدون من سجنه إلى أبي الحزم ابن جهور يبيّن فيها إخلاصه لدولته ويطلب العفو عنه بإخراجه من سجنه وانتشاله من محنته، وهي امتداد في نظر بعض النّقّاد لمدرسة بديع الزّمان الهمذاني في مقاماته^(٢).

- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لصلاح الدّين بن أيّيك الصّفدي، مخطوط دار الكتب المصريّة، ٢٤٨ أدب.

- مختصر تمام المتون لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٦٠٤/١٠٩٣) رقمه ٨٧٢٢ أدب، دار الكتب المصريّة.

(١) سلمى الحفّار الكزبري : أثر ولادة في حياة ابن زيدون وفنّه، مجلّة الكتاب، ص ٣٠٧ .

(٢) (مصطفى الشّكعة : المغرب والأندلس، ص ٣٩١).

ب- طبقات الرسائل :

- الرسالة الهزلية :

- طبعت ضمن مجموعة منتخبات عربية في فيانا ١١٨٤/١٧٧٠ ومعها ترجمة إلى اللاتينية بعناية ج.إ. ريسك J.I Reisk.

- شرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧٧/١٩٥٧ في ٢٩٤ ص، ومعها الرسالة الجديدة، ص ص ٢٩٥-٣٠٤.

- شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة، تحقيق إبراهيم محمد أبو الفضل، طبعة I، بيروت ١٣٨٣/١٩٦٤ في ٥٧٣ ص الناشر دار الفكر العربي، طبعة II، بيروت ١٩٨٦/١٤٠٦ في ٥٥٨ ص).

- نشرت مع الديوان شرح وضبط وتصنيف كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، طبعة I، مصر ١٩٣٢/١٣٥١، ص ص ٣١٤-٣٣٢ .

- الرسالة الجديدة :

- نشرها مع سيرة ابن زيدون بستون Besthon في كوبنهاجن Copenhagen مع ترجمة إلى اللاتينية.

- إظهار المكنون من الرسالة الجديدة لابن زيدون، تحقيق مصطفى عناني، طبعة I، القاهرة ١٣١٧/١٨٩٩، طبعة II، مصر ١٣٤٥/١٩٢٦ في ٨٤ ص.

- الدرّ المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق أبي بكر محمد عليم، طبعة مصر ١٣٤٥/١٩٢٦، في ٢٥٥ ص.

- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لخليل بن أيبك الصفدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة، دار الفكر العربي ١٣٨٩/١٩٦٩ في ٣٩٩ ص.

- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي بعناية محمد رشيد الصفار، مطبعة الولاية، بغداد ١٣٢٧/١٩٠٩، في ٣٢١ ص.

- نشرت مع الديوان شرح وضبط وتصنيف كامل كيلاني وعبد الرحمان خليفة،
طبعة I، ١٩٣٢/١٣٥١ من ص ٣٣٣ إلى ص ٣٤٥ .

- نشرت في الذخيرة لابن بسام: I/١/٣٤٠ - ٣٤٦ .

- نشرت مع سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين بن محمد
ابن نباتة المصري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٥٧/١٣٧٧ من
ص ٢٩٥ إلى ص ٣٠٤ .

- رسالة في شكل قصيدة أرسلها من سجنه إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص
بن برد^(١) مطلعها:
[مجزوء الرمل]

مَا عَلَى ظَنِّي بَأْسُ
يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو

نشرت في الديوان، طبعة كيلاني، ص ١-٣، كما نشرت في الذخيرة : I/1/358-359.

- رسالة بعثها بعد فراره من سجنه إلى أستاذه وصديق أبيه بكر مسلم بن
أحمد بن أفلح النحوي^(٢). نشرت في الديوان، طبعة كيلاني، ص ٣٦٠-٣٦٩، وفي
الذخيرة : I/1/ص ٤٠٨-٤١٧، والذخيرة : I/1/ ص ٣٥٥ .

- رسالتان إلى المعتضد^(٣) : نشرتا مع الديوان، طبعة كيلاني، ص ٣٥٧-٣٥٩،
وفي الذخيرة : I/١/٤٠٥ - ٤٠٧ والذخيرة I/١/٤٠٧ - ٤٠٨ .

(١) قصيدة كلها ألم ولوعة وحزن قالها بعد "فقد الوفاء من آلافه... وقد حار ولم يجد هاديا، وصار رهينا لا يرجو
فاديا، وعلم أن الناس متقلبون، وعلى من انقلب الدهر منقلبون، لا يُدنيه في الشدة إزاء ولا يثنيه عن ذوي
الحظوة زهو ولا انتقاء" الديوان، ص ١، تعليق ١ .

(٢) "رسالة صور فيها كل ما اعتلج في نفسه من آلام وقلق، وما وقر في خاطره من خوف وحذر مضمنا إياها ألوانا
من العتاب الصادق المر، مسجلا فيها مشاعره حيال وطن لا يستشعر فيه أسباب الأمن" (مصطفى الشكعة :
المغرب والأندلس، ص ٣٩٥).

(٣) الرسالة الأولى : مدحياً يمهّد بها للمثول بين يدي المعتضد والثانية كتبها له من قرطبة بعد خروجه من إشبيلية
يدعو له بالنصر ويشكره على ما وجده لديه من نعم وأمن وكبت للحساد وقهر للأعداء.

- رسالة إلى صديق والده أبي عامر محمد بن محمد بن مسلمة الوزير الأديب، صاحب كتاب "الارتياح في وصف الرّاح"^(١)، نُشرت مع الديوان، طبعة كيلاني، ص ص ٣٥٥-٣٥٦، وفي الذّخيرة : ٤٠٣/١/١ - ٤٠٥.

- الرّسالة المظفريّة^(٢) :

- توجد في الذّخيرة : ٣٩٧/١/١.

- نشرت مع الديوان، طبعة كامل كيلاني من ص ٣٤٦ إلى ٣٥٤ .

- نشرت مع الديوان، تحقيق علي عبد العظيم، القاهرة ١٩٥٧/١٣٧٧، ص ص ٤٠٦-٤١٧، ص ص ٧٥٤-٧٦٢ .

- وتوجد مقتطفات من رسالة (أو رسالتين) موجّهة (أو موجّهتين) إلى المظفر صاحب بطليوس فيها مدح واعتراف بالجميل مع شكر على هديّة، في الذّخيرة : ٤/١/١ - ٤٤٣.

- نصّ في شكل مقامة على لسان ابن زيدون، أورده ابن بسام في ذخيرته (الذخيرة ٩/١/١ - ٣٩٨) يحكى فيها قصّته مع ولّادة في نثر هو أقرب إلى الشّعْر، (مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس، ص ٣٩٨).

ونُسب لابن زيدون خطأ كتابان :

- كتاب التّبيين : قال المقري "وقد صنّف أبو الوليد ابن زيدون كتاب التّبيين في خلفاء بني أميّة بالأندلس على منزع كتاب "التّعيين في خلفاء المشرق" للمسعودي^(٣) والمقصود بأبي الوليد بن زيدون هو أبو الوليد الحفيد لا الجدّ (انظر شجرة عائلة ابن زيدون).

(١) رسالة إلى أبي عامر بن مسلمة في إشبيلية "كي يزكّيه عند المعتضد بن عبّاد ويقدمه إليه". وفي هذه الرّسالة حسب بعض النّقّاد استقلّ ابن زيدون بنهج في الكتابة يقوم على التخلّص من إसार السّجع إلّا ما جاء فيض خاطر وعفو البديهة (مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس، ص ٣٩٣).

(٢) هذه الرّسالة تبدو في الظّاهر رسالة شفاعة لصديق لدى سيف الدّولة المظفر أبي بكر بن الأفتس، وقد يكون هذا الصديق هو ابن زيدون نفسه، وفي هذه الرّسالة يتّبع أسلوب بديع الرّمان الهمداني في إحدى رسائله إلى أبي بكر الخوارزمي (مصطفى الشكعة المغرب والأندلس، ص ٣٩٢).

(٣) النّفح، طبعة بيروت، ج ٣/١٨٢ .

ولم تقع الإشارة إلى هذا الخطأ في طبعة نفح الطيب الأولى، القاهرة، ١٩٤٩، ج ١، ص ٣١١، ولا في الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٨/١٣٨٨، ج ٣/١٨٢.

والغريب أن الدكتور محمود علي مكّي في المقدمة التي وضعها لكتاب المقتبس لابن حيّان (طبعة بيروت ١٩٧٣، ص ٥١، تعليق ١) أشار إلى أن هذا الكتاب لابن زيدون الشاعر معتمداً في ذلك على نفح الطيب وعلى كتاب بونس بويجس "المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون"، ص ١٤٧.

وقد قام الأستاذ محمد بنشرية بإصلاح هذا الخطأ في مقال له عنوانه "حول نسبة كتاب في التاريخ إلى الشاعر ابن زيدون" في مجلة كلية الآداب، الرباط عدد ٣-١٩٧٨/٤، ص ص ٦١-٨٠.

ومن المعلوم أن أهل الأندلس اعتادوا تسمية الأبناء بأسماء الآباء، ولنا على ذلك خير مثال ابن رشد الجد وابن رشد الحفيد (الفيلسوف).

- جاء في كتاب الأستاذ مصطفى الشكعة "المغرب والأندلس" ص ٤١٥ أن ابن زيدون إلى جانب الإبداع في الشعر والتفوق في النثر ألف كتاباً لطيفاً لصديقه أبي عامر ابن مسلمة في إشبيلية أسماه "حديقة الارتياح في وصف الرّاح"، والصّواب أن هذا الكتاب ألفه أبو عامر بن مسلمة^(١).

(١) انظر النفح ٣/٥٤١، والمغرب: ١/٩٦.

ابن زيدون : محطة المحبة

قالت ولادة :

أَنَا وَاللَّهِ أَصْلَحُ لِلْمَعَالِي
وَأَمْشِي مِشْيَتِي وَأَتِيهِ تِيهَا
وَأَمْكُنْ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِّي
وَأُعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا

محورها المرأة الأندلسية بصفة عامة وولادة بنت المستكفي نموذجا لها بصفة خاصة، لأنها المرأة التي أحبها الشاعر وعرف معها لذة الوصل ومرارة الهجر.

أ- المرأة الأندلسية في القرن ٥/١١ :

يمكن أن نعتبر أن ديوان ابن زيدون وكتاب طوق الحمامة لابن حزم -وهما من آثار القرن ٥/١١- قد فتحا الباب على مصراعيه لمعرفة عالم المرأة في هذا القرن :

أما ديوان ابن زيدون^(١) وخاصة بقسمه الغزلي فيقدم لنا مثلث المحبة بقاعدته جمال الجسد وفتنته، وبضلعيه : الوصل ومتعه، والهجر ومُعاناته، وقد جاء هذا القسم بطرق ثلاثة :

- قصائد غزلية وعددها ست قصائد.

- مقطوعات غزلية وعددها ست وخمسون قصيدة.

- مقدّمات غزلية لقصائد تقليدية في المدح وطلب العفو وفي الشكوى والغربة وفي الحنين والذكرى وعددها عشرون قصيدة.

(١) اعتمدنا ديوان ابن زيدون طبعة كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، مصر، ١٩٣٢ .

أمّا كتاب طوق الحمامة^(١) فهو تطبيق لهذا الديوان في دنيا الواقع بل هو مرآة انعكست عليها صورة المرأة الأندلسية في حبّها وعشقها إلى حدّ الموت^(٢)، في حيلها ومراوغاتها إلى حدّ الخيانة^(٣) في عفتها وتقواها إلى حدّ التنسك، في ضروب عملها ونشاطها في المجتمع^(٤)، في حريتها وسلطانها على الرجل، في ثقافتها وإبداعها، في القصور والرياض وفي المجالس والنوادي^(٥).

لكن هذه المرأة لم تعكس فقط صورة المرأة بل عكست أيضا صورة الرجل في حبه وعشقه، في ضعفه وتذلّله^(٦)، في شذوذه ونزواته^(٧).

واعتماداً على هذين المصدرين بصفة خاصة وبعض المصادر الأخرى ككتب الفتاوى وكتب التراجم بصفة عامة يمكن أن نقف على بعض جوانب من حياة المرأة الأندلسية في القرن ٥/١١ .

- المرأة والحرية : لا شك أنّ المرأة الأندلسية كانت تتمتع بنصيب أوفر من الحرية يفوق نصيب المرأة الشرقية. قد يرجع هذا إلى ما كان لسكان شبه الجزيرة الإيبيرية من تقاليد قبل الفتح الإسلامي استمرت بعد دخول العرب إليها نظرا إلى التفوق العددي للسكان الأصليين، ومن هنا نرى عكس نظرية ابن خلدون وهو تشبّه الغالب بالمغلوب. وبالنسبة إلى القرن ٥/١١ هناك عامل آخر لا يمكن تجاهله وهو تفكك الوحدة السياسية واختلال النظام وضعف الوازع من سلطة ودين وأخلاق.

ولئن لعبت المرأة الأندلسية دورها في المجتمع الأندلسي ثقافياً وفكرياً، اجتماعياً

(١) اعتمدنا كتاب "طوق الحمامة"، تحقيق وترجمة ليون برشي، الجزائر، ١٩٤٩ .

(٢) طوق الحمامة، ص ٣٠٢ .

(٣) طوق الحمامة، ص ٦٠-٨٨-٣٢٤-٣٢٦ .

(٤) طوق الحمامة، ص ٨٨ قال ابن حزم "ومن النساء كالطبيبة والحجامة والسوافة والدالّة والماشطة والنّائحة والمغنية والكاهنة (قارئة الكف والبروج) والمعلّمة، والمستخدمة (خادمة المنازل) والصنّاع في المغزل والنّسيج".

(٥) طوق الحمامة، ص ١٦٨، ١٨٤، ٢٥٦، ٢٥٨ .

(٦) المصدر السابق، ص ١١٢-١٢٦ .

وسياسياً خلال كامل مراحل التّواجد الإسلامي بالأندلس، فقد تدعّم هذا الدّور خلال القرنين ٤ و١٠/٥ و١١ وخاصة الدّور الثقافي. ولم تكن الضغوطات التي فرضتها التقاليد^(١) كعدم الاختلاط بالرجال وعدم الخروج إلّا للضرورة، وعدم السّفَر بدون محرم، والتستّر إذا خرجت، بمانعة لها أن تنال نصيبها من التعليم والدّراسة أخذًا وعطاءً.

ولئن وقع الاهتمام بالجوّاري من النساء فكُنّ يدرسن اللّغة ويحفظن الأشعار ويتدربن على العزف والغناء ليرتفع ثمنهنّ في تجارة الرّقيق^(٢)، فقد حرصت الحرائر على ألاّ يكنّ أقلّ من الجوّاري ثقافة وظرفاً حتّى يحافظن على مكانتهنّ بين الحريم بعد أن كثرت فيه الجوّاري. فهذا ابن حزم في قصر أبيه يتلقّى تعلّمه عن النساء "فهنّ علّمنه القرآن وروّينه كثيراً من الأشعار ودربّنه على الخطّ"^(٣). والأمثلة على ثقافة المرأة الأندلسيّة كثيرة. فهذه إشراق مولاة عبد الرّحمان بن غلبون (ت ٤٤٣/١٠٥١) تعلّمت من سيّدها النحو واللّغة ثمّ فاقتّه وبرعت في العروض وحفظت الكامل للمبرّد والنوادر للقالبي.

وقد حرص المقرّي في النّفح على ذكر بعض المثقّفات الأندلسيات كأُمّ الكرام بنت المعتصم بن صمّاح وحفصة بنت حمدون الحباريّة وبثينة بنت المعتمد وطونة بنت عبد العزيز بن موسى العالمة أخذت عن أبي عمرو بن عبد البرّ وكتبت تصانيفه.

ومن مظاهر حرّية المرأة الأندلسيّة خلال القرن ١١/٥ خروجهنّ إلى سوق الغسل، وخاصة زهابهنّ يوم الجمعة من كلّ أسبوع إلى باب العطّارين لشراء ما هنّ في حاجة إليه لزينتهنّ وعطرهنّ. وليس غريباً أن يصبح هذا الباب ملتقى للمحبّين والعشّاق يؤمّه الرّجال لرؤية وجه جميل وقدّ مثير، وقصّة الشاعر الرّمادي مع الجارية بباب العطّارين التي أحبّها

(١) هذا العامل ينطبق على الحرائر أكثر من انطباقه على الجوّاري، فقد كنّ أكثر حرّية منهنّ.

(٢) اشترى أحد ملوك الطّوائف جارية بثلاثة آلاف دينار (البيان ٣٠٨/٣).

(٣) طوق الحمامة، ص ١٢٦ .

من أول نظرة خير مثال على ذلك^(٤).

لكن لهذه الحرّية -قولاً وفعلاً- خطوط حمراء إذا تجاوزتها كان العقاب الفظيع والقصاص الشنيع، فهذا خليفة ينتقم من عائلة بأكملها وهي عائلة آل مغيث لأنّ أحمد بن مغيث الشاعر تغزل بأحد بناته^(١). وهذا المنصور بن أبي عامر يقتل جارية لأنّها غنّت أمامه بأبيات موضوعها غزل بصبح أم هشام المؤيد المتهم بحبّها^(٢).

وكان من نتيجة انفراط عقد الأندلس السياسي أن تعددت المعارك والفتن وبرزت في خضمّ مآسيها - وخاصة في فترات السلم - قيم للفروسية. ومن جملة هذه القيم تكريم المرأة وتبجيلها، لقد كانت النساء عنصرًا متميزًا بين المشاهدين في السّاحات العموميّة التي كانت تقام فيها المبارزات بين الفرسان. وكان هؤلاء يبذلون قصارى جهدهم للفت نظرهنّ وإثارة إعجابهنّ.

- المرأة والحبّ : لعب الحبّ دوره في تدعيم حرّية المرأة وبناء شخصيتها وإثبات وجودها. وقد منحها الحبّ أحيانًا سلطانًا على الرّجل لا يقاوم وسيطرة لا تضاهى حتى ولو كان هذا الرّجل في أعلى هرم السّلطة. قال الخليفة هارون الرّشيد:

[الكامل]^(٣)

مَلِكُ الثَّلَاثِ الْإِنْسَاتِ عِنَانِي
وَحَلَلَنْ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
مَالِي تُطَاوَعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا
وَأَطِيعُهُنَّ، وَهُنَّ فِي عَصِيَانِي
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى
-وبه قوين- أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

وقال الخليفة الأموي سليمان المستعين:

[الكامل]^(٤)

(١) المصدر السابق، ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق، ص ٩٦ .

(٣) الحلة السّراء ٢/٩ .

(٤) المصدر السابق.

عَجَبًا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي
وَأَهَابُ لَحْظَ قَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
وَأَقَارِعُ الْأَهْوَالِ لَا مُتَهَيِّبًا
مِنْهَا سِوَى الْإِعْرَاضِ وَالْهَجْرَانِ
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثُ كَالِدُمَى
زُهْرُ الْوُجُوهِ، نَوَاعِمُ الْأُبْدَانِ

وأكد جلّ الباحثين من العرب والأجانب أنّ سلطان المرأة على الرجل وتعظيمه لها تجاوز حدود الأندلس إلى أوروبا عن طريق جنوب فرنسا مع شعراء التروبادور. وكان هؤلاء ينعتون أنفسهم - تأثراً بتقاليد أندلسية - بالعبيد والخدم أمام محبوباتهم فبرز بشكل واضح ما عرف بالحبّ الموانس L'amour courtois في التراث الشعري الغربي^(١).

ولم يكن سلطان المرأة على الرجل ليقف عند هذا الحدّ من العلاقات العاطفية بل تجاوزه -إذا أمعنا النظر في مجال التاريخ السياسي للدولة الأندلسية- إلى التأثير في قرارات الدولة المصيرية في القرن ١١/٥ وما قبله وما بعده، ولنا على ذلك أمثلة بارزة فزوجة الحكم المستنصر في القرن ١٠/٤ صبح البشكونسية، وزوجة المعتمد في القرن ١١/٥ اعتماد الرميكية وتسمّى بأُمّ الملوك، واختار المعتمد لقباً يناسب اسمها "اعتماد"، وثرياً زوجة سلطان غرناطة الحسن في الفترة الأخيرة من الوجود العربي بشبه الجزيرة الإيبيرية، كان لهنّ دور وأي دور في سياسة الدولة ومستقبلها بقرطبة وإشبيلية وغرناطة.

- المرأة ومجالس الأندلس : وقد أكد على هذا الدور الأمير عبد الله بن بلكين في مذكراته المشهورة، وذكر لنا ابن حزم في طوق الحمامة أمثلة على ذلك^(٢).

رغم ضغط التقاليد على المرأة -وخاصة الحرّة منهن- كنّ يخرجن إلى الطبيعة^(٣)

(١) قد يبدو لنا هذا متناقضاً لما أصبح عليه المرأة زمن الحرب من أسر وبيع وامتهان. لكنّ هذه المرأة نفسها إذا تميّزت قد تصبح زمن السلم في أعلى هرم السلطة وتدعى بالسيدة الكبرى.

(٢) طوق الحمامة، ص ١٢ .

(٣) قد يخرجن بمفردهنّ أو مع صاحب القصر أو من له سلطة عليهنّ، المصدر السابق، ص ١٦٨ .

قرب الجداول وضياف الأنهار للاستمتاع بنسيم عليل وورد جميل وماء صقيل ولحن شجي وثمر شهّي ووجه بهي. وليس غريبا أن بعض الرجال، وقد خرجوا لنفس الغابة أو غيرها^(١) أن يروا "نساء ذات شعور منشورة وخدود غير مستورة، وقد رفعت عنها البراقع وما منها نظرة إلا ومعها سهم واقع"^(٢). وقد يدخل هؤلاء المتنزهون والمتنزهات وقد التهبت الجوانح وأتقد الجوى في حوار أرق من الهواء وأبعد ما يكون عن الحياة».

والمرأة في هذه المجالس سواء أعقدت في النهار أو بالليل هي أنسها وبهجتها، فقد كانت بقريحتها شاعرة وبصوتها العذب مغنية وبرشاقتها راقصة وبحركاتها المثيرة ساقية^(٣). فإذا عقد المجلس في رحاب الطبيعة كانت المرأة الفاتنة والطبيعية الخلابة محوري هذه المجالس. ويختلط الأمر بعد شرب الكؤوس وترنح الرؤوس فإذا بالورد خدود والأقحوان أسنان والنرجس عيون والحمرة حياء على وجنة غادة خجول، والاصفرار علامة عناء على وجه عاشق متبول، والبدر في تمامه وجه منير والقدر في دلالة قضيب بان ينثني ويميل.

- المرأة النموذج في الأندلس : يبدو أن الذوق في الأندلس وخاصة في القرنين ٤، ٥ / ١٠، ١١ قد تغير نسبياً، فلم تعد المرأة ذات الشعر الفاحم الطويل، والعين الحوراء والطرف الكحيل هي النموذج للجمال في الأندلس، بل أصبحت المرأة الشقراء مقصودة الشعر هي التي تنجذب إليها قلوب الرجال وخاصة من عليّة القوم. هل يعود ذلك إلى كثرة الجواري ممن وقعن في الأسر خلال غزوات الناصر والمنصور طيلة القرن ٤/١٠ وجلهن من شمال شبه الجزيرة الإيبيرية ؟ يحدثنا ابن حزم في "طوق الحمامة" أن أبناء الخلائف

(١) يخرج الرجال لعقد المجالس الأدبية فيتناشدن الأشعار وسط الطبيعة الساحرة أو في طريقهم إلى مجلس أحد الشيوخ (طوق الحمامة، ص ١٨٤، ص ص ٢٥٦-٢٥٨).

(٢) القلائد، ص ١١٦. النفع ١/٦٧٣.

(٣) هذا الصنف من النساء كن يقدن الغلمان فيلبسن ملابس الرجال ويقصصن شعورهن على طريقة الشباب فهن نساء مسترجلات، وأكد أنهن يمارسن حريتهن بكثير من التطرف وفي بعض الأحيان بكثير من الاستهتار (هنري بريس : الشعر الأندلسي تعريب الطاهر أحمد مكي، طبعة القاهرة ١٩٨٨، ص ٣٢٧).

(٤) انظر طوق الحمامة، ص ٧٢ وعلى سبيل المثال نذكر الخليفة عبد الرحمن الثالث كانت جدته (أم أبيه محمد) هي ونقة (Iniga) بنت فرتون بن غرسية (Fortun Garcés) ويعرف بالأشقر. وكان الأمير عبد الله قد تزوجها بعد أسرها وأنجب منها ابنه محمد والد عبد الرحمن الثالث. وكانت هذه المرأة قد تزوجت قبله أزنار شانسر Aznar Sanchez فأنجب منها طوطة Toda ملكة نابار فتكون هذه الملكة عمّة عبد الرحمن الثالث وقد زارته في قرطبة سنة ٩٥٨/٣٤٧ (ابن عذاري ٢/٩٧، النفع ١/٣٦٦).

(٥) طوق الحمامة، ص ٧٢.

كان أغلبهم من الشقر لأنَّ أمهاتهم كنَّ نصرانيات من الشمال^(٤). وابن حزم نفسه يحدثنا عن ذوقه الشخصي بقوله "وعنِّي أخبرك أنَّني أحببت في صباي جارية لي شقراء فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر"^(٥).

وأفضل نموذج لهذه المرأة الأندلسية في حريتها وجمالها، في ثقافتها ومواهبها، في انجذاب الرجال إليها وتساقطهم عليها هي ولادة حبيبة ابن زيدون. فمن هي ولادة ؟

ب - ولادة (٤٨٤/١٠٩١-٤٠٤/١٠١٤) :

هي بنت محمد الثالث بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الثالث (المستكفي بالله حكم من سنة ٤١٤/١٠٢٤-٤١٦/١٠٢٥)، وهو الخليفة الأموي ما قبل الأخير في شجرة الخلافة الأموية بقرطبة ورقمه ٨، منذ أن أعلن الخلافة عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧/١٠٢٧.

كانت شقراء الشعر، بيضاء اللون، ذكية جذابة، شاعرة مولعة بالموسيقى^(١) جعلت من منزلها^(٢) منتدى للأدباء والشعراء والفنانين من عليّة القوم. هل ترك لها ابن جهور هذه الحرية لمراقبتها ومراقبة من كان يزورها، أو هو ضرب من الديمقراطية نعمت به قرطبة في بداية الدولة الجهورية ؟

قال ابن بسّام في الذخيرة مدافعا عنها "يعشوا أهل الأدب إلى ضوء غرفتها ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها وكثرة متابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب"^(٣). فهذا الوصف يجعلها أقرب إلى العفاف والحياء منها إلى الاستهتار والخناء، وينسجم مع قولها:

إِنِّي، وَإِنْ نَظَرَ الْأَنَامُ لِمُهْجَتِي

(١) قال ابن بسّام "كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر"، انظر ترجمتها في الذخيرة، ٤٢٩/١/I. وإلى مصادر ترجمة ولادة في التعليق رقم ١ من نفس الصفحة.

(٢) قال ابن بسّام: "كان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفنائها ملعبا لحياد النظم والنثر"، الذخيرة ٤٢٩/١/I.

(٣) الذخيرة: ٤٢٩/١/I.

كَظَبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامٌ
يَحْسِبْنَ مِنْ لَيْنِ الْكَلَامِ قَوَاحِشًا
وَيَصَدُّهُنَّ عَنِ الْخَنَاءِ الْإِسْلَامُ

وقال عنها نيكل مبرراً تحدّيتها لتقاليد اجتماعية وقيم إسلامية ومبادئ أخلاقية "تكاد نزوات ولادة لا تختلف عن النزعات التحررية التي تتجلّى عند نجوم المسرح والسّما في عصرنا الحديث"^(١).

وسلوك ولادة هذا ينسجم مع قولها:

[الوافر]^(٢)

أَنَا وَاللَّهِ أَصْلَحُ لِلْمَعَالِي
وَأَمْشِي مَشِيَّتِي وَأَتِيهِ تِيهَا
وَأُمْكِنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِّي
وَأُعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا

والحقيقة في نظرنا وسط بين هذا السلوك وذاك. فولادة يدفعها أحيانا جمالها وشبابها ومواهبها إلى أن تنحو منحى جميلات الشاشة اليوم في الإغراء والغواية، ولهذا قال فيها ابن خاقان: "كانت من الأدب والظرف وتنعيم السّمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب وتعيد الشّيب إلى أخلاق الشّباب". لكنّ علوّ نصابها وكرم أنسابها وطهارة أثوابها -كما قال ابن بسّام- تلزمها بأن تكون لعرضها صائنة وبشرفها متمسكة وعلى قيم مجتمعها محافظة".

إنّ ابن بسّام في ذخيرته وابن خاقان في قلائده تمنعهما السّجعة التي يلتزمانها في

(١) نفس المرجع، ص ٣٠٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٣٠٣.

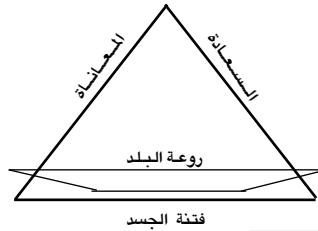
(٣) قال أبو حيان: ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر (الخلافة) في ورد ولا صدر، إنّما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبلية، إذ كان منذ عرف غفلاً عطلاً منقطعاً إلى البطالة، مجبولاً على الجهالة، عاطلاً من كلّ خلة تدلّ على فضيلة. عضّته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة. رأته أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية، ولم يكن ممّن لحقه الاعتقال لتحقير أمره، يقصد أهل الفلاحة أو أن ضمّمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكلّما ومخاطبةً، (الذخيرة ٤٣/١).

أسلوبهما من أن يصفوا الواقع كما هو، وإلا فإن سلبية الشرف هذه عاشت مع أبيها الخليع والمستهتر أثناء الفتنة، وبعد عزله عن الخلافة وفراره مستتراً ثم موته، ظروفًا قاسية، لا تسمح لها بالمحافظة على "كرم الأنساب، وطهارة الأثواب"^(٣).

ألا يمكن أن نعتبر أن ولادة قد تأثرت إن قليلاً أو كثيراً بسلوك أبيها ؟ ألا يمكن أن نعتبر أن سلوكها بعد عزله وموته هو ردة فعل منها ضد قيم مجتمعها التي تقلقت ومبادئه التي تزعزعت بسبب الفتنة الكبرى ؟ "فقد اهتبلت فرصة موت والدها في لحظة غير متوقعة خلال الفوضى والاضطراب الذي أدت إليه الفتنة لتعيش حياة متحررة تماماً، فأقامت صالوناً يجذب إليه أكبر الشخصيات وأعظم الأدباء شهرة، وقد أظهرت بظرفها واحتقار الخمار، وجراتها في الحديث وأحياناً شذوذ مواقفها، ما يدل بوضوح على أنها تحررت تماماً من كثير من الأوهام، وربما دأخل أخبارها شيء من التزيّد وهو ما يعود إليها نفسها. ومع ذلك فإن التسامح معها بإزاء حياة من هذا اللون يعني أن الإسلام وهو متشددٌ كثيراً وحساسٌ للغاية فيما يتصل بالمرأة ارتخت قبضته شيئاً ما في الأندلس"^(١).

لقد تعرّف ابن زيدون وهو في عنفوان شبابه دون سنّ الثلاثين على هذه الغادة المتحررة وهي دون سنّ العشرين في قمة فتنتها وإغرائها، واشتركا في أربع صفات : جمال الصورة ورفعة النسب، وعزّ الشباب وموهبة الفنّ : وهي صفات تجعل منهما بحقّ نجمين ساطعين في سماء المجتمع القرطبي واقعا وخيالاً، فنُسجت حولهما من الطرائف والنوادر ما امتزجت واختلطت فيه الدقة بالمبالغة والأسطورة بالحقيقة.

وكان كلام المؤرخين قديماً وحديثاً عنهما من الإيجاز والتعميم والنقصان والتناقض أحياناً ما يجعل الوصول إلى حقيقة علاقتهما أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً. لذا فإنّ أسلم طريقة لمسك الحقيقة في هذه العلاقة هو ما نسب إليهما من نظم ونثر جعلهما رمزاً



(١) هنري بيريس : الشّعْر الأندلسي، ص ٥٠-١٤٩ .

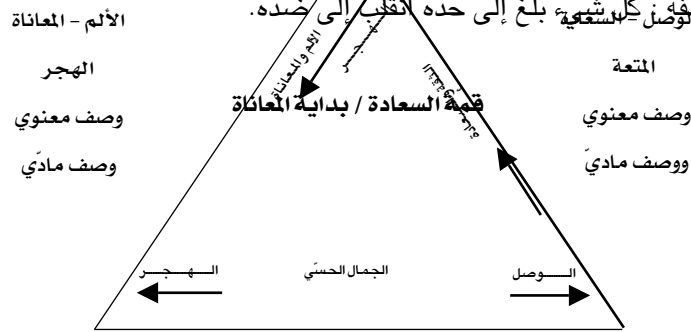
للعاطفة المتأججة والهوى المتقد والقلوب الملتاعة والجوانح المستعرة.

ج- ولادة وابن زيدون :

العلاقة بين ولادة وابن زيدون تمثل علاقة المرأة بالرجل في الأندلس خلال القرن ١١/٥، وإذا أردنا أن نجسم هذه العلاقة رسمنا الشكل الهندسي التالي :

إنّ مثلث المحبة له قاعدة ذات وجهين كالقطعة النقدية : الوجه الأول فتنة الجسد والوجه الثاني روعة البلد. والجمال الأول هو رمز للمرأة في تعلق الرجل بها وتوقه إليها في تكامل عاطفي غريزي ووجداني، والجمال الثاني هو نموذج لحب الإنسان لوطنه ومسقط رأسه وموطن خالته وأصدقائه. وليس غريباً أن نجد في ديوان ابن زيدون هذا الربط بين فتنة الجسد وروعة البلد تشبيهاً واستعارة، حقيقة ومجازاً، فحبّه لولادة هو جزء من حبه لقرطبة والعكس صحيح.

أمّا ضلعاً مثلث المحبة، فهما ضلع أيمن هو رمز للوصل بما فيه من لذة ومتعة وضلع أيسر رمز للهجر بما فيه من ألم. وللمثلث ثلاث زوايا : الزاوية اليمنى بداية السعادة، والزاوية اليسرى قمة المعاناة، والزاوية العليا قمة السعادة وبداية المعاناة أخذاً بقول الفلاسفة: كل شيء بلع إلى حده انقلب إلى ضده.



الوصف :

١ - وصف مادي عام.

٢ - وصف مادي تفصيلي.

د- علاقة ولادة بابن زيدون :

- التسلسل الزمني : ضربة البداية في الحب بين الرجل والمرأة هو نظرة فابتسامة فلقاء كما قال أمير الشعراء شوقي، ولا يمكن أن نتصور أن ابن زيدون التقى بولادة بباب العطارين أو سوق الغسل، فهذه الأماكن بقرطبة هي مقصد المرأة الأندلسية من الطبقات الشعبية، وإنما نرجح أنه التقى بها بناديتها الأدبي، فابن زيدون هو في نهاية الفتنة وبداية الدولة الجهورية كان "زعيم الفئة الأندلسية" يشار إليه بالبنان واسمه على كل لسان وله سلطة وصولجان، ولولادة هي ابنة الخلفاء وزينة النساء ومقصد الفنانين والأدباء. فليس غريبا أن يقع كل منهما في غرام الآخر.

- مرحلة الحب المتبادل : كان كل واحد منهما يلهج بذكر الآخر ويتشوق إليه ويتوق إلى لقائه وخاصة ابن زيدون الذي اهتز من الأعماق أمام فتنة الجسد وسحره فوصفه جملة: [مجزوء الرمل]^(١)

يَا غَزَا لَاجِمِ عَتَ فَي
هـ مِنِ الْحُسْنِ، فُنُونُ

[المقارب]^(٢) وهو حسن غريب تجسم هلالا وبدراً في نفس الوقت:

لَئِنْ كُنْتُ فِي السَّنِّ تَرَبَّ الْهَلَالِ
لَقَدْ فُقْتُ فِي الْحُسْنِ بَدْرَ الْكَمَالِ

[السريع]^(٣) وهي شمس عجيبة لأنها تطلع من المغرب:

مُقَضَّضُ النَّعْرِ لَهُ نُقْطَةٌ
مِنْ عَنَبٍ رَفِي خَدِّهِ الْمَذْهَبِ
أَنْسَانِي التَّوْبَةَ مِنْ حُبِّهِ
طُلُوعُهُ شَمْسًا مِنَ الْمَغْرِبِ

(١) ديوان ابن زيدون، ص ٢٧٨ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٩ .

(٣) عبد اللطيف شرارة : أبو الوليد ابن زيدون : دراسات ومختارات، طبعة بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٦٦ .

وإذا انتقل الشاعر إلى شيء من التفصيل بدا له قدّه قضييا من طيب وعينه سرّاً من
دلال وخدّه رونق من خمر، وكان لفظه درّاً وريقه راحاً:
[الطويل]^(١)

قُضِيْبُ مِنَ الرِّيحَانِ أَثْمَرَ بِالْبَدْرِ
لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلْتَنِّ مِنَ السَّحَرِ
وَدَيْبَاجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ
وَأَلْفَاظُهُ فِي النُّطْقِ كَاللُّؤْلُؤِ النَّثْرِ
وَرَيْقَتُهُ فِي الْارْتِشَافِ مُدَامٌ

وهذا الوصف المادّي لجمال ولادة بما يوحيه من لهفة يختم باللقاء فينعم الحبيبان
بسعادة لا تخلو من إباحيّة. يقول ابن زيدون مؤكّداً أنّ ولادة هي الزائرة له وقد أسدل
الليل ستاره:
[الخفيف]^(٢)

زَارَنِي بَعْدَ هَجْعَةٍ، وَالتُّرَيَّا
رَاحَةً تَقْدِرُ الظَّلَامَ بِشِبْرِ
فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعْدَبَ رَشْفٍ
وَهَصَرْتُ الْقَضِيْبَ الْطَفَ هَصْرٍ
وَنَعِمْنَا بِلَفٍّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ
لِلتَّصَافِي وَقَرَعَ ثَغْرَ بَثْغَرٍ
يَا لَيْلَةً تَجَلَّى دُجَاهَا
مِنْ سَنَا وَجَنَّتِيهِ عَنْ ضَوْءِ قَجَرٍ

ولكنّها إباحيّة في حدود، قال:
[السريع]^(٣)

لَمْ أُنْسَ إِذْ بَاتَتْ يَدِي لَيْلَةً
وَشَاحَهُ الْأَصِيقَ دُونَ الْوَشَاحِ
أَلَمَمْتُ بِالْأَلْطَفِ مِنْهُ وَلَمْ
أَجْنَحْ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الْجُنَاحِ

(١) ديوان ابن زيدون، طبعة نديم مرعشلي، بيروت، ١٩٦٨، ص ٧٦ .

(٢) نفس المصدر، ص ٧٩ .

(٣) ديوان ابن زيدون، طبعة كيلاني، ص ٨٩ .

وأهم صورة أبدعها ابن زيدون تلك الصورة التي تمثل سويغات الوصال التي
قضّاها بجانب ولّادة في ليلة من ليالي السّعادة ولم يفترقا إلا والصّبح قد أذن
بالزّوغ:^(١)
[البسيط]

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ^(٢) ثَالِثُنَا
وَالسَّعْدُ^(٣) قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانٍ وَأَشِينَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرٍ^(٤) الظُّلُمَاءِ يَكْتُمُنَا
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ^(٥) الصُّبْحِ يُفْشِينَا

وهذا الحبّ وهذه المتعة متبادلان بين المحبّ وحبّيه، لذا فإنّ ضمير الأنا وضمير أنت
يتوحدان في ضمير "نحن"^(٦).

وَإِذْ هَمَرْنَا فُتُونِ الْوَصْلِ دَانِيَةً
قِطَافُهَا فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا

ومن حسن حظّ الحبيبين أن غاب فيها الواشي، قال الشاعر:

[المتقارب]^(٧)

لِيَالِي نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَا
ةٍ عَنَّا وَعَيْنُ الرُّضَى لَمْ تَنَمْ

هذه اللّقاءات، وقد تكرّرت، سبّبت لولّادة بعض الإحراج لأنّ قيم المجتمع ترفضها،
لذا أسرع ابن زيدون بالاعتذار ولكنّه اعتذار غير مقنع:^(٨)
[البسيط]

يَا مَنْ غَدَوْتُ بِهِ فِي النَّاسِ مُشْتَهَرًا
قَلْبِي عَلَيْكَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالْفِكْرَا

(١) ديوان ابن زيدون، طبعة كيلاني، ص ٧ .

(٢) هنا تشخيص في قوله "الوصل ثالثنا".

(٣) السّعد أصبح حارساً للحبيين.

(٤) خاطر : أي ضمير يخفيهما في أعماقه.

(٥) لسان الصّبح : يذيع الأسرار، وهنا تشخيص كذلك.

(٦) ديوان ابن زيدون، طبعة كيلاني، ص ٥ .

(٧) نفس المصدر السابق، ص ١٢٣ .

إِنْ غِبْتُ لَمْ أَلْقَ إِنْسَانًا يُؤَانِسُنِي
وإن حَضَرْتُ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَ

ويتألم الشاعر لذیوع ما بينهما من حبٍّ في مجتمع محافظ. وهذا من شأنه أن يسيء
إلى ولادة، لكن ما باليد حيلة، فهو لو استطاع لكتم ما في قلبه من حبٍّ عن بدنه. وتلك
صورة رائعة من إبداعات ابن زيدون:
[البسيط]^(١)

وَاللَّهِ مَا سَاءَنِي أَنِّي خَفَيْتُ ضَنْئِي
بَلْ سَاءَنِي أَنَّ سِرِّي بِالضَنْئِي عَلَنُ
لَوْ كَانَ أَمْرِي فِي كَثْمِ الْهَوَى بِيَدِي
مَا كَانَ يَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِي الْبَدَنُ

لكن كيف يمكن أن تتأثر ولادة بغزل ابن زيدون مهما كانت درجة تحديه لقيم
المجتمع، وهي التي كتبت على فستانها ما كتبت، وهي القائلة لابن زيدون:
[الطويل]^(٢)

تَرْقُبُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي
فَأَنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِسِيرٌ
وَبِي مَا لَوْ كَانَ بِالشَّمْسِ لَمْ تَلُحْ^(*)
وَبِالْبَدْرِ لَمْ يَطْلُعْ وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسِرْ

ويصف لنا ابن زيدون إحدى الليالي التي زارته فيها ولادة بقوله : "وبتنا بليلة
نجني أقحوان الثغور ونقطف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحاً أنشدتها
ارتياحاً:
[الرمل]^(٣)

وَدَعَّ الصَّبْرَ مُحِبُّ وَدَعَّ
ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرِعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ
زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَى إِذْ شَيَّعَكَ

(١) نفس المصدر، ص ٢٧٦ .

(٢) ديوان ابن زيدون، طبعة مرعشلي، ص ٧٥ .

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠ .

يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَى
حَفِظَ اللَّهُ زَمَانَا أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ
بِتُ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

- القطيعة : وقد يظن من يقرأ أبيات ولادة في شوقها إليه وأبياته في التعلق بها أن الحب ربط بينهما بحبل متين لا يمكن قطعه أبداً لكن الواقع غير ذلك. فقد تضافرت عدة عوامل لإفساد هذه العلاقة :

- العامل الأول ذاتي : يتعلق بشخصيتي ابن زيدون وولادة، فهما -أكيد- ليسا من الصنف الذي إذا عشق تشبث بمن يحب ولم يرض عنه بديلاً^(١)، وإنما هما أقرب من نفسية أبي عامر محمد بن عامر الذي حدثنا عنه ابن حزم في طوق الحمامة^(٢). وهي نفسية تعتبر نموذجاً لنفسية الطبقة القرطبية الأرسقراطية التي يمكنها أن تذهب إلى السوق وتشتري من تشاء من الجواني كلما تحركت فيها الرغبة إلى ذلك. وليس بغريب أن تكون شخصية أبي عامر بتطرفها في الانتقال من امرأة إلى أخرى قد مثلت صنفاً من الرجال أصبح يعرف في المجتمعات الغربية بعد ذلك بـ(دون جوان).

والدون جوان قد يكون ذكراً وقد يكون أنثى. وابن زيدون وولادة، وإن لم يصلا إلى حد التطرف كأبي عامر هما من هذا الصنف إن قليلاً أو كثيراً : فهذا ابن زيدون يسهر ليلة لدى ولادة وكانت ثالثتهما جاريتها عتبة فقامت وغنت بهذين البيتين:

[الطويل]^(٣)

أَحْبَبْتَنَا إِنْ بَلَغَتْ مُؤَمِّلِي
وَسَاعَدَنِي دَهْرِي وَوَاصَلَنِي حُبِّي
وَجَاءَ يُهْنِيَنِي الْبَشِيرُ بِقُرْبِهِ
فَأَعْطَيْتُهُ نَفْسِي وَزِدْتُ لَهُ قَلْبِي

(١) طوق الحمامة، ص ٣٠٢ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٨ .

فسألها ابن زيدون الإعادة دون استئذان من ولادة. فغضبت صاحبة النادي،
وضربت جارياتها وفهم الشاعر انفعال ولادة أمامه فقال:

[الطويل]^(١)

وَمَا ضَرَبْتُ عُتْبَى لَذْنِبٍ أَتَتْ بِهِ
وَلَكِنَّمَا وَلَادَةٌ تَشْتَهِي ضَرْبِي
فَقَامَتْ تَجْبُرُ الذَّيْلَ عَائِثَةً بِهِ
وَتَمْسَحُ طَلَّ الدَّمْعِ بِالْعَنَمِ الرُّطْبِ

وهذا الخبر غريب، فهل يعقل أن يصل الأمر بين الحبيبين إلى حدّ النفور لمجرد
سؤاله جارياتها عتبه إعادة التغني بيتين من الشعر ؟

إنّ توجه ابن زيدون بالسؤال لعتبة دون استئذان هو القطرة التي أفاضت الكأس،
لقد أغرم ابن زيدون بالأميرة وجارياتها. وهذا ما يفهم من توجيه ولادة للشاعر لوماً شديداً
يدلّ على أنّ الغيرة بلغت بها من جارياتها مبلغاً عظيماً. وهذا لا يمكن أن يتم إلا إذا تجاوز
ابن زيدون الخط الأحمر في علاقته بهذه الجارية وإلا لما اتهمته ولادة بحبّ جارياتها وبقلّة
الدّوق في حبه هذا:

[الكامل]^(٢)

لَوْ كُنْتُ تُنْصِفُ فِي الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا
لَمْ تَهْوِ جَارِيَتِي وَلَمْ تَتَخَيَّرِ
وَتَرَكْتَ غُصْنًا مُثْمِرًا بِجَمَالِهِ
وَجَنَحْتَ لِلْغُصْنِ الَّذِي لَمْ يُثْمِرِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنِّي بَدْرُ السَّمَاءِ
لَكِنْ دُهَيْتُ لِشَقَوَاتِي بِالْمُشْتَرِي

وقد تكون ولادة بهذه الغيرة المبالغ فيها قد استثارت غضبه فضربها، وندم الشاعر
على ذلك أشدّ الندم واعتذر قائلاً:

[الرملي]^(٣)

(١) نفس المصدر، ص ٣١ .

(٢) نفس المصدر.

إِنْ تَكُنْ نَالَتْكَ بِالضَّرْبِ يَدِي
وَأَصَابَتْكَ بِمِمَّا لَمْ أُرِدِ
فَلَقَدْ كُنْتُ -لَعْمَرِي- قَادِيَا
لَكَ بِأَمْوَالٍ وَبَعْضِ الْوَلَدِ

وليس هذا يعني أنَّ ولادة بريئة من الدُّون جوانية فقد جعلت ناديها روضة كثرت أزهارها من كتاب وشعراء ومن أدباء ووزراء، وكانت هي كالنحلة تنتقل من زهرة إلى أخرى تمتصَّ رحيق إبداعها ثمَّ تنتقل إلى زهرة أخرى فتحركها لتستمتع بما تنتج قريحتها وعاشت ما عاشت (٨٠ سنة) دون أن ترتبط برجل يكون الرُّوج الوفيَّ المخلص. وبذلك أشعلت نار الغيرة عليها والتنافس في حبِّها بفتنة جسدها وحلو حديثها ورفيع مكانتها، وهي لئن أحبَّت ابن زيدون حقًا لفترة، فقد تعلَّقت بآخرين في فترات أخرى.

- العامل الثاني اجتماعي: إنَّ مجالس الأدب وليالي الأُنس بقرطبة، لئن كانت موجودة وبكثرة، فقد اعتاد الناس أن يروا الرَّجل يديرها لا المرأة. وقيام ولادة مقام الرَّجل بهذا الدُّور هو بدعة في المجتمع الأندلسي قد ينجرُّ عنه كثير من المشاكل لرواد المجلس. هذا وقد أصبحت ولادة في ناديها مغنطيسا جاذبا بخلقها وخلقها، بفتحها ومواهبها، وانفراد أحد جلَّاسها بها ولو إلى حين من شأنه أن يخلق حوله كثيرا من الحساد والمنائين. وهذا ما وقع لابن زيدون في المرحلة الثانية من علاقته بولادة. فزيادة على العامل السَّابق، حاول بعض الحاضرين منافسته في حبِّ غادة بني أمية. ووجدوا الفرصة سانحة عندما بدأت بعض الغيوم تتلبَّد في سماء علاقة الوزير بالأمير وانقلب نادي ولادة من مجلس لها إلى صراع عليها.

واستطاع ابن زيدون أن يزيح منافسه الأوَّل وهو ابن القلاس أحد وجهاء قرطبة بعد أن طاله لسانه بقصيدة كلَّها سخرية لازعة من ابن القلاس وهجاء مقذع لولادة:
[مجزوء الوافر]^(١)

(١) ديوان ابن زيدون، طبعة كيلاني، ص ٦٧-٨ .

أَعِدْ نَظْرًا فَإِنَّ السَّبْعَ
يَمَّمَّا لَمْ يَزَلْ يَصْرَعُ
وَلَا تُطِيعِ الْبَتِي تَغْوِي
ك، هِيَ لِبَغْيِهِمْ أَطْوَعُ^(١)
تَقَبَّلْ - إِنْ أَتَى - خَطْبًا
وَأَنْفُ الْفَحْلِ لَا يُقْرَعُ^(٢)
وَلَا تَكُ مِنْكَ تِلْكَ الدَّاءُ
رُبَّالرَّأْيِ وَلَا الْمَسْمَعُ
فَإِنْ قُصَّارَكَ الدَّهْلِي
زُحَيْنٌ سِوَاكَ فِي الْمَضْجَعِ^(٣)

ونزل إلى الميدان رجل آخر أكثر خطورة من ابن القلاس وهو الوزير ابن عبدوس منافس ابن زيدون في الحب والسياسة، ولئن مالت ولادة لابن عبدوس فذلك لإغاضة الحبيب الأول على الأرجح وتشجيع المنافس على النزول إلى الميدان للحد من غرور ابن زيدون، فقد روي "أنها مرّت يوماً بداره (أي ابن عبدوس)، وكان جالسا أمام الباب، ودونه بركة متولدة من كثرة الأمطار، وما إن رآها مقبلة حتى نشر كميّه، ونظر في عطفه وحشد أعوانه، فقالت له -متمثلة بيت أبي نواس : أبا عمر (وهي كنية ابن عبدوس):

[الكامل]^(٤) :

أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مِصْرُ
فَتَدْفُقَا فِكْلَاكُمَا بَحْرُ

وانصرفت تاركة إيّاه لا يحير جواباً. وكانت هذه اللّمة الخاطفة في توقّد سرعة بدايتها كافية لأن تضرم في فؤاده جوى الهوى فنزل الميدان منافساً^(٥)، وأرسل إلى ولادة

(١) المعنى : دُعْ غواية هذه الماكرة فإنّها أطوع لغواية أعدائك ومنافسيك ولن تستطيع أن تتغلّب على كيدهم وغوايتهم (الديوان، ص ٦٧ تعليق ٦).

(٢) المعنى : إنّ العظيم لا يهن عزمه أمام الخطوب والكوارث، فليكن لك في هذا عزاء ولتتقبّل أيّ خطب إن أتاك بصدر رحب، غير واجد على تلك المرأة الغادرة التي لا قيمة لها ولا خطر. (الديوان، ص ٦٧ تعليق ٧).

(٣) المعنى : تناسى تلك الدار التي كانت ذكرياتها مبعث آلامك وأحزانك، فليس لك أمل في اكتساب ودّها، فهي غادرة، وقصارى ما تصل إليه ان تكون في الدّهليز حين ينعم غيرك بالمضجع. (الديوان، ص ٦٨، تعليق ١).

(٤) ديوان : ابن زيدون، طبعة مرعشلي، ص ٣٢ .

(٥) نفس المصدر، ص ٣٣ .

وسيطرة تخطب ودّها وتستميل قلبها. فما أن علم ابن زيدون ذلك حتّى استشاط غضبا وكتب رسالته الهزليّة المشهورة، وفيها هجا ابن عبدوس هجاء مقذعاً، ولم يقف عند هذا الحدّ وإنما انزلق الشاعر مدفوعاً بزهو شبابه وغروره وحبّ التملّك الأعمى إلى التعريض القبيح بولادة، وصورها امرأة شبيقة هلوكة طالبة للذّة لا تختلف في شيء عن بنات الهوى الممتهّنات قائلاً في رسالته الهزليّة : "... وكمّ بين من يعتمدني بالقوّة الظّاهرة، والشّهوة الوافرة والنفس المنصرفة إليّ، والذّة الموقوفة عليّ، وبين آخر نضب غديره ونزحت بيّره، وذهب نشاطه وكثر ضراطه..."^(١).

ولم يكتف ابن زيدون بذلك بل أردف النثر بالشعر فقال مهدّداً هذا المنافس الخطر ومعرّضاً بولادة:

أَثَرْتُ هِرَبَ الشَّرَى إِذْ رُبَضُ
وَنَبَّهْتُهُ إِذْ هَدَا فَاغْتَمَضُ^(٢)
وَمَازَلْتُ تَبْسُطُ مُسْتَرَسِلًا
إِلَيْهِ يَدَ الْبَغْيِ لَمَّا انْقَبَضُ^(٣)
حَذَارِ حَذَارِ فَإِنَّ الْكَرِيمَ
إِذَا سِيمَ خَسَفَا أَبَى فَاْمْتَعَضُ
فَإِنَّ سَكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوَ
سِ لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعْضُ^(٤)
وَعَرَّكَ مِنْ عَهْدٍ وَلَادَةُ^(٥)
سَرَابٌ تَرَاءَى وَبَرَقٌ وَمَضُ

(١) نفس المصدر، ص ٨٢ .

(٢) الديوان، ط. كيلاني، ص ٢٢٧، الذخيرة I/٣٢٦.

(٣) الهزير من أسماء الأسد، الشرى، موضع تكثر فيه الأسود، ربض : أوى إلى عرينه، هذا : هدا : نام.

(٤) مازلت تبسط يد الظلم على ذلك الأسد الرأبض في مجثمه على حين أمنت يده المنقبضة عنك (الديوان، ط. كيلاني، ص ٢٢٧، حاشية رقم ٢).

(٥) النهوس : العضوض، الشجاع: الذكر من الحيات.

(٦) ورواية ثانية : عوض ولادة نجد فعالة.

تَظُنُّ الْوَقَاءَ بِهَا، وَالظُّنُّ
نُ فِيهَا تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضُ:
هِيَ الْمَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ
وَيَمْنَعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخْضُ

ونزل كلام ابن زيدون - نثراً وشعراً - على ولادة نزول الصاعقة فهاجت وماجت
واغتنمت فرصة هبوب عاصفة سياسية من بلاط ابن جهور على ابن زيدون فقالت تسخر
منه: [السريع]^(١):

إِنَّ ابْنَ زَيْدُونٍ عَلَى قَضَلِهِ -
يَلْهَجُ بِي شَتْمًا وَلَا ذَنْبَ لِي
يَلْحَظُنِي شَرًّا إِذَا جِئْتُهُ
كَأَنَّمَا جِئْتُ لِأَخْصِي عَلِي^(٢)

وقالت تهجوه هجاء مقذعاً: [السريع]^(٣)

إِنَّ ابْنَ زَيْدُونٍ عَلَى قَضَلِهِ
يَعْشِقُ قَضَبَانَ السَّرَاوِيلِ
لَوْ أَبْصَرَ الْإِيرَ عَلَى نَخْلَةٍ
صَارَ مِنَ الطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ

وقالت تنعته بأقبح النعوت: [الوافر]^(٤)

وَلَقَّبْتَ الْمُسَدَّسَ وَهُوَ وَصْفُ
تُفَارِقُكَ الْحَيَاةُ وَلَا يُفَارِقُ
فَأُوطِيٌّ وَمَأْبُونٌ وَزَانٌ
وَدْيُوثٌ وَقَرْنَانٌ وَسَارِقٌ

(١) الديوان ٢٣٦، تعليق ١ .

(٢) علي : غلام ابن زيدون.

(٣) حسن جاد حسن : ابن زيدون، طبعة مصر، ١٩٥٥، ص ١٥٨ .

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة.

وكان رد فعل ابن زيدون عنيفاً فهجا ولادة وابن عبدوس معاً فشبهه بالفار خلقا وشبهها ببنت الهوى خلقت يقضى منها الرجل وطره ويترك ما بقي منها لغيره. وكما اتهمته بذوقه الفاسد عند تخير جاريتها عليها، اتهمها بنفس التهمة عندما خيرت مسمراً نعال الحمير (يقصد ابن عبدوس) على بائع عطر (يقصد نفسه). قال:

[البسيط]^(١)

أَكْرَمَ بُولَادَةٍ ذُخْرًا لِمُدَّخَرٍ
لَوْ فَرَّقَتْ بَيْنَ بَيْطَارٍ وَعَظَارٍ
قَالُوا أَبُو عَامِرٍ أَضْحَى يَلُمُ بِهَا
قُلْتُ الْفَرَّاشَةُ قَدْ تَدْنُو مِنَ النَّارِ
عَيَّرْتُمُونَا بِأَنْ قَدْ صَارَ يَخْلُقُنَا
فِي مَنْ نُحِبُّ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ عَارٍ
أَكْلُ شَهْيٍ أَصَبْنَا مِنْ أَطَائِبِهِ
بَعْضًا وَبَعْضًا صَفَحْنَا عَنْهُ لِلْفَارِ

وتظاهر ابن زيدون حفظاً لكرامته، وإرضاء لغرور نفسه أنه كما استبدلته ولادة استبدلها وكان ذلك عليه هيئاً كما يستبدل المرء ثياباً بثياب أخرى. قال:

[الخفيف]^(٢)

قَدْ عَلِقْنَا سِوَاكَ عَلَقًا نَفِيسًا
وَصَرَقْنَا إِلَيْهِ عَنْكَ النُّفُوسَا
وَلَبِسْنَا الْحَدِيدَ مَعَ خَلْعِ الْحَبِّ
وَلَمْ نَأْلُ أَنْ خَلَعْنَا اللَّبِيسَا

وهكذا حلّ ابن عبدوس محلّ ابن زيدون في نادي ولادة، فهل حلّ محلّه في قلبها؟ نعم أظهرت ولادة تعلّقها بابن عبدوس، وقد يكون ذلك لأسباب سياسية أكثر منها عاطفية. فهي امرأة بدون سند، ولا بدّ لها من جناح تستظلّ به من هجير تهمة بدأت تروج في قرطبة وهو إرجاع الأمر لبني أمية ونزعه من بني جهور. وكان ابن زيدون من جملة المتهمين، بينما اعتبر ابن عبدوس من رجال أبي الحزم الأوفياء، وهكذا تكون ولادة بالاقتراب من ابن عبدوس والقطيعة مع ابن زيدون قد حققت هدفا تصبو إليه من حماية وأمن.

(١) الديوان : ط. مرعشلي، ص ٨٢ .

- الحبّ من طرف واحد : تفتنّ ابن زيدون بعد أن خسر المعركة في ميدان الحبّ وميدان السياسة معا أنّ غرور الشباب قد قاده إلى ما لا يحمد عقباه، فقلبه كان وما زال متعلّقاً بولادة، وما قاله فيها من هباء إنّما هو من باب طفرة عاطفة وشعلة غيرة وحبّ انتقام من واش حاقّد، وحسود مناوئ، ومنافس متجرّئ.

وتصمّت ولادة وتخرج من مسرح الأحداث باعتبارها صانعة لها في الماضي وفاعلة فيها. ويتواصل تغريد ابن زيدون من طرف واحد فولادة باعته بثمن بخس. أمّا هو فلو كان ثمن ولادة حياة أخرى تنضاف إلى حياته لما رضي بهذه الصفة واعتبرها غبناً^(١) فهل أنّ ما نجده في ديوانه من مقطوعات غزلية موجّهة إلى ولادة ذاتها أو أنّ ولادة بعد قسوة النكبة ومرارة الفشل أصبحت رمزا للمرأة بالنسبة إلى ابن زيدون بكلّ ما تمثله المرأة في عالم الرّجل من متعة وعذاب ووصل وهجر وأمل وألم وسعادة وشقاء ؟.

إنّ ديوان ابن زيدون في قسمه الغزلي حافل بجذليات عديدة أبرزها :

- جذلية الماضي السعيد والحاضر المؤلم : كان في الماضي لا يرضى بالحبّيب كلاً متكاملاً خلّقاً وخلّقاً فتنة وجمالاً وصلاً وامتعة. أمّا اليوم فيقنع منه بالقليل القليل:
[المتقارب]^(٢):

سَأَقْنَعُ مِنْكَ بِلَحْظِ الْبَصَرِ
وَأَرْضَى بِتَسْلِيمِكَ الْمُخْتَصِرِ
وَلَا أَتَخْطِئُ التَّمَّاسَ الْمُنَى
وَلَا أَتَعَدِّي اخْتِلَاسَ النَّظَرِ
أَصُونُكَ مِنْ لَحَظَاتِ الظُّنُونِ
نِ وَأُعْلِيكَ عَنْ خَطَرَاتِ الْفِكْرِ

[الوافر]^(٣):

وقال:

وَحَسْبِي أَنْ تُطَالِعَكَ الْأَمَانِي
بِأُفْقِكَ فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحٍ

(١) الذّخيرة : ٣/٣٧١ .

(٢) الديوان : ط كيلاني، ص ٢٧٢ .

وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَيَّ غِبًّا^(١)
وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الصَّبَاحِ

وإذا كان في الماضي يؤله مجرد العتاب، فهاهو اليوم يحتمل منه حتى الغدر:
[البسيط]^(٢)

مَا شِئْتُ فَاصْنَعُهُ كُلُّ مِنْكَ مُحْتَمٌ
لِوَالذَّنْبِ مُغْتَفَرٌ وَالْغَدْرُ مَقْبُولٌ

وفي الماضي كان الوصل وكانت السعادة، أما اليوم فالوصل هجر والسعادة شقاء
والضحك بكاء والتلاقي فراق:
[البسيط]^(٣)

مَنْ مُبْلَغِ الْمُبْسِيئِنَا بَانْتِزَاعِهِمْ
حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِيْنَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا
أُنْسًا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِيْنَا
فَأَحْلَلْ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا
وَأُنَبِّتْ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا
فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا

وولادة هي الجنة بكل نعيمها. وفراقها هو النار بعذابها. قال الشاعر :
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسُدْرَتِهَا^(٤)
وَالْكُوْثَرَ الْعَذْبَ زُقُومًا^(٥) وَغَسْلِينَا^(٦)

(١) غيباً أي يوماً بعد يوم.

(٢) الديوان : ط كيلاني، ص ٢٦٢ .

(٣) نفس المصدر، ص ٩ .

(٤) السدرة : شجرة في الجنة.

(٥) الزقوم : شجرة مرة كريهة ثمرها طعام أهل النار.

(٦) الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار من عرق وقح.

ويضع ابن زيدون إصبعه على موطن الداء وسبب البلاء : فالحساد هم سبب القطيعة بينه وبين الحبيب. ومما يزيد في آلامه أن هذا الحبيب صدق هؤلاء الحساد في ما قالوا وفي ما فعلوا. قال:

لئن قصّر البأس منك الأمل
رحال تجنّيك دون الحيل
وناجاك - بالإفك - في الحسود
فأعطيته جهرة ما سأل

ومع الحساد هناك الوشاة وليس لهم من هدف إلا انتقاصه أمام ولادة لينبت ما كان موصولاً بينهما من حبل المحبة:

لما اتّصلت اتّصال الخلب^(٣) بالكبد
ثمّ امتزجت امتزاج الروح بالجسد
ساء الوشاة مكاني منك واتّقدت
في صدر كل عدو جمرة الحسد

ولم يبق لابن زيدون أمام هذا الحبيب الظالم إلا الشكوى:

أأجنى بلاء جرم وأقصى بلاء ذنب
سوى أنني محض الهوى صادق الحب

[مجزوء الرمل]^(٥)

والاستغاثة:

مُنِيَّة الصبِّ أَعْنُنِي
قَدْ دَنَتْ مِنِّي الْمُنُونُ
وَأَحْفَظِ الْعَهْدَ فَإِنِّي
لَسْتُ وَاللَّهِ أَخُونُ
وَأَرْحَمَنْ صَبًّا شَجِيًّا
قَدْ أَذَابَتْهُ الشَّجُونُ
لَيْسَ لَهُ هَمٌّ وَغَمٌّ
وَسَقَامٌ وَأَنِينُ

(١) الديوان : ط. كيلاني، ص ١٩٥ .
(٢) نفس المصدر، ص ٢٧٢ .
(٣) الخلب : حجاب ما بين القلب والكبد، ونجد في بعض القراءات "الحب مكان الخلب".
(٤) الديوان : ط. كيلاني، ص ٢٦٩ .
(٥) نفس المصدر، ص ٢٧٩ .

شَقَّةُ الْحُبِّ قَامُوسِي
سَقَمًا لَا يَسْتَبِينُ
صَارَ لِأَشْوَاقٍ نَهْبًا
فَنَبَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ

وينضاف إلى الفشل العاطفي الفشل السياسي، ويدخل ابن زيدون السَّجْن ويطول
ليه ويتذكر حبيبته. وها هو عبر كوة السَّجْن يرى صورتها خيالاً أو غفوةً من خلال نور
القمر وصفحته قال:

مَا جَالَ بَعْدَكَ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ
إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
وَلَا اسْتَطَلْتُ ذِمَاءَ اللَّيْلِ^(٢) مِنْ أَسْفٍ
إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقِصَرِ

ويفرّ ابن زيدون من سجنه ويختفي في ضاحية الزَّهْرَاء. وما أن يرى الطَّبِيعَةَ
السَّاحِرَةَ حتّى يتذكر الحبيبة الفاتنة. قال:

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَقًّا
وَالْأَفُقُ طَلُقَ وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْ رَأَا
وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ
كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي فَأَعْتَلْتُ إِشْفَاقًا

ويبقى ابن زيدون مختفياً يجترّ آلام فشله المضاعف في الحاضر متذكراً سعادته
ونجاحاته في الماضي فتزداد جوانحه التهاباً قال^(٤):

لَأَسْكُنَ اللَّهَ قُلُوبًا، عَنْ ذِكْرِكُمْ
فَلَمْ يَطِرْ بِجِنَاحِ الشَّوْقِ - خَفَاقًا

(١) نفس المصدر، ص ٩٢ .

(٢) ذمء الليل : البقية الباقية من الليل.

(٣) الديوان : ط . كيلاني، ص ٢٥٧ .

(٤) نفس المصدر، ص ٢٥٨ .

لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ سَرَى
وَأَفَاكُمُ بَفْتَى أَهْنَاءِ مَا لَأَى
كَانَ التَّبَارِي بِمَحْضِ الْوَدِّ مُدُّ زَمَنِ
مَيْدَانِ أُنْسٍ، جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقَا
فَالآنَ - أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ
سَلَوْتُمْ وَبَقَيْنَا نَحْنُ عُشَّاقَا

ويضطرّ ابن زيدون إلى الاغتراب، فينضاف إلى هجر الحبيب بُعد الصديق والقريب.
ويصبح غير قادر على إخفاء ما في قلبه من لهيب الشوق والحنين وما في جوانحه من
مرارة الهجر والصد. قال:
[البسيط]^(١)

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيبًا عَادَهُ شَجَنُ
مِنْ ذِكْرِكُمْ وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ
يُخْفِي لَوَاعِجَهُ وَالشَّوْقُ يَفْضَحُهُ
فَقَدْ تَسَاوَى لَدَيْهِ السِّرُّ وَالْعَلَنُ

لكنّ الغربة لا تنزع الحبيب من القلب ولا تطفئ الأمل في النفس. قال:
[البسيط]^(٢)

يَا نَازِحًا وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَنُوءَا
أُنْسَتَكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَا
أَلْهَتَكَ عَنْهُ فُكَاهَاتُ تَلْدُ بِهَا
فَلَيْسَ يَجْرِي بَبَالٍ مِنْكَ ذِكْرَاهُ
عَلَّ اللَّيَالِي تُبْقِيَنِي إِلَى أَمَلٍ
الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ

(١) هنري بيريس : الشعر الأندلسي، ص ٣٥٧ .

(٢) الديوان : ط. مرعشلي، ص ٩٦ .

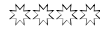
ويرسل ابن زيدون من إشبيلية وهو بعيد عن قرطبة وولادة قصيدته النونية ملخصاً فيها تجربته العاطفية من البداية إلى النهاية. وفي هذه القصيدة الرائعة عزف ابن زيدون لحن الألم والمرارة على قيثارة الحب من طرف واحد، ورتل صلوات الصبر والإيمان في هيكل الهوى الخالد.

وليل مأساته ارتمى ابن زيدون في أحضان الإيمان فمع الإيمان ما لم يتحقق في الدنيا للحبيب سيتحقق له في الآخرة:

[البسيط]^(١)

إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا اللَّقَاءُ بِكُمْ
فَفِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَتَلْقُونَا

وهكذا تكون ولادة بالنسبة إلى ابن زيدون عنصر سعادة وعنصر تعاسة، ولكنها كانت في المرحلتين عنصر إبداع. ومازلنا إلى اليوم نحن العرب نقرأ بكثير من المتعة والإعجاب شعر ابن زيدون في ولادة كما قرأ اللاتين بنفس المتعة والإعجاب شعر تيبولوس في دلياً^(٢).



(١) شرارة : ابن زيدون، ص ٩٠ .

(٢) قارن دوزي بين الشاعرين ولئن أقر نيكل هذه المقارنة من حيث الجانب العاطفي فإن الظاهرة الشعرية تختلف بين الشاعرين كما تختلف الأزهار في لونها وعطرها.

ابن زيدون : محطة النكبة

قال الشاعر الفرنسي ألفريد دي موسيه:

"لا شيء يسمو بقلب المرء كالألم العظيم. والشعرُ الرائع هو وليد الأسى وبيت الألم".

لعلَّ أهمَّ حدث عاشه الشَّاعر بعد أن نجا من عواصف الفتنة الكبرى هو نكبته على يد أبي الحزم بن جهور. وهذه النكبة تقدَّم لنا صورة حيَّة عن التعفُّن الدَّاخلي الذي كان سائداً داخل بلاطات أمراء الطَّوائف.

لقد استطاع بعض القواد والوزراء والقُضاة زمن الفتنة أن ينتزوا بالمنطقة التي كانت ترجع إليهم بالنظر في عهد الحكومة المركزية بقرطبة. وكانوا يرون أنَّ الشرعيَّة الدينيَّة والتاريخيَّة تنقص أنظمتهم التي نجحوا في إقامتها على أشلاء الخلافة الأمويَّة. وهذا يفسِّر ما قام به بعضهم من تنصيب أشخاص ضعفاء وفي بعض الأحيان وهميِّين لإيجاد تبرير شرعي لسلطتهم أمام العامة: فالحزب الصَّقْلبي مع مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقيَّة عيَّن المعيطي^(١) وهو رجل مغمور ينتمي بالنَّسب إلى عائلة بني أميَّة. والحزب الأندلسي مع بني عبَّاد أعاد الحياة لهشام المؤيَّد للمرَّة الثالثة. وتمسَّك البربر ولو اسميًّا بالخلافة الحموديَّة التي كانت تعاني آنذاك سكرات الموت بمالقة.

وكانت العناصر المؤيَّدة لهذا الشَّقِّ أو ذاك على علم بهذه الخزعات والترهات. وهم على بينة من أن سيِّدهم ما هو إلَّا مغامر مغتصب للسلطة وسيعمل، إن اقتضى الأمر ذلك،

(١) أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد، نصبه مجاهد العامري خليفة ٤٠٥/١١٠٤. وبعد رجوعه من غزوة سردانية نفاه إلى العدو فمات هناك مغموراً (ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص ٢٢٠).

في سبيل الاحتفاظ بها كل منكر من الفعل قبيح. وهو بدوره مُتيقّن أن هؤلاء الذين يؤيدونه - سواء في الداخل أو الخارج- هم أول من يسدّد له الطعنة القاتلة إذا اقتضت مصلحتهم الآجلة أو العاجلة منهم ذلك. ولا يمكن أن نتصور - والحالة تلك - علاقات ودية بين هؤلاء الملوك أو جوّاً سليماً داخل بلاطاتهم.

ففي بلاط قرطبة مثلاً، عندما قامت حكومة الجماعة بزعامة أبي الحزم بن جهور، نجد أن المشكل الرئيسي الذي يعاني منه بلاط قرطبة يتمثّل في تلك العناصر المتبقية من فلول بني أمية التي كانت تحلم دائماً بإمكانية إعادة السّلطة إليهم.

لقد ظهرت خلال الفترة التي حكم فيها أبو الحزم وابنه أبو الوليد بواخر فتنين^(١). قامت بهما هذه العناصر المناوئة للحكم الجمهوري. واتّهم في كليهما الوزير الشّاعر ابن زيدون.

ولا تقدّم لنا المصادر التاريخية تفصيلاً لهاتين النّكتين لذا نرى من الواجب أن نتبّع صداهما في ديوان ابن زيدون وفي رسالتيه: الجديّة التي أرسلها من سجنه إلى أبي الحزم بن جهور مستعظفاً، والمسلميّة وهي رسالته التي بعث بها إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بعد فراره من سجنه.

أ- التهمة الأولى :

إنّ المراحل التي مرّ بها ابن زيدون في نكبته يصعب تحديدها زمنياً بدقّة، لأنّ أغلب القصائد مؤرّخة. أمّا من ترجموا للشاعر فقد أوجزوا الحدث فجاء كلامهم عنه فيه كثير من التّعميم وغير قليل من الغموض.

لقد كان ابن زيدون أوّل الأمر أحد أنصار دولة بني جهور بقرطبة ولم يبخل عليه أبو الحزم بالمنصب الخطير، فقد عينه وزيراً ينظر في شؤون أهل الذّمة^(٢) من المعاهدين، ولا

(١) عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ٢٥ .

(٢) هو منصب هامّ في عصر دول الطوائف (أنظر فصل المستعربين، ص ٣٣) .

باللقب الرفيع فأطلق عليه لقب ذي الوزارتين. وهكذا علا قدر ابن زيدون فأصبح نجم قرطبة الذي ترنو له العيون إعجاباً وتهفو له النفوس تقديراً. واقترب النجم من بدر قرطبة ولادة بنت المستكفي وتولدت بينهما علاقة حبّ وهيام، شربا كأسها حتى الثمالة. وأصبح ابن زيدون يلعب في مسرحين لا يخلوان من مزالق ومخاطر: مسرح الحب والشعر في مجلس ولادة ومسرح المناورات والسياسة في مجلس أبي الحزم. ولا يخلو القصران من نقمة الحاسدين ودسائس المناوئين، خاصة إذا اختلطت الأهداف وتضاربت المصالح بين المتنافسين والأعبين.

وحافظ ابن زيدون نسبياً - وهو يلعب على هذين الحبلين - على توازنه منذ أن أظهر المعتصم بن عباد شخصاً في إشبيلية على أنه الخليفة هشام ودعا ملوك الطوائف للاعتراف به والانضواء تحت لوائه. باعتباره حاجباً له. كان ذلك سنة ١٠٣٥/٢٦هـ، وكان ابن جهور من أمراء الطوائف الذين لبوا دعوة المعتضد أول الأمر. لكن ما أن لاحظ -وهو السياسي المحنك- أن صاحب إشبيلية قد يتخذ هذه الدعوة المزيفة مطيةً لتهديد دولته أو على الأقل لتهديد مصالحها حتى أعلن سنة ١٠٣٩/٣١هـ نقضه لهذه البيعة. ونكب بعض العلماء في قرطبة ممن خالفوه الرأي، فهل كان ابن زيدون أحد هؤلاء المخالفين؟ هل كانت علاقته بولادة أحد الأسباب التي جعلته في نظر أبي الحزم أخطرهم؟

من الصعب الإجابة عن السؤالين السابقين إجابة مقنعة لسكوت المصادر أو غموضها، لكن المتأكد أن ابن زيدون في نهاية العقد الثالث من القرن ١١هـ فقد توازنه وهو يلعب على حبلين الحب والسياسة. فقد تأزمت علاقته بولادة والرسالة الهزلية التي كتبها على لسانها للوزير بن عبدوس خير دليل على ذلك، كما أن علاقته بابن جهور بدأت تسير إلى الأسوأ، فقد أصبح ذو الوزارتين مهمّشاً في بلاط قرطبة ولنا في إحدى قصائده

التي مدح بها أبا الحزم دليل واضح، فهو يشكو إهمال المدوح له ويرجو أن ينال حظّه الذي يستحقّه في دولته، ولا يخفي ابن زيدون استغرابه من معاملته تلك المعاملة القاسية من طرف ابن جهور. قال ابن زيدون مخاطباً أبا الحزم:

[الوافر]^(١)

جَنَاحِي فِي جِوَارِكُمُ الدَّلِيلُ
وَجَدِّي فِي رَجَائِكُمُ الْكَالِيلُ
نَصِيبٌ مِنْ وَلَايَتِكُمْ كَثِيرٌ
وَحَظٌّ مِنْ عِنَايَتِكُمْ قَلِيلُ
وَأَعْجَبُ حَادِثٍ نَظَرِي إِلَيْكُمْ
إِلَى غُلُلٍ^(٢) النَّجَاحِ وَبِي غُلِيلٍ^(٣)
أَأَيْسُ مِنْ مُسَاعَفَةِ اللَّيَالِي
وَأَنْتَ - إِلَى نِهَائَتِهَا سَبِيلُ

ولئن تمكّن كثير من العلماء ممّن تمسّكوا ببيعة هشام من الفرار إلى إشبيلية، فقد بقي ابن زيدون في قرطبة مسقط رأسه الذي فتن به ولم يكن يرضى عنه بديلاً. وهكذا عمّت نقمة ابن جهور أغلب العلماء وخصّ بها ابن زيدون. فكيف كان ذلك ؟

لقد وجد منافسو ابن زيدون في الحبّ والسياسة كالوزير ابن عبدوس وغيره الفرصة سانحة للكيد له وجعله محلّ ريبة وشكّ في نظر أبي الحزم. لقد صوّر هؤلاء المنافسون لابن جهور أنّ هذه العلاقة بينه وبين ولادة قد تكون بداية خطّة ترسم لإرجاع الحكم للأمويين خاصّة بعد أن أعلن المعتضد بإشبيلية ظهور هشام المؤيّد من جديد^(٤).

(١) الديوان، ص ١٢٠ .

(٢) الغُلُل : مسيل الماء.

(٣) الغليل : العطش.

(٤) إن موت هشام وظهوره من جديد عدّة مرّات أصبحت أسطورة يتندّر بها المؤرّخون المعاصرون لابن زيدون، وخاصّة ابن حزم.

ولا نطن أن غاية المعتصد من إظهار هشام المؤيد الأموي كذبا وبهتاناً هو إرجاع الأمر للأمويين، وإنما غايته من ذلك هو الوقوف أمام طموحات بني حمود في مالقة، خاصة وقد بدؤوا في محاولة الاستيلاء على بعض المدن المجاورة لمملكة إشبيلية.

ولئن أبدى ابن زيدون جهرة مساندة لهذه الدعوة المزيفة فلا نطن كذلك أنها من باب المحبة للأمويين بقدر ماهي تجاوب مع سياسة إشبيلية وسيجازى فيما بعد على ذلك.

إن نفسية ابن زيدون لم تكن بعيدة عن نفسية أغلب الوزراء في بلاطات دول الطوائف. وهي نفسية لا ترى مانعا من الدس والإيقاع لمن يقف أمام أطماعها. ألم يقل فيه صاحب الأخيرة "أنه كان - سامحه الله - ممن لا يرجى خيره ولا يؤمن شره"^(١)؟

ونرجح أن التهمة التي وجدت أذنا صاغية لدى ابن جهور هو أن ابن زيدون يقوم بالتشكيك في شرعية حكم بني جهور وبالتالي التغيير في نظام الحكم بقرطبة. والدليل على ذلك أن في جل القصائد التي قالها في بني جهور يمدحهم ويطلب العفو منهم، تأكيداً على شرعية حكمهم. قال:

[الطويل]^(٢)

بَنِي جَهْوَرٍ، أَنْتُمْ سَمَاءُ رِئَاسَةٍ
لِعَافِيكُمْ - فِي أَفْقِهَا - أَنْجَمُ زُهْرٍ
طَرِيقُكُمْ مُنْثَلَى، وَهَدْيُكُمْ رَضَى
وَنَائِلُكُمْ غَمْرٌ، وَمَذْهَبُكُمْ قَصْرٌ
عَطَاءٌ وَلَافٍ وَحُكْمٌ وَلَا هَوَى
وَحِلْمٌ وَلَا عَجْزٌ، وَعِزٌّ وَلَا كِبَرٌ

(١) المغرب، ١/٦٩ .

(٢) الديوان، ص ١٧٦ .

وقال في أبي الحزم: **غَنِيٌّ، فَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ مَالُهُ**
عَزِيزٌ، فَصُنْعُ اللَّهِ مِنْ حَوْلِهِ جُنْدٌ [الطويل]^(١)

لكن كل ذلك لم يجد نفعا لدى أبي الحزم، ووجدت التهمة إلى قلبه سبيلاً. لقد توجَّس صاحب قرطبة خيفة من هذا الشاب الذي ملأ قاعدة الأندلس وشغل الناس فيها بحبه وشعره. وهكذا بدأت السَّحْبُ تكفهر في بلاط قرطبة إيذاً بعاصفة ضدَّ ابن زيدون. فتمَّ تهميشه وتجاهله أول الأمر لتقليص نفوذه. ثمَّ تقررَّ سجنه لدرء خطره من جذوره.

ولم يكن لدى ابن جهور من الأدلة ما يجعله يتهم ابن زيدون بالتَّهمة السياسيَّة السَّابقة وهي التَّأمر لإرجاع الحكم للأمويين. وكما يُصنع اليوم لفقت له تهمة أخرى ألصقت به ذريعة لتقديمه إلى المحاكمة قبل أن يودع السَّجْن، فنسب إليه اغتصاب عقار لأحد مواليه بعد وفاته، وعيَّن له خصيصة قاضٍ لم يكن من القضاء في ورد ولا صدر^(٢) وشهد عليه ابن العطار العشَّار العاري من الثَّقة والأمانة البعيد من الرَّغبة والصَّيانة، النَّاشِر لأذنيه طمعا الأكل بيديه جشعا^(٣). وانتهت هذه المحاكمة الشكليَّة بحكم يقضي بحبس ابن زيدون حبساً مطلقاً، وفي ذلك تعنَّت من القاضي لأنَّ الفقهاء أفتوا بتأخير السَّجْن وإجراء الصَّلح على أن يدفع ابن زيدون ثمن العقار أو يعيده إلى صاحبه.

ونجد في ديوان ابن زيدون قصيداً^(٤) مدح به أبا الحزم، ربَّما يكون الشَّاعر قد قاله أثناء الخصام، فهو يطلب فيه من ابن جهور أن يتوسَّط بينه وبين خصومه الذين لفقوا له تهمة اغتصاب العقار واستصدروا حكماً من القاضي بسجنه.

فالشَّاعر يرى أنَّه إذا تمَّ الصِّلح بينه وبين خصمه وترتَّب عن هذا خلاصه من محنته وتفريج كربته، فالفضل في ذلك يعود لأبي الحزم، كما أنَّ الرِّياح هي صاحبة الفضل في تكوين السَّحاب المنتج للخصب والنَّماء: [السريع]^(٥)

(١) الديوان، ص ١٨٢ .

(٢) الذخيرة ٤١٠/١/١ .

(٣) الذخيرة ٤١٠/١/١ .

(٤) الديوان، ص ٨٩ .

إِيَّاهُ "أَبَا الْحَزْمِ" اهْتَبِلَ^(١) غِرَّةً
أَلْسِنَةُ الشُّكْرِ عَلَيْهَا فِصَاحُ
وَاشْفَعُ فَلِلشَّافِعِ نُعْمَى بِمَا
سَنَاهُ^(٢) مِنْ عَقْدٍ وَثِيقِ النَّوَاحِ
إِنَّ سَحَابَ الْأُفُقِ مِنْهَا الْحَيَا
وَالْحَمْدُ فِي تَأْلِيْفِهِ لِلرِّيَّاحِ

وهكذا سجن الشاعر على يد صاحب دولة كان أحد مؤسسيها وبناتها... ووضع في حبسه أول الأمر مع مستوري الناس وذوي الهيئات فيه، ولكن لإذلاله نُقل في مرحلة ثانية إلى حيث الجناة المفسدون واللصوص المقيدون، ولمزيد تعذيبه منع في مرحلة ثالثة من زيارة أهله له.

ومن السجن كتب ابن زيدون لابن جهور أروع قصائده في الاستعطاف، فخلد في أدبنا العربي بحسّه المرفه شعرا ذاتياً إنسانياً، صوّر فيه أعمق مشاعر النفس في حالة السّحق المادّي والمعنوي. من هذه القصائد :

أ- قصيد أرسله إلى أبي الحزم من سجنه نوّه فيه بمجموعة من الخصال والقيم وعلى رأسها العفو عند المقدرة . وهي خصال وقيم يصعب لمن اتصف بها كالممدوح ألا يعفو عن الشاعر السجين. قال ابن زيدون يصف حاله وعذابه:

[البسيط]^(٣)

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدْهَا
مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُنْبِي^(٤) عَنْ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كِبَرَةً، وَأَرَى
بَرْقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرِ

(١) اهتبل : اغتنم.

(٢) سنّاه : مهّد له.

(٣) الديوان، ص ٢٥٣ .

(٤) ينبي : يغني، يدلّ.

يَا لِرَزَايَا : لَقَدْ شَافَهُتُ مِنْهُلَهَا
 غَمْرًا^(١)، فَمَا أَشْرَبُ الْمَكْرُوهَ بِالْغُمْرِ^(٢)
 إِنَّ طَالَ فِي السَّجْنِ إِيدَاعِي فَلَا عَجَبُ
 قَدْ يُودَعُ الْجَفْنُ حَدُّ الصَّارِمِ الدُّكْرِ

ب- قصيدة أرسلها إلى أبي الحزم من سجنه بدأها بالإشارة إلى غضب الطبيعة لمصابه وهذا المصاب الذي نزل به جاء من الدهر والأيام لأنه مصاب جلل. وما على أمه الحزينة إلا أن تصبر، لقد نكبه رجل له من الخصال ما يجعله يترقب العفو منه. وإن كان هذا الأمير قد خذله فالذنب الذي ارتكبه - لصغر سنه وقلة تجربته - ليس من المستحيل على هذا الأمير أن يعفو عنه. فقط هوّل الحساد والأعداء هذا الذنب. ولهذا فإن الاستمرار في تصديقهم لا يتماشى وحكمة الأمير وعدله وسداد رأيه. إنه ينتظر بفارغ الصبر جواباً من الأمير يزيح عنه ما حلّ به، وإلا فالرحيل إلى من سيحظى لديهم بكلّ تبجيل وتعظيم وارد لا محالة^(٣).

ج- قصيد ثالث أرسله من سجنه إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر أكد فيه على أن طموح المرء قد يؤدي به إلى كثير من الصعاب. وليس تحقيق المرء لغاياته في الحياة، دائماً رهين جهده وسعيه فيها. وحمل ابن زيدون حملة شعواء في هذه القصيدة على الصداقة المزيّفة. وما على المرء إلا أن يتمسك بالأمل في الحياة ويصمد لبلوغه وتحقيقه ويتحدّى الصعاب والعراقيل من أجله. قال ابن زيدون معبراً عن حيرته ومشبهاً نفسه بأحد أنبياء بني إسرائيل:

أَنَا حَـيُّ رَانَ وَلِلْأَمِّ
 رُؤُوسُوحٌ وَالتَّبَاسُ
 مَا تَرَى فِي مَعْشَرِ حَا
 لُوا عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا

(١) الغمر: الماء الكثير.

(٢) لقد غمرتني الرزايا وجرعتني غصصها بالأقداح الكبار لا الصغار.

(٣) الديوان، ص ١١٧ .

وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا^(١)
يُتَّقَى مِنْهُ الْمَسَاسُ
أَنْزُبُ هَامَتَ بَلَحْمِي
فَانْتَهَاشُ وَانْتِهَاسُ
كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا
لِي وَلِلذُّبِ اعْتِسَاسُ

د- قصيد جاء في مدح أبي الحزم فيه وصف لنكبة أذهبت شبابه ونضارته، وهدت قواه وحيويته، وعتاب أعقب في النفس حيرة وفي الفم مرارة وفي القلب أسى:
[الكامل]^(٢)

مَالِي وَلِلْأَيَّامِ لَجَّ مَعَ الصِّبَا
عُدْوَانُهَا فَكَسَا الْعِذَارَ مَشِيبَا
مَحَقَّتْ هِلَالَ السِّنِّ قَبْلَ تَمَامِ
هُوَذَوَى بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيبَا
لَأَلَمَ بِي مَا لَوْ أَلَمَ بِشَاهِقِ
لَا نُهَالَ جَانِبُهُ قُصَارَ كَثِيبَا
فَلَيْنُ تَسْمُنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ رَأَى
لِلْجَفْنِ فِي الْعَضْبِ الصَّقِيلِ نُدُوبَا
وَلَيْنُ عَجِبْتُ لَأَنْ أَضَامَ وَجْهُورُ
نَعَمَ النَّصِيرُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيبَا

هـ - قصيد في آخر رسالته الجديدة التي بعثها إلى أبي الحزم، فيه وصف لعذابه المرير لقد طال مدة سجنه فأنهكه المرض، ومعه انضافت الوحشة لانعدام الزائر:
[الخفيف]^(٣)

(١) السامري : أحد زعماء بني إسرائيل، دعاهم إلى الشرك بالله فعاقبه الله بالوحشة والانفراد، فلا يمس إنسانا إلا أدركتهما الحمى معا.

(٢) الديوان، ص ٧١ .

(٣) الديوان، ص ٣٤٥ .

أَفَصَبْرٌ مِّئِينَ خَمْسًا مِنَ الْيَدِ
يَا مِ؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ الْيَمِ^(١)
وَمُعْنَى مِنَ الضَّنَى بِهَنَاتٍ
نَكَاتٌ بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ^(٢)
سَقَمٌ لَا أَعَادُ فِيهِ، وَفِي الْعَا
ئِدِ أُنْسٌ يَفِي بِبُرِّ السَّقِيمِ^(٣)

وتزيد الأيام في النكابة بابن زيدون فيتوقى جده -كافله وهو صغير- أبو محمد بن محمد بن إبراهيم، فلا يشارك في وداعه الوداع الأخير.

لقد قضى ابن زيدون حوالي خمسمائة يوم في السجن. وبالتحديد تمت محاكمته بداية في ٧ محرم ٤٣٢/١٠٤٠ وأدخل بعدها مباشرة إلى السجن بعد إصرار القاضي على ذلك ورفضه إجراء الصلح مع المشتكين. وبعد أكثر من ٥٠٠ يوم بقليل قرّر ابن زيدون الفرار بعد أن ينس من عفو أبي الحزم، ممّا يدلّ على أنّ القضية كانت بين ابن زيدون وابن جهور وأنّ التهمة ثمّ العقاب هما بأمر من صاحب بلاط قرطبة. وتمّ الفرار يوم الجمعة ٨ شعبان ٤٣٣/٢ أفريل ١٠٤١، من ساعد ابن زيدون على الفرار ؟ رأى بعضهم أنّ صديقه أبا الوليد بن أبي الحزم سهّل له المهمة، وهذا أمر غريب وغير منطقي إذ كيف يتجرأ ابن جهور (الابن) على مخالفة رأي أبيه في شخص أصبح رمزا لتهديد مستقبل أسرتهم السياسي، بعد أن عينه أبوه ولياً لعهد.

السؤال الثاني الذي يطرح نفسه هو إلى أين فرّ ابن زيدون ؟ لقد قرّر الشاعر - حسب بعض المصادر- الخروج من قرطبة فوراً خوفاً من القبض عليه، وفي ليلة واحدة وصل إلى إشبيلية ولكنّه لم يبق فيها إلّا مدّة يسيرة رتب فيها مسألة اختفائه في ضاحية الزهراء، وقد أصبحت مهجورة تقريباً من حكام قرطبة.

(١) لقد صبرت على محنتي خمسمائة يوم وحسبك بما أصابني من عذاب اليم.

(٢) معنّى : متعب، الضنّى : المرض، الدواهي : أنا مصاب بنكبات أدمت جراحي قبل أن تلتئم.

(٣) اجتمع عليه المرض والوحشة فما يجرؤ إنسان على عيادته وطالما خفف الزائر آلام المريض.

وفي هذه الضاحية الملكية التي عفا عليها الدهر، وبعد مدة وجيزة، أصبح ابن زيدون يشعر أنه خرج من سجن صغير إلى سجن أكبر. إذن عذابه تواصل ويمكن أن يكون قد تفاقم فهو قريب من حبيبته قرطبة وولادة واقعيًا، ولكنه بعيد عنهما عمليًا، هو قريب / بعيد من الوطن وبه أماكن اللهو والمتعة، وهو قريب / بعيد من الحبيب وهو مصدر الجمال والأنس. قال معبرًا عن حريته السلبية وشوقه المكبوت وعذابه المستمر، مخاطبًا -على الأرجح- ولادة^(١):

إني ذكرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَقًّا
وَالْأَفْقُ طَلَقٌ وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْ رَأَى
وَالنَّسِيمُ اغْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ
كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي، فَأَعْتَلَّ إِشْفَاقًا
كَأَنَّ أَعْيُنَهُ -إِذَا عَايَنْتُ أَرْقِي
بَكَتْ لِمَا بِي، فَجَالَ الدَّمْعُ رُقْرُقًا

وقارن ابن زيدون في مخمّس له وهو مختلف بضاحية الزهراء بين الماضي السعيد والواقع المؤلم فازدادت لوعته فقال:

[الطويل]^(٢)

رَمَتْني اللَّيَالِي عَنْ قِسيِّ النَّوَائِبِ
فَمَا أَخْطَأْتُني مُرْسَلَاتُ الْمَصَائِبِ
أَقْضِي نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَأَوِي إِلَى لَيْلٍ بَطِيءٍ الْكَوَاكِبِ
وَأَبْطَأُ سَارَ كَوُكَبٍ بَاتَ يَكْلَأُ
أَقْرُطِبَةَ الْغُرَاءِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعٌ؟
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَى لِبَيْنِكَ تَنْقَعُ؟
وَهَلْ لِّلَّيَالِيكِ الْحَمِيدَةُ مَرْجَعُ؟
إِذِ الْحُسْنُ مَرَأَى -فِيكَ- وَالدهْرُ مَسْمَعُ
وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكَ مُوْطَأُ

(١) الديوان، ص ٢٥٧ .

ومن هذه الضاحية الملكية المهجورة كتب إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي رسالة شرح فيها حالته، ثم ختمها بقصيدة برّ فيها فراراه والتمس شفاعته لدى بلاط قرطبة:

[الطويل]^(١)

فَرَرْتُ، فَإِنْ قَالُوا : الْفِرَارُ إِرَابَةٌ^(٢)

فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقَبْطُ

وقد أشار إلى أعدائه الذين رموه بالخيانة وليس من شأن أمثاله أن يرموا بهذا الخلق الذمّيم :

وَقَدْ وَسَمُونِي بِالنِّسْبَةِ لَسْتُ أَهْلَهَا

وَلَمْ يُمَنَّ^(٣) أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطُّ

وما كان ابن زيدون يظنّ أنّه سيخدع بالآمال الكاذبة ويتخبّط كما يتخبّط الأعمى في الظلام فيقع في المكروه^(٤):

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ تُغَرَّرَ بِي الْمُنَى

وَلِغَرٍّ^(٥) فِي الْعَشَوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبْطُ

لقد خدعته الآمال فحلّقت به في عنان السّماء ثمّ قذفت به إلى الحضيض فأصبح خدّه موطئاً للأقدام :

أَمَا وَارْتَنَى النِّجْمَ مَوْطِئَ أَحْمَصِي^(٦)

لَقَدْ وَطَأَتْ^(٧) خَدِّي لِأَحْمَصَ مَنْ يَخْطُو

(١) الديوان، ص ١٨ .

(٢) إرابة : تهمة.

(٣) لم يُمَنَّ : لم يُختبر.

(٤) الديوان، ص ١٨ .

(٥) الغرّ : الأحمق.

(٦) مَوْطِئُ أَحْمَصِي : باطن القدم.

(٧) وَطَأَتْ : مهَّدت.

وشعر ابن زيدون بالأمان له وهو مختف في ضاحية الزهراء فخاف من القبض عليه والزج به ثانية في السجن، فقرر الابتعاد عن الوطن فسافر خفية إلى إشبيلية، وبقي في كنف المعتضد حوالي سنة ينتظر نتيجة المساعي التي بذلها شيخه وأصدقائه لدى بني جهور للعفو عنه.

وسوف لن ينتظر ابن زيدون من صاحب بلاط إشبيلية أن يشفع له لدى بلاط قرطبة. فالعلاقة بين البلاطين متوترة منذ أن نقض أبو الحزمبيعة هشام خوفاً من أطماع المعتضد التوسعية. وقد رأينا أن من أهم أسباب نكبة ابن زيدون اتهمه بالميل إلى بني أمية.

وفي إشبيلية مدح ابن زيدون المعتضد ونوه بمكانته التي أصبح عليها في بلاطه وعرض ملمحاً بحكام لم يقدروا مواهبه الأدبية والسياسية:

فَدَيْتُكَ كَمْ لِعَيْنِي مِنْ سُمُو
لَدَيْكَ وَكَمْ لِنَفْسِي مِنْ طِمَاح
أَلَا هَلْ جَاءَ مَنْ قَارَقْتُ^(١) إِنِّي
بِسَاحَاتِ الْمُنَى رَقِلَ الْمِرَاح
وَإِنِّي - مِنْ ظِلَالِكَ - فِي زَمَانٍ
نَدِي الْأَصَالِ رُقِرَاقِ الضُّوَاحِي
لَقَدْ أَنْفَذْتُ - فِي الْأَمَالِ حُكْمِي
وَأَجَرَيْتُ الزَّمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِي

ولم يكتف ابن زيدون بالتعريض تلميحاً بل قال بندم شديد وتحد كبير:

[الكامل]^(٢)

قُلْ لِلْوَزِيرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ
زَمَنِي فَكَانَ السِّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي
لَا تَخْشَ فِي حَقِّي بِمَا أَمْضَيْتَهُ
مِنْ ذَاكَ فِي وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي

(١) الديوان، ص ١٦٤ .

(٢) يعرض بابن جهور

لَمْ تُخْطِ فِي أَمْرِي الصُّوَابَ مُوقِّعًا
هَذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ

وفي إشبيلية حنّ إلى الحبيب (ولادة) فأرسل إليه قصيده الرائع "أضحى التّنائي". فكان الخلود للغزل الأندلسي به، بما فيه من غربة وحنين وحبّ وحرمان، ووصال وهجران، وأمل في عودة الماضي السعيد، وألم من واقع مرير.

ولا يمكن أن يتذكر ابن زيدون ولادة دون أن يتذكر الإطار الذي كانا فيه يلتقيان في رحاب قرطبة الغناء وطبيعتها الخلابة. قال:

[الطويل]^(١)

سَقَى الْغَيْثُ أَطْلَالَ الْأَحِبَّةِ بِالْحِمَى
وَحَاكَ عَلَيْهَا ثُوبَ وَشْيٍ مُنْمَمًا

هو مخمّس أثار فيه الشاعر ذكريات الصبّ والشباب، فتحسّر على الماضي السعيد، وتشوّق إلى أماكن الحبّ والجمال والمتعة فيه. وأكّد أنّه سيبقى وفيا للوطن والحبيب، مدى الدهر.

وشعر بنو جوهر أنّ ابن زيدون في كنفهم أقلّ خطرا عليهم وهو في بلاط عدوهم. فجاء قرار العفو عنه، ووصل إلى ابن زيدون فكان كعطشان عثر على الماء فأسرع إلى الوطن وكلّه شوق إلى مراتع شبابه ومسارح لهوه وحبّه. كان ذلك سنة ٤٣٠/٤٣٥، وهي السنّة التي توفي فيها أبو الحزم بن جهور. فهل تمّ العفو عن ابن زيدون قبيل وفاته؟ أو بعيد ذلك؟

يبدو أنّ صاحب بلاط قرطبة، وقد شعر باقتراب أجله، رأى أنّ ابن زيدون في كنفهم هو أداة معطلّة ضدّهم، وهو خارج بلاطهم معول هدّام لأركان دولتهم. لكن من المتأكّد أنّ ابن جهور قد حذّر وليّ عهده من ابن زيدون قبل أن يعفو عنه وقبل أن يوجد بأنفاسه الأخيرة.

(١) مخمّس، ص ١٩٢ .

وهكذا يتمّ العفو عن ابن زيدون ويموت أبو الحزم ويزول نسبياً عنصر الانزعاج
إذ تولى الحكم أبو الوليد صديق الشاعر وزميله في الدراسة وتربيه في السن. ورأى
الشاعر توطيدا للعلاقة التي كانت تربطه بأبي الوليد أن هناك واجبا نحو حاكم قرطبة
الجديد الذي تحقق له في عهده أمل كان بعيدا وأمن كان مفقوداً، فاغتتم فرصة وفاة الأب
فرثاه ومدح الابن.

في هذه القصيدة الرثائية المدحية^(١): هنّا أبا الوليد بالإمارة وأكد على زوال عنصر الخوف:
[الطويل]^(٢)

لَبِسْنَا لَدَيْهِ^(٣) الْأَمْنَ تَنُودِي ظِلَالَهُ
وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَمَا أَيْنَعَ الزَّهْرُ

وأعداؤه أصبحوا -لحبّ الأمير له- يخافون منه، وهو بحبه للأمير جدير بالاصطناع.
ولحّ ابن زيدون إلى ما يمكن أن ينتظره من الأمير مقابل الإخلاص له في حبه،
وتقديم النصيحة والمشورة له :

مَلِكُ لَهْ مِثْنَا النَّصِيحَةُ وَالْهَوَى
وَمِنْهُ الْأَيْدِي الْبَيْضُ وَالنَّعْمُ الْخُضْرُ

وتتوالى قصائد المدح لأبي الوليد ولحكمه. وفي كلّ قصيدة هناك تلميح إلى رغبة لم
تُلبّ وأمل لم يحقق، ومنصب لم يُنل، وعدوّ مازال حاقداً، وحسود مازال مناوئاً:
[الرملي]^(٤)

أَنَا غَرَسُ فِي ثَرَى الْعَلِيَاءِ لَوْ
أَبْطَأْتُ سُقْيَاكَ عَنْهُ لَذَبُلُ
لِي ذِكْرُ بِالَّذِي أَسْدَيْتَهُ
نَابَهُ، وَدَّ حَسُودٌ لَوْ خَمَلُ

(١) الديوان، ص ١٥٠ .

(٢) الديوان، ص ١٥٠ .

(٣) الضمير يعود على أبي الوليد.

(٤) الديوان، ص ٦٥ .

صحيح لقد تحقق الأمن والحرية، لكن هل هذا كاف بالنسبة إلى ابن زيدون السياسي الطموح؟، إذا كان التلميح لم يجد فليصرح الشاعر، إنه يريد أن يصبح وزيراً في بلاط الممدوح ليقدم له الرأي والمشورة، وهو في حاجة إليهما. قال الشاعر مخاطباً ولأدة مصرحاً بحبه ومجاهراً:

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنُكَ
فَيَمِيلُ مِنْ سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكَ

وقال مخاطباً أبا الوليد معبراً عن رغبته ومعلنًا^(٢):
قَلْدُنِي الرَّأْيَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ
حَسْبِي لِيَوْمِي زِينَةُ وَعِرَاكَ

ولا يرى الشاعر -وهو يخاطب الممدوح- لنفسه من شبيه إلا شمساً أخفاها دجن (سحاب داكن)، وسيفاً ستره غمد وعطرا فاح بعد سحق.

ويبدو أن أبا الوليد -كوالده- لم يكن مطمئناً إلى الشاعر لكن تحت إلحاحه اكتفى بتعيينه سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف، ولئن رضي الشاعر أول الأمر بهذا المنصب فلأنه يعتبره مرحلة إلى المنصب الذي ترونو إليه نفسه. لكن لما شعر ابن زيدون أن الأمير يُمَاطله عبّر عن عدم رضاه بهذا المنصب، وذلك بإطالة المقام في بلاط إدريس بن عيسى بن علي بن حمود بمالقة رغم أوامر أبي الوليد بالرجوع. فقرّر الأمير عزله، وأكد أن سوء ظنه بالشاعر من جهة وتحريض المناوئين له من جهة أخرى وراء هذا القرار.

ونزل هذا القرار على الشاعر نزول الصاعقة وشعر بخطئه فأسرع بالرجوع إلى قرطبة، مستعظفاً أبا الوليد قائلاً:

[الطويل]^(٣)

بَنَيْتَ فَلَا تَهْدِمُ، وَرَشْتَ^(٤) فَلَا تَبْرِي^(٥)
وَأَمْرَضْتَ حُسَادِي، وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِي^(٦)

(١) الديوان، ص ٩.

(٢) الديوان، ص ١٢.

(٣) الديوان، ص ٦١.

(٤) راش السهم : ركب عليه الرّيش، الصديق : أصلح حاله.

(٥) تَبْرِي : نحتة.

أَرَى نُبُوَّةً^(١) لَمْ أَدْرِ سِرَّ اعْتِرَاضِهَا
وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضَ الهمَّ أَنْ أَدْرِ
جَفَاءً هُوَ اللَّيْلُ أَدْلَهُمْ ظِلَامُهُ
فَلَا كَوَكَبٌ لِلْعُدْرِ فِي أَفْقِهِ يَسْرِي
هَبِ الْعَزْلُ أَضْحَى لِلْوَلَايَةِ غَايَةً
فَمَا غَايَةُ الْمُؤَفِّي مِنَ الظِّلِّ أَنْ يُكْرِي^(٢)
فَفِيمَ أَرَى رَدَّ السَّلَامِ إِشَارَةً
تُسَوِّغُ بِي إِرْءَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يُزْرِي^(٣)

وهكذا لم تكف الأيام بجعل الأمير يُسندُ إلى الشاعر منصبا دون طموحه، فزادت في نكايتها له فعزل عن هذا المنصب قال:
[الطويل]^(٤)

مَالِي وَلِلدُّنْيَا غُرْرَتْ مِنَ الْمُنَى
فِيهَا بَبَارِقَةُ السَّرَابِ الْخَادِعِ
مَا إِنْ أَرَالَ أُرُومُ شَهْدَةِ عَاسِلٍ
أَحْمَى مُجَاجَتَهَا بِإِبْرَةٍ لَاسِعِ

وقال لاثما بني جهور ومُعَاتِبَا لَهُمْ:
[الطويل]^(٥)

بَنِي جَهْوَرٍ أَحْرَقْتُمْ بِجَفَائِكُمْ
جَنَانِي وَلَكِنِ الْمَدَائِحِ تَعْبِقُ
تَعْدُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الرُّطْبِ إِنَّمَا
تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ حِينَ يُحْرَقُ

أصبح ابن زيدون في بلاط صديقه أبي الوليد بدون منصب وشعر ألا مستقبل له في بلاط بني جهور سواء بمنصب مركزي أو بمركز تشريفي. فبدأ الشاعر يفكر ويخطط

(١) نبوة : جفوة.

(٢) يُكْرِي : ينقص، إذا كان العزل هو نهاية ما أوليتني من عمل فلا تجعل ظلّ حمايتك لي ينقص ويزول.

(٣) يبدو أن أبا الوليد كان يسلم على ابن زيدون بطريقة تجعل أعداءه يسخرون منه ويحتقرونه، فالسلام بالإشارة دليل على التهميش والغضب والازدراء من المسلم.

(٤) الديوان، ص ٨٠ .

للانتقال إلى بلاط آخر. لكن هل أن بلاطات ملوك الطوائف تختلف عن بعضها في سلبياتها؟ إذن لا بدّ من دراسة الوضع عن كثب. فقام بزيارة بعض البلاطات متظاهراً بالتجول لتجاوز المحنة التي ألّمت به من جراء عزله.

زار بلاط بلنسية "وهلال ذكائه كما أقمر، وغصن نباهته يانع قد أثمر، وبنو عبد العزيز غرر ملكها، ودرر سلكها، يفيضون بحور ندى ويومضون في كلّ منتدى، فحلّ منهم محلّ الحيا في الكؤوس ووقع منهم موقع البشائر في النفوس، وأقام بين مبرة تواصله، ومسرة تغارله، ومكارمة تفاديه، ومجاملة كرائح القطر وغاديه، فلما انفصل"^(١) كتب إلى أبي عبد الله عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر يمدحه ويمدح عائلته ومدينته بقصيد مطلعها:

رَاحَتْ فَصَحَّ بِهَا السَّقِيمُ
رِيحُ مُعْطَرَةِ النَّسِيمِ

ومن أعمال بلنسية زار ابن زيدون طرطوشة، وفيها حنّ إلى قرطبة فحملّ النسيم التّحية من جسم بالمشرق بلا قلب، إلى قلب بلا جسم بالغرب (المقصود شرق الأندلس وغربها) قال:

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا
تَحْمُلُهَا مِنْهُ السَّلَامُ إِلَى الْغَرْبِ
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِي احْتِمَالِهَا
سَلَامٌ قَتَى يُهْدِيهِ جِسْمٌ بِلَا قَلْبِ

وزار ابن زيدون بلاط بطليوس للمرة الأولى في عهد المظفر بن الأفطس، واستقبل هذا الأمير ابن زيدون مقدراً مواهبه الأدبية وحنكته السياسية. لكن عاش الشاعر في هذه المدينة لوعة شريد غريب، بعدّ عن الأهل والوطن والحبیب.

(١) ابن خاقان : القلائد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور. طبعة تونس ١٩٩٠، ص ١٨٣ .

(٢) الديوان، ص ٣٦ - الذّخيرة ٣٦٩/١.

(٣) الذّخيرة ٣٧٤/١.

قال:

[الرجز]^(١)

يَا دَمْعُ صَبِّ مَاشِئْتُ أَنْ تَصُوبَا
وَيَا فُؤَادِي أَنْ تَذُوبَا
إِذِ الرَّزَايَا أَصْبَحَتْ ضُرُوبَا
لَمْ أَرِ لِي فِي أَهْلِهَا ضَرِيبَا
قَدْ مَلَأَ الشَّوْقُ الْحَشَا نُدُوبَا
فِي الْغَرْبِ إِذْ رَحْتُ بِهِ غَرِيبَا
عَلِيلَ دَهْرٍ سَامَنِي تَعْذِيبَا
أَدْنَى الضُّعَى إِذْ أَبْعَدَ الطَّيِّبَا

وخاطب وهو في تلك الحالة الكئيبة حمامة بعد أن سمع هديلها، فعبر بمخاطبتها لها عن قمة الإحساس والشعور بالوحدة والغربة:

[البسيط]^(٢)

وَأَرْقَ الْعَيْنَ- وَالظُّلُمَاءُ عَاجِفَةٌ
وَرَقَاءُ، قَدْ شَقَّهَا، إِذْ شَقَّنِي حُزْنُ
فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو فَوْقَ أَيْكَتِهَا
وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِيَا حَا بَيْنَنَا الْغُصْنُ

وفي بطليوس أرسل ابن زيدون إلى ابن الأفطس رسالة أتبعها بقصيدة يرجو فيها الشفاعة لصديق. ولعلَّ الشاعر اتخذ من هذا الصديق ستاراً لنفسه عندما عزله أبو الوليد، فابن زيدون عن وعي أو غير وعي، تصوّر غيره في نفس الظروف التي عاشها ويعيشها ويقوم هو بدور الشفيع وقد عزَّ الشفيعُ. قال مخاطباً ابن الأفطس مادحاً وبغيره معرضاً:

وَعَيَّرَكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذَّمَا
مِإِذْ حُسْنُ ظَنِّي عَلَيَّهِ أَذَمُّ^(٤)

(١) الذخيرة ٣٦٧/١/١، الديوان، ص ١٩ .

(٢) الديوان، ص ٢٧٠، (تحقيق مرعشلي).

(٣) الديوان، ص ١٢٩ .

(٤) أذم له وعليه : أي أخذله ذمة أي حرمة أو إجارة.

- عَلَى ثِقَةٍ - بِالنُّجَاحِ الْأَتَمِّ
وَمُسْتَشْفَعٍ بِي بَشَرَتِهِ

ب - التهمة الثانية :

لا تذكر المصادر أنَّ صاحب بطليوس تدخل لدى أبي الوليد ليعفو عن ابن زيدون، لكنَّ الأرجح أنَّ أبا الوليد شعر بأنَّه سيخسر ابن زيدون نهائياً، وأنَّ بقاءه في قرطبة مهمِّشاً أفضل من تركه يجوب الأندلس شرقاً وغرباً، وكما فعل والده سابقاً تظاهر بالعفو عن ابن زيدون. وكعادة هذا الأخير أسرع بالرجوع إلى قرطبة حيث الأهل والأحبة، لكن، من سوء حظه، لم يهنأ بالعيش فيها، فقد عادت أصابع الاتهام تتجّه إليه ثانية -ظناً منه أو حقيقة- عندما انكشفت مؤامرة تزعمها أحد أبناء بني ذكران العائلة القرطبية المشهورة، فقد حاول أحمد بن محمد بن أحمد بن ذكوان سنة ٤٨٠/٤٤٠ الإطاحة بعائلة بني جهور وإرجاع الحكم إلى الأمويين.

ولما انكشفت المؤامرة خشي ابن زيدون على نفسه، ألم يتَّهم في عهد أبي الحزم بنفس التهمة وسجن؟ فما المانع من أن يتهم بها ثانية في عهد أبي الوليد وينكّل به؟ أليس أعداؤه كانوا وما زالوا كثراً في بلاط بني جهور؟ أليست العلاقة بينه وبين أبي الوليد من الهشاشة ما يجعله معرضاً للتهمة حقاً أم باطلاً؟ لقد أسرع الشاعر بالتنصل من هذه المؤامرة والتبرؤ من القائمين بها رغم صداقته التقليدية لعائلة بني ذكران. فهؤلاء المتآمرون سيسعون إلى توريثه لا لشيء إلا لما دأب عليه من الإشادة بفضل بني جهور وهذه الجريرة في نظرهم كانت ومازالت كافية لمحاولة الإيقاع به سواء أكان ذلك قبل انكشاف أمرهم أم بعده:

إِنَّ الْأَلَى كُنْتُ مِنْ قَبْلِ افْتِضَاحِهِمْ
مِثْلَ الشَّجَى فِي لُهَاهُمْ لَيْسَ يُنْتَرَعُ
لَمْ أَحْظَ، إِذْ هُمْ عِدَى بَادٍ نِفَاقُهُمْ
إِلَّا كَمَا كُنْتُ أَحْظَى إِذْ هُمْ شَيْعُ

(١) الديوان، ص ١٣٤-٥ .

مَا غَاظَهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْتُ مِنْ مَدَحٍ
 فِي صَائِكَ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا فَنَعُ
 كَمْ غُرَّةً لِي تَلَقَّيْتُهَا قُلُوبُهُمْ
 كَمَا تَلَقَّى شِهَابُ الْمُوقِدِ الشَّمْعُ^(١)
 إِذَا تَأَمَّلْتَ نُصْحِي غِبَّ غِشَّهُمْ
 لَمْ يَخَفْ مِنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ مُنْصَدِعُ

ومع أن أبا الوليد تظاهر بتصديقه فلم يمسّه بسوء، فإن ابن زيدون أخذ بالقولة المشهورة "لأيلدغ المؤمن من جحر مرتين". وكانت هذه التهمة الثانية بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس ورجحت الكفة للخروج نهائياً من قرطبة.

نزع ابن زيدون من قرطبة إلى إشبيلية بالاتفاق مع المعتضد، لكن قبل أن يلتحق بإشبيلية مرّ ببطليوس للمرة الثانية، وبقي هناك مدة كانت نفسه فيها تتقطع حزناً وأسى على فراق قرطبة، ويقبل العيد وهو غريب فيزداد ألمه وشوقه قال:

[الطويل]^(٢)

خَلِيلِي لَا فِطْرٍ يَسُرُّ وَلَا أَضْحَى
 فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى وَحِيداً كَمَا أَضْحَى؟

يشدّ ابن زيدون الرّحال من بطليوس إلى إشبيلية عاصمة بني عبّاد ويصلها سنة ٤٩٠/١٠٤٩، فيتلقاه المعتضد بكلّ مظاهر الاحترام والتبجيل وكان لصديقه الشّاعر أبي عامر بن مسلمة دور في استقباله ببلاط إشبيلية معظماً ومكرماً.

ويوضح ابن زيدون في قصيد له^(٣) سبب رحيله عن قرطبة. إنّه فتى شهم لا مقام له في مكان فيه ذلّ، ولو أدّى ذلك إلى البعد عن الأهل والوطن والأحبة. والأمل في الرجوع إليهم جميعاً وارد وذلك عندما يستولي المعتضد على قرطبة ويضمّها إلى مملكته. ومن هنا نفهم أن ابن زيدون بمجرد وصوله إلى إشبيلية بدأ تحريضه للمعتضد على غزو قرطبة.

(١) إن قلوب هؤلاء الأعداء تنلظى بالحقد عليه، فلما أبصروا طلعتي ذابت قلوبهم حسداً وضغينة، كما يذوب الشمع بالنار.

(٢) الديوان، ص ٥٤ (كيلاني).

وهو لا يفتأ يذكر أعداءه ومناوئيه في بلاط بني جهور بما أصبح ينعم به لدى المعتضد:
[الكامل]^(١)

لَمَّا وَرَدَتْ بِوَرْدِ حَضْرَتِكَ - الْمُنَى
فَهَقْتُ^(٢) لَدَيَّ جِمَامَهَا^(٣) الْأَعْدَاءُ

وفي إشبيلية وصل ابن زيدون إلى أعلى المناصب ببلاطها وهو منصب الوزير الكاتب (الشخصية الثانية بعد الأمير في بلاط إشبيلية). ولم يصل إلى هذا المنصب إلا بعد أن تسبب في هلاك سابقه فيه وهو ابن حصن وعزل أبي عبد البر منه.

وأكد أن ابن زيدون كان من أكبر المحرضين للمعتضد على الفتك بأمرء الأقاليم المجاورين لإشبيلية. وكان أغلبهم من البربر وقد اغتنم فرصة عيد الأضحى سنة ٤٤٦/١٠٥٤ لتنهته بانتصاره عليهم. وبالنسبة إلى محنته أكد الشاعر على أن المعتضد هو منقذه منها. لقد كانت حياته مظلمة قاتمة فبدد الممدوح ظلامها وزينها بغرة بيضاء يتطلع إليها الحسود فيرتد بصره خاسئاً وهو حسير:
[الطويل]^(٤)

أَفَدْتُ بِهَيْمِ الْحَالِ مِنِّي غُرَّةً
يُقَابِلُهَا طَرْفُ الْجَمُوحِ فَيُطْرَفُ

بقي الشاعر في بلاط المعتضد زهاء العقدين من ٤٤١/١٠٤٩ إلى سنة ٤٦١/١٠٦٩ واستطاع بحنكته أن يتجنب سخطه وعقابه، ولكنه لم يستطع أن يتجنب غضبه. فقد نفاه - حسب مقطوعة في ديوان الشاعر - إلى مكان قفر، فعاتبه ابن زيدون لقد بلغ بالممدوح السخاء أن جاد بأخلص الناس له (يعني نفسه) على الصحار المجذبة رغم أنه جدير بحمايته وصيانتها:

أَعْبَادُ حَتَّى مِنْ هِبَاتِكَ مُخْلِصٌ
وَدُودٌ؟ وَمِنْ عَافِيكَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ

(١) المصدر السابق، ص ٤٦٥ .

(٢) فهقت : ملأت.

(٣) الجمام : البئر الكثير الماء.

(٤) الديوان، ص ٣٣ (ط. كيلاني).

تَعَوَّدَتْ بَدَلِ الْمُنْفِسَاتِ فَجُدَّتْ بِي
وَإِنِّي بِصَوْنٍ مِنْكَ أَحْرَى وَأَخْلَقُ

ويبدو أنَّ هذا النَّفي كان سحابة صيف في سماء العلاقات الودية بين الأمير المتقلب المستبدَّ ووزيره السِّياسي المحنَّك، فقد مات المعتضد سنة ٤٦١/١٠٦٩ وهو راض عن وزيره فرثاه ومدح المعتضد^(١).

وقد حاول مناوئوه في بلاط إشبيلية اغتنام الفرصة ليتخلَّصوا منه فأشاعوا أنه حرَّض المعتضد قبل وفاته على قتل ابنه المعتمد أو على الأقل رميه في السَّجن، ولزيد التحريض أشاعوا بيتين على لسان ابن زيدون فيهما هجاء للمعتضد بعد وفاته:

[الطويل]^(٢)

لَقَدْ سَرَرْنَا أَنَّ النُّعْيَ مُوَكَّلُ
بِطَاغِيَّةٍ قَدْ حَمَّ مِنْهُ حِمَامُ
تَجَانَفَ صَوْبُ الْمُرْنِ عَنْ ذَلِكَ الصَّدَى
وَمَرَّ عَلَيْهِ الْغَيْثُ وَهُوَ جَهَامُ^(٣)

كما أوصل هؤلاء المناوئون إلى المعتمد قطعةً يحرِّضونه فيها على البطش بابن زيدون

مطلعها: [الكامل]^(٤):

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَلِيُّ الْأَعْظَمُ
اقْطَعْ وَرِيدِي كُلَّ بَاغٍ يَنْزِمُ

فلمَّا قرأ المعتمد هذه القطعة تأكد من أنها مكيدة تحاك للوزير الشيخ فرد عليهم

بقوله: [الكامل]^(٥)

(١) الديوان، ص ١٤٠ (ط. كيلاني).
(٢) الديوان، ص ٣٠٦ (ط. عبد العظيم). والذخيرة : ٣٩٥/١/I.
(٣) تجانفَ : مَالَ، والصَّوبُ : هطول المطر، والجهام : السَّحاب غير المطر.
(٤) الديوان، ص ٣١١ (ط. عبد العظيم).
(٥) المصدر السابق.

كَذِبَتْ مُنَاكُم صَرَحُوا أَوْ جَمَعُوا
الِدَيْنِ أَمْتَنُ وَالْمَرْوَةَ أَكْرَمُ

ورغم وقوف المعتمد إلى جانب الشاعر، فقد ارتاع ابن زيدون مما يحاك ضده من دسائس، فأسرع يمدح المعتمد ويعرض بمن يخططون لإفساد العلاقة بينه وبين أميره الشاب، قال في مطلعها^(١):

الدَّهْرُ إِنْ أَمَلَى فَصِيحٌ أَعْجَمُ
يُعْطِي اعْتِبَارِي مَا جَهِلْتُ فَأَعْلَمُ
قُلْ لِلْبُغَاةِ الْمُتَبِضِينَ قَسِيَّهُمْ
سَتَرُونَ مَنْ تُصْمِيهِ تِلْكَ الْأَسْهُمُ

وكان المعتمد في مستوى ثقة ابن زيدون فيه، فقد ردَّ على هؤلاء البغاة واستنكر فعلهم، فقال ابن زيدون:

[مجزوء الرمل]^(٢)

وَضَحَّ الْحَقُّ الْمُبِينُ
وَنَفَى الشَّكَّ الْيَقِينُ
وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونَا
عَهْدَ مَوْلَى لَا يَخُونُ
فَإِذَا الْغَيْبُ سَالِمٌ
وَإِذَا الْوُدُّ مَصُونٌ

ولا شكَّ أنَّ القدر أراد أن تُختم حياة ابن زيدون بتحقيق أمله في الرجوع إلى قرطبة منتصرا بعد أن خرج منها مختفيا، فقد قام بتخطيط عملية الاستيلاء على قرطبة وانتزاعها

(١) المصدر السابق، ص ٣١٢ .

(٢) الديوان، ص ٢٢٢ .

من يد بني جهور وإسقاط دولتهم. وهي دولة عمل على تأسيسها ثم اكتوى بلهيب نيرانها واضطراً إلى مغادرة مسقط رأسه تجنباً لشرها وأذاها.

لقد انتقل الشاعر مع بني عباد إلى قرطبة سنة ٤٦٢/١٠٦٩ قرير العين، بعد أن استولى عليها المعتمد بتدبيره من يد بني جهور. وكما أخرج من قرطبة وقع إخراج بني جهور منها جميعاً وتم نفيهم إلى جزيرة شلطيّش. وسوف لن يجد الشاعر بأنفاسه الأخيرة إلا بعد أن نجح أعداؤه، وعلى رأسهم الشاعر ابن عمّار (ق ٤٧٩/١٠٨٦) في الكيد له، فقد أقنعوا المعتمد بإرساله إلى إشبيلية لإخماد فتنة أو شبه فتنة اندلعت فيها - وكان الشاعر زيادة على تقدّمه في السنّ مريضاً فمات وهو على مقربة من عاصمة بني عباد سنة ٤٦٣/١٠٧٠ .

— |

| —

— |

| —

III - البعد التقييمي

قال عبد الله عنان :

"وكان ملوك الطوائف بالرغم من طغيانهم ومن الصفات التي كان يتصف بها الكثير منهم، من حماة العلوم والآداب".

دول الطوائف، ص ٤٢٣

إيجابيات عصر ابن زيدون

اعتاد المؤرخون التركيز على الجانب السلبي في عصر الطوائف والإشارة عرضاً إلى الجانب الإيجابي، هذا إذا لم يقع إغفال هذا الجانب أو إهماله كلياً في بعض الدراسات، خاصة الدراسات التي تناولت أسباب سقوط الأندلس.

والجانب الإيجابي في عصر الطوائف له نواح متعددة يمكن حصرها فيما يلي :

أ- الحرية :

من الصعب أن نتحدث عن الحرية في عصر ساد فيه الحكم الفردي المطلق. ومع ذلك يمكن أن نعتبر هذا العصر مقارنة بالقرن الذي سبقه عصرًا سادت فيه نسبياً بعض الحريات الفردية والعامة على حساب التقاليد الدينية والاجتماعية، وكان للمرأة من هذه الحرية نصيب الأسد من حيث سلوكها داخل البيت أم خارجه وخاصة الجوّاري منهن.

وكانت بعض العلوم كالفلسفة والتنجيم شبه محرمة في القرن ٤/١٠ وأصبحت في عصر الطوائف مسموحاً بها مما أنعش الحركة الفكرية بالأندلس، فكان التطور العلمي بما جدّ من اختراعات، والتفتّح على الغير بما قام من جدل ثري بين علماء الدين الواحد من جهة، وعلماء الأديان السماوية الثلاثة - وخاصة الإسلام واليهودية - من ناحية أخرى.

وفي دولة بني جهور كان الحكم في بداية هذه الدولة بيد جماعة من حكماء المدينة على رأسهم أبو الحزم بن جهور، حتّى أن بعض المؤرخين شبهوها بحكومة الشورى أو النظام الجمهوري قبل أن يظهر هذا النوع من الحكم في أوروبا - إيطاليا خاصة - بقرون.

ومن هذه الحرية الممارسة، رفض بعض علماء الأندلس بكثير من الجراءة قبول منصب رفيع في الدولة وخاصة القضاء^(١)، والامتناع من إهداء تصنيف لأmir البلد^(٢)، وعدم الامتثال لقرار أمره به صاحب البلاط^(٣). ومع ذلك لم نر من أمراء الطوائف من عاقب قاضيا أو عالما لهذا السبب أو ذاك. بل إن أحدهم وهو ابن حيان "كان لا يتردد في صكّ مسامعهم بما يكرهون وبما يعرب عن احتقاره لهم و اشمئزازه منهم، ومع ذلك لم نسمع أن أحدهم أصابه بسوء"^(٤).

ب - الجانب العلمي:

يعتبر عصر ابن زيدون أي القرن ٥/١١ من أزهى عصور الأندلس من الناحية العلمية^(٥)، ولو تواصل نسق التطور بشبه الجزيرة الإيبيرية دون فتن داخلية وحروب خارجية لأمكن للأندلس أن تجعل من عصر النهضة في أوروبا سابقا لزمانه :

- فمن ناحية العلوم الإنسانية، عصر ابن زيدون هو عصر ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦/١٠٦٣). وهو مفكر اتفق الجميع على أنه آية عصره في نضوج الذهن ودقة البحث وعمق التفكير وشمولية المعرفة، فقد برع في الفقه والأدب وأصول المذاهب وتاريخ الأديان، ووصلت كتاباته إلى مستوى لم تصل إليه أوروبا في القرن ١٣/١٩ حسب المستشرق الإسباني مننديث بيدال.

(١) على سبيل المثال : رَفُضَ أبي عبد الله محمد بن عتاب بن محسن منصب القضاء، (النفح : ٦/٢٥١).

(٢) أبو غالب بن التّيّاني اللغوي رفض أن يهدي كتابه "تقليح العين" لمجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية الرافعي : تاريخ الأدب العربي: ٣ / ٢٨٠ .

(٣) أبو بكر بن ذكوان قاضي القضاة بقرطبة رفض تسليم أموال الأوقاف لأبي الحزم بن جهور.

(٤) ابن حيان : المقتبس تحقيق مكي ص ٦٧-٤٦ من التمهيد : ومن المعلوم أن ابن حيان نقد سياسة ملوك الطوائف بأحكامه الصريحة اللاذعة فاكثفوا بأن كانوا يضيّقون به ويستقلّونه لكن لم يسيئوا إليه. (المصدر السابق).

(٥) انظر رسالة ابن حزم في ازدهار الحركة العلمية وثورات التأليف (النفح ٢/١٢٦) وكذلك رسالة الشقندي في نفس الغرض (النفح ٢/١٢٨).

وهو عصر أكبر مؤرّخ عرفته الأندلس وهو ابن حيّان بن خلف (ت ٤٦٩ / ١٠٧٦) بتأليفه العديدة وملاحظاته الدّقيقة مع براعة أسلوب وجراة نقد.

وهو عصر أعظم فقيه مالكي عرفه المغرب عامّة والأندلس بصفة خاصّة، وهو القاضي أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ / ١٠٨١). وكانت مناظراته مع ابن حزم من أثرى ما خلفه لنا الفكر الأندلسي من مناظرات دينية وعلمية. وكان المقتدر بن هود يباهي ملوك الطوائف بهذا الفقيه.

وبصفة عامّة عصر ابن زيدون هو عصر كوكبة من الفرسان في ميادين من العلم شتّى كأبي عبيد البكري في الجغرافية (ت ٤٨٧ / ١٠٩٤)^(١) وابن سيده في اللغة والحميدي في التّراجم (ت ٤٨٨ / ١٠٩٥).

وللتدليل على ذلك تكفي نظرة إلى الكتب العديدة التي وضعت للتعريف بعلماء الأندلس سواء ما أُلّف على حروف المعجم كجذوة المقتبس للحميدي والصلة لابن بشكّو والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار، أو ما أُلّف على حسب الأقاليم والبلدان كالذخيرة لابن بسّام والمغرب لابن سعيد، أو ما أُلّف على حسب التاريخ الهجري كالحلّة السّيراء لابن الأبار وخريدة العصر للعماد الأصبهاني، أو ما أُلّف لصنف من العلماء كالفقهاء والمتصوّفة والكتّاب والمحدّثين والزهاد^(٢).

أمّا الجانب الأدبي فحدّث عن البحر ولا حرج، فهذا العصر يعتبر أزهى عصور الأندلس شعرا ونثرا، وفيه نبغ من الشعراء والكتّاب ما افتخرت به الأندلس واعتزّت على سائر البلدان.

وسوف لن نهتمّ بهذا الجانب ولن نطيل فيه لأنّه جانب خاض فيه الكثيرون وتكلّم فيه الناقدون واهتمّ به المؤرّخون. لقد نفق سوق الأدب وزخر كلّ بلاط برجال شعراء وكتّاب

(١) استفاد ألفونسو العالم من مؤلّفاته بعد قرنين عندما وضع موسوعته العلمية المشهورة.

(٢) بالنتيّا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٣.

وبنساء أديبات مثقفات^(١) فأصبحت قصور أمراء الطوائف منتديات ومجالسهم ملتقيات للمبدعين والمبدعات بالقريحة أدباً وبالآلة فناً وبالحنجرة غناء. وقدّمت لجميع هؤلاء الجوائز والأعطيات. فكان الواحد منهم "أينما دار استند إلى ركن وتوجّه إلى قبلة حتى صارت الأندلس كعبة لهذه العادة لا للعبادة"^(٢).

وتباهى أمراء الطوائف باستقطاب العلماء المختصين والشعراء الموهوبين والفقهاء المبرزين، فكانوا يستوزرونهم لتفوقهم العلمي والأدبي ويخصّونهم بالخطط والمناصب العليا في الدولة فتألّقت بلاطاتهم بنجوم سطع نورها وشموس ذاع صيتها وتجاوزت شهرتها حدود الأندلس لتصل إلى العدو الإفريقية وأرض الكنانة وبلاد الشام والعراق وما وراء جبال البيريني من أرض القارة العجوز "وكان أعظم مباهاتهم أن فلاناً العالم عند فلان الملك، وفلان الشاعر مختص بفلان الملك"^(٣) فكان أن "نبغ في أيامهم من لو خلا الأدب الأندلسي إلا منهم لكانوا زينته ورواده. وقد كاد أن يكون بهم القرن ١١/٥ تاريخاً على حدة"^(٤).

ولئن كان لكلّ بلاط من بلاطات ملوك الطوائف نصيب لا بأس به من فن القول، فإنّ بلاط إشبيلية كان له نصيب الأسد. فيكفي أن نذكر أن بلاط المعتضد ومن بعده ابنه المعتمد جمع كبار الفرسان في المنظوم والمنثور. وكان لهم في بلاط بني عبّاد ديوان خاص بهم، فيه ببعضهم يجتمعون ولهم يوم في الأسبوع معيّن فيه يُستقبلون من طرف صاحب البلاط^(٥). وكان المعتمد لا يستوزر وزيراً إلا إذا كان أديباً أو شاعراً^(٦)، فازدان بلاطه وبلاط أبيه من قبله بأمثال ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة وابن وهيون وأبي تمام غالب بن رباح الحجام، وابن جامع الصباغ وابن جاح البطلوسي^(٧).

(١) نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر الشاعرة أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وحفصة بنت حمدون، وغاية المنى الشاعرة وبهجة القرطبية وأسماء العامرية وبثينة بنت المعتمد وطونة بنت عبد العزيز بن موسى العالمة واعتماد زوجة المعتمد، أمّا مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري بإشبيلية وولادة بنت المستكفي بقرطبة فعملان طبقت شهرتهما الأفاق (النّفح ٢/٤٩٣).

(٢) الرافعي : تاريخ الأدب العربي ٣/٢٧٩، طبعة بيروت ١٣٩٤/١٩٧٤ .

(٣) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٥) النّفح ٢/٥٨٣ .

(٦) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٧) كان ابن جاح أمياً ومع ذلك عيّن رئيساً لديوان الشعراء (النّفح ٢/٤٦٨) و(الرافعي : ٣/٢٨٣).

ويلي بلاط إشبيلية في الاعتناء بالأدب بلاط بطليوس. وكان صاحبه المظفر بن الأفطس من أحرص الناس على علوم الأدب من نحو ولغة وشعر وأخبار ونوادر. وكان من نتيجة هذا الحرص وضعه لكتابه الضخم "المظفري" وهو عبارة عن موسوعة أدبية على غرار كتاب الاختيارات للروحي وعيون الأخبار لابن قتيبة. وفي هذا البلاط عاش مع المتوكل ابن المظفر الكاتب والشاعر ابن عبدون وأبناء القبطرنة أبو بكر وأبو محمد وأبو الحسن.

ويأتي بلاط المرية في الدرجة الثالثة بمجموعة من كبار الشعراء كابن الحداد وعمر بن الشهيد وأبي جعفر الخراز البطرني وأبي الوليد النحلي وأبي عبد الله محمد ابن عباده القزاز الوشاح الكبير، والأسعد بن بليطة وأبي الفضل بن شرف. وكان المعتصم بن صمادح صاحب البلاط شاعرا. وكان أولاده رفيع الدولة ورشيد الدولة وأم الكرام شعراء^(١).

وليس من باب المبالغة إذا اعتبرنا القرن ٥/١١ هو قرن الشعر الأندلسي، فقد بلغ فيه من التطور ما لم يبلغه في أي عصر آخر. فهل يرجع هذا فقط إلى تشجيع ملوك الطوائف ؟

إن احتضان ملوك الطوائف للشعراء لا شك كان له دوره في ازدهار الحياة الأدبية بالأندلس في القرن ٥/١١، لكن ليس هذا هو العامل الوحيد : ففي هذا القرن ضعف الوازع الديني في المجتمع الأندلسي فوقع التساهل في شرب الخمر وحجاب المرأة وتم الإغضاء عن العلاقات بين الجنسين في غير إطارها الشرعي، وعن المجاهرة بالشذوذ الجنسي والغزل بالغلمان، فكانت هذه الحرية عاملا أساسيا في تنوع الأغراض الشعرية بعد أن ضعف الكابح الأخلاقي في ضمير الفرد وقوي الجامح الغريزي في أعماق النفس.

- العلوم الصحيحة : ركز المهتمون بالحياة الفكرية بالأندلس في عصر ابن زيدون على ما نسميه اليوم بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والأدبية، وأهملت نسبيا العلوم

(١) الرافعي : تاريخ الأدب العربي : ٣/٢٨٢ .

الصحيحة، بينما كان هذا الجانب لا يقلّ قيمة وازدهارا عن الجانب الأول : فقد كانت سرقسطة وطليلة ثم قرطبة وإشبيلية من أعظم مراكز البحث في الرياضيات والفلك والفلاحة وخاصةً بلاط سرقسطة بأمره المقتدر بن هود وابنه المؤتمن صاحب كتاب الاستكمال في الفلك.

لقد كان هذان الأميران مبرزين في الرياضيات والفلك وكانت أعمالهما محلّ عناية الباحثين في القرون الوسطى بالأندلس وخارجها، وخاصةً ألفونسو العالم فيما وضعه من موسوعات. ومن المعاصرين لابن زيدون من العلماء يمكن أن نذكر :

- أبا إسحاق (أبا إبراهيم) الزرقالي Azarquel (ت ١٠٨٧/٤٨٠) صاحب الجداول الفلكية المشهورة في الغرب المسيحي^(١).

- وأبا القاسم أصبغ بن السمع الغرناطي (ت ١٠٣٥/٤٢٦) المشهور ببحوثه في الهندسة والفلك^(٢).

- وأبا القاسم خلف الزهراوي الجراح الكبير المعروف في الغرب بأبلكسيس Abulcasis (٩٣٦/٣٢٤ - ١٠١٣/٤٠٣).

- وأبا العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمود بن زهر من عائلة بني زهر المشهورة بالطب والبراعة فيه.

وليس من باب المبالغة إذا قلنا أنّ عصر ابن زيدون هو عصر الازدهار الفلاحي. فرغم أنّ البلاد عاشت في الداخل فتنا متواصلة وفي الخارج حروباً طاحنة، وكان المهاجمون والغزاة يعمدون إلى المحاصيل الزراعية يتلفونها والأشجار المثمرة يقتلعونها، فإنّنا لم نسمع قط بمجاعة في هذا القرن.

(١) قيل فيه : "أنّه أعظم أهل الفلك من العرب"، بالثبوت، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٥١ .

(٢) "قيل فيه : أنّه كان متحقّقاً بعلم العدد والهندسة، متقدّماً في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم"

لقد أظهر علماء الأندلس براعة في فلاحه الأرض وتربية الماشية وتنظيم الريّ ومعرفة أحوال الجو، ونبوغا في ترتيب الحقائق الملكية والجنان السلطانية حتى بدت الأندلس ببراعتهم ونبوغهم جنة تعلق بها أهلها وتغنى بها شعراؤها. ولم يروا لها من شبيهه إلا جنة الخلد^(١).

قال ابن خفاجة:

[البسيط]^(٢)

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ لِّلَّهِ دُرُكُمُ
مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ
مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمُ
وَلَوْ تَخَيَّرْتُ هَذَا كُنْتُ أَخْتَارُ
لَا تَحْسِبُوا فِي غَدٍ أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا
فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ

وقال:

[الرملي]^(٣)

إِنَّ لِّلْجَنَّةِ بِالأُنْدَلُسِ
مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيًّا نَفْسِ
فَسَنَّا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنْبِ
وَدَجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسِ
وَإِذَا مَا هَبَّتْ الرِّيحُ صَبًّا
صَحَّتْ وَأَشْوَقِي إِلَى الأُنْدَلُسِ

وبالنسبة إلى ابن زيدون، لم يكن تعلقه بطبيعة قرطبة وروعته بأقل من حبه لولادة وفتنتها^(٤). ولم يكن شغف أهل الأندلس عامة وملوك الطوائف خاصة بمجالس الأُنس

(١) قال ألفونسو العالم "إسبانيا جنة الله" بيريس : الشعر الأندلسي، ص ١٠٧، تعليق ٨ .

(٢) ديوان ابن خفاجة : تحقيق "السيد مصطفى غازي"، طبعة الإسكندرية، ١٩٦٠، ص ٣٦٤ .

(٣) ديوان ابن خفاجة، ص ١٣٦ .

(٤) بيريس : الشعر الأندلسي، ص ١١٨-١١٩ .

واللهو إلا لأنها كانت تقع عادة في رحاب حدائق رائعة وبساتين زاهرة رتبها عقل مهندس ويد ماهرة. فابتهجت العين بأزهارها النادرة وتمتع الفم بأشجارها المثمرة وانتعش الأنف بروائحها العطرة.

لقد كانت حدائق بني ذي النون في طليطلة وبساتين بني عباد بإشبيلية مضرب المثل لجمال الطبيعة وبراعة الإنسان، وأصبحت فيما بعد نموذجا يحتذى لأهل أوروبا فهم بها معجبون ولها مقلدون في ساحات جامعاتهم وفي رحاب قصورهم.

وقد اشتهر بالفلاحة والنبات والأشجار وتنظيم الحدائق والجنان في عصر ابن زيدون نخبة من العلماء نذكر من بينهم :

- ابن بصال : له كتاب الفلاحة وصف فيه تجاربه في توليد الغراس وتلقيح الأشجار ومكافحة الأمراض ومقاومة الآفات عاش في طليطلة واعتنى بحدائقها الملكية، وبعد سقوطها في يد ألفونسو السادس انتقل إلى إشبيلية وواصل نشاطه بحدائق بني عباد.

- ابن الحجاج : له في الفلاحة كتاب المقنع ألفه سنة ٤٦٦/٤ - ١٠٧٣ وبناه على آراء كبار الفلاحين الممارسين لهذا النشاط.

- ابن العوام : له كتاب " الفلاحة " .

- أبا عبد الله محمد بن مالك الطغريري: عاش بغرناطة وله كتاب " زهر البستان ونزهة الأذهان " .

- ابن لونكو القرطبي ت ٤٩٨/١١٠٤ .

- ابن وافد الطبيب النباتي المعروف في الغرب ب (Eben Guefith ٩٩٨/٣٨٨ - ١٠٧٤/٤٦٦)^(١).

(١) بالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٧٧ .

ج- الصناعات :

هناك جانب إيجابي في عصر ابن زيدون لم يقع نسبيا الاهتمام به من طرف المؤرخين، ووجد الباحثون في تاريخ الأدب بعض الإشارات في المادة الشعرية^(١). من هذه الصناعات نذكر :

- صناعة الورق وإنشاء المكتبات : لقد راجت هذه الصناعة في القرن ٤/١٠ ثم في القرن ٥/١١ لتزايد الحاجة إلى هذه المادة بازدهار الحياة العلمية والفكرية. والوراق حسب ابن عبدون في "رسالة في الحسبة" لا يهتم فقط ببيع الورق وإنما يقوم أيضا بنسخ المخطوطات، أو يعهد إلى من يقوم بنسخها لحسابه ثم يبيعها ". وكان حي عمال الرق في قرطبة يقع قريبا من باب العطارين ويطلق عليه اسم ربض الرقاقين^(٢).

وهذه الصناعة حسب ابن صارة الشاعر صناعة مرهقة غير مربحة قال:

[الكامل]^(٣)

أَمَّا الْوَرَّاقَةُ فَهِيَ أَنْكَدُ حِرْفَةٍ
أَغْصَانُهَا وَثِمَارُهَا الْحِرْمَانُ
شَبَّهْتُ صَاحِبَهَا كَابِرَةَ خَائِطٍ
تَكْسُو الْعُرَاةَ وَجِسْمُهَا عُرْيَانُ

لا شك أن هذا الشاعر يصف العملة في هذه الصناعة لا صاحب المعمل. ولا نستغرب أن يستحوذ هذا الأخير على جل الأرباح ولا يعطي العملة إلا القليل، ودليلنا على ذلك ما تعج به الأندلس في العديد من حواضرها من مكتبات تضم آلاف المجلدات.

ولقد كانت قرطبة منذ النصف الثاني من القرن ٤/١٠، باعتبارها عاصمة الخلافة، تضم أضخم المكتبات في العالمين العربي الإسلامي والأوروبي المسيحي. وكانت مكتبة الحكم المستنصر خير نموذج على هذه المكتبات السلطانية من حيث المحتوى والتنوع ومن

(١) انظر الفصل الثاني من كتاب هنري بيريس الشعر الأندلسي : الحياة الاقتصادية، ص ٢٥٩-٢٦٢ .

(٢) نفس المرجع، ص ٢٦١ .

(٣) نفس المرجع السابق.

حيث التنظيم والعناية.

ولما وقعت الفتنة الكبرى امتدت الأيدي إلى هذه المكتبات وغيرها فنُهب بعضها في أسرع وقت وبيع بعضها بأبخس ثمن. جاء في النفح أن الكتب "لم تزل بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوة"^(١).

ومن حسن الحظ أن تنافس أمراء الطوائف في اقتناء مجلداتها وتكوين مكتبات في بلاطاتهم، كما تباهوا باستقطاب أهل العلم والأدب في مجالسهم.

ويمكن أن نعتبر أن قرطبة كانت بحق وريثة الخلافة الأموية في مجال المكتبات، فقد ظهرت فيها مكتبات بعد انجلاء الفتنة جمع فيها أصحابها من العلماء أنفس النواذر وأروع المخطوطات كمكتبة القاضي أبي بكر بن ذكوان في العلوم الشرعية ومكتبة خلف بن حيان (والد المؤرخ) في المجالين التاريخي والأدبي.

ولم تنفرد قرطبة في القرن ١١/٥ بهذا التوجه الحضاري بل كانت إشبيلية رغم ما قيل عنها من ولوع أهلها بالفن والموسيقى تضم مكتبة بني عباد الفخمة. وتليها في الثراء مكتبة الوزير أحمد بن العباس وزير زهير الصقلبي في المرية. ولقد كان هذا الوزير زيادة على سعة اطلاعه من أعظم هواة جمع الكتب بالأندلس فقد وصل عدد المجلدات بمكتبته حوالي أربعمئة مجلد غير الدفاتر المخرومة^(٢).

وإذا ذكرت المكتبات في عصر ابن زيدون لا يمكن أن نغفل مكتبة بني الأفطس ببطليوس. وهي المكتبة التي مكنت صاحبها المظفر من أن يضع كتابا في الأدب ونوادره يضم خمسين مجلدا. أما مكتبتا طليطلة مع بني ذي النون وسرقسطة مع بني هود فتميزتا برصيدهما العلمي في الرياضيات والفلك والزراعة والطب والهندسة.

- صناعة النسيج : استقطبت هذه الصناعة المرية حاضرة دولة بني صمادح فقد ذكر

(١) النفح : ١/٣٨٥ .

(٢) الرافعي : تاريخ الأدب العربي، ص ٢٨٣ .

بعض المؤرخين أن عدد المناسج وصل في هذا العهد إلى خمسة آلاف منسج، ينتج بعضها أجمل الأقمشة الملوكية وأفخمها. وكان مرفأ المدينة عاملاً أساسياً في ترويج الإنتاج الذي تميز من حيث الكم ومن حيث النوع، ووصل إلى أغلب سواحل البحر الأبيض المتوسط بصفتيه الجنوبية والشمالية.

- صناعة الزجاج : اكتشفها عباس بن فرناس (ت ٨٨٦/٢٧٣) في القرن ٩/٢ وانتشرت هذه الصناعة في القرن ١١/٥ حول مدينة إشبيلية، وكان المعتمد أميرها يشاهد من نوافذ قصره أفران الزجاج تلمع في الظلام ووصف لنا المقري مشهدا يظهر فيه أمير إشبيلية وقد أرسل في طلب الشاعر ابن حمديس في ساعة متأخرة من الليل. قال ابن حمديس راويا للخبر^(١) : دخلت عليه فأجلسني على مرتبة فنك وقال لي : افتح الطاق التي تليك ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى، ثم دام سد أحدهما وفتح الآخر. فحين تأملتُهما قال لي : أجز:

[المنسرح]

انْظُرْهُمَا فِي الظُّلَامِ قَدْ نَجَمَا
كَمَا رَأَى فِي الدُّجْنَةِ الْأَسَدُ
فقلت: فقال: يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ ثُمَّ يُطْبِقُهَا
فَعَلَ امْرِئٌ فِي جُفُونِهِ رَمَدُ
فقلت: فقال: فَأَبْتَزَهُ الدَّهْرُ نُورَ وَاحِدَةٍ
فقلت: وَهَلْ نَجَا مِنْ صُرُوفِهِ أَحَدٌ^(٢)

كانت أفران صناعة الزجاج قرب إشبيلية مشهورة، وكانت مقصد المتنزهين من

(١) بيرييس : الشعر الأندلسي، ص ٢٦٠ .

(٢) النفح : ٣/٦١٦ .

(٣) النفح : ١/٤٦٦ .

أهلها للفرجة والمتعة. قال ابن وهبون في أحدها: [الخفيف]^(٣)

رُبُّ قُرْنٍ رَأَيْتُهُ يَتَلَطَّى
وَرَبِيعٌ مُخَالِطِي وَعَقِيدِي
قَالَ : شَبَّهَ فَقُلْتُ صَدَرَ حَسُودٍ
خَالَطَتْهُ مَكَارِمُ الْحَسُودِ

- صناعة الصياغة : لئن كانت طبقة العامة أو المتوسطة هي التي تقوم بهذه المهنة، فقد مارسها فخر الدولة بن المعتمد بعد نكبة بني عباد على يد المرابطين. فقد رأى ابن اللبّانة هذا الأمير صائغا يعمل من أجل لقمة العيش في "دكان قارعة" فقال يصفه والألم يعصر قلبه:

صَرُفْتُ فِي آلَةِ الصُّوَاغِ أَنْمُلَةً
لَمْ تَدْرِ إِلَّا النَّدَى وَالسَّيْفَ وَالْقَلَمَ
يَا صَائِغًا كَانَتْ الْعَلِيَا تُصَاغُ لَهُ
حَلِيًّا وَكَانَ عَلَيْهِ الْحَلِيُّ مُنْتَظَمًا

"ونجد... لدى الشعراء إشارات هامة عن الطريقة المتبعة في صوغ المعادن الثمينة. فأحدهم يحدثنا عن الورق والوديلة، وآخر عن قراضة النّضار أو برادة الذهب ونقر التبر. وتحدّث غيرهم عن صهر المعادن في سبائك. وقال أبو الحسن بن علي يصف سوسنا مستعملا عبارة إناء مفضّض:

أَرَى صُفْرَةَ السُّوسَانِ فَوْقَ بَيَاضِهِ
كَصَفْوِ مُدَامٍ فِي إِنَاءٍ مُفَضِّضٍ

وهناك إشارات تدل على أن أهل الأندلس مارسوا فن تذهيب الفضة، فقد وصف لنا

(١) النفح : ٤/٩٧ .

(٢) الحميري : البديع، تحقيق هنري بريس، طبعة الجزائر ١٩٤٠/١٣٥٩، ص ١٣٥ .

(٣) ابن الأبار : الحلة ٢/١٦٤ .

ابن عمار طبقاً من فضة مذهب الباطن: [الخفيف]^(٢)

وَسَمَاءٍ مِنَ الْغِنَى قَدْ أَسَالَتْ
ذَهَبًا فِي قَرَارَةٍ مِنْ لُجَيْنٍ
فَاجْتَنَنْتُ حَوْلَهَا الْعُيُونُ بِلُطْفٍ
زَهَرَ الْحُسْنُ مِنْ بَنَانِ الْيَدَيْنِ

ووصف أبوبكر بن الملح سواراً من الفضة مذهباً: [البسيط]^(١)

أَنَا مِنَ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ خَالِصَةً
لَكِنْ دَهَنْتَنِي خُطُوبٌ غَيَّرَتْ جَسَدِي
عَلِقْتُ غُصْنًا عَلَى أَحْوَى فَأَحْسَدَنِي
جَرَى الْوَشَاحُ وَهَذِي صُفْرَةُ الْحَسَدِ

أما المقرئ فيحدثنا عن حجر الشاذنة^(٢) يستخدم في ذلك التذهيب قائلًا : "وحجر
الشاذنة بجبال قرطبة كثير ويستعمل في ذلك التذهيب"^(٣).



(١) النفح : ٤/٧٠ .

(٢) الشاذنة : حجر يستعمل في مداواة العين وخشونة الأجفان.

(٣) النفح : ١/١٤٢ .

سلبيات عصر ابن زيدون

وصف المستشرق الإسباني الكبير غرسيه غومث عصر الطوائف قائلاً "بين ناريّ النصارى في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم وأضعفهم الترف والبذخ لا يكاد سلطان أحدهم يتخطى حدود بلده، فكانت دويلاتهم أشبه بجمهريات إيطاليا في ثياب شرقية، وسادت عصرهم كله روح من البذخ المسرف والإجرام السافر من المطامع والنزوات والخناجر والسوموم"^(١).

هكذا حدّد لنا غومث أهمّ سلبيات هذا العصر وحصرها في :

أ- دموية العصر أو روح الإجرام السافر :

إنّ سحق الذات البشرية مادياً ومعنوياً والجرأة على سفك الدماء هي سمة من سمات القرون الوسطى لا نستثني من ذلك المسلمين ولا النصارى : فالمعارك التي دارت بين الصليب والهلال لم تكن تخلو من مظاهر القسوة والتشفي، خاصة إذا دخل هذه المعارك عنصر من خارج شبه الجزيرة الإيبيرية أو كانت تحدد المنتصر روح دينية متعصبة.

وكانت الحياة ببلاطات الممالك النصرانية وبلاطات ملوك الطوائف لا تخلو هي الأخرى من أمثلة للغدر والتحيل شنيعة، ومن القتل والتمثيل فظيعة. كما أنّ الفتن التي دارت بين دول النصارى في فترة التجزؤ والانقسام، والفتن التي اندلعت بين ملوك الطوائف منذ الفتنة الكبرى إلى سقوط هذه الدول على يد المرابطين كانت مليئة بروح الحقد

(١) مجموعة من الباحثين : مناهج المستشرقين ٢/٢٩٢ (طبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سنة ١٩٨٥).

والضعيفة ومتسمة بروح الانتقام والتشفي، والأمثلة على ذلك كثيرة لدى هذا الجانب أو ذاك : فالأخ أو الأخت تقتل أخاها والأب يقتل ابنه والأمير وزيره. أمّا نكبة المناوشين لصاحب البلاط وقتل أعدائه بنفس سادية وروح إجرامية، فقد ضرب المعتضد المثل الأعلى في ذلك. وكانت قسوة الأندلسيين على البربر ونقمة البربر على الأندلسيين أثناء الفتنة الكبرى قد وصلت إلى درجة جعلتهما تخلقان في النفوس ذهولا وشرودا وتعلقان بالأذهان سنين وعقوداً.

ففي الجانب المسيحي لا نعدم أمثلة عن دموية العصر، فقد قام أبناء الكونت فيلا بقتل غرسية بن سانشو حاكم قشتاله غيلة أثناء عقد زواجه بكنيسة ليون سنة ١٠٢٨/٤١٩ وجاء رد الفعل من سانشو الكبير صهره (زوج أخته) ملك نافار، عنيفا فقد انتقم من آل فيلا قتلة غرسية بحرقهم أحياء.

وبعد أن قسم سانشو الكبير مملكته إلى أبنائه الأربعة فرناندو ورامبرو وكونزالو خصّ هذا الأخير بولاية سوبرابي وسط جبال البرينيه. فلما بدأت الحروب الأهلية بين الإخوة ، قتل كونزالو غيلة أثناء رجوعه من رحلة صيد سنة ١٠٣٨/٤٣٠ .

على هذه الأحداث وغيرها علّق المؤرخ الإسباني لافوانتي فجرا بقوله : "لم يفعل سانشو الكبير بتقسيم المملكة سوى أن زاد جراثيم الشقاق والموت بين أسرنا الملوكية"^(١).

وفي الحرب الأهلية التي قامت بين أبناء فرناندو الأول قامت ابنته أوراكا بتدبير مؤامرة ضد أخيها سانشو عندما حاصر مدينتها سمورة ونجحت في اغتياله سنة ١٠٧٢/٤٦٥^(٢).

(١) Modesto Lafuente : Historia General de España, Madrid 1861, U.II, p 433.

(٢) فعلت بالتواطؤ مع أخيها ألفونسو السادس نفس الشيء ضد أخيها غرسية، واكتفت في هذه المرة بالقبض عليه

وتنفلت الغرائز الإجرامية في النفس البشرية عندما يكون المنهزم على غيره دين المنتصر. فهذا فرناندو الأول ملك قشتالة وليون (اسمه في الرواية العربية فرزلند) يقتحم مدينة بازو Vizeu بمنتهى العنف ويمعن في أهلها المسلمين قتلاً وأسرًا. وكان من بين الأسرى ذلك الرامي المسلم الذي أصاب بسهمه ألفونسو الخامس عندما حاصر المدينة قبل ذلك بثلاثين سنة. فأمر فرناندو فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه وعذب حتى أسلم الروح. وفعل هذا الملك نفس الشيء بمدينة مليقة (لاميغو)، فقد اقتحمها وقتل معظم أهلها^(١).

ومن الجانب الإسلامي كان الأمر أشد والأحداث أعنف والجرائم أكبر والمدة أطول. فهذا المعتضد يفتتح عهده بقتل حبيب وزير أبيه ثم يضطهده وينكب الفقيهين أبا عبد الله الزبيدي وأبا محمد عبد الله بن مريم، زميلا جده القاضي ابن عباد^(٢).

ثم تراه يدبر كميناً لأمرأ البربر المجاورين فيتخلص منهم جملة بأن أدخلهم حماماً وأحكم بناءه عليهم ثم أحرق النار فيه بعد أن تحقق من هلاكهم^(٣).

ولم يتورع هذا الأمير من قتل ابنه إسماعيل مع وزيره أبي عبد الله محمد بن أحمد البزلياني في مجزرة جماعية شملت كل من له علاقة بابنه، بل وصل إلى قتل حرم ابنه ونسائه وذلك بقطع الأطراف ثم بقطع الرؤوس، مزيداً في التنكيل والتعذيب. أمّا إسماعيل فقد قتله بيده وأخفى جثته^(٤) وكان ذلك سنة ٤٥٠/١٠٥٨.

ولئن حاول ابن حيان التخفيف عن المعتضد بالشك في بعض هذه الأخبار فقال "لقد حمل عليه على مر الأيام في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود والإبلاغ في المثلة والأخذ

(١) عنان : دول الطوائف، ص ٣٨٣ .

(٢) نفس المرجع، ص ٤٠ .

(٣) هؤلاء الأمراء هم : أبو نور بن أبي قرّة صاحب رندة، ومحمد بن نوح الدّمري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش (عنان : دول الطوائف، ص ٤٥).

(٤) عنان : دول الطوائف، ص ٥٠ .

بالظنة والإخفار للذمة حكايات شنيعة لم يبد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول ينساق في ذكرها ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلته لم يعايش فيهن ذوي رحم واشجة^(١).

أمّا قسوة الأندلسيين على البربر فخير مثال عليها ما ارتكبه من تمثيل بجثة حباسة بن ماكسن الصنهاجي الذي قتل في معركة أرملاط فقد "ركبوه بكل عزيمة واجتمعوا عليه اجتماع البغاث على كبير الصقور، فجروه في الطرق وطافوا به في الأسواق جريا على نميم عادتهم في قبح المثلة ولؤم القدرة"^(٢).

وأشار ابن الخطيب إلى جسارة البربر على الاغتصاب حتى وصل بهم الأمر إلى اغتصاب الموتى في قبورهم. جاء حديثه هذا في معرض الكلام عن مصرع الأديب أبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني على يد باديس صاحب غرناطة. وكان للبربر صولات وجولات مع أهل قرطبة من تسلط وإذلال وقهر وقتل وتمثيل وخاصة في المدة الأخيرة من حكم على بن حمود^(٣).

ولئن وجد بعض رجال الأدب من كتاب و شعرا، المكانة المرموقة في بلاطات أمراء الطوائف، فقد تعرض كثير منهم على يد هؤلاء الحماية للعلم والأدب إلى نكبات تتراوح ما بين الإقصاء والإهمال والعزل والإغرام، وما بين النفي والسجن، والقتل والتمثيل. فهذا ابن زيدون اتهم وسجن، وهذا الوزير ابن عباس قتل وسلب، وهذا الأمير ابن طاهر المرسي نكب وعزل، وكان مصير الكاتب عبد الله البزلياني وزير المعتضد والشاعر وابن عمار وزير المعتمد القتل الشنيع. ولم يجد بعضهم إلا الفرار والنجاة بنفسه اتقاء لموت محقق كما فعل أبو محمد عبد الله بن عبد البر مع المعتضد^(٤).

(١) الحلة السيرة : ٢/٤١ .

(٢) المقتبس، ص ١١٤ (تمهيد).

(٣) الذخيرة : ٩٩/١/١.

ب- السياسة الانتحارية لأمرء الطوائف :

لا شك أنّ السياسة الانتحارية التي اتبعتها ملوك الطوائف في علاقاتهم بعضهم ببعض والروح الإجرامية التي سادت بلاطاتهم وقصر النظر في تعاملهم مع الممالك النصرانية والأناية المفرطة التي جعلتهم لا يستغلون الفرصة وقد سنحت بعد وفاة سانشو الكبير ثم بعد وفاة فرناندو، للوقوف أمام حركة الاسترداد كانت سمة عصرهم. فلقد كان قصارى شغل الواحد منهم أن يثبت ملكه ثم يراقب جيرانه المسلمين للانقضاض عليهم عندما تحين الفرصة. "وهكذا لم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمرء الأندلس تسعر إلى أن كلب العدو على جميعهم، وملّ من أخذ الجزية ولم يقنع إلاّ بأخذ البلاد"^(١).

ومما زاد الطين بلة في هذه السياسة الانتحارية انعدام العقل الجامع للخير والضمير الكابح للشرّ فخلت البلاد من أمرء مستنيرين، بالإصلاح متمسكون، وفقهاء ورعين، للحق مرشدون. قال ابن حيان : "ولم تزل أمة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم، هم كالمخ فيهم : الأمرء والفقهاء، بصلاحتهم يصلحون، وبفسادهم يردؤون، فقد خصّ الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمرء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة، وجريا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدّف عمّا أكّده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبخوا بين أكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم أخذ بالتقية في صدقهم. فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها ؟ هل هي إلاّ مشفية على بوارها واستئصالها ؟... لقد غربل دهرنا أهليه أشدّ غريلة وسفسف أخلاقهم، وخبث أعراقهم، وسفّه أحلامهم، واحتوى عليهم الجهل فلبثوا في غير سبيل الرشدي يعلّون أنفسهم بالباطل وذلك من أدلّ الدلائل على فرط جهلهم واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم وغفلتهم عن سدّ ثغرى حتى ظلّ عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عراض دورهم، ويستتصري بساط بقاعهم يقطع كلّ يوم منهم طرفا ويبيد أمة، ومن لدينا

(١) عبد الجليل عبد الرضا الرّاشد : عصر ابن زيدون : دراسة تاريخية، ص ٢٢٥ من مجلّة الكتاب العراقيّة.

وحوالينا صموت عن ذكرهم لهاة عن بنّهم، ما أن يُسمع بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكّر لهم أو داعٍ لهم فضلاً عن نافر إليهم أو مؤاس لهم حتى كأنّهم ليسوا منّا أو كأنّ فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدّعاء فبؤنا بالعناء^(١).

لقد حلّ محلّ الأمير العادل التقيّ من يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فساداً، وأخذ مكان الفقيه الورع الرحيم من لبس جلد ضأن وديع ليخفي تحته قلب سبع ضار. قال ابن حزم : "وعمدة ذلك أنّ كلّ مدير مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه - أولّها عن آخرها - محارب لله تعالى ورسوله ساع في الأرض بفساد... فلا تغلطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفسّاق والمنتسبون إلى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيّنون لأهل الشرّ شرّهم، الناصرون لهم على فسقهم، والمخلّص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلّا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذمّ جميعهم، فمن عجز منّا ذلك رجوت أن تكون التقيّة تسعه"^(٢).

ج - الحيف الاقتصادي أو روح البذخ المسرف :

كانت السياسة الاقتصادية في عصر الطوائف تقوم على تجميع الثروة في يد طبقة من الخاصة قلّ عددها وتضاعف ثراؤها، وعلى رأس هذه الطبقة نجد صاحب البلاط بما يفرضه من مغارم وما يحتكره من تجارة وما يغتصبه من عقار. فقد كان آل عباد يملكون ثلث أراضي إشبيلية وبنو طاهر لهم نصف أراضي مرسية وابن جهور لا تقع العين في قرطبة على من أغنى منه"^(٣).

وتجمّع الثروة بهذه الطريقة يفضي إلى الترف العجيب والبذخ الغريب والأمثلة على ذلك كثيرة.

(١) نفس المصدر، ص ٢٥٥ .

(٢) رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٠، ص ١٧٣-١٧٤ .

(٣) عنان : دول الطوائف، ص ٢٣-٤ .

- في المجال المعماري : بنى ملوك الطوائف للتباهي والمنافسة وإظهار التفوق والعظمة ولتهيئة الجو لمتعهم وملازهم القصور الفخمة وسط الحدايق الغناء :

- في قرطبة : تخرّبت أثناء الفتنة الكبرى قصورها العظيمة كالزّهراء والزّاهرة وغيرهما من قصور لبني أمية ولبني عامر بنيت طيلة عهد الإمارة والخلافة والحجّابة. ورغم خراب الزّهراء(*)، فقد بقي منها إلى اليوم ما يدلّ على عظمتها وخاصة بعض الأدوار السفلى التي كان سكّان قرطبة في القرن ١١/٥ يجدون فيها منتزها وراحا كما يجد بعضهم فيها ملاذا ومأوى كابن زيدون. قال هذا الشاعر متذكّرا ومتشوّقا:

أَلَا هَلْ إِلَى (الزّهراءِ) أَوْبَةٌ نَازِحٍ
تَقْضِي تَنَائِيَهَا مَدَامِعَهُ نَزْحًا^(٢)
مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَابَاتُهَا
فَخَلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحًا^(٣)
يُمَثِّلُ قُرْطُيْنَهَا لِي الْوَهْمُ جَهْرَةً
فَقُبَّتْهَا فَالْكُوكَبُ الرَّحْبَ فَالسَّطْحَا^(٤)
مَحَلُّ ارْتِيَاكِ يُذَكِّرُ الْخُلْدَ طَيْبُهُ
إِذَا عَزَّ أَنْ يُصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى^(٥)

ويبدو أنّ قصرا واحدا من قصور الأمويين سلم من كوارث الدهر وهو قصر الدمشق. وقد شيّدوه -حسب ابن خاقان- "بالصفّاح والعمد، وجروا في إتقانه إلى غاية الأمد، وأبدع بناؤه ونمّقت ساحته وفناؤه، واتّخذوه ميدان مراحهم، ومضمار انشراحهم، وحكوا به قصرهم بالمشرق، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق"^(٦).

(*) الزّهراء : بناها عبد الرّحمان النّاصر سنة ٩٣٦/٣٢٥ على بُعد ستّة أميال من قرطبة. وقد لاهه الفقيه منذر بن سعيد البلوطي على كثرة إسرافه في بنائها إلى حدّ التّقريع (النّفح : ٣/٥٧٤).
(١) الديوان ص ٥٦، انظر في الديوان، ص ٢٢٩ مُخَمَّسًا يَتَغَنَّى فِيهِ ابْنُ وَيدُون بِالزّهراءِ وَجَمَالِهَا (ط. كيلاني).
(٢) الأوبّة : الرّجوع، النّازح : البعيد، النّزح : نَزَحَ البئر استنزاف مائها.
(٣) الجوّن : الأسود، ومعنى البيت : أنّ المقاصير أُضِيئَتْ نَوَاحِيهَا بِالمصابيح والسّرَج فَحَسَبْنَا العِشَاءَ (الليل) فِي دَاخِلِهَا صَبَاحًا.
(٤) القبة والكوكب : قاعتا استقبال فخمتان فِي الزّهراءِ، وَلَعَلَّ القُرطينِ مِثْلَهُمَا (النّفح : ١/٥٢٦).
(٥) يصدى : يعطش، يضحى : يبرز للشمس.
(٦) النّفح : ١/٤٧٠.

ولئن صمت المؤرخون عن ذكر هذا القصر، فقد مرَّ به ابن عمَّار وقضى به ليلة مع أتباعه جعلته يقول فيه:

[الخفيف]^(١)

كُلُّ قَصْرِ بَعْدَ الدِّمَشْقِ يُدَمُّ
فِيهِ طَابَ الْجَنَى وَلَدُ الشَّمِّ
مَنْظَرٌ رَائِقٌ وَمَاءٌ نَمِيرٌ
وَثَرِيٌّ عَاطِرٌ وَقَصْرٌ أَشَمُّ
بِتُّ فِيهِ وَاللَّيْلُ وَالْفَجْرُ عِنْدِي
عَنْبَرٌ أَشْهَبُ وَمِسْكٌ أَحَمُّ^(٢)

وتوجد خارج قرطبة عديد المنتزهات لا شك أن في بعضها بنيت دور سلطانية كشرق العقاب والرصافة وقصر الفارسي ومجلس ناصح وعين شهدة والعتيق. وكل هذه الأماكن ذكرها ابن زيدون في إحدى قصائده قال:

[الطويل]^(٣)

خَلِيلِي لَا قِطْرٌ يَسُرُّ وَلَا أَضْحَى
فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقًا كَمَا أَضْحَى
لَنْ شَاقِنِي (شَرِقُ الْعُقَابِ)^(٤) فَلَمْ أَزَلْ
أَخْصُ بِمَمْحُوزِ الْهَوَى^(٥) ذَلِكَ السُّقْحَا
وَمَا أَنْفَكَ جَوْفِي (الرُّصَافَةَ) مُشْعِرِي
دَوَاعِي ذِكْرِي تُعْقِبُ الْأَسْفَ الْبَرْحَا
وَيَهْتَاجُ (قَصْرُ الْفَارِسِيِّ) صَبَابَةً
لِقَلْبِي لَا تَأْلُو زِنَادَ الْأَسَى قَدْحًا^(٦)

(١) نفس المصدر.

(٢) تنسب نفس الأبيات إلى الحاجب أبي عثمان جعفر بن عثمان المصحفي (النفح ١/٤٧١).

(٣) ديوان ابن زيدون، ص ٥-٥٤ (ط. كيلاني).

(٤) العقاب لغة : العلم الضخم والصخرة العظيمة، والمقصود هنا مكان.

(٥) ممحوض الهوى : خالصه.

(٦) معنى البيت : تثير ذكرى قصر الفارسي في قلبي صباغة لا تفتر عن قدح زناد الحزن، والزناد ما يقتدح به النار (الديوان، ص ٥٥ تعليق ١) (ط. كيلاني).

وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحٍ)
فَأَقْبَلَ فِي فَرْطِ الْوُلُوعِ بِهِ نُصْحًا
كَأَنِّي لَمْ أَشْهَدْ لَدَى (عَيْنِ شَهْدَةٍ)
نَزَالَ عِتَابُ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا^(١)
وَأَيَّامُ وَصَلٍ (بِالْعَقِيقِ) اقْتَضَيْتُهُ
فَالَا يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفَصْحَا^(٢)

وقال ذاكرًا الثَّغْبَ الشرقي ووادي العتيق والرَّصَافَةَ مرَّةً ثانية:

[الطويل]^(٣)

عَلَى (الثَّغْبِ الشَّرْقِيِّ) مِنِّي تَحِيَّةٌ
زَكَتْ وَعَلَى (وَادِي الْعَقِيقِ) سَلَامٌ
وَلَا زَالَ نُورٌ فِي (الرَّصَافَةِ)^(٤) ضَاكٌ
بِأَرْجَائِهَا يَبْكِي عَلَيْهِ غَمَامٌ
مَعَاهِدٌ لَّهُوَ لَمْ تَزَلْ فِي ظِلَالِهَا
تُدَارُ عَلَيْنَا لِلْمُجُونِ مُدَامٌ

[الطويل]^(٥)

وجاء في مخمس لابن زيدون مطلعُه:

تَنْشَقُّ مِنْ عَرَفِ الصَّبَا مَا تَنْشَقُّا

نُكِّرُ لَعْدَةً أَمَا كُنْ كَالْعَقِيقِ وَالرَّصَافَةِ وَالْجَعْفَرِيَّةِ وَعَيْنِ شُهْدَةٍ وَالْجَسْرِ،
وَالْجَوْسِقِ النَّصْرِيِّ وَالْوَعَسَاءِ وَمُضِيْعَةِ الدُّوْلَابِ وَقَصْرِ نَاصِحٍ، وَفِي آخِرِهَا يَنْوِّهُ بِالزَّهْرَاءِ
كَقَوْلِهِ:
[الطويل]^(٦)

(١) معنى البيت : عباً لمحبوته في هذا المكان جيش عتاب أحرز به نصراً عليها وفتحها (الدِّيَّان، ص ٥٥، تعليق ٢).

(٢) اقتضيت الدَّيْن : أخذته وقبضته، الفصح : عيد النَّصَارَى.

(٣) الدِّيَّان، ص ٧-٢٧٦ (ط. كيلاني).

(٤) الرَّصَافَةُ : بناها عبد الرَّحْمَانُ الدَّاهِلُ على غرار رُصَافَةِ دِمَشْقٍ.

(٥) الدِّيَّان، ص ٢٢٩ .

(٦) الدِّيَّان، ص ٢٣١ .

أَأَنْسَى زَمَانَا (بِالْعُقَابِ) مُرْقَلًا
وَعَيْشًا بِأَكْنَافِ (الرُّصَافَةِ) دَغَقَلًا^(١)
وَمَعْنَى إِزَاءِ الْجَعْفَرِيَّةِ^(٢) أَقْبَلًا
لِنِعَمٍ مَرَادُ النَّفْسِ رَوْضًا وَجَدُولًا
وَنِعَمٍ مَحَلُّ الصَّبْوَةِ الْمُتَبَوُّا

وفي مخمس آخر ذكر ابن زيدون أماكن أخرى كالنبتية على شاطئ الوادي الكبير، وروض الأقحوان، وأعاد ذكر جوفي الرصافة والعقاب والعتيق^(٣).

- في إشبيلية : اشتهرت قصور بني عباد. وقد جاء ذكرها في التاريخ وفي الشعر أثناء حكم أمراء إشبيلية وبعد انهيار دولتهم على يد المرابطين. من هذه القصور هناك قصر الإمارة (قصر الحكم) ويسمى قصر المبارك ويقع على الضفة الشرقية للوادي الكبير ويعرف اليوم بـ"الكثار" Alcazar بعد ترميمه وإصلاحه. وتاريخيا يرجع بناء هذا القصر إلى أيام المعتضد، وقد سجن ابن عمار أيام محنته في إحدى غرف هذا القصر ودفنه المعتمد بعد قتله بجانبه^(٤).

وذكر ابن الأبار عند طلبه العلم بإشبيلية سنة ١٢١٨/٦١٥ أحد أحياء المدينة يسمى حومة قصر المبارك^(٥). قال ابن زيدون مخاطبا المعتمد:

[الكامل]^(٦)

وَتَمَثَّلَ الْقَصْرُ الْمُبَارَكَ وَجَنَّةً
قَدْ وَسَّطَتْ فِيهَا الثُّرَيَّا خَالًا
قَصْرٌ يُقَرُّ الْعَيْنُ مِنْهُ مَصْنَعٌ
بَهْجُ الْجَوَانِبِ لَوْ مَشَى لاختالًا

(١) الدَّغَقْل : العيش الواسع المخصب.

(٢) بناها الحاجب جعفر المصحفي وأخذها منه المنصور بن أبي عامر (النفح : ١/٤٧١).

(٣) الخمس على البحر الطويل، انظر الديوان، ص ١٩٢ وما بعدها.

(٤) بريس : الشعر الأندلسي، ص ١٢٥ .

(٥) النفح : ٣/٦٥ .

(٦) بريس : الشعر الأندلسي، ص ١٢٥ .

ويفهم من البيت الأول أنَّ الثريا قاعة فخمة تقع وسط قصر المبارك مثل البرج، تحيط بها قاعات صغيرة كما تحيط النجوم حول الثريا في السماء. قال المعتمد وهو أسير بأغمات:

بَكَتْ ثُرَيَّا^(٢) لَا غُمَّتْ كَوَاكِبُهَا
بِمِثْلِ نَوَى الثُّرَيَّا^(٣) الرَّائِحِ الْغَادِي

وقال ابن زيدون مادحا المعتمد ومنوها بهذه القاعة:

[الكامل]^(٤)

أَمَّا الثُّرَيَّا فَالثُّرَيَّا نَسْبَةً
وَإِفَادَةً وَإِنْفَاةً وَجَمَالاً
قَدْ شَاقَّهَا الْإِغْبَابُ حَتَّى أَتَتْهَا
لَوْ تَسْتَطِيعُ سَرَتْ إِلَيْكَ خِيَالاً

والمبارك هو أحد القصور التي تخيلها المعتمد وهو أسير بأغمات تبكي عليه وعلى أسرته وهي ذليلة. قال:

[البسيط]^(٥)

بَكَى الْمُبَارَكُ فِي إِثْرِ ابْنِ عَبَّادٍ
بَكَى عَلَى إِثْرِ غَزْلَانٍ وَأَسَادٍ

وهناك قصر من قصور بني عبَّاد يعرف بقصر الزاهي وقبته المشهورة "سعد السعود" ويقع هذا القصر على الضفة الغربية من نهر الوادي الكبير وتحيط به الحدائق الغناء. وأنشد المعتمد - ذات يوم من أيام عزه:

[الكامل]^(٦)

سَعْدُ السَّعُودِ^(٧) يَتِيهِ فَوْقَ الزَّاهِي

(١) النّفع ٢٧٤/٤ .

(٢) ثُرَيَّا : ثُرَيَّا قصر المبارك وهي قاعة فخمة في وسطه.

(٣) الثُّرَيَّا : نجم في السَّمَاء، والنَّوَى : غروب النّجم.

(٤) بيرييس : الشعر الأندلسي، ص ١٢٥ .

(٥) النّفع : ٢٧٤/٤ .

(٦) النّفع : ٦١٢/٣ .

(٧) سعد السَّعُود : هو قبة القصر الزَّاهي، وهناك تورية لأنَّ سعد السَّعُود هو منزل القمر الرَّابِع والعشرون. ويتميّز به العرب (بيرييس : الشعر الأندلسي، ص ١٢٤، تعليق ٩١).

ثم استجاز الحاضرين فعجزوا، وكان من جملةهم ولده الرشيد فقال :
وَكَلَاهُمَا فِي حُسْنِهِ مُتَنَاهٍ
وَمَنْ اغْتَدَى سَكَنًا لِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
قَدْ جَلَّ فِي الْعَلِيَا عَنِ الْأَشْبَاهِ
لَا زَالَ يَبْلُغُ فِيهِمَا مَا شَاءَهُ
وَدَهَتْ عِدَاهُ مِنَ الْخُطُوبِ دَوَاهِ

وذكر المعتمد هذا القصر وهو أسير بأغمات فقال:
بَكَى الْوَحِيدُ، بَكَى الزَّاهِي وَقَبَّتَهُ
وَالنُّهْرُ وَالْتَّاجُ كُلُّ ذَلِكَ بَادٍ
[البسيط]

وذكر ابن خاقان أنَّ للمعتمد قصرا آخر هو قصر الزاهر أو حصن الزاهر "وكان من أجمل المواضع لديه وأبهائها، وأحبها إليه وأشبهها لإطلاله على النهر وإشرافه على القصر... وكان كثيرا ما يدير به راحه ويجعل فيه انشراحه"^(١).

وكما يبدو من إحدى قصائد المعتمد يمكن -من قصر الزاهر- مشاهدة الثريا وكذلك قصر الزاهي

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً
أَمَامِي وَخَلْفِي رَوْضَةً وَغَدِيرُ
بِمُنْبَتَةِ الزَّيْتُونِ مُورِثَةِ الْعَلَا
يُغَنِّي حَمَامٌ أَوْ تَدِنُ طُيُورُ
بِرَازِهِرِهَا السَّامِي الَّذِي جَادَهُ الْحَيَا
تُشِيرُ الثَّرِيَا نَحْوَنَا وَتُشِيرُ
وَيَلْحَظُنَا الزَّاهِي وَسَعْدُ سَعُودِهِ
غَيُورَيْنِ وَالصَّبُّ الْمُحِبُّ غَيُورُ
[الطويل]^(٢)

(١) الفتح : القلائد، ص ٧٠ .

(٢) النفع : ٦/٤-٢٧٥ .

تَرَاهُ عَسِيرًا أَوْ يَسِيرًا مَنَالَهُ أَلَا كُلُّ مَا شَاءَ إِلَهُ يَسِيرُ

ولبني عباد بإشبيلية قصر يعرف بالمكرم "ولا نعرف -حسب هنري بيريس- عنه إلا شيئاً قليلاً، فقد جاء في القلائد عن ذي الوزارتين أبي بكر بن القصيرة : "أنه كان بغرفة القصر المكرم مقيماً لرسوم المعتمد وحدوده، ومنشئاً لمخاطباته وعهوده، في اليوم الذي خرج فيه ابن عمار إلى شلب معه، متفقدا لأعماله مسدداً أغراض عماله. ونعرف أيضاً من الذخيرة لابن بسام أن المعتمد في عام ما، ترك قصر المبارك لبعض الوقت ، وأقام في قصر المكرم، فآثار ذلك في نفس الكاتب الوزير أبي جعفر بن أحمد أن ينشئ رسالة على لسان القصر الأول يناجي فيها القصر الثاني، وأخرى على لسان الثاني يردّ فيها على الأول، ولكننا لا نخرج من هذا السجع إلا بمعلومات قليلة وهي أن المكرم أحدث عهداً في بنائه، وأن الحديقة التي تحيط به تغصّ بالأزهار من كل لون وصنف"^(١).

وفي قصيدة لابن حمديس هناك وصف رائع لأحد هذه القصور أو لأحد غرفها سماه الشاعر "بالدار". وهي من العظمة ما جعلت رتبة صاحبها -أي المعتمد- تعلق بين الملوك، ومن البهاء ما جعلت الشاعر ينسى إيوان كسرى عند مشاهدتها. قال:

[الطويل]^(٢)

وَيَا حَبَبْذَا دَارُ قَضَى إِلَهُ أَنَّهَا
يُجَدِّدُ فِيهَا كُلَّ عِرْزٍ وَلَا يُبْلَى
إِذَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا خِلَتْ أَنَّهَا
تَقُولُ بِتَرْحِيبٍ لِدَاخِلِهَا أَهْلًا
فَأَعْلَتْ بِهِ فِي رُتْبَةِ الْمُلْكِ نَادِيًا
وَقَلَّ لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ أَنْ يُعْلَى
نَسِيتُ بِهِ إِيوَانَ كِسْرَى لِأَنِّي
أَرَاهُ لَهُ مَوْلَى مِنَ الْحُسْنِ لَا مِثْلًا

(١) هنري بيريس : الشعر الأندلسي، ص ١٢٥. وانظر رسالتي الوزير أبي جعفر في الذخيرة ٧٥٩-٣/٢/٦٠.

(٢) النفح : ١/٤٩١.

ومن قصور بني عباد خارج إشبيلية ذكر المعتمد قصر الشراحيب بشلب، وحمل وزيره ابن عمار - عندما أرسله إليها في مهمة- رسالة سلام وتحية للمدينة وإعجاب وشوق لقصرها، وتعلق وشغف بليالي أنسها ومتعها. قال:

[الطويل]^(١)

أَلَا حَيُّ أَوْطَانِي بِشَلْبٍ أَبَا بَخْرٍ
وَسَلُّهُنَّ هَلْ عَهْدُ الْوَصَالِ كَمَا أَدْرِي
وَسَلَّمَ عَلَى قَصْرِ الشَّرَاجِيْبِ عَنْ فَتَى
لَهُ أَبَدًا شَوْقٌ إِلَى ذَلِكَ الْقَصْرِ
مَنْ أَزَلَ أَسَادٍ وَبَيْضَ نَوَاعِمِ
فَنَاهِيكَ مِنْ غِيلٍ وَنَاهِيكَ مِنْ خَدْرِ

- في المرية : نجد الصمادحية وهي عبارة عن مجموعة من القصور بناها المعتصم بن صمادح بحاضرتهم المرية وكل ما هو معروف عن أحدها أنه كان يضم قاعتي استقبال أو مجلسين بالتعبير القديم : مجلس الحافة ومجلس البهو. وذا مظهر نبيل من جانبيه وشيد من المرمر الخمري. وتجري الجداول ثعبانية في حديقته حول الاستراحات الموجودة بها. وقد وصف المعتصم هذه الجداول حين جلس يوما ومعه أعيان الوزراء ونبهاء الشعراء على موضع يتداخل الماء فيه ويتلوى في مناحيه، وهو منشرح النفس فقال:

[البسيط]^(٢)

انْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَذَا الْمَاءِ فِي صَبَبِهِ
كَأَنَّهُ أَرْقَمُ قَدْ جَدَّ فِي هَرَبِهِ

- وفي طليطلة : نجد قصر المأمون بن ذي النون. وفيه مجلسه المعروف بالمكرم، كان مضرب المثل في روعته وبهائه. وقد أورد لنا ابن حيان وصفا له على لسان شاهد عيان أعجب بممره الأبيض ونقوشه المذهبةً وصوره وتماثيله الغريبة. وفي هذا القصر -حسب ابن حيان- أقام المأمون بحيرتين عجيبتين بأسودهما الفاغرة الأشداق، ينساب الماء من أفواهها في البحيرتين "وفي قعر كل بحيرة منها حوض رخام يسمى المذبح محفور من

(١) القلائد، ص ٣٦-٣٧ .

(٢) نفح الطيب : ج ١، ص ٦٦٦ .

رفيع المرمر، كبير الجرم، غريب الشكل، بديع النقش، قد أبرزت في جنباته صور حيوان وأطياف وأشجار^(١).

وفي المكرّم أقام المأمون حفل ختان حفيده يحيى سنة ١٠٦٣/٤٥٥ وقد عرف هذا الحفل لشهرته بالإعذار الذنوني. وأصبح عبر التاريخ مضرب المثل في البذخ والترف والإسراف في حين كانت الإمارة في أشد الحاجة إلى هذه الأموال للدفاع عن نفسها^(٢).

وفي هذا القصر قال أبو محمد المصري:

[الكامل]^(٣)

قَصْرٌ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاهُ الْفَرْقَدُ
عَذِبَتْ مَصَادِرُهُ وَطَابَ الْمَوْرِدُ
نَشَرَ الصَّبَاحُ عَلَيْهِ ثَوْبَ مَكَارِمِ
فَعَلِيهِ أَلْوِيَةُ السَّعَادَةِ تُعْقَدُ
وَكَأَنَّمَا الْمَأْمُونُ فِي أَرْجَائِهِ
بَدْرٌ تَمَامَ قَابِلَتِهِ أَسْعَدُ
وَكَأَنَّمَا الْأَقْدَاحُ فِي رَاحَاتِهِ
دُرٌّ جَمَادُ ذَابَ فِيهِ الْعَسْجَدُ

وقد اهتم الشعراء خاصة بالقبة التي أنشأها المأمون وسط بحيرة "وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون. فكان الماء ينزل على القبة حواليتها محيطا بها، متصلا ببعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتقر، والمأمون قاعد فيها لا يمسّه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل"^(٤) فتنعكس أضواؤها فتكون مشهدا في غاية الروعة والجمال. قال أبو محمد إبراهيم المصري من شعراء المأمون يصفها:

[السريع]^(٥)

(١) عنان : دول الطوائف، ص ١٠٥ .

(٢) نفس المرجع، ص ١٠٦ .

(٣) النَّفْح : ١/٥٢٩ .

(٤) النَّفْح : ١/٥٢٨ .

(٥) النَّفْح : ١/٥٢٩ .

شَمْسِيَّةُ الْأُنْسَابِ بِدْرِیَّةُ
يَحَارُ فِي تَشْبِيهِهَا الْخَاطِرُ
كَأَنَّمَا الْمَأْمُونُ بِدْرُ الدُّجَى
وَهِيَ عَلَيْهِ الْفَلَكَ الدَّائِرُ

وللمأمون كغيره من ملوك الطوائف، قصر للراحة والتنزه وسط الحدائق على ضفة نهر تاجه. ولئن تعذر تحديد مكانه اليوم، فقد تحدث المؤرخون عن قاعة استقبال تحمل اسم مجلس الناعورة. وكان العالم اللغوي أبو محمد بن السيد البطليوسي شاهد عيان وحضر مع المأمون ذات مرة مجلس الناعورة. فقال يصفه:

[المنسرح]^(١)

يَا مَنْظَرًا إِن نَظَرْتُ بِهِجَتَهُ
أَذْكَرَنِي حُسْنَ جَنَّةِ الْخُلْدِ
تُرْبِيَّةُ مِسْكَ وَجَوْ عُنْبَرَةٍ
وَعَلِيمٌ نَدَّ وَطَشٌ مَا وَرَدِ
وَالْمَاءُ كَالْأَزُورِ قَدْ نَظَمَتْ
فِيهِ الْإِلَاحُ فَوَاغِرَ الْأُسْدِ
كَأَنَّمَا جَاثِلُ الْحَبَابِ بِهِ
يَلْعَبُ فِي جَانِبَيْهِ بِالنُّرْدِ
نَرَاهُ يَزْهُو إِذْ يَحِلُّ بِهِ الدِّ
مَأْمُونٌ زَهُوَ الْفَتَاةِ بِالْعَقْدِ
تَخَالُ إِن بَدَأَ بِهِ قَمَرًا
تَمَّا بَدَأَ فِي مَطَالَعِ السُّعْدِ

- وفي سرقسطة: عاصمة الثغر الأعلى وحاضرة بني هود هناك قصر الجعفرية Pa- lacio Aljaferia، وينسب إلى أبي جعفر المقتدر بني هود ويسمى كذلك دار السرور "وكان

(١) النَّفْح : ١/٦٤٥ .

أروع ما فيه بهوه الرائع وقد زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة لذا سمي بالبهو الذهبي^(١) وفيه يقول صاحبه المقتدر:

[الكامل]^(٢)

قَصْرَ السُّرُورِ وَمَجْلِسَ الذَّهَبِ
بِكُفٍّ بَلَغَتْ نَهَايَةَ الْأَرْبِ
لَوْ لَمْ يَحْزُ مُلْكِي خِلَافَكُمَا
كَانَتْ لَدَيَّ كِفَايَةُ الطُّلُبِ^(٣)

ومجلس الذهب هذا كان مسرحا لعدد النّوادر، منها ما قاله ذو الوزارتين ابن غنْدَشَلْبٍ يهجو وزيرا كان يُنبز بِتَحْقُونِ:

[الرملة]^(٤)

ضَجَّ مِنْ تَحْقُونِ بَيْتُ الذَّهَبِ
وَدَعَا مِمَّا بِهِ وَأَحَارِبِي
رَبَّ طَهْرُنِي فَقَدْ دَنَسَنِي
عَارُ تَحْقُونِ الْمُوقَى الذَّنْبِ

- وفي بلنسية : هناك قصر الرصافة ومنية ابن عبد العزيز. ولئن أغفل الشعراء قصر الرصافة فقد تغنوا بالمنية وأشادوا، وزارها الفتح بن خاقان وبدأت محاسنها تلمس من جراء الفتن والحروب فوصف ما تبقى من جمالها وقد أفاها "والصبح قد ألبسها قميصه، والحسن قد شرح بها عويصه، وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه، وتوشّحت بالأزر الذهبية أثوابه يخترقه جدول كالخيام المسلول، وينساب فيه انسياب الأيم في التلول وضفاته بالأدواح محفوفة، والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة وفيه يقول علي بن أحمد أحد شعرائها، وقد حلّه مع طائفة من وزرائها:

[المنسرح]^(٥)

قُمْ فَاسْقِنِي وَالرِّيَاضُ لَا يَسَهُ
وَشَيْئًا مِنَ النُّورِ حَاكُهُ الْقَطَرُ

(١) عنان : دول الطوائف، ص ٢٨٣ .

(٢) النّفخ : ١/٤٤١ .

(٣) قد يكون هو نفسه قصر سرقسطة الذي خرّبه العامّة في فتنة ٤٣٩/١٠٣٩ (البيان المغرب ٣/١٨٠).

(٤) النّفخ : ١/٥٣٤ .

(٥) الفتح : القلائد، ص ١٦٨ .

وَالشَّمْسُ قَدْ عَصَفَتْ غَلَائِلَهَا
وَالْأَرْضُ تَنْدَى ثِيَابُهَا الْخَضِرُ
فِي مَجْلِسِ كَالسَّمَاءِ لَاحٍ بِهِ
مِنْ وَجْهِ مَنْ قَدْ هَوِيَتْهُ بَدْرُ
وَالنَّهْرُ مِثْلُ الْمَجَرِّ حَفَّ بِهِ
مِنْ النَّدَامَى كَوَاكِبُ زُهْرُ

"وكان الطريق إليها من بلنسية يمرّ بباب الحنش، وبها حديقة شاسعة تغطّيها أشجار الزينة والفاكهة والزهور ويخترقها مجرى مائي، ويقع القصر في وسطها حيث توجد قاعة رائعة الزخرفة والفخامة، وكلّ أبوابها تؤديّ إلى الحديقة"^(١).

وقد أقام بها المنصور II بن أبي عامر (ت ٤٥٣/١٠٦١) مشيّدًا حفلًا يوم افتتاحها. وكان الرئيس أبو عبد الرحمان بن طاهر من جملة المدعوّين، فوصل المنية "وبين يدي المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع، ولا يحلّ غير الفؤاد من مربع، وهم يديرون رحيقا، خلّتها في كأسها درّا أو عقيقا. فأقمنا والشهب تغازلنا، وكأنّ الأفلاك منازلنا، وهب المنصور في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفا من صلات متصلات"^(٢).

ب- نمط العيش في هذه القصور :

كان ملوك الطوائف يقتنون لهذه القصور -زيادة في تجميلها للمباهاة بها- نفيس المتاع وباهض الرياش وغريب التحف، كما كانوا يملؤونها بالخدم والحشم والجواري والقينات للخدمة والمتعة واللّهو. وبالنسبة إلى الجواري لا يتورّع هؤلاء الملوك عن السعي في اقتنائهنّ، ولو كانوا في أشدّ حالات الضيق من حروب وفتن. فهذا "المظفر من الأفضس

(١) هنري بيريس : الشعر الأندلسي، ص ١٣٨ .

(٢) التّفح : ١/٦٥٩ .

لما اشتدّ عليه المعتضد... أرسل رسولا إلى قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن نافيا بذلك الشماتة عن نفسه"^(١).

وهو بذلك أراد أن يعاند عدوّه المعتضد عندما أرسل من يشتري له قينة ابن الرميم الوزير من قرطبة بعد وفاته... لما وصفت له بالحدق في صنعتها"^(٢). وقد لا يتورّع بعضهم في دفع آلاف الدنانير من أجل جارية واحدة، فهذا أبو محمد بن رزين (ت ٤٣٦ / ١٠٤٤) يشتري جارية الطبيب أبي عبد الله الكناني بثلاثة آلاف دينار"^(٣).

وكان أمراء الطوائف يتوسّعون في الإنفاق على جنودهم ممن أقاموهم لحمايتهم وردع أعدائهم في الداخل والخارج. ولم يكن أغلبهم ليبخلوا على رجال بلاطاتهم بالمال الوفير وخاصة الشعراء والكتّاب منهم لخدماتهم ومدائحهم تثبيتا لشرعية حكمهم ومباهاة بهم أمام غيرهم من الأمراء.

وكانوا زيادة على ذلك يقومون بدفع الجزية إلى ملوك النصارى تجنباً لخطرهم. ومع الجزية كانوا يتقربون لبعض هؤلاء الملوك بالهدايا الجليلة "من الحلّي والحلل والخيل والبغال وتحف الملوك يعجز عنها الوصف"^(٤).

ج- مصادر التّمويل :

يبدو الحيف الاجتماعي والخلل الاقتصادي عندما نتساءل عن مصدر هذه الأموال : إنّها الضرائب الثقيلة والمكوس المختلفة تثقل بها كاهل الطبقة الكادحة فتزيد في معاناتها. فما نقرؤه عن ليالي الأنس القصيرة بالأندلس لدى الخاصة يقابله أيام البؤس الطويلة بها جريا وراء لقمة العيش لدى العامة. وقد انبرى ضمير الأمة الأندلسيّة وهو الفقيه ابن حزم

(١) البيان ٣/٢١٢ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر : ٣/٣٠٨ .

(٤) البيان : ٣/٣١١، ومن التّوارد أنّ حسام الدّولة بن رزين أهدى لألفونسو السّادس هديّة سنّية فكافأه عليها بقرد وكان من ضعف عقله يفخر بذلك القرد على ملوك الأندلس (نفس المصدر السّابق).

لهؤلاء الملوك منتقدا ومؤنبا وأحيانا فاضحا ومشنعا بسوء فعلهم ومقيت تصرفهم وكبر جرائرهم وعظيم ذنوبهم^(١).

لقد أصبحت إماراتهم - ضياعا خاصة بهم ولهم^(٢). وتحوّلت الرعية عبدا في خدمتهم فما يكتسبونه من نشاطهم الفلاحي أو التجاري أو الصناعي يغتصب منهم "بالعنف ظلما وعدوانا بقطيع"^(٣) مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصارى، فيحصل ذلك المال المأخوذ منهم عند المتغلب عليهم... فيعطيه لمن اختصه لنفسه من الجند الذين استظهروا بهم على تقوية أمره وتمشية دولته والقمع لمن خالفه والغارة على رعية من خرج عن طاعته أو رعية من دعاه إلى طاعته^(٤).

وهكذا تحوّلت الزكاة والخراج إلى ضرب من الجزية والمكوس والمغارم تسلط على أرزاق الناس وأموالهم ورؤوسهم دون رحمة ولا شفقة. يقول ابن حزم "المغارم التي كان يقبضها السلاطين فإنما كانت على الأرض خاصة فكانت (في الماضي) تقرب مما فرض عمر (ابن الخطاب) على الأرض. وأمّا اليوم (عصر الطوائف) فإنما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة"^(٥) ويؤدونها مشاهرة، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل يرسم على كلّ رأس، وعلى كلّ خلية شيء ما وقبالات ما يؤدّي على كلّ ما يباع في الأسواق"^(٦).

وزيادة على الجزية والمكوس هناك الحرابة وقطع الطرق وتعيين جباة من اليهود يذلّون المسلمين بشتى الطرق^(٧).

(١) من أبرز الأمثلة على ذلك ما فعله مظفر ومبارك العامريان أثناء حكمهما لمدينة مرسية، فقد عانت الطبقة الكادحة منهما ومن عمّالهما ظلما فظيحا حتى وصل الأمر ببعضهم إلى لبس "الجلود والحصر ويأكلون البقل والحشيش، وفرّ أكثرهم عن قراهم"، البيان ٣/٢٠٤ .

(٢) عنان : دول الطوائف، ص ٤٢١ .

(٣) القطيع : الضرائب والمكوس.

(٤) رسائل ابن حزم، تحقيق إ. عباس : ٣/١٧٥ .

(٥) القطيعة : الضريبة.

(٦) عنان : دول، ص ٤٢٢ .

(٧) رسالة التلخيص لوجوه التلخيص ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق إ. عباس : ٣/١٧٣ .

وبهذا التصرف المشين دخلت البلاد في فوضى اقتصادية، ولم يعد المجتمع يعتمد في كسبه على مبدأ الحلال والحرام، وانتقلت ظاهرة "الغاية تبرر الوسيلة" من المجال السياسي إلى المجال الاقتصادي. ففي عصر ابن زيدون وابن حزم "ليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون إليه في أقواتهم ومكاسبهم إذ كان الأغلب هو الحلال، وكان الحرام مغموراً (هذا في الماضي). وأمّا في زماننا هذا وبلادنا هذه، فإنّما هو : أغلق عينيك واضرب بيدك، ولك ما تخرجه إنّما ثمرة وإمّا جمرة. وإنّما فرقت بين زماننا هذا والزمان الذي قبله لأنّ الغارات في أيام الهدنة لم تكن غالبية ظاهرة كما هي اليوم والمغارم التي كان يقبضها السلاطين، فإنّما كانت على الأرض خاصة... وأمّا اليوم فإنّما هي جزية على رؤوس المسلمين"^(١).

وهذا الحيف الاقتصادي و الظلم الاجتماعي جعل ابن حزم يجزم مطلقاً أنه لا يعلم - لا هو ولا غيره- بالأندلس درهماً حلالاً ولا ديناراً طيباً يقطع بأنّه حلال..^(٢).

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٧٦ .

(٢) نفس المصدر السابق.

— |

| —

— |

| —

الخاتمة

عاشت الأندلس خلال القرن ٤/١٠ عهد قوّة الخلافة الأمويّة والحجابه العامريّة. وكانت الممالك النّصرانيّة في شمال شبه الجزيرة الإيبيريّة تسعى إلى كسب ودّ حاكم قرطبة القويّ وتدفع له في أغلب الأحيان، خليفة كان أو حاجبا، الجزية اتّقاء لحملاته المتتالية وغزواته المستمرّة على أراضيهم.

وانحلّ عقد الجزيرة في القرن ٥/١١ بعد سقوط الخلافة الأمويّة بقرطبة، وأصبحت الأندلس مجموعة من الدّويلات الضعيفة المتناحرة فيما بينها، واغتنم النّصارى الفرصة، فكانوا يسرعون إلى مساعدة هذا الطّرف أو ذاك إمعانا في تأجيج الفتن بينهم وسعيا إلى استمرارها.

ولم يكن لهؤلاء الأمراء من الحنكة السّياسيّة وحصافة الرّأي وبعد النّظر ما يجعلهم يَضْعُون مصلحة البلاد العليا فوق كلّ اعتبار، بل بالعكس كانت الأنانيّة المفرطة وحبّ الظّهور والتّباهي سمتهم، والانغماس في المتع والمّلذّات والإسراف في إرهاب الرّعيّة بالمكوس ديدنهم، وسنحت الفرصة للأندلس في عصر الطوائف لتتسى أحقادها، ولو إلى حين، وتللم جراحها في مناسبتين عندما اندلعت الحروب الأهليّة بين الممالك النّصرانيّة بعد موت سانشو الكبير أوّلًا، ثمّ بعد موت فرديناند الأوّل، ثانيا. لكن مع الأسف كانت هذه الحروب في الشّمال عاملا مشجّعًا لأمراء الطّوائف على مزيد التّناحر فيما بينها، لذا أُجبر أمراء الطّوائف في كثير من الأحيان على دفع الجزية في القرن ٥/١١ إلى من كان يدفعها من ملوك النصارى لحكام الأندلس في القرن ٤/١٠، لقد شغلّتهم هذه الفتن الدّاخليّة عن القيام بواجبهم لمواجهة الخطر النصراني من الشمال. وهو خطر كان يُوجّع ناره تعصّب الكنيسة الرّومانية ورجال الدّين من جهة، وتزيد العناصر الأجنبيّة القادمة من أوروبا طمعًا في خيرات بلاد الأندلس من جهة أخرى. وكانت الحروب ضدّ المسلمين في شبه الجزيرة

الإيبيرية تعتبر حروبا صليبية ترعاها الكنيسة ويساهم فيها القساوسة. وكانت انتصارات إخوانهم شرقا بالشام خير مشجع لهم على مواصلتها غربا بالأندلس.

وهكذا لم يجد المؤرخ الكبير عبد الله عنان من تشبيهه للأندلس في عصر الطوائف إلا الإمارات والجمهوريات الإيطالية في عصر الإحياء في القرنين ٨/١٤ و ٩/١٥، وكان عليه أن يعكس الآية لأن أمراء الطوائف ظهوروا في القرن ٥/١١ قبل هذه الإمارات والجمهوريات الإيطالية. وعادة ما نشبه الألق بالأسبق لا العكس. ومع ذلك تبقى وجهة نظره في غاية الوجهة، ورأيه في غاية الدقة : ففي الاثنين هناك أمراء طغاة وهناك بينهم حروب طاحنة، مرقت وحدتهم وفرقت كلمتهم وهناك استنجاذ بعضهم بالعدو الخارجي ضد بعضهم الآخر. وهناك التخاذل في الدفاع عن المصلحة العليا للبلاد، وهناك الانحلالين الديني والأخلاقي في أجلى مظاهرها. إلى جانب ذلك هناك نهضة علمية وأدبية وفنية مزدهرة يرعاها هؤلاء الأمراء بالمال الوفير وبسخاء كبير. فكانت هناك صناعة متفوقة وتجارة رائجة وفلاحة متميزة، ورخاء لطبقة منهم كانت تعيش في بذخ ومتعة واستهتار على حساب طبقة أخرى -تمثل الأغلبية- تعيش في فقر وتعاسة وحرمان.

وفعلا كانت سمة عصر ابن زيدون مجموعة من الجدليات المتناقضة :

- جدلية القوة والضعف : القوة حضارياً وفكرياً، والضعف سياسياً وعسكرياً.
 - جدلية الحمية واللامبالاة : الحمية لدى قاعدة الهرم، واللامبالاة في قمته.
 - جدلية التضحية والأنانية : التضحية من الطبقات الشعبية، والأنانية من أصحاب السلطة وصنائعهم.
 - جدلية الشجاعة والجبن : الشجاعة في قلوب المؤمنين، والجبن في نفوس المتخاذلين.
 - جدلية التقوى والتفسخ : تقوى الفقراء، وتفسخ الأثرياء.
- وقد أدت هذه الجدليات إلى تشتت سياسي وانكسار عسكري وحيث اقتصادي وانحلال أخلاقي.

ومن مزبلة هذه الجدليات نبتت وأينعت زهرة عطرة فاح عبيرها، وشجرة مثمرة أينع ثمرها : وهما زهرة الفنون والآداب وشجرة الفلسفة والعلوم، فقد فعاش في هذا العصر أمثال ابن زيدون وابن حزم وابن حيان والباجي وابن عبد البر وابن شهيد وابن ذكوان وابن سيده وابن الزرقلة.

قد يرى بعضهم أن هذه النبتة وقع بذورها منذ القرن ٤/١٠ في ظلّ خلافة بني أمية في قرطبة، لكن -والحق يُقال- وجدت هذه النبتة من أمراء الطوائف في القرن ٥/١١ عناية وحظوة ورعاية، فنمت وترعرعت في بلاطاتهم وأعطت أكلها وفاح عطرها مرّتين.

لكن لا يغيب عن أذهاننا أن ملوك الطوائف لئن رعوا وشجّعوا، وأعطوا ووهبوا، فإنّ عملهم هذا لم يكن فقط حباً في العلم والأدب، وإنّما كان هدفهم بالدرجة الأولى إضفاء الشرعية على حكمهم حتّى يتسنّى لهم حفظ سلطانهم، فينتصبوا -وما هم بأهل لذلك- على رأس الهرم حكّاماً ولمصالح الأمة حمّة، ولأركان الدين بناءة. لذا كانت جلّ الأقلام في عهدهم أبواقاً، تكتب مدحاً مزيّفاً وتعظم مجداً ضائعاً. وإذا خرج أحد الأقلام عن الطريق المحدّد، جفّ مداده وقُطع لسانه إلّا أقلام بعض العلماء الأتقياء والسنة بعض الأدباء الشرفاء، بقيت نبراساً منيراً وسيفاً مسلّطاً من أمثال المفكّر الجريء ابن حزم، والمؤرّخ الناقد ابن حيّان، والفقيه المنظر الباجي وغيرهم : لقد كان حبّهم لوطنهم قوياً ونقدهم لمجتمعهم عنيفاً، في محاولة منهم لوضع الإصبع على موطن الداء وللتعرّف على الأسباب الظاهرة والخفية التي أدّت إلى الانهيار المفاجئ والمذهل لدولة الإسلام بالأندلس في القرن ٥/١١، لقد وقع تشبيه هؤلاء المفكرين المخلصين في القرن ٥/١١ بمفكرّي إسبانيا في نهاية القرن ١٣/١٩، فقد أحبّ الطرفان وطنهم حباً قوياً ونقدوا مجتمعهم نقداً عنيفاً إثر سقوط الخلافة من جهة وإثر هزيمة إسبانيا وضياع إمبراطوريّتها من جهة أخرى. وكان من نتيجة نقد السّابقين مجيء المرابطين فخلّصوا الأندلس من أمراء السوء، ومن الخطر الرّاحف من الشّمال، وعمل اللاّحقون على وضع أسس النّهضة الفكرية والحضارية لإسبانيا المعاصرة^(١).

(١) ابن حيّان : المقتبس، مقدّمة مكّي، ص ١١٣.

هل كان ابن زيدون ضمن هذه الجماعة ؟ إنَّ ابن زيدون، لأنَّ انتمى إلى نفس الطبقة التي انتمى إليها هؤلاء المفكرّون -باستثناء الباجي-، فإنَّه لم يكن من نسيجهم في فكره وعواطفه : لقد انشغل قلبه بهواه، واحتار عقله في محنته فحاول أن يجد لنفسه خلاصاً فوجده لدى المعتضد، لكن دفع الثمن باهضاً، فقد أخرس لسانه وأسكت ضميره، وأغمض عينيه عن قضية وطنه فلا سقوط المدن أفزعه ولا ضياع الوطن تدريجياً حيّره، ولا ما كان يدور بين أمراء الطوائف من نزاع أقلقته، إذ لم نجد أيّ أثر لذلك في شعره. لقد بقي طيلة حياته يبحث عن منصب يتبوّؤه، وحبّيب يلتقي به، وروضة يتغنّى بها، وكأس يشربه، ومنافس يسخر منه ويدراً خطره عنه، وعدوّ يسعى إلى الإيقاع به ويثأر لنفسه منه. وهو لأنَّ أحبَّ بإخلاص فمسقط رأسه قرطبة، مرتع صباه وشبابه، وملتقى أصدقائه وإخوانه ورحاب لهوه وملذّاته.

المحتوى

٣	تصدير
٥	تمهيد
٧	المقدمة
٩	I - البعد الموضوعي
١٠	١- فذلكة تاريخية شرقاً وغرباً
١٢	٢- في شبه الجزيرة الإيبيرية
١٣	أ- الدّول الإسلامية
٢١	ب- الدّول النصرانية
٢٧	٣- طبقات المجتمع في شبه الجزيرة الإيبيرية
٢٧	أ- المجتمع الأندلسي
٢٨	ب- المجتمع النصراني
٣٠	٤- المستعربون
٣٢	٣٢- محطة الفتنة الكبرى
٣٢	أ- أسبابها
٤٢	ب- مراحلها
٤٣	- الفترة الأموية الأولى
٥٣	- الفترة الحمّودية
٦٠	- الفترة الأموية الثانية
٦٧	ج- نتائجها
٦٧	- التصدّع العمراني
٧٥	- التصدّع البشري
٨٨	- التصدّع الاجتماعي
٩٥	- التصدّع السياسي
١٠٤	- التصدّع الاقتصادي
١٠٧	٦- محطة التعفّن

١٠٧	أ- التعقّن داخل البلاطات
١٠٧	– بلاط إشبيلية
١٠٨	– بلاط غرناطة
١١٢	– بلاط سرقسطة
١١٨	– بلاط بطليوس ودانية
١١٩	ب- التعقّن بين البلاطات
١٢٠	الجانب السلمي
١٢٠	– التراسل
١٢١	– التزاور
١٢٢	– التصاهر
١٢٣	الجانب العدائي
١٢٣	– التنافس
١٢٤	– التناوب
١٢٦	– التحريض والغدر
١٥٢	تعلّات التعقّن
١٥٨	البعد النفسي
١٦٤	النقد السياسي
١٧٠	٧- محطّة الحرب
١٧١	أ- مملكة سرقسطة والنّصارى
١٧٢	ب- حروب أمرائها مع النّصارى
١٧٢	– مقتل يحيى بن عبد الرّحمان
١٧٢	– حروب المنذر بن يحيى مع النّصارى
١٧٣	المهادنة
١٨٣	المجابهة
١٨٧	– حروب المظفر يحيى بن المنذر

١٩٣	- حروب المقتدر بن هود
١٩٤	ج- سقوط المدن
١٩٤	- سقوط بربشتر
٢٠٠	د- مملكة بطليوس والنصارى
٢٠٠	- سقوط مدينتي مليقة وبازو
٢٠١	- سقوط قلْمَرِيَّة
٢٠٢	هـ- مملكة بلنسية
٢٠٢	- موقعة بطرنة
٢٠٥	II - البعد الذاتي
٢٠٦	١- ابن زيدون : حياته
٢١٩	٢- ابن زيدون : عائلته
٢٢٤	٣- ابن زيدون : أصدقاؤه
٢٣٠	٤- ابن زيدون : آثاره
٢٣٨	٢٣٨- ابن زيدون : محطة المحبة
٢٣٨	أ- المرأة الأندلسية
٢٣٩	- المرأة والحرية
٢٤١	- المرأة والحب
٢٤٢	- المرأة ومجالس الأنس
٢٤٣	- المرأة النموذج في الأندلس
٢٤٤	ب- ولادة
٢٤٦	ج- ولادة وابن زيدون
٢٤٨	- علاقة ولادة بابن زيدون : التسلسل الزمني
٢٤٨	- مرحلة الحب المتبادل
٢٥٢	- القطيعة
٢٥٩	- الحب من طرف واحد
٢٦٥	٦- ابن زيدون : محطة النكبة

٢٦٦	أ - التهمة الأولى
٢٨٤	ب - التهمة الثانية
٢٩١	III - البعد التقييمي
٢٩٢	١- إيجابيات عصر ابن زيدون
٢٩٢	أ - الحرية
٢٩٣	ب - الجانب العلمي
٢٩٣	- العلوم الإنسانية
٢٩٦	- العلوم الصحيحة
٣٠٠	ج - الصناعات
٣٠٠	- صناعة الورق
٣٠١	- صناعة النسيج
٣٠٢	- صناعة الزجاج
٣٠٣	- صناعة الصباغة
٣٠٥	٢- سلبيات عصر ابن زيدون
٣٠٥	أ - دموية العصر وروح الإجرام السافر
٣٠٩	ب - السياسة الانتحارية لأمرء الطوائف
٣١٠	ج - الحيف الاقتصادي أو روح البذخ المسرف
٣١١	- في المجال المعماري
٣٢٢	- نمط العيش في القصور
٣٢٣	- مصادر التمويل
٣٢٧	الخاتمة
٣٣١	المحتوى

— |

| —

— |

| —

— |

| —

— |

| —